

دراسات حول جمعية العلماء
والطرق الصوفية في الجزائر
(٣)

جوانب الخلاف بين جمعية العلماء والطرق الصوفية واسبابها

دراسة علمية

د. نور الدين أبو لحية

دراسات حول جمعية العلماء
والطرق الصوفية في الجزائر
(3)

جوانب الخلاف بين جمعية العلماء والطرق الصوفية وأسبابها

دراسة علمية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1437 هـ -2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فهرس المحتويات

مقدمة

بناء على ما سبق ذكره في الجزء السابق من تحديد التوجهات الفكرية للجمعية والطرق الصوفية وآثارها في التعامل بينهما، نحاول في هذا الجزء البحث عن أمهات القضايا التي وقع فيها الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية، والتي تجلت من خلال وسائل وأساليب التعامل بينهما.

وقد رأينا من خلال الاستقراء أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الخلاف في مفهوم البدعة وضوابطها، باعتبار أن الجمعية ترمي الطرق الصوفية وممارساتها المختلفة بالبدعة، بينما ينكر رجال الطرق ذلك، وقد رأينا أن سبب ذلك يعود إلى اختلاف مفهوم البدعة بين المدرستين الفكريتين اللتين تنتمي إليهما الجمعية والطرق الصوفية.

القسم الثاني: الخلاف فيما تعتبره الطرق الصوفية منهجا ضروريا للسلوك الروحي، من ضرورة الشيخ والبيعة والخلوة وأصناف الأذكار ونحو ذلك، وهو جميعا مما حصل الخلاف بينها وبين الجمعية بسببه.

القسم الثالث: الخلاف في العرفان الصوفي، أو ما يسمى بالتصوف الفلسفي ومنهج الوصول إليه..

وقد خصصنا كل قسم من هذه الأقسام بفصل خاص، نحاول فيه أن نبرز جوانب الخلاف وأسبابه العلمية، مع ذكر أصوله وجذوره التاريخية.

الفصل الأول

جوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية حول مفهوم البدعة وضوابطها

يعتبر الموقف من البدعة وضوابطها من نقاط الخلاف الجوهرية الكبرى بين الجمعية والطرق الصوفية، بل بين الاتجاه السلفي بمختلف مدارسه والصوفية بمختلف فرقها وطرقها ومذاهبها.

ولهذا لا يمكن فهم تفاصيل ما جرى من خلاف بين الجمعية والطرق الصوفية في الكثير من فروع المسائل قبل معرفة هذا الأصل المهم، وهو ضبط معنى البدعة وحدودها لدى كل فريق من الفريقين.

وبما أن هذه المسألة قديمة، وقد أخذت حظها من كتب الفقه والأصول والمقاصد، والجمعية والطرق الصوفية لم يقوما فيها إلا بتبني بعض الاتجاهات ونصرتها، فإنه لزاما علينا أن نعود إلى المسألة في أبوابها الخاصة بها من كتب الفقه والأصول القديمة، والتي كانت المصدر الذي من خلاله تبنت الجمعية ومثلها الطرق الصوفية ما رأته من مواقف.

ولهذا، فإنه سيغلب على هذا البحث المنهج الفقهي المقارن، أي أننا سنذكر المسألة، ونحرر النزاع فيها، ثم نذكر أدلة كل فريق، ونحاول إن رأينا الحاجة إلى بعض الترجيحات فعلنا، وإلا تركنا الأمر للقارئ يحكم في المسألة بما يشاء.

وبناء على هذا، فقد قسمنا هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

تناولنا في المبحث الأول: حقيقة البدعة وحكمها

وتناولنا في المبحث الثاني: موقف الجمعية من البدعة وأدلتها.

وتناولنا في المبحث الثالث: موقف الطرق الصوفية من البدعة وأدلتها.

المبحث الأول

حقيقة البدعة وحكمها

المطلب الأول: حقيقة البدعة:

لغة:

اسم من الابتداع، يقـال: أبـدع الشـيء يبدعـه بـدعاً، وابتدعـه: أنشأه وبدأه. والبدع والبديع: الشيء الذي يكون أولاً، وفي القـرآن الكريم: {قُـلْ مَـا كُنْتُ بِـدْعًا مِنَ الرُّسُـلِ} [الأحقـاف: 9] أي: مـا كنت أول من أرسل بل أرسـل قبلي رسـل كثـيرون، والبـديع: من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشـياءوإحداثه إياهـا، وهـو البـديع الأول قبل كل شيء. وهو الذي بدع الخلق، أي بدأه، كمـا قـال سـبحانه: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة: 117] أي خالقها ومبدعها[1].

اصطلاحا:

اختلفت تعريفات العلماء للبدعة بحسب موقفهم من تقسـيمها إلى حسنة وسيئة، وشرعية ولغوية، ولهذا سنكتفي هنا بإيراد بعض التعاريف، ونترك تفاصيل ما يرتبط بالتعريف من أحكام إلى محلـه من هذا المبحث.

عرف ابن رجب البدعة بأنّها : (ما أُحـدث ممـا لا أصـل لـه في الشريعة يدّل عليه، أمـا مـا كـان لـه أصـل من الشـرع يـدّل عليـه فليس ببدعة شرعاً وإنْ كان بدعة لغةً)[2]

وعرفها ابن حجر العسقلاني بأنها (مـا أُحـدث وليس لـه أصـل في الشرع، ويسمّى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس ببدعة)[3]

وعرفهـا ابن حجـر الهيثمي بأنهـا (مـا أُحـدث على خلاف أمـر الشرع ودليله الخاص أو العام)[4]

المطلب الثاني: حكم البدعة:

اختلــف الفقهــاء في حكم البدعــة إلى اتجــاهين متناقضــين، أحدهما متشدد يرى أن كل البدع سيئة مذمومة محرمة، والفريــق الثاني متساهل، يرى أنه تنطبق عليها الأحكام الشرعية جميعـا من الإباحة والحرمة والكراهة والندب، بل والوجوب.

وبما أن مواقف الجمعيـة والطـرق الصـوفية لا تعـدو أن تكـون اختيارا ونصرة لأحد هذين الاتجاهين، فإن المنهج العلمي يلزمنا أن

[1] انظر: لسان العرب، لابن منظور 8 : 6 مادة (بدع)

[2] ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، طبع الهند، ص 160.

[3] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 17 : 9.

[4] ابن حجر الهيتمي، التبيين بشرح الاربعين، ص 221.

نبحث في جذور الخلاف في هذه المسألة لدى الفريقين.

الفريق الأول: المتشددون

ويمثله ـ كما ذكرنا ـــ الشاطبي خاصة في كتابه الاعتصام، والذي عرف البدعة بأنها (طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه)[1]

وبين أن اسم البدعة لا ينطبق إلا على ما يرتبط بالدين، يقول في ذلك: (وإنما قيدت بالدين، لأنها فيه تخترع وإليه يضيفها صاحبها. وأيضاً فلو كانت طريقة مخترعة في الدنيا على الخصوص لم تسمَّ بدعة، كإحداث الصنائع والبلدان التي لاعهد بها فيما تقدم)[2]

ثم بين خروج الكثير من العلوم الحادثة في الملة من مسمى البدعة باعتبار أن لها أصولا سابقة في الشريعة، وكأنه يرد بذلك على الاتجاه الآخر، والذي يعتبر تلك العلوم من البدع المستحسنة أو الواجبة، يقول الشاطبي: (ولما كانت الطرائق في الدين تنقسم، فمنها ماله أصل في الشريعة، ومنها ما ليس له أصل فيها، خُصَّ منها ما هو المقصود بالحد، وهو القسم المخترع، أي : طريقة ابتدعت على غير مثال تقدمها من الشارع... وبهذا القيد انفصلت عن كل ما ظهر لبادي الرأي أنه مخترع مما هو متعلق بالدين، كعلم النحو والتصريف ومفردات اللغة وأصول الفقه وأصول الدين، وسائر العلوم الخادمة للشريعة)[3]

وعلل ذلك بقوله: (فإنها وإن لم توجد في الزمان الأول فأصولها موجودة في الشرع، إذ الأمر بإعراب القرآن منقول، وعلوم اللسان هادية للصواب في الكتاب والسنة، فحقيقتها إذاً أنها فقه التعبد بالألفاظ الشرعية الدالة على معانيها كيف تؤخذ وتؤدى، وأصول الفقه إنما معناها: استقراء كليات الأدلة حتى تكون عند المجتهد نصب عين وعند الطالب سهلة الملتمس) [4]

وإلى هنا نرى اتفاق كلا الاتجاهين على مشروعية كل ما أحدث في أمور الدنيا، أو أمور الدين مما له أصل في الشريعة على

---

[1] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، (1/ 37)

[2] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، (1/ 37)

[3] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، (1/ 37)

[4] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، (1/ 37)

اختلاف في التسمية، فالشاطبي لا يعتبرها بدعة مطلقا، بينما يراها أصحاب الاتجاه الأول بدعا مستحسنة.

ونقطة الخلاف تبدأ، وربما تنتهي في القيد الذي أطلق عليه الشاطبي (مضاهاة الشرعية)، قال الشاطبي شارحا لهذا القيد: (وقوله: تضاهي الشرعية، يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة: منها : التزام الكيفيات والهيئات المعينة، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيداً، وما أشبه ذلك.. ومنها التزام العبادات المعينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة، كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته..)[1]

فالشاطبي ومدرسته يعتبر كل ما لم يرد في النصوص من أمور العبادات بدعة، حتى لو كان له أصل في الشريعة إذا لم ترد النصوص بفعله من النبي ﷺ أو السلف الصالح، وهي نقطة الخلاف بينه وبين الاتجاه الآخر.

فالاتجاه الآخر - مثلا- لا يرى حرجا في الذكر الجماعي بصوت واحد ما دام يدخل في أصل الذكر الذي ورد في النصوص الحث عليه من غير تقييد له بكيفية ولا هيئة.

بينما يرى هذا الاتجاه أنه ما دام لم يرد في النصوص أن الرسول ﷺ فعله، أو السلف الصالح فعلوه، فإنه بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ويرى الشاطبي أن العلة الدافعة إلى هذه المضاهاة هو (المبالغة في التعبد لله تعالى.. فكأن المبتدع رأى أن المقصود هذا المعنى، ولم يتبين له أن ما وضعه الشارع فيه من القوانين والحدود كافٍ)[2]

والدافع النفسي لذلك بالإضافة إلى المضاهاة - كما يرى الشاطبي - هو ملل النفوس من العبادات والشرائع المضبوطة وطلبها للجديد، يقول في ذلك: (وأيضاً فإن النفوس قد تمل وتسأم من الدوام على العبادات المرتبة، فإذا جدد لها أمر لا تعهده، حصل لها نشاط آخر لايكون لها مع البقاء على الأمر الأول. ولذلك قالوا: (لكل جديد لذة بحكم هذا المعنى)، كمن قال

---

[1] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، (1/ 38)

[2] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، (1/ 40)

(تحـدث للنـاس أقضـية بقـدر مـا أحـدثوا من الفجـور) فكـذلك (تحدث لهم مرغبات في الخير بقدر ما حدث لهم من الفتور) [1]

وبناء على هذا أنكـر الشـاطبي تقسـيم البـدع واعتـبر أن (هـذا التقسيم أمر مخترع لا يدل عليه دليل شرعي، بـل هـو في نفسـه متدافع ؛ لأن من حقيقة البدعة أن لا يدل عليها دليل شرعي لا من نصـوص الشـرع ولا من قواعـده، إذ لـو كـان هنالـك مـا يـدل من الشـرع على وجـوب أو نـدب أو إباحـة لَمَـا كـان ثَمّ بدعـة ولكـان العمـل داخلاً في عمـوم الأعمـال المـأمور بـها أو المُخيَّر فيهـا. فالجمع بين تلك الأشياء بدعاً وبين كون الأدلة تدل على وجوبـها أو ندبها أو إباحتها : جمع بين متنافيين) [2]

ونحب أن نـبين أن هـذا الموقـف المتشـدد من البـدع انتهجتـه مدرسـتان فقهيتـان قـديمتان، همـا مدرسـة المالكيـة ومدرسـة الحنابلـة، فقـد كـان لكليهمـا موقـف متشـدد من المحـدثات بغض النظر عما يدل عليها من النصوص.

ولهذا نرى الإمام مالك يعتمد عمـل أهـل المدينـة، وكأنـه يـرى بذلك عصـمة السـلف الـذين مثلهم أهـل المدينـة حسـب تصـوره، ولعل خير مثـال يـدل على هـذا موقفـه من التثـويب[3] في الأذان، فقد روى محمد بن وضاح قال : ثوب المـؤذن بالمدينـة في زمـان مالك، فأرسل إليه مالك، فجاءه، فقـال لـه مالـك : مـا هـذا الـذي تفعل ؟ قال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر فيقومـوا فقـال لـه مالـك لا تفعـل لا تحـدث في بلـدنا شـيئا لم يكن فيـه قـد كـان

---

[1] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، (1/ 41)

[2] أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، (1/ 191)

[3] التثويب عند الفقهاء: هو أن يقول المؤذن في أذان الصبح بعد قوله: "حي على الفلاح": "الصلاة خير من النوم" مرتين، وسمي تثويبـا، لأن الـؤذن دعـا إلى الصـلاة أولا بقولـه: "حَيَّ عَلَى الصَّـــلاَةِ حَيَّ عَلَى الصَّـــلاَةِ"، ثم دعـــا إلى الفلاح بقولـــه: "حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ، حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ"، ثم عاد للدعاء إلى الصلاة: "الصَّلاَةُ خَيرٌ مِن النَّومِ، الصَّـلاَةُ خَـيرٌ مِن النَّومِ"، ويطلـق التثويب أيضا على الإقامة، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم قال: ((إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ أَدبَرَ الشَّيطَانُ لَهُ ضُـرَاطٌ، حَتَّى لاَ يَسـمَعَ التَّأذِينَ، فَـإِذَا قُضِـيَ التَّأذِينُ أَقَبَلَ، حتى إذا ثوّب بالصلاة أدبر حَتَّى إذَا قضي التثويب أقبل، حتى يخطـر بين المـر ونفسـه، يقول له: "اذكر كذا، واذكر كذا"، لما لم يكن من قبل، حتّى يظل الرّجل ما يدري كم صلّى)) (البخاري (2/101)، ومسلم (1/291)

رسول الله ﷺ بهذا البلد عشر سنين وأبو بكر وعمـر وعثمـان فلم يفعلوا هذا، فلا تحدث في بلدنا ما لم يكن فيه. فكـف المـؤذن عن ذلـك وأقـام زمانـا، ثم إنـه تنحنح في المنـارة عنـد طلـوع الفجـر، فأرسل إليه مالك فقال له : ما هـذا الـذي تفعـل ؟ قـال أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر. فقـال لـه مالـك : ألم أنهـك ألا تحـدث عنـدنا مـا لم يكن ؟ فقـال : إنمـا نهيتـني عن التثـويب، فقـال لـه مالك : لا تفعـل، لا تحـدث في بلـدنا مـا لم يكن فيـه. فكـف أيضـا زمانا، ثم جعل يضرب الأبواب، فأرسل مالك إليه فقال له : ما هذا الذي تفعل ؟ قال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر، فقـال لـه مالك : لا تفعل، لا تحدث في بلدنا ما لم يكن فيه)[1]

فهذا النص يبين شدة الإمام مالك عن كل محدث حتى لو كـان معقول المعنى، ولهذا روى عنه ابن الماجشـون قولـه: (من ابتـدع في الإسلام بدعة يراها حسـنة زعم أن محمـداً ﷺ خـان الرسـالة، لأن الله يقول: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [المائدة: 3] ، فمـا لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً)[2]

وهو الذي كان يقول: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صـلح بـه أولها، فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا)[3]

ولهذا نرى أن لتبني الجمعية لمذهب الإمام مالك تأثيره الكبـير في موقفها من الطرق الصـوفية، ولهـذا تسـتند إلى منهجـه كثـيرا في الرد عليها، وقد ورد في بعض ردود ابن باديس على بعضهم: (ثم يقـول (نحن مـالكيون) ومن ينـازع في هـذا ومـا يقـرئ علمـاء الجمعيـة الا فقـه مالـك ويـاليت النـاس كـانوا مالكيـة حقيقـة اذا لطرحوا كل بدعة وضلالة فقد كان مالك كثيرا ما ينشد :

وخـــير الأمـــور مـــا كـــان ســـنة   وشـــر الأمـــور المحـــدثات البـــدائع) [4]

بالإضافة إلى المدرسة المالكية نرى المدرسة الحنبليـة، وخـير من يمثلها في الموقف من البدع الشيخ ابن تيمية الـذي رد بشـدة

---

[1] الاعتصام ـ للشاطبى (2/ 69)

[2] الاعتصام (1/ 49)

[3] انظر : العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، الشـفا بتعريـف حقـوق المصـطفى - مـذيلا بالحاشـية المسـماة مزيـل الخفـاء عن ألفـاظ الشـفاء، دار الفكـر الطباعـة والنشـر والتوزيع، ج 2، ص 88.

[4] آثار ابن باديس: 2 /238.

على من يرى تقسـيم البدعـة إلى حسـنة وسـيئة، يقـول في ذلـك (واعلم أن هـذه القاعـدة، وهي : الاسـتدلال بكـون الشـيء بدعـة على كراهته، قاعدة عامة عظيمة، وتمامها بالجواب عما يعارضـها، وذلك أن من الناس من يقول :البدع تنقسم إلى قسـمين : حسـنة وقبيحة.. والجواب : أما القول : إن شر الأمور محدثاتـها، وإن كـل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، والتحذير من الأمور المحـدثات: فهذا نص رسول اللـه ﷺ، فلا يَحِـل لأحـد أن يـدفع دلالتـه على ذم البدع، ومن نازع في دلالته فهو مراغم)[1]

الفريق الثاني: المتساهلون

ويرى هذا الفريق أنه ليست كـل البـدع محرمـة، وإنمـا تنطبـق عليها الأحكام الشرعية الخمسة، وقد اشتهر بهـذا القـول العـز بن عبد السلام، كما اشـتهر بـالقول الآخـر الشـاطبي، ولكن الحقيقـة التاريخيــة تــبين أن المســألة قديمــة، وأن تقســيم البدعــة إلى مستحسن ومستهجن بدأ من السلف الأول، بل من جيل الصــحابة أنفسهم.

فقد روي أن عمر بن الخطاب اعتبر صلاة التراويح بدعة، ومــع ذلك أقرها، بل أثنى عليها، ففي الحديث عن عبد الرحمن بن عبــد القاري أنه قال : خرجت مـع عمـر بن الخطـاب ليلـة في رمضـان إلى المسجد، فإذا النـاس أوزاع متفرقـون يصـلي الرجـل لنفسـه، ويصلي الرجل فيصلي بصـلاته الرهـط، فقـال عمـر : إني أرى لـو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثـل، ثم عـزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه ليلـة أخـرى والنـاس يصـلون بصـلاة قارئهم، قال عمر: (نعمت البدعة هذه والتي ينامون عنهـا أفضـل من التي يقومون) يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله[2].

وروي عن ابن عمـر مثلـه في صـلاة الضـحى، فقـد روي عن الأعرج قال : سـألت ابن عمـر عن صـلاة الضـحى فقـال : بدعـة، ونعمت البدعة، وقد قال تعـالى حاكيـاً عن أهـل الكتـاب: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَـاءَ رِضْـوَانِ اللَّهِ فَمَـا رَعَوْهَـا حَـقَّ رِعَايَتِهَا } [الحديد: 27][3]

بل إن الفقهاء الكبار قسموا البدع هذا التقسيم، فقـد روي عن

---

[1] الاقتضاء، (2/87).

[2] صحيح البخاري (3/ 58)

[3] ابن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، الدار السلفية الهندية، (2/ 405)

الشافعي أنه قال: (البدعة بدعتان : بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم)[1]

وقال ابن حزم: (البدعة في الدين كل ما لم يأت في القرآن، ولا عن رسول الله ﷺ إلا أن منها ما يُؤجر عليه صاحبه، ويعذر بما قصد إليه من الخير، ومنها ما يؤجر عليه ويكون حسناً، وهو ما كان أصله الإباحة، كما روي عن عمر : (نعمتِ البدعة هذه)، وهو ما كان فعل خير وجاء النص بعمومه استحباباً، وإن لم يقرر عمله في النص، ومنها ما يكون مذموماً ولا يعذر صاحبه، وهو ما قامت الحجة على فساده فتمادى القائل به)[2]

وقال أبو حامد الغزالي: (وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس كل ما أبدع منهياً عنه، بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب)[3]

وقال ابن الأثير: (البدعة بدعتان : بدعة هدى، وبدعة ضلال. فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ فهو في حَيِّز الذم والإنكار، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ عليه الله ورسوله : فهو في حَيِّز المدح)[4]

ولكن الذي نظر لهذا، ودافع عنه، حتى اشتهر به هو العز بن عبد السلام، فقد قال في كتابه الذي خصصه لمقاصد الشريعة، وسماه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام): (البدعة فعل ما لم يُعْهَد في عصر رسول الله ﷺ وهي منقسمة إلى : بدعة واجبة وبدعة مُحَرَّمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة. والطريق في معرفة ذلك أن تُعْرَض البدعة على قواعد الشريعة : فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، وإن دخلت في قواعد التحريم فهي مُحَرَّمة، وإن دخلت في قواعد المندوب فهي مندوبة، وإن دخلت في قواعد المكروه فهي مكروهة، وإن دخلت

---

[1] أبو نعيم، حلية الأولياء، (9/113)

[2] ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (1/ 47)

[3] إحياء علوم الدين (2/ 3)

[4] المبارك بن محمد الجزري بن الاثير مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث، المكتبة الإسلامية، (1/106)

في قواعد المباح فهي مباحة)[1]

وتبعه على هذا الكثير من الفقهاء الذين انتشرت كتبهم ودرست في المدارس الإسلامية فترة طويلة، كالإمام النووي[2]، والحافظ ابن حجر[3].

بل إن الكثير ممن كتب في ذم البدع ذهب إلى هذا الرأي:

فأبو شامة في كتابه (الباعث على إنكار البدع والحوادث) يقول: (ثم الحوادث منقسمة إلى بدع مستحسنة، وبدع مستقبحة)[4]

ومن المتأخرين الشيخ عبد الله الصديق الغماري، فقد قال في كتابه (القول المبين): (قَسّم عز الدين بن عبد السلام في قواعده الكبرى البدعة باعتبار استعمالها على المصلحة والمفسدة، أو خُلُوّها عنهما إلى أقسام الحكم الخمسة : الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة، ومَثّل لكل قسم منها، وذكر ما يشهد له من قواعد الشريعة. وكلامه في ذلك كلام ناقد بصير، أحاط خُبْراً بالقواعد الفقهية، وعرف المصالح والمفاسد التي اعتبرها الشارع في ترتيب الأحكام على وفقها. ومن مثل سلطان العلماء في معرفة ذلك ؟ فجاء تقسيمه للبدعة مؤسساً على أساس من الفقه وقواعدِهِ متين؛ ولذا وافقه عليه الإمام النووي والحافظ ابن حجر وجمهور العلماء تَلقّوا كلامه بالقبول، ورأوا أن العمل به متعين في النوازل والوقائع التي تحدث مع تطور الزمان وأهله، حتى جاء صاحب (الاعتصام) فخرج عن جمهرة العلماء، وشَذّ

---

[1] أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميد الشنقيطي، دار المعارف، بيروت – لبنان، (2/ 172)

[2] قال النووي في (شرح النووي على مسلم (3/ـ 247): (قال العلماء : البدعة خمسة أقسام : واجبة ومندوبة ومحَرَّمة ومكروهة ومباحة).

[3] قال في فتح الباري: (التحقيق : أن البدعة إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع هي مستقبحة، وإلا فهي من قسم المباح) (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379، 4/253)

[4] عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، الباعث على إنكار البدع والحوادث، دار الهدى – القاهرة، الطبعة الأولى، 1398 – 1978، ص22.

بإنكار هذا التقسيم فَبَرْهَن بـهذا الإنكار على أنـه بعيـد عن معرفـة الفقه، بعيد عن قواعده المبنيَّة على المصالح والمفاسـد لا يعـرف ما فيه مصلحة فيطلب تحصيلها بفعله، ولا يَـدْري مـا فيـه مفسـدة فيطلب اجتنابـها بتركه ولا ما خلا عنهمـا فيجـوز فعلـه وتركـه على السواء. وأخيراً برهـن على أنه لم يَتَذوَّق علم الأصول تذوقاً يمكّنه من معرفة وجوه الاستنباط، وكيفية استعمالها، والتصرف فيها بمـا يناسب الوقائع، وإن كان له في الأصـول كتـاب (الموافقـات) فهـو كتاب قليل الجدوى، عديم الفائدة، وإنما هو بارع في النحو له فيـه شرح على ألفية ابن مالك في أربعة مجلدات دَلَّ على مقدرته في علم العربية، على أنا وإن كنا نعلم أن للشاطبي دراية بعلم أصـول الفقه على سبيل المشاركة : فلا نشك في أن سلطان العلماء فيه أمكن، وعلمه بقواعده أتم، وقواعده الكبرى خير شاهد على ذلك) (1)

ومنهم – كـذلك – الشـيخ محمـد الطـاهر بن عاشـور شـيخ المقاصد ومعلمها في هذا العصر، والـذي تتلمـذ عليـه الشـيخ عبـد الحميد بن باديس، فهو من القائلين بانقسام البدع، وقد حصل بينه وبين ابن بـاديس خلاف شـديد في هـذا، رأينـا بعض صـوره عنـد الحديث عن الاتجاه الفكري للجمعية.

المبحث الثاني

موقف الجمعية من البدعة وأدلتها.

بنـاء على مـا سـبق إثباتـه من أن جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين انتهجت المنهج السـلفي بمدرسـتيه المحافظـة والتنويرية، وبناء على تبنيها لمنهج الإمـام مالك في مواجهـة جميـع المحدثات، فإنه من البديهي أن تختـار الاتجـاه الـذي يـرى أن كـل البدع ضـلالة، وأنـه لا صـحة لتقسـيمها لمقبولـة ومرفوضـة، وهـذا الرأي – كما عرفنا- هو الرأي الذي اشتهر به الشاطبي، واشتهر به كتابه (الاعتصام)، والذي كـانت توليـه الجمعيـة عنايـة خاصـة، كمـا كان يوليه الاتجاه السلفي بفرعيه المحافظ والتنويري.

وسنحاول في هذا المبحث أن نبين موقف الجمعيـة من تحديـد

---

(1) عبد الله بن الصديق الحسني الغماري، الرد المحكم المتين على كتـاب القـول المـبين، مطبعة العهد الجديد، الطبعة الثانية، سنة 1374 هـ - 1955 م، ص 107.

مفهوم البدعة، وأنواعها، وضوابطها، ثم نذكر الأدلة على ما ذهبت إليه من ذلك مع ذكر مناقشات المخالفين لها.

المطلب الأول: حقيقة البدعة عند الجمعية:

يعرف ابن باديس البدعة بأنها (كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي ﷺ فعله وكل بدعة ضلالة)[1]

ويقول في موضع آخر: (من أبين المخالفة عن أمره ﷺ وأقبحها الزيادة في العبادة التي يتعبد الله بها على ما مضى من سنته فيها واحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرت عليه ولم يتعبد بمثل ذلك فيها وكلا هذين زيادة واحداث مذموم يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى الى طاعة لم يهتد اليها رسول الله ﷺ وسبق الى فضيلة قصر رسول الله ﷺ عنها وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء ودع ما يجر اليه من بلايا أخرى)[2]

ويضرب الأمثلة على ذلك، وهي أمثلة تقترب كثيرا من الأمثلة التي تذكرها السلفية المحافظة، بل كما يذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب خصوصا، يقول في الآثار: (من الناس من يخترع أعمالا من عند نفسه ويتقرب بها الى الله مثل ما اخترع المشركون عبادة الاوثان بدعائها والذبح عليها والخضوع لديها وانتظار قضاء الحوائج منها وهم يعلمون أنها مخلوقة مملوكة له وانما يعبدونها-كما قالوا-لتقربهم الى الله زلفى.... وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها فكل هذه اختراعات فاسدة ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد ﷺ وأصحابه من بعده فساعيها موزور غير مشكور)[3]

وهذا النوع من الأعمال هو ما اصطلح عليه التيار السلفي بالبدع الحقيقية.

وهناك نوع آخر يطلقون عليه (البدع الإضافية)، ويريدون به تقييد ما ورد من الشعائر التعبدية بمواقيت أو أعداد ونحوها، وقد تحدث ابن باديس كذلك عن هذا النوع واعتبره من بدع الضلالة

---

[1] آثار ابن باديس، 5/154.

[2] آثار ابن باديس، 1/224.

[3] الآثار (87/1.

مخالفا بذلك أصحاب الفريق الأول الذي يرى أن هذا الصنف لا يشمله وصف الضلالة وإن شمله وصف البدعة، يقول في بيان ذلك: (إن ما ورد من العبادة مقيدا بقيده يلتزم قيده وما ورد منها مطلقا يلتزم اطلاقه فالآتي بالعبادة المقيدة دون قيدها مخالف لأمر الشرع ووضعه والآتي بالعبادة المطلقة ملتزما فيها ما جعله بالتزامه كالقيد مخالف كذلك لأمر الشرع ووضعه وهو أصل في جميع العبادات)[1]

بل إن الأمر وصل بالشيخ ابن باديس إلى التشدد حتى في ما ورد في الشرع إطلاقه من كل قيد، وهو مما لم يقل به حتى بعض من ينتمي إلى التيار السلفي المحافظ، يقول في ذلك: (وكذلك التزامها في وقت مخصوص بشكل مخصوص كما تلتزم الطاعات التي فرضها الشارع وجعل لها أوقاتا، فان هذا ليس مما يتسع له صدر الدين ولا مما كان في عهد السلف الصالحين ولاسيما مع التكلف الذي كثر من يرتكبه بالزام وبغير الزام)[2]

وهو يفرق في هذا بين العبادات والمعاملات، يقول في ذلك: (ما يجري به عمل الناس ينقسم الى قسمين قسم المعاملات وقسم العبادات، وقسم المعاملات هو الذي يتسع النظر فيه للمصلحة والقياس والأعراف وهو الذي تجب توسعته على الناس بسعة مدارك الفقه وأقوال الأئمة والاعتبارات المتقدمة وفي هذا القسم جاء كلام أبي سعيد هذا وغيره وفيه نقله الفقهاء أو ما تراه كيف يعبر بالعرف والعادة ؟ وأما قسم العبادات فانه محدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه فلا يقبل منه إلا ما ثبت عن النبي ﷺ فلا يتقرب الا بما تقرب به وعلى الوجه الذي كان تقربه به ومن نقص فقد أخل ومن زاد فقد ابتدع وشرع وذلك هو الظلام والضلال)[3]

المطلب الثاني: أدلة الجمعية على موقفها من البدعة:

كما اهتمت الجمعية بالتشدد مع ما تراه من البدع، اهتمت كذلك ببيان ما تستند إليه من مصادر وأدلة على ذلك، وهي لا تعدو الأدلة التي ذكرها الشاطبي في الاعتصام، فهو الكتاب الذي نال

---

[1] الآثار (2/57.

[2] الآثار: 3/235.

[3] آثار ابن باديس: 3/248.

عنـدها أهميـة قصـوى، بـل نـرى البشـير الإبـراهيمي ينتصـر لهـذا الكتاب، ويعتبره أكمل كتاب في تحرير معنى البدعة والسنة، ففي رسالة خطية بعث بهـا الإبـراهيمي - وهـو بمنفـاه بــ(آفْلُـو) - إلى تلميذه الشيخ أحمد بن أبي زيـد قصـيبة الأغـواطي... وفي طياتهـا يجيبه طلبه؛ حيث سأله أن يذكر له جملة من الكتب الأصول، قـال الإبــراهيمي بعــدما ذكــر مجموعــة من كتب الأدب واللغــة، وكتب السيرة وغيرها: (كتاب الاعتصام للشاطبي. وهو أكمـل كتـاب في تحرير معنى البدعة والسنة)

ونرى كذلك الشـيخ زموشي يقـوم بتلخيص أهم مبـاحث كتـاب (الاعتصام)، بأسلوب سهل مبسـط، وينشـره في (الشـهاب) تحت عنوان: (بحثٌ في البدعة)[1]

وقد بدأ بحثه بذكر تقسيم العز بن عبد السلام للبدع، وتفاصـيل ذلك، ثم رد الشـاطبي عليـه، وهـو يـدل على أن الجمعيـة مطلعـة تمامــا على مــا ذكــره العــز، وأنهــا اختــارت عن قناعــة مــذهب الشاطبي.

بعد هذا، ومن خلال ما ذكرناه من مصادر نستطيع تصنيف أدلة الجمعية على هذا الموقف إلى الأدلة التالي:

النصوص الدالة على كمال الدين:

وعلى رأس هـذه النصـوص قولـه تعـالى: {الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة: 3]، فالآيـة الكريمـة – كمـا هـو واضـح- تـدل على تمـامِ الشـريعة وكمالها، وكفايتها لكل ما يحتاجه الخلق.

وقد استدل بالآية الشيخ عبد الحميد بن بـاديس على ذم البـدع مطلقا، فقـد قـال في معـرض رده على الشـيخ ابن عاشـور: (إن من ابتدع مثل هذه البدعة التي هي تقرب فيما لم يكن قربة كأنــه يرى أن طاعة لله بقيت تنقص هذه الشــريعة فهــو يســتدركها وأن محمدا ﷺ خفيت عليه قربة هو اهتدى إليها أو لم تخف عليه ولكنه كتمها. وهذه كلها مهلكات لصاحبيها فلا يكـون مـا أوقعـه فيهـا من ابتداع تلك الـتي يحسـبها قربـة إلا محرمـا. وقـد قـال مالـك فيمـا سـمعه من ابن الماجشـون: (من ابتـدع في الإسـلام بدعـة يراهـا حسنة فقـد زعم أن محمـدا- صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم- خـان الرسالة لأن الله يقول: : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [المائدة: 3]

---

[1]) الشهاب"،س4، العدد (164)، 6ربيع الثاني1347هـ -20سبتامبر1928،(ص:6-10)

فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا)[1]

كما استدل بالآية كل من ذهب إلى ذم البدع بجميع أنواعها، يقول الشوكاني في (القول المفيد) في معرض مناقشته لبعض من يتصورهم مبتدعة: (فإذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه ﷺ فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه؟! إن كان من الدين في اعتقادهم؛ فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم وهذا فيه رد للقرآن! وإن لم يكن من الدين؛ فأي فائدة في الاشتغال بما ليس من الدين؟! وهذه حجة قاهرة، ودليل عظيم، لا يمكن لصاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبداً، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي،وترغم به آنافهم وتدحض به حججهم)[2]

ويقول الشاطبي: (إن المستحسِن للبدعِ يلزمه عادة أن يكون الشرع عنده لم يكمل بعد، فلا يكون لقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [المائدة: 3] معنى يعتبر به عندهم)[3]

وقد أجاب على هذا الاستدلال الشيح ابن عليوة بتفصيل في رسالة كتب بها لبعض المخالفين، وهي رسالة مهمة جدا ترقى إلى مستوى المناقشات العلمية الهادفة المحترمة، ونحاول هنا باختصار عرض هذه الرسالة، ووجوه الاستدلال فيها.

بدأ الشيخ ابن عليوة مخاطبة المخالف له وللصوفية من غير أن يحدد من هو المخالف، بقوله: (أراني ملزما يا حضرة الأخ بذكر أمر طالما تردّد ذكره في مكاتباتكم، كمكاتبات غيركم من بعض كتّاب العصر، وقد جئتم به في هذا الكتاب الأخير أيضا بقصد الاستدلال على محدثات المتصوّفة، وأنّها ليست من الدين في شيء، وأكبر عمدتكم في ذلك قوله تعالى : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [المائدة: 3] ، تريدون بذلك أنّ ما لم يكن دينا في ذلك الحين، ليس هو بدين من بعد)[4]

وبعد هذه المقدمة بدأ الشيخ في عرض الأدلة التي ترد على

---

[1] في الآثار (3/79).

[2] محمد بن علي بن محمد الشوكاني، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، دار القلم – الكويت، الطبعة الأولى، 1396، ص38.

[3] الاعتصام ـ للشاطبى موافق للمطبوع (1/ 111)

[4] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص138.

من يعتبر الآية دليلا على كون محدثات الصوفية بدعة، وأنها بدعة ضلالة، وهو يعتمد في ذلك على منهج إلزام الآخر بلوازم قوله، وهذه اللوازم تتدرج من إنكار جميع اجتهادات المجتهدين إلى إنكار أحاديث رسول الله ﷺ نفسه التي قالها بعد نزول الآية الكريمة، بل إلى إنكار ما ورد في القرآن الكريم من الأحكام بعد نزول الآية، أو ما هو قبل ذلك مما نجهل تاريخ نزوله.

أما بالنسبة للزوم إنكار جميع اجتهادات المجتهدين في جميع فروع الدين، فالأمر فيها واضح ذلك أن نصوص الكتاب والسنة لم تحط بتفاصيل الفروع، بل اقتصرت على أصول المسائل وطرق الاستنباط وكثير من الجزئيات، وتركت لأهل العلم – بعد ذلك - أن يستنبطوا من النصوص ما يحقق المقاصد الشرعية التي جاءت النصوص لتقريرها، يقول الشيخ ابن عليوة في ذلك: (وهذا شيء جميل، لو يقع تسلّطه على إخراج ما أحدثه المتصوّفة من وظائف الأذكار وغيرها، لكن بعيد أن يستقيم لنا ذلك، إلاّ إذا أخرجت معه سائر اجتهادات المجتهدين وأقوال العلماء العاملين، ولا شكّ أنّه قضاء مبرم على سائر الأحكام الشرعيّة، المقرّرة من طريق الاجتهاد، والحكم عليها بأنّها ليست من الدين، بدعوى أنّها جاءت بعد كمال الدين وإتمام نعمته على المسلمين المفهومات من صحيح الآية، ولا شكّ أنّ مقالتك هذه تنتج لنا من الاعتقاد ما لا تقول به أية فرقة من فرق الإسلام المنحرفة، فضلا عن أهل السنّة المتبوعة الذين أنت من أفرادهم)[1]

بالإضافة إلى هذا يذكر الشيخ ابن عليوة أن ما أحدثه الصوفية من وظائف الأذكار، والتقييدات في الأعداد قليل أمام ما أسسه المجتهدون من الأحكام وقنّنوه من القوانين.. فإن (المجتهدين حلّلوا وحرّموا وأوجبوا وندبوا، الأمر الذي لا يذكر أمامه ما أحدثه القوم من القوانين)[2]

وهكذا الأمر بالنسبة لاجتهادات الصحابة الذين نزلت الآية بين أظهرهم، وهم أدرى بتفسيرها، فإن القول بكمال الدين بعد نزول الآية ينفي جميع ما اجتهدوا فيه، بل يجعلهم مبتدعين بذلك بدع

[1] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص138.

[2] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص138.

ضلالة، يقول الشيخ ابن عليوة في بيـان ذلـك: (وزيـادة على هـذا إنّ الأمـر لا يقـف عنـد هـذا الحـدّ بـل يتعـدى إلى سـائر الأحكـام المستفادة من أقوال الصحابة والتابعين، وحـتى المنصـوص عليهـا من أعمال الخلفاء الراشدين، على أنّ جميعها جاء بعد نزول الآيـة الكريمـة، فلا تفوتـك يـا حضـرة الشـيخ تلـك النـوازل على صـلاة التراويح بالمسجد لم يقرر العمل به إلاّ في خلافة عمر بـأمر منـه، وكـان الحـال في عصـر النـبيّ ﷺ على خلاف ذلـك، وأنّ الطلاق الثلاث دفعـة واحـدة، كـان على عهـد النـبيّ ﷺ، وخلافـة أبي بكـر، وطرف من خلافة عمر يعتبر طلقة واحدة، ثم بدا لهـذا الأخـير أن يعتبره ثلاثا باتا، فنجد رأيه في ذلك، ووافقه عليه الصحابة رضـوان اللـه عليهم، وهـا هـو الآن يجـري عليـه العمـل!، وأنّ حـدّ شـارب الخمر، كان في عهـد النـبيّ ﷺ، وخلافـة أبي بكـر مقيّـدا بـأربعين جلدة، وزاد فيه عمر إلى الثمانين، وعلى ذلك جرى العمل، وقس على ذلك بقيّة النـوازل، والحالـة أنّ جميـع ذلـك بعـد نـزول الآيـة الكريمة، فهل يتسنى لكم القول بأنّ ذلك ليس من الـدين ؟ ! كلا، لا تطاوعك نفسك، ولا نفس أي مؤمن يشبه ذلك القول)[1]

وهكذا الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية الشريفة التي وردت بعـد نزول الآية الكريمة مع تضمنها لأحكام وتكاليف شرعية، يقـول ابن عليوة: (وفي ظنّي أنّك تدرك كـون الأمـر لا يقـف عنـد هـذا الحـدّ أيضا، بل يتعدّاه إلى سائر الحكام المستفادة من الأحاديث النبويّة، التي جاءت بعد نزول الآية، أعني بعد كمال الـدين وإتمـام النعمـة، فوجودها مساو لوجود غيرها بالنظر لمقتضى الآية)[2]

بل إنه يستلزم من هذا مـا هـو أخطـر من مجـرد رد الأحـاديث التي وردت بعد نزول الآية الكريمة، ذلك أنه (مهما اعتبرنا ما جــاء من الأحاديث، عقب تلك الآية، لا يصحّ الاحتجاج بـه لزمنـا التوقـف في عموم الأحاديث التي نجهل تاريخ وقوعها، وهي ليسـت بقليلـة العدد، نفعل ذلك لئلا ندين للـه بغـير دينـه المختم بقولـه : {الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [المائـــدة: 3] ، على أنّ رواة الحـــديث لم يتعرّضوا في الغالب لما يرجع للتاريخ، ولا شكّ أنّ أمرا كهـذا يجـرّ

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص139.

[2]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص139.

لنا وللمسلمين من الوبال ما لا يخفى على مثلكم)[1]

وينتهي الأمـر بلـوازم القـول بهـذا على حـد تعبـير الشـيخ ابن عليوة إلى ما هو أخطر من ذلك، وهو أنه (يلزم على ذلك المعتقـد خـروج جملـة من الأحكـام السـماويّة المنصـوص عليهـا بالآيـات القرآنيّة، واعتبارها أنّها ليست من الدين)[2]

وقد اسـتدل الشـيخ لهـذا بمـا ذكـره في السـيوطي في كتابـه (الإتقـان) من قولـه: (إنّ من المشـكل قولـه تعـالى : {الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } [المائدة: 3] ، فإنّها نزلت بعرفات عـام حجّـة الوداع، وظاهرها كمال جميع الفرائض والأحكام قبلها، وقـد صـرّح بذلك جماعة، مع أنّه ورد في آيات الربا والدين والكلالة أنّها نـزلت بعد ذلك، وقد استشكل ذلـك ابن جريـر، فقـال (الأولى أن يتـأول على انّه أكمل دينهم بـإقرارهم بالبلـد الحـرام، وانجلاء المشـركين عنه)[3]

بعد هذه الأدلة التي ألزم بها الشـيخ ابن عليـوة من ينكـر على الصوفية ما أحدثوه من تقييدات وتحديـدات ذكـر الشـيخ مـا ينبغي أن تحمل عليه الآية الكريمـة، فقـال: (وإنّي أرى أحسـن مـا ينبغي أن تحمل عليه، هو أنّ المراد بكمال الدين، يعني أصـوله وقواعـده الجوهريّة، وأمّا ما وراء ذلـك من الفرعيّـات فلا نـراه من مـدخول الحكم، ولا تراه أنت يا حضرة الشيخ، إلاّ من طريق رجوع الفـروع إلى أصـولها، لأنّهـا تعتـبر كامنـة فيهـا، ككمـون النخلـة في حبّـة النـواة ؟، ألهمـني اللـه وإيـاكم من العلم مـا يكـون أساسـه التقـــــــوى)[4]

بعد هذه الأدلـة يعـود الشـيخ إلى مخاطبـة المخـالف لـه مبـديا استعداده لمناقشة المسألة ومراجعة ما يراه إن كان لديـه مـا من

---

[1] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص139.

[2] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص139.

[3] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص140.

[4] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص140.

الأدلة ما يدله على ذلك يقول الشـيخ: (وهـذا مـا فهمنـاه نحن من الدين، وما معـنى كمالـه وإتمـام النعمـة على أهلـه، فـإن كـان لـه موقع عندكم فذاك، وإلاّ فأرشـدونا لفهم أعلى من ذلـك، وأجـركم على الله)[1]

ثم يتوجه بالنصيحة للمخالف قائلا له: (وثق يـا حضـرة الشـيخ، فـإنّ فهمـك السـابق في الآيــة الكريمــة ليس هــو من العلم في شيء، ولا ممّا يحسن اعتقـاده، ولا أقـول لكم أنّكم اعتقـدتم ذلـك القول بحيث صدر منكم عن تمحيص وإمعان، أو بنيتموه عن حجّـة وبرهـان إنّمـا اعتقـادي فيكم أنّكم جـريتم فيـه على قلّـة التثبت، وأعــانكم على ذلــك حســن ثقتكم بأنفســكم من جهــة مكــانتكم العلميّة.. والحالة أنّنـا وأنتم ممّن هـو حقيـق أن يقـال لـه : علمت شيئا وغابت عنك أشياء، مع أنّ الأجدر أمثالنا قبل كلّ شـيء، هـو إدراك التقصير من أنفسنا، وهذا فيما نعلم، وأحرى فيما لا علم لنا بـــــــه.. لا أحرمنـا اللـه، وإيّـاكم من سلسـبيل معـارفهم، وفي الأخير أرجـوكم يـا سـيدي أن لا ترسـلوا النصـوص في الاسـتدلال، قبل تأملها فإنّ الأمـر ليس بـالهين، وهـذا مـا سـبق فيـه اختيـاري لنفسي، اخترته لكم والسلام)[2]

النصوص الدالة على أن كل البدع ضلالة:

ومنها ما رواه جابر بن عبد الله أن رسـول اللـه ﷺ كـان يقـول في خطبته: (أما بعد فان خـير الحـديث كتـاب اللـه وخـير الهـدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكـل بدعـة ضـلالة)[3]، وقولـه ﷺ : (من دعا الى هدى كـان لـه من الأجـر مثـل أجـور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئا، ومن دعا الى ضلالة كـان عليـه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[4]

ووجه الاستدلال بهذين الحديثين - كمـا يـذكر ابن بـاديس - هـو أنـه ﷺ (سـمى في الحـديث الأول البدعـة شـرا وضـلالا، فعم ولم

---

[1] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص140.

[2] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصـوف الإسلامي، ص141.

[3] صحيح مسلم (3/ 11)

[4] صحيح مسلم (8/ 62)

يخص، وأثبت الاثم لمرتكب الضلالة والداعي اليهـا والاثم لا يكـون الا في الحرام فيكون النظر هكذا كل بدعة ضلالة وكل ضلالة يؤثم صاحبها فكل بدعة يؤثم صاحبها وكل ما يؤثم عليه فهو حرام فكـل بدعة حرام) [1]

وقد رد على هذا المخالفون بما ذكره كثير من شـراح الحـديث من أن المقصـود من المحـدثات هنـا هي بـدع الضـلال، لا البـدع الحسنة، كما قال الخطابي (ت 388 هـ)في شرح هذه الحـديث : (وقوله (كل محدثة بدعة)، فإن هـذا خـاص في بعض الأمـور دون بعض وهي كل شيء أحدث على غير أصل من أصول الدين وعلى غير عياره وقياسه، وأما مـا كـان منهـا مبنيـاً على قواعـد الأصـول ومردوداً إليها فليس ببدعة ولا ضلالة والله أعلم)[2]

وقال النووي: قوله: (وكـل بدعـة ضـلالة) هـذا عـام مخصـوص والمراد غالب البدع، قال أهل اللغة: هي كل شيء عمل على غـير مثال سابق، قال العلماء: البدعة خمسة أقسـام ؛ واجبـة ومندوبـة ومحرمة ومكروهة ومباحة، فمن الواجبة نظم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك، ومن المندوبة تصـنيف كتب العلم وبناء المدارس والربط وغير ذلك، ومن المبـاح التبسـط في ألـوان الأطعمـة وغـير ذلـك، والحـرام والمكـروه ظـاهران، وقـد أوضحت المسألة بأدلتها المبسوطة في (تهذيب الأسماء واللغات) فـإذا عـرفت مـا ذكرتـه علمت أن الحـديث المـذكور من العـام المخصوص وكذا ما أشبهه من الأحاديث الـواردة، ويؤيـد مـا قلنـاه قول عمر بن الخطـاب في الـتراويح: نعمت البدعـة، ولا يمنـع من كون الحديث عاما مخصوصا قوله ﷺ (كل بدعة) مؤكدا (بكل) بـل يدخلـه التخصـيص مـع ذلـك كقولـه تعـالى: {تُـدَمِّرُ كُـلَّ شَـيْءٍ} [الأحقاف: 25])[3]

بالإضافة إلى هذا فقد جاء في بعض صيغ الحـديث: **(**من ابتـدع بدعة ضلالة، لا ترضي الله ورسوله، كان عليه مثل آثـام من عمـل

---

[1] ابن باديس، الآثار: 3/79.

[2] أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي، معالم السنن [وهو شرح سنن أبي داود]، المطبعة العلمية – حلب، الطبعة الأولى 1351 هـ - 1932 م، (4/ 300)

[3] أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسـلم بن الحجـاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، 1392، 6/ 154.

بهـا، لا ينقص ذلـك من أوزار النـاس شـيئاً)[1]، ففي هـذا الحـديث خصص الرسول ـ ﷺ ـ البدعة المحرمة بأن تكـون سـيئة لا توافـق عليها الشريعة.

النصوص الدالة على حرمة التقرب لله بما لم يشرع:

وقد نقل ابن باديس في هذا الباب الأحاديث التالية:

الحديث الأول: هو ما ثبت في الصحيح أن النـبي ﷺ رد على من قال أما أنا فـأقوم الليـل، ولا أنـام، وعلى من قـال أمـا أنـا فلا أنكح النساء، وعلى من قـال أمـا أنـا فأصـوم ولا أفطـر، رد عليهم بقوله: (من رغب عن سنتي فليس مني)[2]

وقـد عقب الشـيخ ابن بـاديس بعـد إيـراده على هـذا الحـديث بقوله: (ولم يكن مـا الـتزموه إلا فعـل منـدوب في أصـله أو تـرك مندوب، ومع ذلك رد عليهم بتلك العبارة التي هي أشـد شـيء في الإنكار، فكل من أراد أن يتقرب بما لم يكن قربة فهو مردود عليـه بمثل هذه العبارة الشديدة في الإنكار)[3]

الحـديث الثـاني: مـا ثبت في الصـحيح عن قيس بن حـازم قال: دخـل رسـول اللـه ﷺ على امـرأة من قيس يقـال لهـا زينب فرآهـا لا تتكلم فقـال: مـا لهـا، فقـال: حجت مصـمتة، قـال لهـا: (تكلمي فإن هذا لا يحل، هـذا من عمـل الجاهلية)، وقـد عقب ابن باديس على هذا الحديث بقوله: (فهذه أرادت أن تتقرب بمـا ليس قربة فجعل عملهـا من عمـل الجاهليـة، وقـال: أنـه لا يحـل، فكـل مريد للتقرب بما لم يكن قربة، فيقال في فعله ما قيل في فعلها)[4]

ثم بين وجه الاستدلال بهذا الحـديث والحـديث السـابق بقولـه: (ووجه الدليل من الحديثين أن التقرب بمـا ليس قربـة أنكـر أشـد الإنكار وقيل فيه لا يحل، وقيـل فيـه من عمـل الجاهليـة فلا يكـون بعد هذا كله إلا ضلالا فيدخل- قطعا- في عموم قوله: (وكـل بدعـة ضلالة)، فيثبت له التحريم بالنظر المتقدم)[5]

---

[1] سنن الترمذي (4/ 342)

[2] صحيح البخاري (7/ 2)

[3] آثار ابن باديس (3/ 80)

[4] صحيح البخاري (5/ 52)

[5] آثار ابن باديس (3/ 80)

الحديث الثالث: ما ورد في في الموطأ من أن النبي ﷺ رأى رجلا قائما في الشمس فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: نذر أن لا يتكلم ولا يستظل من الشمس ولا يجلس ويصوم، فقال رسول اللـه ﷺ: (مروه فليتكلم، وليستظل وليجلس وليتم صومه)[1]

وقد نقل ابن باديس بعد إيراده لهذا الحديث قول مالـك تعقيبـا على هذا الحديث: (أمره أن يتم ما كان لله طاعـة (وهـو الصـيام) ويترك ما كان لله معصية)، ثم عقب عليه بقوله: (فقد جعل مالـك القيام للشمس وترك الكلام ونذر المشـي إلى الأمـاكن المـذكورة معاصي، وفسر لفظ المعصية في الحديث بها، مع أنها في نفسـها أشياء مباحات، لكنه لما أجراها مجرى القربة- وليست قربة- حتى نذر التقرب بها وصارت معاصي لله وليس سبب المعصية أنه نـذر التقرب بها حتى أنه لو فعلها متقربـا دون نـذر لكـانت مباحـة، بـل مجرد التقرب بها وليسـت هي قربـة مـوجب لكونهـا معصـية عنـد مالك)[2]

وهذا يؤكد ما أشرنا إليه سابقا من كـون مدرسـة الجمعيـة في مواقفهـا من البدعـة خصوصـا ليسـت مدينـة للمـدارس السـلفية بتياراتهـا المختلفـة فقـط، بـل هي مدينـة أيضـا لانتمائهـا للمـذهب المالكي، وخاصة من مصادره الأولى كالموطـأ والمدونـة وغيرهـا، ولهـذا نـرى ابن بـاديس يرجـع إلى تلـك المصـادر دون مصـادر المتأخرين، والتي لم تلتزم – حسب رؤية الجمعية - بمذهب مالـك الحقيقي.

وقـد نقـل الشـيخ ابن بـاديس في هـذا المقـام مـا حكـاه ابن العربي عن الزبير بن بكار قال: سمعت مالكا بن أنس، واتاه رجل فقال: يـا أبـا عبـد اللـه من أين أحـرم؟ قـال: من ذي الحليفـة من حيث أحرم رسول الله ﷺ، فقال: إني أريد أن أحـرم من المسـجد من عند القـبر. قـال: لا تفعـل فـإني أخشـى عليـك الفتنـة. فقـال الرجل: وأي فتنة في هذه؟ إنما هي أميال أزيدها، قال مالـك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنهـا رسـول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- إني سمعت الله يقول: {فَلْيَحْـذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِـيبَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ}

[1] سنن ابن ماجة (3/ 266)

[2] آثار ابن باديس (3/ 81)

[النور: 63])[1]
ثم عقب على ذلك بقوله: (فهذا الرجل لا نـذر في كلامـه وقـد أراد الإحـرام- وهـو في نفسـه عبـادة- من موضـع فاضـل لا بقعـة أشرف منه وهـو مسـجد رسـول اللـه ﷺ وموضـع قـبره. وأراد أن يزيد أميالا تقرباً لله تعالى بإيقاع الإحرام بـذلك الموضـع الشـريف وزيادة التعب بالأميال. ومع ذلك رده مالـك عن ذلـك وبيَّن لـه قبح فعله بما يراه لنفسه من السبق وقرأ عليه الآيـة مسـتدلا بهـا ومـا كان مثل هذا داخلا في الآية عنده ألا وهو يراه حراما)[2]
ويضاف إلى هذه الأحاديث قوله ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[3]

الاحتجاج بترك النبي ﷺ :

من خلالنا استقرائنا للمحاورات الفقهية الـتي أجرتهـا الجمعيـة مع المخالفين لها في موقفها من البدع نرى اعتمادهـا الكبـير على مـا يسـميه الأصـوليون (مسـألة الـترك)، ولهـذا نحـاول أن نفصـل الكلام عليها هنا، مع ذكر رؤية المخالفين لها، وسنرى من خلال مـا سنذكره في الفصول التالية من نماذج الكثير من الأمثلـة عن هـذا النوع من الأدلة.
وقد عبر ابن باديس على اعتبـار هـذا النـوع من الأدلـة بقولـه: (الاستدلال بترك النبي ﷺ أصل عظيم في الـدين والعمـل النبـوي دائر بين الفعل والترك، ولهذا تكلم علماء الأصول على تركـه كمـا تكلموا على فعله وقد ذكرنا جملة من كلامهم فيما قـدمنا غـير أن تقرير هذا الأصل الذي يهدم بدعا كثيرة من فعل ما تركه النبي ﷺ مما يتأكد مزيد تثبيتـه وبيانـه اذ بالغفلـة عنـه ارتكبت بـدع وزيـدت زيادات ليست مما زيدت عليه في شيء)[4]
ومن الأمثلـة على اعتمـاد الشـيخ ابن بـاديس لهـذا النـوع من الأدلة قوله في معرض رده على شيخه ابن عاشور قوله: (إذا كان

---

[1]) انظـر: القاضـي محمـد بن عبـد اللـه أبـو بكر بن العـربي المعـافري الاشـبيلي المـالكي (المتوفى: 543هـ)، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القـادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م، (3/ 432)

[2]) آثار ابن باديس (3/ 82)

[3]) صحيح البخاري (3/ 241)

[4]) آثار ابن باديس (3/ 104)

ترك القراءة هو السنة، فالقراءة قطعا بدعة إذ ما فعلـه النـبي ﷺ من القربات ففعله سنة، وما تركه ممـا يحسـب قرابـة مـع وجـود سببه فتركـه هـو السـنة وفعلـه قطعـا بدعـة.. والقـراءة في هـذه المواطن الثلاثة التي حسب أنهـا قربـة قـد وجـد سـببها في زمنـه فمات الناس وشيع جنائزهم وحضـر دفنهم، ولم يفعـل هـذا الـذي حسب- اليوم- قربة ومن المسـتحيل- شـرعا- أن يـترك قربـة مـع وجود سببها بين يديه ثم يهتـدي إليهـا من يجيء من بعـده ويسـبق هو إلى قربة فاتت محمدا ﷺ وأصحابه والسلف الصـالح من أمتـه. ولا يكون الإقدام على إحداث شيء للتقرب به مـع تـرك النـبي ﷺ لـه مـع وجـود سـببه إلا افتئاتـا عليـه وتشـريعا من بعـده وادعـاءً - ضمنيا- للتفـوق عليـه في معرفـة مـا يتقـرب بـه والحـرص عليـه، والهدايـة إليـه، فلن يكـون فعـل مـا تركـه- والحالـة مـا ذكـر- من المباحات أبدا بل لا يكون إلا من البدع المنكرات)[1]

واعتبار الشيخ ابن باديس والجمعيـة عمومـا لهـذا الأصـل يـدل على صلتها الشديدة خصوصا بالتيار السلفي المحافظ، ابتداء بابن تيمية الذي يستدل كثـيرا في إنكـاره على المخـالفين بـترك النـبي ﷺ[2].

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 76)

[2] قسم ابن تيمية ما تركه النبي ﷺ قسمين: الأول: ما تركه مع وجـود المقتضـي لفعلـه في عهده ﷺ، وهذا الترك يدل على أنه ليس بمصلحة ولا يجوز فعله. ومثل لـذلك بـالأذان لصـلاة العيدين حيث أحدثه بعض الأمراء.

والثاني: ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم لعدم وجود ما يقتضيه، لحدوث المقتضي له بعد موته صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا قد يكون مصلحة وقـد يكـون جـائزاً.. ومثـل ابن تيمية لهذا النوع بجمع القرآن، فقد كان المانع من جمعه على عهد الرسول صلى الله عليـه وسـلم أن الوحي كان لا يزال ينزل فيغير الله ما يشاء ويحكم ما يريد، فلو جمـع في مصـحف واحـد لتعسر أو لتعذر تغييره في كل وقت، فلما استقر القرآن واستقرت الشريعة بموته صلى الله عليه وسلم أمن الناس من زيادة القرآن ونقصه، وأمنوا من زيادة الإيجاب والتحـريم (انظـر: ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (2/597)

وقـد رد الغمـاري على مـا ذكـره ابن تيمية بقولـه: (هـذا كلام ليس بمحـرر ولا محقـق، فقـد اشتبهت عليه هذه المسألة بمسألة السكوت في مقام البيان، صـحيح أن الأذان في العيـدين بدعة غير مشروعة، لكن لا لأن النبي ﷺ تركه، وإنما لأنـه ﷺ بين في الحـديث مـا يعمـل في العيدين ولم يذكر الأذان، فـدل سـكوته على أنـه غـير مشـروع، والقاعـدة: أن السـكوت في

ومثله ابن القيم الذي اعتبر (تركه ﷺ سنة كما أن فعله سـنة , فإذا استحببنا فعل ما تركه كان نظير استحبابنا ترك مـا فعلـه , ولا فرق)[1]

بل يعتبر ابن القيم أن فتح هذا الباب سينسخ الشـريعة جميعـا، يقـول في ذلـك: (فـإن قيـل : من أين لكم أنـه لم يفعلـه , وعـدم النقل لا يستلزم نقل العـدم ؟ فهـذا سـؤال بعيـد جـدا عن معرفـة هديه وسنته , وما كان عليه , ولو صح هذا السؤال وقبل لاسـتحب لنا مستحب الأذان للـتراويح , وقـال : من أين لكم أنـه لم ينقـل ؟ واستحب لنا مستحب آخر الغسل لكل صلاة , وقال : من أين لكم أنه لم ينقل ؟ واستحب لنا مستحب آخر النداء بعد الأذان للصـلاة يرحمكم الله , ورفع بها صوته , وقال : من أين لكم أنه لم ينقل ؟ واسـتحب لنـا آخـر لبس السـواد والطرحـة للخطيب , وخروجـه بالشاويش يصيح بين يديه ورفع المؤذنين أصواتهم كلما ذكر اسـم الله واسم رسوله جماعة وفرادى , وقال : من أين لكم أن هذا لم ينقل ؟ واستحب لنا آخر صلاة ليلة النصف من شعبان أو ليلـة أول جمعـة من رجب , وقـال : من أين لكم أن إحياءهمـا لم ينقـل ؟ وانفتح باب البدعة , وقال كل من دعا إلى بدعـة : من أين لكم أن هذا لم ينقل ؟)[2]

وقد أنكر المخالفون للجمعية وللتيار السـلفي سـواء كـانوا من الصـوفية أو من المدرسـة المقاصـدية اعتبـار الـترك المجـرد عن الأمر والنهي حجة، وقـد ألـف في ذلـك مرجـع الصـوفية المتـأخرة العلاّمة المحدّث المحقّـق عبـد اللـه بن الصّـديق الغمـاري رسـالة قيمة في هذا الباب سماها (حسن التفهم والدرك لمسألة الترك)، وهي بالإضافة إلى كتابيه (إتقان الصّنعة في تحقيق البدعة) و(الرد المحكم المـتين على كتـاب القـول المـبين) من أهم مـا كتب في أصول الحوار الفقهي بين السلفية والصوفية.

وقد قدم لرسـالته بهـذه الأبيـات الـتي يـبين فيهـا عـدم حجيـة

مقام البيان يفيد الحصر، وإلى هذه القاعـدة تشـير الأحـاديث الـتي نهت عن السـؤال سـاعة البيان). السيد عبد الله بن الصديق الغماري، تحقيـق وتعليـق: الاسـتاذ صـفوت جـوده احمـد، مكتبة القاهرة، ص12.

[1]) ابن القيم، إعلام الموقعين، 2/391

[2]) ابن القيم، إعلام الموقعين، 2/392

الاستدلال بالترك المجرد عن القول[1]:

الترك ليس بحجّـة في شـرعنا	لا يقتضـــي منعـــاً ولا إيجابـــاً
فمن ابتغى حظـراً بـترك نبيّنا	ورآه حكمـــاً صـــادقاً وصـــوابا
قــد ضــل عن نهج الأدلــة كلها	بل أخطأ الحكم الصّـحيح وخابا
لاحظـــر يمكن إلا إن نهي أتى	متوعّـــداً لمخالفيـــه عـــذاباً
أو ذم فعـــل مـــؤذن بعقوبة	أو لفـظ تحـريم يـواكب عـاب

وقد بدأ رسالته بتحديد معنى الاستدلال بالترك، فقـال: (نقصـد بالترك الذي ألّفنا هذه الرسالة لبيانه: أن يـترك النـبي ﷺ شـيئاً لم يفعلـه أو يتركـه السّـلف الصـالح من غـير أن يـأتي حـديث أو أثـر بالنّهي عن ذلك الشيء المتروك يقتضي تحريمه أو كراهته)[2]

ثم بين مبالغـة المتـأخرين - ويقصـد بهم التيـار السـلفي – في الاستدلال به، يقول: (وقد أكثر الاستدلال بـه كثـير من المتـأخرين على تحريم أشياء أو ذمّـها ,وأفرط في استعماله بعض المتنطّعين المتزمّـتين ورأيت ابن تيمية استدل به واعتمده في مواضع)[3]

ثم بين أنه ليس كل ترك يحتمل التحريم، بل هناك أنواع كثيرة من الترك تحتمل وجوهاً غير التحريم:

1 ــ منها أن يكون تركه ﷺ عـادة، كمـا روي أنـه قـدّم إليـه ﷺ ضب مشوي، فمد يده الشريفة ليأكل منه فقيل:إنّه ضب, فأمسك عنـه ,فسـئل: أحـرام هـو؟ فقـال: لا ولكنّـه لم يكن بـأرض قـومي فأجدني أعافه[4]!

والحديث ـ كما يذكر الغماري ـ يدل على أمـرين: (أحـدهما:أنّ تركه للشيء ولو بعد الإقبال عليه لا يدل على تحريمه، والآخــر:أنّ

---

[1] عبد الله بن الصـديق الحسـني الغمـاري، حسـن التفهم والـدرك لمسـألة الـترك، تحقيـق وتعليق: الأستاذ صفوت جوده أحمد، مكتبة القاهرة، ص3.

[2] الغماري: حسن التفهم والدرك لمسألة الترك، ص9.

[3] الغماري: حسن التفهم والدرك لمسألة الترك، ص10.

[4] صحيح مسلم (6/ 68)

استقذار الشيء لا يدل على تحريمه أيضاً)[1]

2 ـ ومنها أن يكون تركه نسياناً, كما روي أنه ﷺ سها في الصّلاة فترك منها شيئاً، فسئل:هل حدث في الصّلاة شيء؟ فقال: (إنّما أنا بشر أنسى كما تنسون ,فإذا نسيت فذكّروني)[2]

3 ـ ومنها أن يكون تركه مخافة أن يفرض على أمته,كتركه صلاة التراويح حين اجتمع الصّحابة ليصلّوها معه.

4 ـ ومنها أن يكون تركه لعدم تفكيره فيه,ولم يخطر على باله,كما روي أنه ﷺ كان يخطب الجمعة إلى جذع نخلة ولم يفكر في عمل كرسي يقوم عليه ساعة الخطبة, فلمّا اقترح عليه عمل منبر يخطب عليه وافق وأقره لأنّه أبلغ في الإسماع[3]، ومثل ذلك ما وري من اقتراح الصحابة عليه أن يبنوا له دكّة من طين يجلس عليها ليعرفه الوافد الغريب, فوافقهم ولم يفكر فيها من قبل نفسه.

5 ــ ومنها أن يكون تركه لدخوله في عموم آيات أو أحاديث ,كتركه صلاة الضحى وكثيراً من المندوبات لأنّها مشمولة لقول الله تعالى: {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الحج: 77]

6 ــ ومنها أن يكون تركه خشية تغيّر قلوب الصحابة أو بعضهم، كما روي في الحديث أنه ﷺ قال لعائشة: (لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السّلام فإنّ قريشاً استقصرت بناءه)[4]، فتركه ﷺ نقض البيت وإعادة بنائه حفظاً لقلوب أصحابه القريبي العهد بالإسلام من أهل مكّة.

وانطلاقا من هذا ذكر قاعدة مهمة هي المستند الذي يستند إليه الصوفية في إثبات جواز ما يخترعونه من تقييدات ورسوم وأوضاع، وهذه القاعدة هي أن (الترك وحده إن لم يصحبه نص على أنّ المتروك محظور لا يكون حجّة في ذلك، بل غايته أن يفيد أنّ ترك ذلك الفعل مشروع, وإمّا أنّ ذلك الفعل المتروك يكون محظوراً فهذا لا يستفاد من الترك وحده, وإنما يستفاد من دليل

---

[1] الغماري: حسن التفهم والدرك لمسألة الترك، ص10.

[2] صحيح مسلم (2/ 84)

[3] الغماري: حسن التفهم والدرك لمسألة الترك، ص10، وانظر الحديث في: مسند أحمد بن حنبل (1/ 266)

[4] صحيح البخاري (2/ 180)

يدل عليه)[1]

وذكـــر أن هـــذه القاعـــدة ليســـت من وضـــعه، بـــل من تتبـــع استدلالات الفقهاء المعتبرين وجدهم يستعملونها في اسـتدلالاتهم، ومن ذلك ما ذكره عن أبي سـعيد بن لب الـذي قـال ردا على من كره الدعاء عقب الصلاة: (غاية ما يستند إليـه منكـر الـدعاء إدبـار الصّـــلوات أنّ التزامـــه على ذلـــك الوجـــه لم يكن من عمـــل السّلف,وعلى تقدير صحة هذا النقل, فـالترك ليس بمـوجب لحكم في ذلك المتروك إلا جواز الترك وانتفاء الحرج فيه, وأمّا تحريم أو لصوق كراهية بالمتروك فلا, ولا سيما فيما له أصـل جملي متقـرر من الشرع كالدعاء)[2]

ومثل ذلك ابن حـزم الـذي اسـتدل بهـذه القاعـدة كثـيرا، ومن ذلـك مـا ذكـره في المحلى من احتجـاج المالكيّـة والحنفيّـة على كراهية صلاة ركعتين قبل المغرب بقـول إبـراهيم النخعي: (إنّ أبـا بكر وعمر وعثمان كانوا لا يصلونهما) ورد عليهم بقوله: لو صح لما كانت فيه حجة لأنه ليس فيه أنهم نهوا عنهما)[3]

وبعـد أن أثبت لجـوء الفقهـاء إلى اسـتعمال هـذه القاعـدة في استدلالاتهم بين أدلتها، وهي كما يلي[4]:

1 ــ أن الذي يـدل على التحـريم ثلاثـة أشـياء مقـررة في علم الأصول، وهي النـهي, ولفظ التحريم، وذم الفعـل أو التوعـد عليـه بالعقاب.. والترك ليس واحـداً من هـذه الثلاثـة, فلـذلك لا يقتضـي التحريم.

2 ــ أنّ الله تعالى قال : {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْـهُ فَـانْتَهُوا } [الحشـر: 7]، ولم يقـل: (وماتركـه فـانتهوا عنـه), فالترك لا يفيد التحريم.

3 ــ قوله ﷺ : (مـا أمـرتكم بـه فـائتوا منـه مـا اسـتطعتم ومـا نهيتكم عنه فاجتنبوه)[5]، ولم يقل: (وما تركته فـاجتنبوه فكيـف دل

---

[1] الغماري: حسن التفهم والدرك لمسالة الترك، ص11.

[2] الغماري: حسن التفهم والدرك لمسالة الترك، ص12.

[3] أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسـي القرطـبي الظـاهري، المحلى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (2/254)

[4] الغماري: حسن التفهم والدرك لمسالة الترك، ص12، وما بعدها.

[5] صحيح مسلم ـ (7/ 91)

الترك على التحريم؟)

4 ـ أنّ الأصوليين عرفوا السنّة بأنها قول النبي ﷺ وفعله وتقريره ولم يقولوا وتركه, لأنه ليس بدليل.

5 ـ أن الحكم خطاب الله, والذي يدل عليه قرآنٍ أو سنة أو إجماع أو قياس, والترك ليس واحداً منها فلا يكون دليلاً.

6 ـ أن الترك يحتمل أنواعاً غير التحريم ,والقاعدة الأصولية أن ما دخله الاحتمال سقط به الاستدلال بل سبق أيضاً أنه لم يرد أنّ النبي ﷺ إذا ترك شيئاً كان حراماً وهذا وحده كاف في بطلان الاستدلال به.

7 ـ أن الترك ظل كأنه عدم فعل, والعدم هوٍ الأصل والفعل طارئٍ, والأصل لا يدل على شيء لغة ولا شرعاً, فلا يقتضي الترك تحريماً.

وختم رسالته بذكر نماذج من الترك منها الاحتفال بالمولد النبوي، والاحتفال بليلة المعراج، وإحياء ليلة النصف من شعبان، وتشييع الجنازة بالذكر، وقراءة القرآن على الميت في الدار، قراءة القرآن عليه في القبر قبل الدفن وبعده، وصلاة التراويح أكثر من ثماني ركعات، ثم عقب عليها بقوله: (فمن حرّم هذه الأشياء ونحوها بدعوى أن النبي ﷺ لم يفعلها فاتلُ عليه قول الله تعالى: {آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: 59]، لا يقال:وإباحة هذه الأشياء ونحوها داخلة في عموم الآية لأنا نقول : ما لم يرد نهي عنه يفيد تحريمه أو كراهته ,فالأفضل فيه الإباحة لقول النبي ﷺ: (وما سكت عنه فهو عفو) [1] أي مباح)[2]

الاحتجاج بما ورد عن الصحابة والسلف:

ومن أهم ما ورد في ذلك ما ورد عن عبد الله بن مسعود من إنكاره على بعض من قيد العبادة بما لم يرد في النصوص تقييده، فقد روى عمرو بن سلمة بن الحارث قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة , فجاءنا أبو موسى الأشعري.. فقال له أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته , ولم أر والحمد لله إلا خيراً. قال : فما

---

[1]) نص الحديث هو: (ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئا، ثم تلا هذه الآية : {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم: 64]) (مسند البزار (10/ 26)

[2]) الغماري: حسن التفهم والدرك لمسالة الترك، ص50.

هو ؟. قال : رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة , في كـل حلْقـة رجـل، وفي أيـديهم حصـى، فيقـول كـبروا مئـة فيكبرون مئة , فيقول هللوا مئة فيهللون مئة، ويقول سـبحوا مئـة فيسبحوا مئة.. ثم مضى , ومضينا معـه، حـتى أتى حلْقـة من تلـك الحلق، فوقـف عليهم، فقـال : مـا هـذا الـذي أراكم تصـنعون ؟ !. قـالوا : حصـى نعـدّ بـه التكبـير والتهليـل والتسـبيح. قـال : فعـدّوا سيئاتكم، فأنا ضـامن أن لا يضـيع من حسـناتكم شـيء، ويحكم يـا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسـي بيـده أنكم لعلى ملـة هي أهدى من ملة محمد ﷺ ؟ !! أوَمفتَتِحوا باب ضلالة ؟ !. قالوا : والله يا أبا عبد الـرحمن مـا أردنـا إلا الخـير. قـال : وكم من مريـد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوماً يقرؤون القـرآن لا يجاوز تراقيَهم، وايم اللـه لا أدري لعـل أكـثرهم منكم. ثم تـولى عنهم. قال عمرو بن سلمة : رأينـا عامّـة أولئـك الحِلَـق يطاعنوننـا يوم النهروان مع الخوارج[1].

ويعتـبر هـذا النص من أقـوى مـا يتمسـك بـه المتشـددون في معنى البدعة، وقد رد عليه المخالفون بمجموعة ردود منها:

1 ــ التشكيك في سند الرواية، كما قال الشيخ سيف العصـري في كتابــه (النقــول الصــحيحة في انقســام البدعــة إلى حســنة وقبيحة): (قد أكثر نفاة الذكر الجماعي من الاحتجاج بأثر عبد الله بن مسعود، وهو أثر حكم الأئمة عليه بالضعف، وقبل أن أورد كلام الأئمة أحب أن أقف مع أسانيد هـذا الأثـر وقفـات ليـبين للمنصـف حال هذا الأثر الذي اعتمد عليه فئـات من النـاس في الإنكـار على الذكر الجماعي والسبحة، وأصبحوا يكررونه في كلِّ نادٍ، ويطيرون بــه كــل مطــار، وهم مــع ذلــك ينكــرون على غــيرهم التمســك بالضــعيف، ولكن إذا كــان الضــعيف ينصــر رأيهم فلا بــأس من الاحتجاج به ولو كـان هـذا الضـعيف يعـارض طائفـة من الأحـاديث الصحيحة)[2]

---

[1]) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهـران الأصـبهاني، حليـة الأولياء وطبقات الأصفياء، السعادة - بجـوار محافظـة مصـر، 1394هــ - 1974م (4/ـ 380-381)

[2]) سيف العصري، النقول الصـحيحة في انقسـام البدعـة إلى حسـنة وقبيحـة، دط، دت، ص 185.

ثم أطال في بيان الأدلة على ضعف الرواية، بما لا طاقة لهذا المحل بذكرها[1].

2 ـ التوضيح لدلالتها، وهي أن إنكار ابن مسعود لم ينصرف إلى ما فعلوه من أعمال، فكل ذلك مشروع، وإنما انصرف لتصحيح تصورات هؤلاء للدين، فقد بلغه نحو من هذا عن بعض الجفاة الذين يحرصون على كثير من النوافل ويضيعون بعض الأسس والمهمات، ويرون أنهم على فضل وخير لا يبلغه أصحاب رسول الله ﷺ، ولذا نراه يقول لبعضهم : أوَإنكم لأهدى من أصحاب محمد ﷺ ؟ !!. ويقول لبعضهم : أئنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد ﷺ ؟ !!. ثم قال : إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وايم الله لا أدري لعل أكثرهم منكم. ولقد صدقت فراسة عبد الله بن مسعود، فقد قال الراوي : رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج.

الاحتجاج بفتاوى العلماء والمالكية خصوصا:

لا يكتفي الشيخ ابن باديس ولا أعضاء الجمعية بالاستدلال بما ورد في النصوص في تحديد البدع وذمها، وإنما يضيفون إلى ذلك فتاوى من يرون أنه ينتصر لما يرونه من آراء من العلماء، وهم يميلون إلى المالكية خصوصا، ولعل ذلك يعود لاعتبارين:

الأول: هو مراعاة المذهب السائد في المنطقة.

الثاني: هو أن المذهب هو من أكثر المذاهب قربا من التيار السلفي في إنكاره للبدع.

ولهذا فإن ابن باديس وغيره من أعضاء الجمعية في مناقشاتهم للمخالفين يستعملون أقوال مالك وأدلته، حتى ما كان منها ظاهرا مخالفا للنصوص الصحيحة، والجمعية بذلك تبتعد عن المنهج السلفي الذي يرى – نظريا – أن النص لا يمكن أن يزاحم بأي اجتهاد.

وكمثال قريب على ذلك موقف ابن باديس من رأي مالك في صيام ستة أيام من شوال، والذي نص عليه ابن باديس بقوله: (والذي يظهر من عبارات مالك أن المكروه هو صوم ستة أيام متوالية بيوم الفطر، كما يفهم من قوله: (في صيام ستة أيام بعد الفطر) ومن قوله (وأن يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة

---

[1] سيف العصري، النقول الصحيحة في انقسام البدعة إلى حسنة وقبيحة، ص185-195.

والجفاء) وإنما يخشى هذا الإلحاق إذا كانت متوالية ومتصلة بيوم الفطر. فالكراهة إذا عنده منصبة على صومها بهذه الصفة من التوالي والاتصال لا على أصل صومها. وهذا هو التحقيق في مذهبه)[1]

ويرجع ابن باديس هذا الرأي الذي رآه مالك، والذي لا يدل عليه أي نص صحيح إلى أصلين مهمين في فقه مالك واحتياطه، وهما[2]:

1 ــ أن العبادة المقدرة لا يزاد عليها ولا ينقص منها، وهو أصل عام في جميع العبادات، (فبنى مالك- بسعة علمه وبعد نظره- على ذلك حمايتها من الزيادة في آخرها فكره صوم تلك الأيام متوالية متصلة بيوم الفطر مخافة- كما قال-: (أن يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء) فكان احتياطه في الأخير مطابقا لاحتياط النبي ﷺ في الأول، وذلك كله لأجل المحافظة على بقاء العبادة المقدرة على حالها غير مختلطة بغيرها)[3]

ثم علق على هذا الموقف مبديا إعجابه بهذا الرأي الذي لا دليل عليه من النصوص بقوله: (فلله مالك ما أوسع علمه، وما أدق نظره، وما أكثر اتباعه فرحمة الله تعالى عليه وعلى أئمة الهدى أجمعين)[4]

2 ــ أن ما ورد من العبادة مقيداً بقيد يلتزم قيده، وما ورد منها مطلقا يلتزم إطلاقه، فالآتي بالعبادة المقيدة دون قيدها مخالف لأمر الشرع ووضعه. والآتي بالعبادة المطلقة ملتزما فيه ما جعله بالتزامه كالقيد مخالف كذلك لأمر الشرع ووضعه.

ومن هذا الأصل المالكي يرى ابن باديس وأعضاء الجمعية بدعية كل التقييدات التي قيدت بها الطرق أنواع العبادات، خصوصا الأذكار، يقول ابن باديس: (وهو أصل في جميع العبادات، ومثال ما ورد من العبادة مقيدا، التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين مرة والختم بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. فقيدت هذه العبادة المحددة بإيقاعها دبر كل صلاة، فالإتيان بها في غير دبر الصلوات

---

[1] آثار ابن باديس 2/263.

[2] آثار ابن باديس (2/ 265)

[3] آثار ابن باديس (2/265)

[4] الآثار: (2/265)

مخالفة للوضع الشرعي، ومثال ما ورد مطلقا (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهـو على كـل شـيء قـدير)، في يوم مائة مرة وسبحان الله وبحمده في يـوم مائـة مـرة فيلتزمهـا في وقت معين من النهـار فيخـرج عن مقتضـى الإطلاق في لفـظ يوم من نص الحديث فيكون مخالفا للوضع الشرعي)[1]

ثم يعلـق على هـذين الأصـلين اللـذين اتخـذهما معيـارا للحكم على الأعمال بالسـنية والبدعيـة، فيقـول: (هـذان الأصـلان اللـذان قررنا بهما فقه مالك هما اصلاح مجمع عليهما كثيرة في الشـريعة المطهرة أدلتهما والفروع التي تنبني عليهما فلنا في مالـك وغـيره من أئمة الهدى القدوة الحسنة في التمسك بهما. فنحتاط لعبادتنـا حـتى لا نخلـط بين فرضـها ونفلهـا. ونتقبـل مـا جـاء من العبـادات مقيدا أو محـددا بقيـده وحـده، ونتقبـل مـا جـاء منهـا مطلقـا على إطلاقه فلا نلتزم فيه ما يخرجه عن الإطلاق. ولنحذر كل الحذر من الأخلاق بقيـود الشـارع أو التقييـد لمطلقاتـه، ففي ذلـك اسـتظهار عليه وقلة أدب معه وتبديل لوضعه واختيار عليـه وإنمـا الخـير للـه ولرســوله لا لأحــد من النــاس وأن الغــالب على النــاس أنهم لا يتعمدون الإخلال بالقيود وإنما يتعمدون التقييـد للمطلقـات وأنـواع الالتزامات مع أنهمـا في المخالفـة سـواء فلنحـذر من الوقـوع في مثل هذا على الخصوص)[2]

ونحب أن نبين هنـا أن العلاقـة الـتي تربـط الجمعيـة بالمـذهب المالكي لا تتعدى مالك وبعض أصحابه المتقدمين، أمـا المتـأخرون من أصـحاب المتـون والشـروح والحواشـي، والـذين يكـاد يكـون أكثرهم من أصحاب الطرق الصـوفية، فـإن الجمعيـة تنتقـدها، بـل وتقدم كتب الحنابلة عليها، يقول الزاهري في العـدد الخـامس من (الصراط السوي) : (وهُنا مسألة جوهريّة لا بأس بالإشـارة إليهـا, وهي أنّ كُتب الحنابلة التي يقرئها الوهّابيّة وغيرهم هي كّتب سّــنّة وحديث أكثر ممّا هي كُتب فقهيّة حنبليّة , وهم لا يزالـون يُؤلّفونهـا على طريقة السّلف الصّالح وأئمّة هذا الدّين الحنيف , بخلاف كُتبنا نحن المالكيّة التي يُؤلّفها فُقهاؤنا المتأخّرون في المذهب المالكي مثلا فهي خالية من السّنّة والحديث حتّى إنّك لتقرأ كتابـا ذا أجـزاء من كُتب المُتـأخّرين من أوّلـه إلى آخـره فلا تكـاد تعـثر فيـه على

---

[1] آثار ابن باديس (2/ 266)

[2] آثار ابن باديس (2/ 267)

حديث شريف ولا على أثر من آثار الصّحابة وبعبارة أخرى أنّ كُتب الحنابلة المُتأخّرين لا تزال كّتب سنّة وحديث ككتُب المُتقدّمين أمّا كُتب المُتأخّرين من المالكيّة والحنفيّة مثلا فقد خلت كلّها أو جُلّها من السّنّة والحديث , بل يسوق لك مُؤلّفها الأحكام مُجرّدة عن كلّ نظر واستدلال ولا يخفى أنّ كتب السّنة والحديث تجعل قارئها سُنّيا سلفيا شديد الاتّصال بالرّسول ﷺ وشديد الاتّصال بالسّلف الصّالح وبعيدا كلّ البعد عن التّقليد والجُمود وبعيدا عن البدع ومُحدثات الأمور , ومن هنا جاء الخلاف بين الوهّابيّة من أهل السّنّة الآخرين إن كان هناك خلاف)[1]

وانطلاقا من هذا نرى الجمعية في مناقشاتها مع المخالفين سواء كانوا من المدرسة المقاصدية أو المدرسة الصوفية، تنتقي من فتاوى الفقهاء ما يتناسب مع هذه النظرة، وهي انتقائية – كما نرى – غير موضوعية، لأن التأصيل الحقيقي يستدعي الاطراد، والتعامل مع القضايا من جميع جوانبها.

وكمثال على ذلك أن ابن باديس في مناقشته مع الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رجع إلى فتاوى أبي سعيد بن لب الغرناطي[2]، بل ويثني عليه، يقول في ذلك: (ونزيد على ذلك الآن ما قاله فقهاؤنا المتأخرون في بدع الجنائز من القراءة ونحوها: سئل أبو سعيد بن لب كبير فقهاء غرناطة في عصره عما يفعله الناس في جنائزهم حين حملها من جهرهم بالتهليل والتصلية والتبشير والتنذير ونحو ذلك على صوت واحد أمام الجنازة. كيف حكم ذلك في الشرع؟)[3]

ثم نقل فتواه ببدعية ذلك، وأن (السنة في اتباع الجنائز الصمت والتفكر والاعتبار.. واتباعهم سنة ومخالفتهم بدعة: وذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ عمل صالح مرغب فيه في الجملة لكن للشرع توقيت وتحديد في وظائف الأعمال، وتخصيص

---

[1] الصراط السوي، العدد 5، ص6.

[2] هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب الغرناطي الثعلبي، شيخ الجماعة، وعمدة فقهاء غرناطة، (782/701هـ)، صاحب كتاب . تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، المشهور بنوازل ابن لب الغرناطي. (انظر: أبو سعيد فرج بن قاسم، تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ص9)

[3] آثار ابن باديس (3/ 82)

يختلف باختلاف الأحـوال والصـلاة وإن كـانت مناجـاة الـرب، وفي ذلـك قـرة عين العبـد، تـدخل في أوقـات تحت ترجمـة الكراهـة والمنع. والله يحكم ما يريد)[1]

وينقل فتوى أخرى له في نفس الموضوع، ذكـر فيهـا أن (ذكـر الله والصلاة على رسوله عليه السلام من أفضل الأعمال وجميعـه حسن لكن للشرع وظائف وقَّتها وأذكـار عيَّنهـا في أوقـات وقتهـا، فوضع وظيفـة موضـع أخـرى بدعـة، وإقـرار الوظـائف في محلهـا سنة، وتبقى وظائف الأعمال في حَمـل الجنـائز إنمـا هـو الصـمت والتفكر والاعتبار. وتبديل هذه الوظائف بغيرها تشريع. ومن البـدع في الدين) [2]

ثم عمم ابن باديس فتوى أبي سعيد على كل الأوضاع الحادثة، فقال: (وهذه هي فتوى أبي سعيد بن لب في موضوعنا المنطبقـة على كل ما أحدث من الأوضاع بقصـد التقـرب وليسـت قربـة في هذه المواضع وإن كانت حسـنة في أصـلها وقـد رأيت إنكـاره لهـا، فترك هذا كله فضيلة)[3]

لكنا بالعودة إلى كتاب (تقريب الأمل البعيد في نـوازل الأسـتاذ أبي سعيد) والذي يضم فتاوى الإمام أبي سعيد ابن لـُب الغرناطي (ت:782هـ) نرى أنه في فتـاواه ينتهج منهج المدرسـة المقاصـدية التي ينتمي إليها ابن عاشور، والتي ترى تقسيم البدعة إلى حسـنة وسـيئة، وكمثـال على ذلـك أنـه (سـئل عن قـراءة الحـزب في الجماعة على العادة، هل فيه أجر؟ مع مـا نقـل فيـه ابن رشد من الكراهة؟)

فأجاب قائلا: (أما قراءة الحزب في الجماعـة على العـادة فلم يكرهه أحد إلا مالك على عادته في إيثار الاتبـاع، وجمهـور العلمـاء على جوازه واستحبابه، وقد تمسكوا في ذلـك بالحـديث الصـحيح: (مـا اجتمـع قـوم في بيت من بيـوت اللـه يتلـون كتـاب اللـه ويتدارسـونه بينهم إلا نـزلت عليهم السـكينة وحفتهم الملائكـة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده)[4]

بالإضافة إلى هذا النص الصـحيح يسـتند أبـو سـعيد بن لب إلى

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 82)

[2] آثار ابن باديس (3/ 83)

[3] آثار ابن باديس: (3/83).

[4] أبو سعيد بن لب، تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، ص200-201.

المقاصد الشرعية في هذا، فيقول: (ثم إن العمل بذلك قد تضـافر عليه أهل هذه الأمصار والأعصـار، وفيـه مقاصـد من يقصـدها فلن يخيب من أجرها: منها تعاهد القرآن حسبما جاء فيـه من الـترغيب في الأحاديث، ومنها تسميع كتاب الله لمن يريد سماعه من عــوام المسلمين؛ إذ لا يقدر العـامي على تلاوتـه فيجـد بـذلك سـبيلاً إلى سـماعه، ومنهـا التمـاس الفضـل المـذكور في الحـديث؛ إذ لم يخصص وقتاً دون وقت)[1]

بل إنه فوق ذلك يرد على من يعتـبر الـترك دليلا على البدعـة، فقال: (ثم إن الترك المروي عن السـلف لا يـدل على حكمٍ إذا لم ينقل عن أحد منهم أنه كرهـه أو منعـه في ذينـك الوقـتين، وشـأن نوافل الخير جواز تركها.. فالحق أن فيه الأجر والثواب؛ لأنه داخـل في باب الخير المرغب فيه على الجملة، ولا يعتقد فاعل ذلـك أنـه يقدم على مكروه تقليداً لمالك، يل يعتقد معنى الحـديث المتقـدم وتقليد من يستحب ذلك ويستحسنه) [2]

ثم يختم فتــواه ببيــان تقســيم البــدع إلى سـيئة ومستحسـنة، فيقول: (وثم بدع مستحسنة لا سـيما في وقت قلـة الخـير وأهلـه، والكسل عن قوله وفعله، لطف الله بنا ومن علينـا بصـلاح أحوالنـا بمنه وفضله)[3]

المبحث الثالث

موقف الطرق الصوفية من البدعة وأدلتها.

بعد أن تعرفنا على تصور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للبـدع وضـوابطها، نحـاول في هـذا المبحث التعـرف على تصـور الطـرق الصـوفية لهـا حـتى تتم المقارنـة، والـتي على أساسـها نستطيع أن نفهم جزئيات الخلاف بين الطرفين.

وقـد حاولنـا في هـذا المبحث أن ننتهج نفس مـا انتهجنـاه في المبحث السابق من التعرف على حقيقـة البدعـة أولا، ثم التعـرف على الأدلة التي تدل على تصورهم لها ومناقشتها ثانيا.

---

[1]) أبو سعيد بن لب، تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، ص200-201.

[2]) أبو سعيد بن لب، تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، ص200-201.

[3]) أبو سعيد بن لب، تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، ص200-201.

المطلب الأول: حقيقة البدعة عند الطرق الصوفية

بنـاء على مـا سـبق إثباتـه من أن الطـرق الصـوفية انتهجت المنهج الصوفي بمدرستيه السلوكية والعرفانية، فإن كلا المنهجين يفرضـان عليهـا أن تأخـذ بـالمنهج المتسـاهل في مفهـوم البدعـة وضوابطها.

فالتوجه العرفـاني يجعـل من الصـوفي مرتبطـا بالمشـرع مباشرة، ولهذا قد يأخذ منه من صيغ الأذكار ونحوها ما لا يوجد في كتب الفقهاء، وقد كتب الشيخ أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسم في كتابه (إفحام الخصم الملد بالدفاع عن الشـيخ الممـد) في رده على محمـد تقي الـدين الهلالي في مقـال نشـره في الشـهاب يقـول: (اعلم أن الأذكـار اللازمـة لهـذه الطريقـة هي الوردان والوظيفة في كل يوم، وذكر لا إله إلاّ الله بعد عصـر يـوم الجمعة، ولكلٍّ وقت معين على مـا قـرر في كتب الطريقـة، وإنمـا يُجتَمَعُ للوظيفة والهيللة، وقد صرح الشيخ التيجاني بأنه تلقى ذلـك كله عن الرسول ﷺ، والذي قرره غير واحد من محققي أهل العلم أن ما يقع للصوفية من الكشف، ومنه ما طريقه رؤيا الرسـول ﷺ والاجتماع به، يؤخذ به إذا شهد له الشرع)[1]

وقـد اسـتدل لهـذا بمـا قالـه الشـاطبي في البـاب الرابـع من الاعتصام، فقد ذكر أن (الرؤيا من غير الأنبيـاء لا يحكم بهـا شـرعا على حال إلاّ أن تعرض على ما في أيـدينا من الأحكـام الشـرعية، فإن سوغتْها، عُمِـل بمقتضـاها، وإلاّ وجب تركهـا والإعـراض عنهـا، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا . كما يحكى عن الكتاني رحمه الله قال : رأيت النبي ﷺ في المنـام فقلت : أدع الله أن لا يميت قلبي، فقال : قل في كل يـوم أربعين مرة (يا حيّ يا قيّـوم، لا إلـه إلاّ أنت)، فهـذا كلام حسـن لا إشـكال في صحته، وكون الذكر يحيي القلوب صحيح شرعا)[2]

والتوجه السلوكي فيها يدعوها أحيانـا إلى تقييـد المطلـق من العبادات بالعدد والزمان ونحوه، وهذا ممـا لا يرتضـيه الطـرف المتشدد في مفهوم البدعة، وقـد عـبر الشـيخ ابن عليـوة في رده

---

[1] الشيخ أبو طـاهر المغـربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصـم الملـد بالـدفاع عن الشيخ الممد، ص3.

[2] الاعتصام للشاطبى (1/ 260)

على الشيخ عثمان بن مكي صاحب (المرآة لإظهار الضلالات) عن موقف الطرق الصوفية من البدعة، فقال: (وحـتى لـو قلنـا إنّ مـا عليه القوم أنّـه بدعـة إلا يصـلح أن يكـون من البـدع المستحسـنة المسمّاة بالسنّة المأخوذة من قولـه عليـه الصـلاة والسـلام، فعن ابن جرير عن أبيـه قـال : قـال رسـول اللـه ﷺ : (من سـنّ سـنّة حسنة فعمل بها كان لـه أجرها ومثـل أجـر من عمـل بهـا لا ينقص من أجورهم شيئا، ومن سنّ سنّة سيئة فعمل بها كان عليه وزرهـا ووزر من عمـل بهـا من بعـده لا ينقص من أوزارهم شيــئا)[1] رواه ابن ماجة في سننه، فتأمّل كيف سمى البدعة سنّة، ألم يبلغـك أنّ الاجتماع على قيام رمضان في المسـاجد هـو مـا ابتدعـه عمـر بن الخطـاب فكـان سـنّة متبعـة، وقـال فيهـا فنعمت البدعـة..ثمّ إنّـك أخــذت في تزييــف البــدع وفي ظنّي أنّــك لا تميّــز بين البدعــة المستحبّة المعروفة بالسنّة، وبين ما هي خلاف ذلـك، قـال الإمـام الشافعي : (إنّ البدعة ما خالفت كتابا أو سنّة أو إجماعـا أو أثـرا، ومـا لم يخـالف شـيئا من ذلـك فهي المحمـودة)، وفي ظنّي أنّـك تسلم أنّ الاجتهاد من خصائص هذه الأمّـة، وتعلم أنّ أركـان الـدين الثلاثـة (الإسـلام، الإيمـان، الإحسـان)، فلم تسـلم اجتهـاد الأئمـة الأربعــة ونحــوهم في مقــام الإســلام، وتســلم اجتهــاد الأشــعري والماتريدي في الاعتقاد الذي هو مقـام الإيمـان، ولا تسـلم اجتهـاد الجنيد وعصابته في مقام الإحسان، وهل تعتبر الإحسان ركنا ؟، لا، والله ما هكذا ظنّي فيكم إن تغفلوا عن الأهم)[2]

وهذا يدل على أن الصوفية يرون أن مـا يخترعونـه من سـلوك أو من تحديـد للعبـادت هـو من المصـالح الـتي لا حـرج فيهـا، ولا تدخل ضمن مفهوم البدعة، وهـو الـذي اعتـبره خصـومها، وخاصـة من التيار السلفي من البدع المنكرة.

ولو كان الأمر قاصرا على الصوفية وحدهم لما اعتبرنا هذا من المختلـف فيـه، ولكنـا نجـد الكثـير من العلمـاء، وخاصـة من أتبـاع المدارس الفقهية، بل من المحدثين أنفسهم، من يؤيدهم في هذه النظرة، ويعتبر أن مفهوم البدعة لا ينطبـق على تلـك السـلوكات، وليس هذا خاصا بأفراد معدودين من العلماء، بل هو يشمل الكثير من المحدثين والفقهاء وعلماء الكلام وغـيرهم ممن قـد يشـكلون

[1] صحيح مسلم (8/ 61)

[2] ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، طبعة مستغانم، ص43

مدرسة كاملة لا يمكن إهمالها.

بل يدخل في هؤلاء جملة من العلماء المعتبرين لدى علماء المدرسة السلفية، إما باعتبارهم من المحدثين الكبار، أو لاعتبارات أخرى تجعلهم يتفقون مع هذه المدرسة، ومع ذلك لا يرون مثل هذه السلوكات بدعة.

ولا يمكننا في هذا المحل أن نستوعب التعريف بهؤلاء لكثرتهم، ولكنا نحب أن نشير إلى علمين بارزين لهما قيمتهما في سلوك هذه المدرسة، وفي موقفهما خصوصا من البدعة، وفي كون الكثير من الطرق الصوفية يرجعون إليهما عند الخلاف مع المدرسة السلفية.

أما أولهما، فهو العالم الذي اتفقت المدارس الإسلامية على قبوله واحترامه لكونه فقيها وأصوليا وعالما كبيرا من علماء المقاصد بالإضافة إلى مواقفه الشديدة مع حكام زمانه إلى درجة تلقيبه بسلطان العلماء، ألا وهو (العز بن عبد السلام)، فقد كان إلى جانب تلك القدرات العلمية مريدا لبعض مشايخ الصوفية، ويمارس طقوسهم، إلى درجة أن بعض الفقهاء يستدلون بفعله على جواز تلك الممارسات[1].

---

[1]) كان ابن عبدالسلام مفتونا بالرقص والوجد على طريقة الصوفية، وله مصنفات في تأييد التصوف والرقص والسماع، بل قد لبس الخرقة على طريقة المتصوفة على يد الصوفي الكبير السهروردي، قال الذهبي: (قال قطب الدين : كان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنوادر والأشعار. يحضر السماع ويرقص) (العبر (3/299)، وقال السيوطي في ترجمة العز: (له كرامات كثيرة ولبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في الحقيقة ويعظمه) (حسن المحاضرة (1/273) دار الكتب العلمية)، وقال السبكي: (وذكر(أي القاضي عز الدين الهكاري)، أن الشيخ لبس خرقة التصوف من شهاب الدين السهروردي، وأخذ عنه، وذكر أنه كان يقرأ بين يديه ((رسالة القشيري))فحضره مرة الشيخ أبو العباس المرسي لما قدم من الأسكندرية إلى القاهرة فقال له الشيخ عز الدين: تكلم على هذا الفصل. فأخذ الشيخ المرسي يتكلم والشيخ عز الدين يزحف في الحلقة ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث عهد بربه، وقد كانت للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف وتصانيفه قاضية بذلك) (الطبقات(8/214-215).

أما عن السماع والرقص الذي كان يفعله الشيخ عز الدين، فيقول ابن شاكر الكتبي : (يحضر السماع ويرقص ويتواجد) (فوات الوفيات(2/350-352)

ونحن لا يهمنا سلوكه الصوفي، ولا أذواقه التي عبر عنها في كتبه الصوفية، ولكن الذي يهمنا هو تأصيله لمفهوم البدعة الذي صار هو المعتبر عند الصوفية، بل هو المعتبر عند أكثر علماء المقاصد، في مقابل مفهوم البدعة الذي طرحه الشاطبي في الاعتصام والذي سانده عليه الاتجاه السلفي، وكانت جمعية العلماء من ضمن من اهتم به وأيده.

وبذلك يمكن أن نعتبر الخلاف بين المدرستين الصوفية والسلفية في الحقيقة خلافا بين مدرستين في مفهوم البدعة مدرسة الشاطبي، ومدرسة العز بن عبد السلام.

وخلاصة موقف العز بن عبد السلام من مفهوم البدعة وحدودها هو أن البدعة ـــ باعتبار اشتمالها على المصلحة والمفسدة أو خلوها عنها ـــ تنقسم إلى أقسام الحكم الخمسة: الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة.

وقد مثَّل لكل قسمٍ منها، وذكر ما يشهد له من قواعد الشريعة، وكلامه في ذلكً ـــ كما يذكر المحدث الغماري ـــ (كلام ناقد بصير أحاط خبراً بالقواعد الفقهية، وعرف المصالح والمفاسد التي اعتبرها الشارع في ترتيب الأحكام على وفقها، ومَنْ مثل سلطان العلماء في معرفة ذلك ؟ فجاء تقسيمه للبدعة مؤسَّساً على أساس من الفقه وقواعده متين، ولذا وافقه عليه الإمام النووي والحافظ ابن حجر وجمهور العلماء، وتلقوا كلامه بالقبول ورأوا أن العمل به متعيِّن في النوازل والوقائع التي تحدث مع تطور الزمان وأهله)[1]

وينتقد المحدث الغماري الشاطبي الذي خرج عن هذا المفهوم، فقال معقبا على كلامه السابق: (حتى جاء صاحب (الإعتصام) فخرج عن جمهرة العلماء وشذَّ بإنكار هذا التقسيم، فبرهن بهذا الإنكار على أنه بعيد عن معرفة الفقه بعيد عن فهم قواعده المبنية على المصالح والمفاسد، لا يعرف ما فيه مصلحة فيطلب تحصيلها بفعله، ولا يدري ما فيه من مفسدة فيطلب اجتنابها بتركه، ولا ما خلا عنهما فيجوز فعله وتركه على السواء. وأخيراً برهن على أنه لم يتذوق علم الأصول تذوقاً يمكنه من

وقد جعل اليافعي رقص وسماع الشيخ عز الدين دليلا على جواز ذلك لأن فعله حجة فهو من كبار العلماء وأطال في ذلك (انظر مرآة الجنان لليافعي(4/154).

[1]) الرد المحكم المتين، ص106.

معرفة وجوه الاستنباط وكيفية استعمالها والتصرف فيها بما يناسب الوقائع)[1]

ويتعجب الغماري من الشاطبي الذي ينكر على العز بن عبد السلام ذلك التقسيم مع أنه بناه (على اعتبار المصالح والمفاسد التي اعتبرها الشارع في ترتيب الأحكام على وفقها؛ ولم ينكر على المالكية القول بالاستصلاح الذي لم يعتبره الشارع ولا قَبِله جمهور العلماء، بل أنكروه وأبوا أن يرتبوا عليه أحكاماً كما فعل المالكية لعدم اعتبار الشارع له؟!)[2]

ويعتبر أن هذا الموقف من الشاطبي المالكي نوعا من التعصب المذهبي الظاهر، لأنه لم ينر على المالكية مع أن قولهم في الاستصلاح أعظم من قول العز في البدعة.

ويرد على التمسك بظاهر قوله قوله ﷺ: (كل بدعة ضلالة) بأنَّ (البدعة التي هي ضلالة من غير استثناء هي البدعة الاعتقادية كالمعتقدات التي أحدثها المعتزلة والقدرية والمرجئة ونحوهم، على خلاف ما كان يعتقده السلف الصالح، فهذه هي البدعة التي هي ضلالة، لأنها مفسدة لا مصلحة فيها، أما البدعة العملية بمعنى حدوث عمل له تعلق بالعبادة أو غيرها ولم يكن في الزمن الأول، فهذا لا بد فيه من التقسيم الذي ذكره عز الدين بن عبد السلام، ولا يتأتى فيه القول بأنه ضلالة على الإطلاق، لأنه من باب الوقائع التي تحدث على ممر الأزمان والأجيال، وكل واقعة لا تخلو عن حكم لله تعالى، إما منصوص عليه أو مستنبط بوجه من وجوه الاستنباط، والشريعة إنما صلحت لكل زمان ومكان وكانت خاتمة الشرائع الإلهية وأكملها بما حوته من قواعد عامة وضوابط كلية، مع ما أوتيه علماؤها من قوة الفهم في نصوصها ومعرفة بالقياس والاستصحاب وأنواعها لما غير ذلك مما حضت به شريعتنا الغراء)[3]

بالإضافة إلى هذا يذكر الغماري أنه لو اتبعنا طريقة الشاطبي وحكمنا على كل عمل حدث بعد العصر الأول بأنه بدعة ضلالة من غير أن نعتبر ما فيه من مصلحة أو مفسدة لزم على ذلك إهدار جانب كبير من قواعد الشريعة وقياساتها وتضييق لدائرتها

---

[1] الرد المحكم المتين، ص107.

[2] الرد المحكم المتين، ص107.

[3] الرد المحكم المتين، ص107.

الواسعة وفي ذلك ما لا يخفى[1].

أما العالم الثاني، والذي يعتبر سندا لهذه المدرسة، بحيث لا تكاد تخلو كتبها من الاستدلال به، وهو يمثل جمهرة من المحدثين وقفت إلى جانب الصوفية، وحاولت أن تستل لرسومها وطقوسها بما ورد في الأحاديث فهو المحدث الكبير جلال الدين السيوطي، فهو لتقدمه، ولكثرة ما كتبه في الباب يكاد يمثل الكثير من المحدثين الذين جمعوا بين الحديث والصوفية، ولعل آخرهم من الذين كانت لهم علاقة بجمعية العلماء الشيخ عبد الحي الكتاني.

ولعل أهم ما قام به جلال الدين السيوطي بالإضافة إلى رسائله المتعلقة بجزئيات السلوك الصوفي، تأييده للطريقة الصوفية، كما نرى في رسالته (تأييد الطريقة الشاذلية)، وقد جاء بعد السيوطي الكثير من المحدثين ممن سار على دربه، وكان منهم الغماري والكتاني والنابلسي والبوصيري وغيرهم.

ولهذا نجد في تراث الطرق الصوفية الجزائرية وحوارها مع جمعية العلماء الرجوع إلى أمثال هؤلاء كثيرا.

المطلب الثاني: أدلة الطرق الصوفية على موقفها من البدعة:

بناء على هذا نحاول في هذا المبحث أن نرى أدلة الطرق الصوفية في اعتمادهم على هذا المفهوم للبدعة، والذي أشار إلي بعضها الشيخ ابن عليوة.

إقرار القرآن لبدعة الرهبانية:

من الآيات التي استدل بها الصوفية في إثبات جواز، بل استحباب ما اخترعوه من أوضاع عبادية لم ترد عن النبي ﷺ قوله تعالى : {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: 27]

فقد ذهب عامة المفسرين لهذه الآية إلى أن الله تعالى قد رضي من النصارى هذه البدعة، ولم يذمهم عليها، بل أمرهم بالدوام عليها وعدم تركها، وجعلها في حقهم كالنذر الذي من ألزم نفسه به فعليه القيام به، وعدم تركه والتهاون فيه.

وإلى هذا التفسير ذهب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي رأينا ذلك الخلاف الشديد الذي حصل بينه وبين ابن باديس في

---

[1]) الرد المحكم المتين، ص107.

تحقيق المناط حول بدعية قراءة القرآن الكريم على الموتى، فقد اعتبر الآية الكريمة من الأدلة على حجية انقسام البدعة إلى محمودة ومذمومة، يقول في تفسير للآية: (وفيها حجة لانقسام البدعة إلى محمودة ومذمومة بحسب اندراجها تحت نوع من أنواع المشروعية فتعْتريها الأحكام الخمسة كما حققه الشهاب القرافي وحذاق العلماء. وأما الذين حاولوا حصرها في الذم فلم يجدوا مصرفاً. وقد قال عمر لما جمع الناس على قارىء واحد في قيام رمضان نعمت البدعة هذه)[1]

بل إنه ذكر في تفسيره للآية ما يفيد استحباب ما فعلوه من بدعة، يقول: (وإنما عطفت هذه الجملة – أي قوله تعالى: {إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ } [الحديد: 27] على جملة {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } [الحديد: 27] لاشتراك مضمون الجملتين في أنه من الفضائل المراد بها رضوان الله، والمعنى: وابتدعوا لأنفسهم رهبانية ما شرعناها لهم، ولكنهم ابتغوا بها رضوان الله، فقبلها الله منهم؛ لأن سياق حكاية ذلك عنهم يقتضي الثناء عليهم)[2]

واستدل بالآية أيضا منظر صوفية المغرب العربي الأكبر العلامة عبد الله بن صديق الغماري في كتابه (إتقان الصنعة)، فقد قال مبنيا وجه الاستدلال بالآية: (استنبط العلماء من هذه الآية مجموعة من الأحكام منها: إحداث النصارى لبدعة الرهبانية من عند أنفسهم.. وعدم اعتراض القرآن على هذا الإحداث، فليس في الآية - كما قال الرازي[3] والألوسي[4] - ما يدل على ذم البدعة.. ولوم القرآن لهم بسبب عدم محافظتهم على هذه البدعة الحسنة: فما رعوها حق رعايتها واللوم غير متجه للجميع،

---

[1] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة : الأولى، 1420هـ/2000م (18/ 197)

[2] التحرير والتنوير، (18/ 197)

[3] لعله يشير إلى قول الفخر الرازي (التفسير الكبير، 29/245): (لم يعنِ الله بابتدعوها طريقة الذم، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولذلك قال تعالى بعده: ما كتبناها عليهم).

[4] لعله يشير إلى قول الآلوسي (التفسير، 294/15): (يعلم منه أيضاً سبب ابتداع الرهبانية، وليس في الآية ما يدل على ذم البدعة مطلقاً، والذي تدل عليه ظاهراً ذم عدم رعاية ما التزموه).

على تقـدير أن فيهم من رعاهـا كمـا قـال ابن زيـد، وغـير متوجـه لمحدثي البدعة كما قال الضحاك، بل متوجه إلى خلفهم كمـا قـال عطاء)[1]

واستدل بالآية كذلك القرطبي، فقد قال في تفسـير عنـد هـذه الآية: (وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة، فينبغي لمن ابتدع خيراً أن يدوم عليه ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآيـة، وعن أبي أمامة الباهلي -واسمه صـدي بن عجلان- قـال: (أحـدثتم قيـام رمضان ولم يكتب عليكم، إنمـا كتب عليكم الصـيام، فـدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإن ناساً من بني إسـرائيل ابتـدعوا بدعاً لم يكتبها الله عليهم، ابتغوا بها رضوان الله فمـا رعوهـا حـق رعايتها، فعابهم الله بتركها فقـال: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَـدَعُوهَا مَـا كَتَبْنَاهَـا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْـوَانِ اللَّهِ فَمَـا رَعَوْهَـا حَـقَّ رِعَايَتِهَا } [الحديـد: 27])[2]

بل إن شيخ المفسرين بالمأثور ابن جرير الطبري الذي يسـتند إليه الاتجاه السلفي كثيرا، حيث أنه رجح من خلال الآية استحباب ما أحدثه النصارى من هذه البدعة، وأن اللـه رضـيها عنهم، وقبلهـا منهم، ولم يعـاتبهم إلا على تقصـيرهم في حقهـا، فقـد قـال (241/27): (وأولى الأقوال في ذلـك بالصـحة أن يقـال: إن الـذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، بعض الطوائـف التي ابتدعتها، وذلك أن الله جل ثنـاؤه أخـبر أنـه آتى الـذين آمنـوا منهم أجرهم؛ فدل بذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتهـا، فلو لم يكن منهم من كان كذلك لم يكن مستحق الأجر الذي قـال جل ثناؤه فيه: {فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ} [الحديـد: 27] إلا أن الذين لم يرعوها حق رعايتها ممكن أن يكونوا كـانوا على عهـد الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا كانوا بعدهم، لأن الـذين هم من أبنائهم إذا لم يكونوا رعوها، فجـائز في كلام العـرب أن يقـال: لم يرعهـا القـوم على العمـوم، والمـراد منهم البعض الحاضـر، وقـد

---

[1]) عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري، اتقان الصنعة في تحقيـق معـنى البدعـة، عـالم الكتب، ص12.

[2]) أبو عبد الله محمـد بن أحمـد بن أبي بكـر بن فـرح الأنصـاري الخـزرجي شـمس الـدين القرطـبي، الجـامع لأحكـام القـرآن (تفسـير القرطـبي)، تحقيـق: أحمـد الـبردوني وإبـراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م، (17/ 264)

مضى نظير ذلك في مواضع كثيرة من هذا الكتاب)[1]
وفي المقابل نجد الاتجاه المتشدد في الموقف من البدعة لا يرى في الآية هذه الرؤية، فقد ذهب ابن كثير في تفسيره إلى أن في الآية الكريمة ذم (من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل)[2]
واعترض الشاطبي في (الاعتصام) على الاستدلال بهذه الآية على جواز إحداث البدعة بمجموعة اعتراضات[3]:
الأول: أن الآية لا يتعلق منها حكم بهذه الأمة، لأن الرهبانية نسخت في الشريعة الإسلامية فلا رهبانية في الإسلام.
الثاني: أن البدعة في الآية ليست بدعة حقيقية وإنما هي بدعة إضافية، لأن ظاهر القرآن دل على أنها لم تكن مذمومة في حقهم بإطلاق، بل لأنهم أخلوا بشرطها، وهو الإيمان بمحمد ﷺ.
الثالث: أنه لو كانت البدعة في هذه الآية حقيقية لخالفوا بها شرعهم الذي كانوا عليه، لأن هذه حقيقة البدعة، أي هي الفعل المخالف للشرع.

حديث السنة الحسنة:

وهو قوله ﷺ : (من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[4]
وقد اعترض ابن باديس على هذا الاستدلال بالحديث بقوله: (من سن سنة حسنة أو سيئة هو من ابتدأ طريقا من الخير في أعمال البر والاحسان وما ينتفع به الناس من شؤون الحياة. ولا يشمل ذلك ما يحدثه المحدثون من البدع في العبادات من الزيادات والاختراعات اذ الزيادة على ما وضعه الشرع من

[1] محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، (23/ 202)

[2] تفسير ابن كثير: (6/567- 568)

[3] الاعتصام للشاطبى (1/ 337)

[4] صحيح مسلم (3/ 86)

العبادات وحدده افتئات عليه واستنقاص له، وهذه هي البدعة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)[1][2]

حديث (إنما الأعمال بالنيات):

هو قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[3]

وقد اعترض ابن باديس على هذا الاستدلال بقوله عند شرح الحديث: (الأعمال إما طاعات لأنها مأمور بها وجوبا أو استحبابا، وإما مخالفات لأنها منهي عنها تحريما أو كراهة، واما مباحات لأنها غير مأمور بها ولا منهي عنها، فالمخالفات بقسميها لا تقبلها النيات طاعات لأنها في قسمها غير عمل صالح ولأننا علمنا بالنهي عنها ان قصد الشارع هو تركها وعدم وجودها فقصد المكلف مضاد لقصد الشارع فكان ساقطا لا عبرة به ولا أهلية له لقلب الموضع الشرعي... والطاعات بقسميها هي التي تؤثر فيها النية بالقبول والرد بحسب قصد الله بها وقصد غيره أو بتفاوت درجات القبول وبحسب المقصود على ما تقدم وهي المقصودة بالقصد الأول من الحديث، والمباحات مثلها تؤثر فيها النيات فتقبلها طاعة أو معصية لأن الشرع لما أباحها علمنا أنه لا قصد له لا في وجودها ولا في عدمها من حيث ذاتها فكان لقصد المكلف حينئذ سبيل إلى التأثير فيها. وقد غفل عن هذه الحقيقة أقوام- عفا الله عنهم- فتراهم يستدلون على أعمالهم بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم-: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى) قاصدين إلى تبريرها غير ملتفتين إلى كونها من قسم الطاعات أو المخالفات أو المباحات. وكثيرا ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج إلى الأضرحة وإيقاد الشموع عليها والنذور لها وكالرقص وضرب الدف في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات، ويتوكؤون في ذلك كله على (إنما الأعمال بالنيات)

---

[1] أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، المجتبى من السنن، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، 1406 - 1986 (3/ 188)

[2] آثار ابن باديس (2/ 88)

[3] صحيح البخاري (1/ 2)

كلا، ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب فإن البدع كلها من قسم المخالفات وأن المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات)[1]

إقرار النبي ﷺ لما فعل في عهده من محدثات:

ومن الأمثلة التي يسوقونها على هذا الأحاديث التالية:

الحديث الأول: ما روي أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: (يا بلال حدثني بأرجي عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك في الجنة، قال : ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي)[2]

ومما يدل على صحة الاستدلال بهذا الحديث على ما ذهب إليه المتساهلون في مفهوم البدعة هو ما قاله الحافظ ابن حجر في (الفتح) مع شدته المعروفة مع البدع والمبتدعة: (يستفاد منه جواز الاجتهاد في توقيت العبادة، لأن بلالاً توصل إلى ما ذكره في الاستنباط فصوَّبَه الرسول . ومثل هذا حديث خباب في البخاري وفيه : وهو أول من سن الصلاة لكل مقتول صبراً ركعتين. فهذه الأحاديث صريحة في أن بلالا وخبابا اجتهدا في توقيت العبادة ولم يسبق من الرسول أمر ولا فعل إلا الطلب العام وأن (الصلاة خير موضوع فأقلل منها أو استكثر) كما في الحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة)[3]

الحديث الثاني: ما روي أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية , وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص: 1]، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟. فسألوه، فقال : لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: (أخبروه أن الله يحبه)[4]

وهذا الحديث ظاهر في أن أمير السرية كان يختم القراءة في الصلاة بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص: 1]اجتهاداً منه، لأنه صفة الرحمن جل وعلا، فكان جزاؤه أن يحبه الله تعالى لحبه

---

[1] آثار ابن باديس (2/ 185)

[2] صحيح البخاري (2/ 67)

[3] أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379، (3/ 34)

[4] صحيح البخاري ـ حسب ترقيم فتح الباري (9/ 141)

إياها.

الحـديث الثـالث: مـا روي عن أنس قـال : كـان رجـلٌ من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء وكـان كلمـا افتتح سـورة يقـرأ بهـا لهم في الصــلاة ممــا تقــرأ بـــه افتتح بـ {قُــلْ هُــوَ اللَّهُ أَحَــدٌ } [الإخلاص: 1] حتى يفرغ منها ثم يقـرأ سـورة أخـرى معهـا، وكـان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصـحابه، فقـالوا: إنـك تفتتح بهـذه الصورة ثم لا ترى أنها تجزئـك حـتى تقـرأ بـأخرى، فقـال: ما أنـا بتاركهــا، إن أحببتم أن أؤمكم بــذلك فعلت وإن كــرهتم تــركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غـيره، فلمـا أتـاهم النـبي ﷺ أخـبروه الخـبر فقـال: يـا فلان مـا يمنعـك أن تفعـل مـا يأمرك به أصحابك ومـا يحملـك على لـزوم هـذه السـورة في كـل ركعة فقال: إني أحبها، فقال: (حبُّك إياها أدخلك الجنة)[1]

وهـذا الحـديث كالسـابق في الدلالـة على اجتهـاد الرجـل في قراءة سورتين في كل ركعة، ولزوم قـراءة الفاتحـة، وهـو اجتهـاد منه في أمر تعبدي، ولم يدل دليل على تخصيصه به.

الحــديث الرابع : مـا روي عن ابن عمــر قــال : بينمــا نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: (الله أكبر كبــيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصـيلاً)، فقـال رسـول اللـه ﷺ: من القائـل كلمـة كـذا وكـذا؟ فقـال رجـل من القـوم : أنـا يـا رسول الله، فقال ﷺ: **(**عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء**)**[2]

والظاهر من سياق الرواية أن ذلك الصحابي لم يكن قـد سـمع من النبي ﷺ شيئاً في جعل هـذا الـذكر في اسـتفتاح الصـلاة، ولـو كان ذلك عن أمره وتعليمه لما عجب لـذلك، وإنمـا كـان ذلـك عن اجتهاد من ذلك الصحابي، ومحـل الشـاهد أن النـبي ﷺ أقـره على ذلك الاجتهاد، ولو كان من المحظور على المرء المسـلم أن يـأتي بشيء في العبادة دون دليل خاص لأنكر عليه النبي ﷺ، ولقـال لـه كيف تفعل في الصلاة شيئاً قبل أن آذن لك فيه؟!

الحديث الخامس: ما روي عن رفاعـة بن رافـع الـزُرَقي أنـه قال : كنا يومَ نصلي وراء النبي ﷺ لى, فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمـده، قـال رجـل وراءه: (ربنـا ولـك الحمـد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه)، فلمـا انصـرف قـال : من المتكلم ؟.

---

[1]) صحيح البخاري، (1/ 197)

[2]) صحيح مسلم (2/ 99)

قال : أنا. قـال : (رأيت بضـعة وثلاثين ملكـاً يبتـدرونها أيهم يكتبهـا أول)[1]

وهذا إقرار من رسول الله ﷺ للـذي قـال هـذه الكلمـات، وقـد يكون قائلها قـد سـمعها من النـبي ﷺ من قبـل، لكن الظـاهر أنهـا ليسـت ممـا علمـه أن يقولـه في الصـلاة، وأنـه قالهـا في ذلـك الاعتدال اجتهادا منه بإلهام من الله تبارك وتعالى.

الحديث السادس: مـا روي أن خُبَيْبـا أحـدث صـلاةَ ركعـتين حين قدّمته قريش للقتل صبراً فأقرها وكانت بعده سنة[2].

الحديث السابع: ما روي عن أبي سعيد الخدري قـال : بعثنـا رسـول اللـه ﷺ في سـرية، فنزلنـا بقـوم، فسـألناهم القِـرى، فلم يَقْرونـا، فلـدغ سـيدهم، فأتونـا، فقـالوا : هـل فيكم من يـرقي من العقرب؟. قلت : نعم، أنا، ولكن لا أرقيه حتى تعطونا غنما. قـال : فأنـا أعطيكم ثلاثين شـاة. فقبلنـا فقـرأت عليـه الحمـد للـه سـبع مرات، فبرأ،... فلما قـدمنا على رسـول اللـه ﷺ ذكـرت لـه الـذي صنعت، فقال: (وما علمت أنها رقية ؟! اقبضوا الغنم واضـربوا لي معكم بسهم)[3]

ولم يكن أبو سعيد الخدري يعلم أن الفاتحـة رقيـة، وأنهـا تُقـرأ سـبع مـرات، ولكن هكـذا اجتهـد، ولم ينكـر عليـه رسـول اللـه ﷺ اختيار سورة الفاتحة ولا اختيار العدد في الرقية.

---

[1] صحيح البخاري ـ حسب ترقيم فتح الباري (1/ 202)

[2] صحيح البخاري (4/ 83)

[3] صحيح البخاري (7/ 173)

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ـ رأينا أن الموقف من البدعة وضوابطها كان من نقاط الخلاف الجوهرية الكبرى بين الجمعية والطرق الصوفية، بل بين الاتجاه السلفي بمختلف مدارسه والصوفية بمختلف فرقها وطرقها ومذاهبها، ولهذا لا يمكن فهم تفاصيل ما جرى من خلاف بين الجمعية والطرق الصوفية في الكثير من فروع المسائل قبل معرفة هذا الأصل المهم، وهو ضبط معنى البدعة وحدودها لدى كل فريق من الفريقين.

2 ـ بما أن هذه المسألة قديمة، وقد أخذت حظها من كتب الفقه والأصول والمقاصد، والجمعية والطرق الصوفية لم يقوما فيها إلا بتبني بعض الاتجاهات ونصرتها، فقد رأينا أنه من الواجب العودة إلى المسألة في أبوابها الخاصة بها من كتب الفقه والأصول القديمة، والتي كانت المصدر الذي من خلاله تبنت الجمعية ومثلها الطرق الصوفية ما رأته من مواقف.

3 ـ اختلف الفقهاء في حكم البدعة إلى اتجاهين متناقضين، أحدهما متشدد يرى أن كل البدع سيئة مذمومة محرمة، والفريق الثاني متساهل، يرى أنه تنطبق عليها الأحكام الشرعية جميعا من الإباحة والحرمة والكراهة والندب، بل والوجوب.

4 ـ بناء على انتهاج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنهج السلفي بمدرستيه المحافظة والتنويرية، وبناء على تبنيها لمنهج الإمام مالك في مواجهة جميع المحدثات، فقد اختارت الاتجاه الذي يرى أن كل البدع ضلالة، وأنه لا صحة لتقسيمها لمقبولة ومرفوضة، وهذا الرأي هو الرأي الذي اشتهر به الشاطبي، واشتهر به كتابه (الاعتصام)، والذي كانت توليه الجمعية عناية خاصة، كما كان يوليه الاتجاه السلفي بفرعيه المحافظ والتنويري.

5 ـ كما اهتمت الجمعية بالتشدد مع ما تراه من البدع، اهتمت كذلك ببيان ما تستند إليه من مصادر وأدلة على ذلك، وهي لا تعدو الأدلة التي ذكرها الشاطبي في الاعتصام، فهو الكتاب الذي نال عندها أهمية قصوى.

6 ـ بناء على ما سبق إثباته من أن الطرق الصوفية انتهجت المنهج الصوفي بمدرستيه السلوكية والعرفانية، فإن كلا المنهجين

فرضا عليها أن تأخذ بالمنهج المتساهل في مفهوم البدعة وضوابطها، فالتوجه العرفاني يجعل من الصوفي مرتبطا بالمشرع مباشرة، ولهذا قد يأخذ منه من صيغ الأذكار ونحوها ما لا يوجد في كتب الفقهاء، والتوجه السلوكي يدعوها أحيانا إلى تقييد المطلق من العبادات بالعدد والزمان ونحوه، وهذا مما لا يرتضيه الطرف المتشدد في مفهوم البدعة.

7 ـــ من أهم ما استدل به الصوفية في إثبات جواز، بل استحباب ما اخترعوه من أوضاعٍ عبادية لم ترِد عن النبي ﷺ قوله تعالى : {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: 27]، فقد ذهب عامة المفسرين لهذه الآية إلى أن الله تعالى قد رضي من النصارى هذه البدعة، ولم يذمهم عليها، بل أمرهم بالدوام عليها وعدم تركها، وجعلها في حقهم كالنذر الذي من ألزم نفسه به فعليه القيام به، وعدم تركه والتهاون فيه.

الفصل الثاني

جوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية حول السلوك الصوفي

بعيــدا عن العموميــات الــتي يغلب عليهــا الجــانب الخطابي، فإن أكثر ما توجه إليه النقد من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للطرق الصوفية هـو تلـك الممارســات الــتي يمارســها الفقــراء أو الإخــوان ممــا تعتبره الجمعية - بسبب توجههـا السـلفي أو التنـويري - بدعا وزيادات في الـدين، بـل وضـلالات تنحـرف بالـدين عن مسـاره الصـحيح الـذي رسـمه رسـول اللـه ﷺ في سنته، ورسمه السلف الصالح في هديهم واتباعهم.

وقد حاولنا أن نسـتقرئ المـواطن الـتي توجـه إليهـا النقد من طرف جمعية العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، ومثلهــا الاتجــاه الســلفي، وخصوصــا الاتجــاه الســلفي المحافظ، وقد وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: مرتبط بما يـراه الصـوفية ضـروريا في السوك، وقد رأينا تقسيمه – أيضا – إلى قسمين:

1 ــ ما يعتبر عندهم كالشروط التي لا يصح السلوك من دونها، وقد رأينا أنهما اثنـان فقـط: الشـيخ المرشـد المربي، والتزام الأذكار بصيغها وهيئاتها المختلفة.

2 ــ ما هو من الممارسات التي تختلـف الطـرق في شأنها، كالأوراد، والخلـوة، فهي تختلـف هيئاتهـا بحسـب الطرق، بل إن من الطرق الصوفية من لا تـرى ضـرورة للخلوة، ولذلك لا تمارسها.

القسم الثاني: لا تـراه الصـوفية ضـروريا، ولكنهـا تــرى أهميتــه في تيســير الســلوك على المريــد، لإزالــة الكثير من الإرهاق الذي يصيبه خلال السير، وقـد وجـدنا بناء على اسـتقراء مـا يفعلـه الصـوفية، ومـا توجـه إليـه

النقد أنه أمران:
1 ـ السماع والرقص.
2 ــ الموالــد والزيــارات، أو مــا يســميه علمــاء الجمعية(الزردة)، أو (أعراس الشيطان)
بناء على هذا قسمنا مبـاحث هـذا الفصـل ومطالبـه، ونحب أن ننبه هنا بـأن الكثـير من المسـائل المطروحـة في هذا الفصل ترجع للفقه والحديث، ولذلك رجعنـا إلى هذه المصادر للتوثيق، ولم نكتف بما كتبه رجال الجمعية أو الطرق الصوفية، وهذا مما يقتضـيه التحقيـق العلمي، لنتأكد من سلامة استدلال كل طرف.
بالإضافة إلى هذا، فقد رجعنا إلى ما كتب في نصـرة الطـرق الصـوفية سـواء كـان ذلـك ممـا كتب في عهـد التعامل بين الجمعية والطرق أو كان قبل ذلك، أو بعده، باعتبار ما ذكرناه سابقا من مراعاة المدارس الفكرية.
ولهذا، فإن المراجع التي رجعنا إليها في هذا الفصـل - بالإضافة إلى ما كتبه رجال الجمعية ومشايخ الطريقــة العلاويــة - مــا كتبــه الشــيخ جلال الــدين الســيوطي في نصرة الطرق الصوفية، وخصوصا رسالته (نتيجـة الفكـر في الجهـر بالـذكر)، وهي مطبوعـة ضـمن (الحـاوي في الفتاوي)
ومنهــا كتب الفقيــه المحــدث الشــيخ عبــد الوهــاب الشـعراني، وخاصـة كتابـه (الأجوبـة المرضـية عن أئمـة الفقهاء والصوفية)
ومنهــا مــا كتبــه الشــيخ عبــد الغــني النابلسي، ومن أهمهــا (الأســـرار، في منـــع الأشـــرار، من الطعن في الصوفية الأخيار، أهل التواجد في الأذكار)
ومنها ما كتبـه الشـيخ أبـو عبـد اللـه محمـد بن علي الزبّادي ككتابه: (الطريق الواريـة، في الشـيخ والمريـد والزاوية)، و(روضة البستان، ونزهة الإخوان، في مناقب الشيخ ابن عبد الرحمن)
ومنها ما كتبه الشيخ أبو القاسم ابن خجّو له في هذا

(ضياء النهار، المجلي لغمام الأبصار، في نصرة الفقــراء أهل السـنة الأخيـار، المـبيِّن لمـا خفي من أحـوالهم عن الأبرار)

ومنها ما كتبه الشـيخ عبـد الكبـير بن محمـد بن عبـد الواحــد الحســني الإدريســي الكتــاني ككتابــه (نجــوم المهتدين في دلائل الاجتماع للذكر على طريقة المشايخ المتـأخرين، برفـع الأرجـل من الأرض والاهـتزاز شـوقًا لرب العالمين)

ومنهـا مـا كتبـه أبـو المفـاخر محمـد بن عبـد الواحد المـدعو الكبـير الحسـني الإدريسـي الكتـاني وخصوصـا رسالته: (نصرة الفيض الأصلي، في الـرد على من أنكـر التحليق بالمسجد النبوي في محل التجلي)

بالإضـافة إلى مـا كتب الشـيخ العلاوي كرسـالته في (حكم الاهـتزاز بالـذكر)، أو رسـالته في الـذكر بالاسـم المفرد، وغيرها مما عرفناه في الفصل الخاص بوسـائل التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

المبحث الأول

شروط السلوك الصوفي وممارساته بين الجمعية والطرق الصوفية

ذكرنا في الفصـل الخـاص بالاتجـاه الفكـري للطـرق الصــوفية أن الصــوفية يفرقــون بين شــروط الســلوك وممارسـاته، فالشـروط ضـرورية لا مندوحـة عنهـا لمن أراد الســلوك إلى اللــه، أمــا الممارســات، فيمكن أن تختلف وتتغير بحسب الأحوال.

وهــذه من النقــاط المهمــة جــدا، والــتي نــرى أن الجمعية أساءت فهمهـا حين تصـورت أن كـثرة الطـرق دليـل على الصـراع، وهـذا – بغض النظـر عن الواقـع – خطأ، لأن الطرق الصوفية مثل المدارس النفسية، فكل

مدرسة ترى أسلوبا خاصا للعلاج النفسي، ولهذا، فإن المريد إن لم يستطع أن يسلك في طريقة من الطرق، أو لم يجد مأربه فيها ينتقل إلى طريقة أخرى.

ولهذا نجد عند تراجم الكثير من مشايخ الصوفية تنقلهم بين الطرق المختلفة، وقد عرفنا ذلك خصوصا في ترجمة الشيخ أحمد التيجاني.

بناء على هذا نحاول في هذا المبحث أن نتعرف على الخلاف الحاصل بين الجمعية والطرق الصوفية سواء في شروط السلوك أو ممارساته.

المطلب الأول: شروط السلوك الصوفي بين الجمعية والطرق الصوفية

ذكرنا عند الحديث عن الاتجاه الفكري للطرق الصوفية اتفاق الصوفية على شرطية الشيخ المربي والذكر للسلوك الصوفي، فلا تصوف من دونهما، وبناء على هذا نحاول في هذا المطلب نتعرف على أدلتهم في ذلك، وكيف ردوا على من أنكر عليهم هذه الشروط.

أولا ــ الشيخ المربي:

عرفنا سابقا ضرورة الشيخ المربي للسلوك الصوفي، وأنه لا يمكن أن تكون هناك طريقة من دون شيخ[1] يتولى توجيه المريدين، وترقيتهم، وإخراجهم من الأحوال التي قد يمرون بها، والتي تحول بينهم وبين استمرار سلوكهم.

وقد كانت هذه الدعوى مثار خلاف شديد بين الجمعية والطرق الصوفية، ولذلك احتجنا إلى طرح المسألة هنا من زاوية علمية بحتة، بذكر أدلة كل فريق، سواء تلك الأدلة التي يوردها كل طرف مباشرة، أو

---

[1]) ما عدا الطريقة التيجانية، فهي تجعل المقدمين بدل المشايخ، وهو خلاف شكلي لا حقيقة واقعية له.

توردها المدرسة التي ينتمي إليها.

موقف جمعية العلماء:

وردت الكثير من التصريحات من رجال الجمعية الكبار تصف مشايخ الطرق الصوفية بكونهم دجالين انتهازيين يتاجرون باسم الدين، ليخرجوا الناس من الدين، وهذه بعض تصريحاتهم وعللها في ذلك:

1 ـــ يعتبر ابن باديس مشايخ الطرق سببا في سكوت الناس عن طلب حقوقهم، وخدمتهم للمستعمر، فقد قال في مقاله الذي أثنى فيه على أتاتورك، فقد بين أنه كان من أعدائه (شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنومون فقد كانوا أعوانا للإنجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم. يوزعون ذلك المنشور ويثيرون الناس ضد المجاهدين)[1]

2 ـ ذكر الإبراهيمي الدور التفريقي الذي قام به شيوخ الطرق لتفكيك المجتمع الجزائري، فقال – في معرض رده على من يتهمون الجمعية بكونها سببا في ذلك-: (وأنّى لها أن تجتمع، وان أمامها في كل طريق ناعقًا ينعق باسم طريق وداعيًا يدعو إلى التفريق؟ بل كيف تجتمع وللشيوخ فيها ما للذئاب الضارية في قطيع الغنم؟ أم كيف تجتمع والشيوخ قد قسموها إلى مناطق نفوذ، وأحاط كل شيخ رعيته بأسوار منيعة من الترغيب والترهيب؟ كيف تجتمع وأتباع كل طريقة يعتقدون أنهم أهدى سبيلًا من أتباع بقية الطرق، وأن طريقتهم تضمن لسالكها الغنى في الدنيا وحسن الخاتمة عند الموت، وإن قتل النفس التي حرّم الله بغير حق؟)[2]

وفي موضع آخر يصف الشيخ الإبراهيمي ما كان يقع بين أصحاب الطرق من التفكك بسبب بعض الرسوم والشروط التي يشترطونها في علاقتهم بالشيخ، أثناء

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 215

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 139

رده على الرسالة التي دعي فيها إلى المناظرة، فقــال: (نحن - يا حضرة الكاتب - نعلم علم اليقين ونتحقّق حق اليقين أن الذي فرّق الأمة ومزّق وحدتها حـتى أصـبحت متنافرة إلى آخر مـا وصـفتها بـه هي الطـرق الـتي أنت أحد رعاياها أو الموظفين في مملكتها، لا بالآثار البعيــدة غير المباشرة بل بأصولها التي بنيت عليهـا، وبشـروطها الموثقة من شيوخها وبعهودها المأخوذة على أتباعها) [1]

ثم ذكـر بعض مـا تعتقـده الطـرق في هـذا، فقـال: (أتتجاهــل أن من العهــود المؤكــدة على المريــد أن لا يـدخل في طريقـة أخـرى ولـو بعـد مـوت شـيخه (على المشهور)، وأن لا يدخل في زاوية أخرى ولا يصلّي فيهـا ولا يحضـر مجـالس ذكرهـا، وأن لا يعـدّ أخًـا لـه إلّا أهـل طريقتــه، وأن يعتقــد أن شــيخه أكمــل المشــائخ وأن طريقته أفضل الطرق، وأن مـا عـدا شـيخه مفضـول أو مدع، وما عدا طريقتـه فباطـل بحيث لـو أردنـا أن نحتجّ عليكم بكم لكانت النتيجـة هكـذا: كـل طريقـة في نظـر الأخريات باطلة، فالكـل باطـل، وكـل شـيخ طريقـة في نظـر زملائـه مـدع أو محجـوب أو كـذاب فالكـل كـذلك بشهادة بعضهم على بعضهم، وهكـذا ننـتزع الـدليل على بطلانكم من غير أن نخرج من العالم الطرقي.. أتتجاهل أن من العهـــود في بعض طـــرقكم أن لا يصـــلي ذو الطريقة خلف ذي طريقـة أخـرى ولا يصـهر إليـه وأن لا يزور قبر مسلم إلا قـبر شـيخه وذوي طريقتـه إلى غـير ذلك)[2]

ثم ذكر الواقع الجزائري قبل مجيئ الجمعية، وكيــف كان مفككا بين أيدي مشايخ الطرق، فقال: (أتتجاهل أن الأمة الجزائريـة كـانت متفرقـة إلى فـرق بعـدد الطـرق التي فيها على النحو الـذي ذكرنـاه وكلهـا على الباطـل،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 304)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 304)

فجاءت جمعية العلماء فصيّرت الأمة فرقتين إحداهما على الحق؟)[1]

3 ـ اعتبر الإبراهيمي أن مشايخ الطرق الصوفية كانوا مطايا للاستعمار يستعملهم لأغراضه كيف يشاء، يقول في ذلك: (كان من وسائل فرنسا لإفساد المعنويات.. حماية الدجّالين والمضلّلين باسم الدين من شيوخ الطرق الصوفية، وقد جنت فرنسا من هؤلاء كل خير لنفسها، فقد كانوا مطاياها وجنودها الروحيين في احتلال الأوطان الإسلامية، ويقول بعض المغفلين إنهم هم الذين نشروا الإسلام في أواسط افريقيا وفي السودان، وهذا تخليط. فإن الذين نشروا الإسلام في تلك الأصقاع هم طائفة من أجدادهم الصالحين بمعونة التجّار، أما هؤلاء الأحفاد فما نشروا إلا الاستعمار الفرنسي)[2]

موقف الطرق الصوفية:

لا تخالف الطرق الصوفية الجمعية كما لا تخالف الاتجاه السلفي في وجود انحرافات في بعض الطرق، أو في بعض المشايخ، أو في بعض المنتسبين لهم، ولكنها لا تعتبر ذلك مبررا لإلغاء ضرورة الشيخ في السلوك إلى الله، ولا تعتبر ذلك مبررا للقعود عن البحث عن الشيخ المربي.

فالشيخ ابن عليوة مثلا – مثل غيره من الصوفية- يقر بوجود المنحرفين والفسقة والدجالين في مشايخ الطرق، فيقول: (.. أحدثت الأحداث في الطريق ما ليس فيها وغلطوا، وزادوا عن المعارف حيث فقدوها، وطلبوا الدخول للحضرة وقد خالفوها، حيث لم يأتوا البيوت من أبوابها، وقد جعلوا عمدتهم في الطريق على أمور وهميّة وصور فانية لم توجد في السلف، ولا في

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 304)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 79)

الخلف)[1]

ولكنه – كما ذكرنا في محال مختلفة – يطلب من الجمعية أن تناقش المسألة من الزاوية النظرية، لا من ناحية الواقع، والذي قد تكون فيه بعض الانحرافات، فوجود الانحراف لا يعني فساد القضية بالضرورة، وقد ذكرنا هذا بتفصيل عند بيان دعوة الشيخ ابن عليوة علماء الجمعية لإصلاح الطرق، لا استئصالها، وهي الدعوة التي رفضتها الجمعية واعتبرتها مخالفة لمنهجها الاستئصالي.

وبناء على هذا، يذكر الصوفية أمرين في مقام الاحتجاج لضرورة الشيخ أمرين لا ينفكان عن بعضهما البعض:

الأول: شروط الشيخ المربي حتى لا يقع المريد بين أيدي الدجاجلة والفسقة من المدعين للمشيخة.

والثاني: الأدلة الشرعية على اعتباره، وصحة اتباعه.

شروط الشيخ المربي:

يذكر الصوفية الكثير من شروط الشيخ المربي، وهي موضع اتفاق بين سلفهم وخلفهم في ذلك، فمن تلك الشروط ما عبر عنه أبو القاسم القشيري بقوله: (قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحدا منهم لم يتصدر للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ولم يكن أحد في عصر ممن العصور إلا وعلماء ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته)[2]

---

[1]) ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، 262.

[2]) نقلا عن: الشيخ ابو المواهب الشعراني، الانوار القدسية في بيان آداب العبودية، الطبعة الاولى – سنة 1373 هـ / 1954 م شركة مكتبة ومطبعة

وعــبر عنهــا أبــو العبــاس المرسي شــيخ الطريقــة الشاذلية في وقته بقوله: (من كان فيه خمس خصـال لا تصــح مشــيخته: الجهــل بالــدين، وإســقاط حرمــة المسلمين، والدخول فيما لايعني، واتباع الهـوى في كـل شيء، وسوء الخلق من غير مبالاة)[3]

وذكــر شــيخ الصــوفية الأكــبر ابن عــربي الكثــير من شروط الشيخ وصفاته، فقال: (الشيوخ نواب الحــق في العالم، كالرسل عليهم الصلاة والسلام في زمـانهم، بـل هم الورثة الذين ورثـوا علم الشـرائع عن الأنبيـاء عليهم السلام غير أنهم لا يشـرعون، فلهم حفـظ الشـريعة في العمــوم، وليس لهم التشــريع، ولهم حفــظ القلــوب ومراعـاة الآداب في الخصـوص، وهم من العلمـاء باللـه بمنزلة الطبيب وقد جمع الشيخ بين الأمرين.. والشــيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة قائلون بهـا في ظـواهرهم متحققون بها في سرائرهم، يراعون حـدود اللـه تعـالى، ويوفون بعهد اللـه قـائمون براسـم الشـريعة لا يتـأولون في الورع، آخذون بالاحتيـاط، مجـانبون لأهـل التخليـط، مشــفقون على الأمــة، لا يمقتــون أحــدا من العصــاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضـون مـا أبغض اللـه، يـأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليـه، يسـارعون في الخــيرات، ويعفــون عن النــاس، يــوقرون الكبــير، ويرحمون الصـغير، يميطـون الأذى عن الطريـق طريـق الله وطريق الناس، يؤدون حقـوق النـاس، يـبرون عبـاد الله، هينون لينون رحماء بين خلق الله)[1]

بنـاء على هـذا نحـاول أن نـذكر هنـا - باختصـار - مـا

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص 63.

[3] تاج العروس، ص (90.

[1] الفتوحات المكية (2/ 365)

ذكـره الشـيخ ابن عليـوة من شـروط الشـيخ المـربي، باعتبـار أن أكـثر النقـد الموجـه من الجمعيـة للطـرق الصوفية كان مرتبطا به، وباعتبار أن ما ذكره منهـا يكـاد يكون جامعا لما ذكره من قبله.

وقد حدد الشـيخ ابن عليـوة شـروط الشـيخ المـربي الذي يتحدث عنه الصـوفية، حـتى لا يقـع المريـدون في قبضة الشيوخ الدجالين، أثناء شرحه لقول ابن عاشر:

شرط الإمام ذكـر آت بالأذكــــــار
مكلف وحكمـــــا يعــــــرف

وغــير ذي فســق في جمعـــة حـــرّ
ولحن واقتـــــــــداء مقيم عــــــــــددا

فقال: (فـأخبر أنّ الإمـام الـذي هـو كنايـة عن شـيخ التربيـة الـدّال على اللـه باللـه، المـدّعي الوصـول إليـه يشترط فيه شروط، فإن فقـدت أو فقـد شـرط منهـا لا يصـحّ الإقتــداء بــه، ولا يمكن الوصـول للمريـد مـا دام متعلّقـا بـه، بـل يكـون لـه قاطعـا عن اللـه من أعظم القواطع حيث كان المريد متعلّقا به لا يلتفت لغيره) [1]

وبناء على هذا قـام الشـيخ بتطـبيق شـروط الإمامـة في الصلاة على شـروط الشـيخ المـربي، فـذكر أن من شروط الشيخ المربي[2]:

1 ــ التكليف: والمراد به – كما يـذكر ابن عليـوة – (أن يكون غير صبي في طريق القوم، بأن يكـون مبتـدئا في علمهم كأهل الفناء في الأفعـال والصـفات مثلا، بـل يكـون بالغـا ومبالغـا في شـهود الـذات الجامعـة لسـائر

1) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، 258.

2) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، 259.

الأسماء والصفات متغلغلا في ذلك، فهذا هو الـذي يصـحّ الإقتداء به، وأمّا من سواه كأهل المقامات الواقعين مـع ظهـور التجليّـات فهـؤلاء لا يجـوز الاقتـداء بهم اللهم إلاّ بأمثالهم، وهم أهل النوافل المعبّـر عنهم بأهـل التـبرّك، وأمّا أهل السلوك فيشترط في إمـامهم أن يكـون بالغـا في التحقيق، وأن يكون في بلوغه مكلّفا أي شاعرا غـير مغلوب عليه كأهل الجذب، فكذلك لا يجوز الاقتــداء بهم لكـــونهم لا يميّــزون بين المـــراتب والمقامـــات، لأنّهم مغمورون في غياهب التحقيق.

2 ــ الإتيان بالأركان: والمراد من هذا الشــرط – على حسب الشيخ ابن عليـوة -أن يكـون عارفـا بأركـان الطريق، وآتيا بها متلبّسـا بفعلهـا، فأركـان الطريـق هي الأصول التي يتوقف عليها وجود التربية، وقد ذكر الشيخ ابن عليـوة أنهـا اثنـان لا غـير، وهي (أن يكـون الشـيخ ظاهره سلوكا في الحضرة المحمديّة، وباطنـه جـذبا في الحضرة الأحديّة)

3 ــ علمه بالحكم: والمراد به – كما يـذكر الشـيخ ابن عليوة – (أن يكون عالما بحكم اللـه في الشـرع من حيث الظـاهر، وفي الطريـق من حيث البـاطن، وعليـه فالعـارف يلاحـظ حكم اللـه في جميـع الأشـياء ظاهرهـا وباطنها بأن يكون فاطنا بإشـارة الحـقّ لـه، وفاهمـا عن الله عزّ وجلّ، بحيث يكون نظـره عـبرة وصـمته فكـرة، يدور مع قضاء الحقّ حيث دار، ويلاحظ سرّ الألوهيّـة أين سار، يشاهده في الكثائف ويحفظه في اللطائف، لسانه مـع الخلـق وباطنـه مـع الحـقّ، فهـذا واللـه وليّ اللـه، ويستحق التقدم على الخواص والعوام) [1]

4 ــ العدالة: وذلـك بـأن يكونـوا (عـالمين بالشـرع

---

[1]) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، 260.

الشريف مستغرقين في الجمع، عاملين في الظاهر من حيث المجاهدة، وفي الباطن من حيث المشـاهدة، فمـا هم إلاّ على قــدم النبــوّة على صــاحبها أفضــل الصــلاة وأزكى السلام)[1]

وبناء على هذا يرى ابن عليوة أنـه (لا يجـوز الاقتـداء بمن كان فاسقا في الطريـق، ولا فسـق أعظم من هـذا الفسق، لما فيه من الضرر العام للمقتدي بكلامهم، لأنّ ذلك من أعظم الآفات، لكونهـا صـورا وهميّـة يجب على الفقير الإعراض عنها، وإن عرضت له فلا يلتفت إليها) [2]

بل إن الشيخ ابن عليوة يذكر نفس ما يذكره الاتجاه السلفي وعلمـاء الجمعيـة من حرمـة الاقتـداء بمن هـذا حاله، فيقـول: (ومن لم يكن على قدمـه في سـيره، فلا يجوز الاقتداء بـه كائنـا مـا كـان،، ولـو كـان ممن يخـرق الجبال فما هو إلاّ مفتر بطال وهائم في أوديــة الضــلال) [3]

5 ــ تجنب اللحن: وليس المراد منه – كمـا يـذكر ابن عليوة - لحن اللسان، (وإنّما المراد به لحن الجنان (القلب)، والعياذ بالله الّذي لا يجبر إلاّ بالمكث في النــار ما شاء الله) [4]

وهنا يعتب الشـيخ ابن عليـوة بطريقـة غـير مباشـرة على علماء الجمعية الذين بالغوا في اعتبار لحن اللسان

---

[1]) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، 260.

[2]) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، 260.

[3]) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، 261.

[4]) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، 262.

متجـاهلين لحن الجنـان، فقـال: (ومن العجب أن يتعلّم الإنسـان نحـو اللسـان ولا يتعلّم نحـو القلب ولا يعلّمـه، ونحو القلب يعبّرون عنه بـالمحو لمحـوه مـا سـوى اللـه من القلب، وصاحب هـذا المحـو لا ينطـق إلاّ بالحكمـة، ومن لم يوجد فيه هذا الوصف لا تصحّ إمامته)[1]

أدلة شرعية اتخاذ الشيخ المربي:

من الأدلـة الـتي يـذكرها الصـوفية لاعتبـار الشـيخ المربي ما يلي[2]:

1 ــ قوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْـذِرٌ وَلِكُـلِّ قَـوْمٍ هَـادٍ} [الرعد: 7]، وهذا يـدل على أن المعلم الهـادي والـدليل المرشد ضرورة لزومية طبعا وشرعا، ولأجل هذا أرسل الله الرسـل مبشـرين ومنـذرين لئلا يكـون للنـاس على اللـه حجـة بعـد الرسـل.. ولأجـل هـذا وجـد الإشـراف والتوجيه البشري في كـل شـيء سـواء كـان وظيفـة أو تجارة أو تعليما أو احترافا أو إدارة أو غير ذلك.

2 ـــ مـا ورد من النصـوص بوجـوب اتبـع سـبيل المنيبين، كما قال تعالى: (وَاتَّبِعْ سَـبِيلَ مَنْ أَنَـابَ إِلَيَّ) (لقمان: من الآية15)، ومن ذلك قولـه بعـدما ذكـر اللـه أنماطا من أهل القدوة الصالحة الداعية إليـه تعـالى في سـورة الأنعـام قـال لرسـوله : {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]

3 ــ أن هناك آيـات قرآنيـة كثـيرة تـدعو إلى اللجـوء للخبراء، والشيخ من الخـبراء بـالنفوس، وبالتربيـة، ومن

---

[1]) ابن عليـوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصوفية، 263.

[2]) انظـر في هـذه الأدلـة وغيرهـا، يوسـف خطـار محمـد، موسـوعة الأدلـة اليوسفية، الطبعة الثانيـة - 1999،ـ ص519،ـ وهي من أكـبر الموسـوعات في ذكر أدلة الصوفية.

ذلـك قولـه تعـالى: { فَاسْـأَلُوا أَهْـلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43]، وقولـه {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْـلُ خَبِـيرٍ } [فـاطر: 14]، وقولـه: {الـرَّحْمَنُ فَاسْـأَلْ بِـهِ خَبِـيرًا} [الفرقان: 59]

4 ـــ قولـه تعـالى: {وَمَنْ يُضْـلِلْ فَلَنْ تَجِـدَ لَـهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } [الكهف: 17]، وفيه دلالة واضـحة على وجـود هذا الـولي المرشـد وعلى تـأثيره، ولكن تـأثيره مرتبـط بإرادة الله، وحتى يفهم هذا الدليل قد يعبر عنه بصـياغة أخرى، فيقال: (ومن يمـرض اللـه فلن تجـد لـه طبيبـا)، وهذا لا يعـني أن الطـبيب لا يـؤثر، وإنمـا تـأثيره مرتبـط بإذن الله.

5 ــ أن للشيخ المربي دورا مهما في تزكية النفـوس وتطهيرها من عيوبها وتخليصـها من أمراضـها ثم الـرقي بـالنفس إلى مراحـل متقدمـة في السـلوك الإسـلامي الصـحيح ومكانـة المـربي هي وراثـة للقـدوة المحمديـة الكاملة ولذا قال الرسول صلى الله عليـه وآلـه وسـلم: (العلماء ورثة الأنبياء)[1]

6 ــ أن اللـه تعـالى أمـر المسـلمين أن يعيشـوا مـع الصادقين كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبـة: 119]، والصـادقون في كتـاب اللـه هم كمـا قـال اللـه تعـالى: {إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ آمَنُــوا بِاللَّهِ وَرَسُــولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَــابُوا وَجَاهَــدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحجرات: 15]، ولذا نجد أن وجود المربي في العمليـة التربوية الروحيـة والسـلوك الإيمـاني والتزكيـة النفسـية حتم مطلوب شرعا وعقلا وعملا.

7 ــ قول الله تعالى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ وَلِيُنْـذِرُوا قَـوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُـوا

[1] سنن الترمذي (5/ 48)

إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْـذَرُونَ} [التوبـة: 122]، فهـؤلاء الـذين نفروا ليتفقهوا في الدين وليتعمقوا في السلوك التربوي السليم والذين تكاملت صـفاتهم النفسـية وازداد قـربهم إلى الله تعالى سلوكا وفكرا ونضوجا فهم الذين يكونون قـادرين على تزكيـة النفـوس وتطهيرهـا من أمراضـها المتعددة.

8 ـ أن الشيخ العـارف باللـه تعـالى يختصـر طريـق السلوك فيعطي للمريـد خلاصـة مـا وصـل إليـه، ويعينـه على كشـف خفايـا نفسـه وأمراضـها ليتخلص منهـا، بالإضافة إلى التربية بالقـدوة الـتي نص عليهـا الصـوفية بقـولهم: (لا تصـاحب من لا ينهضـك حالـه، ويـدلك على الله مقاله) [1]

9 ـ أن في قصة نبي الله موسى عليـه السـلام مـع المعلم قد وردت بالتفصـيل، وهي ترشـد السـالكين إلى درب العلم اللـدني، قـال اللـه تعـالى عن المعلم الـذي اتخذه موسـى عليـه السـلام: {فَوَجَـدَا عَبْـدًا مِنْ عِبَادِنَـا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًـا (65) قَـالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْـدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْـبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِـهِ خُبْـرًا (68) قَـالَ سَـتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ

---

[1]) حكمة لابن عطاء الله السكندري، وقد قـال ابن عجيبة في شـرحها: (الـذي ينهضك حاله هو الذي ذا رأيته ذكرت الله فقد كنت في حال الغفلة فلمـا رأيتـه نهض حالك إلى اليقظة أو كنت في حالة الرغبـة، فلمـا رأيتـه نهض حالـك إلى الزهد أو كنت في حالة الأشتغال بالمعصية فلما رأيته نهض حالك إلى التوبة أو كنت في حالة الجهل بمولاك فنهضت إلى معرفة من تولاك وهكذا والذي يدلك على الله مقاله هو الذي يتكلم بالله ويدل على الله ويغيب عما سـواه إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب وإذا سكت أنهضك حالـه إلى علام الغيـوب فحالـه يصـدق مقاله ومقاله موافق لعلمـه فصـحبة مثـل هـذا أكسـير يقلب الأعيـان) (انظـر: إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: 57)

اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69)} [الكهف: 65 - 69]، وهذا دليل شرعي على حاجة الناس إلى المعلم والمربي الذي علم ما لم يعلموا وفقه ما لم يفقهوا.

بالإضافة إلى هذه الأدلة يذكر الشيخ ابن عليوة الجمعية بتأثير الشيخ التربوي للسالك، ويختار من النماذج على ذلك الشخصية التي تصورت الجمعية أنها امتداد لفكرها، وهي شخصية محمد عبده، فقد ذكر الشيخ ابن عليوة علاقته بالشيخ المربي، وتأثيره فيه، ونقل ذلك من مجلة المنار التي يرى أعضاء الجمعية أنهم تتلمذوا عليه.

ولا بأس من إيراد ما نقله الشيخ ابن عليوة لأهميته كدليل في هذا المحل، فقد حدث عن نفسه قال: (إن أول استلفاتي لطريق القوم هو أن الشيخ درويش، وكان من أقاربه دفع إلي كتاباً فيه بعض رسائل تشتمل على شيء من أخلاق القوم ومعارفهم لنقراها عليها، فدفعته له بعنف لأني كنت لا أريد القراءة لما تلبست به من حب الملاهي، ورميته له، ثم عاودني به وهكذا كان يكرر علي الطلب إلى أن طاوعته لذلك، ولما أمعنت النظر في الكتاب أخذ بمجامعي إلى أن صرت لا أمل من قراءته، وكان يفسر لي كل ما أشكل علي، وكانت هاته الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في أدب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذايل وتزهيدها في الباطن من مظاهر هذه الحياة الدنيا ولم يأت علي اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلي ما كنت أبغضه من مطالعة كتب القوم وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني إلى ما كنت أحب ويزهدونني في عشرة الشيخ)[1]

---

[1] مجلة المنار (8/ 379)

ثم ذكر الشيخ محمد عبـده صـحبته للشـيخ درويش، وتأثيره فيه: فقال: (.. وبعد ذلـك سـألت الشـيخ مـا هي طريقتكم؟ فقـال: طريقتنـا الإسـلام فقلت: أوليس كـل النـاس مسـلمين؟ فقـال: أومـا رأيتهم يتنـازعون على التافه من الأمور، أومـا سـمعتهم يحلفـون باللـه كـاذبين بسبب وبغـير سـبب؟ فكـانت هـذه الكلمـات كأنهـا نـاراً أحرقت ما كان عندي قبل ذلك من المتاع القديم ،متـاع تلك الدعاوي الباطلة والمـزاعم الفاسـدة متـاع الغـرور بأننا مسلمون ناجون وإن كنا في غمرة سـاهين، سـألته مـا وردكم الـذي يتلى في الخلـوات عقب الصـلوات، فقال: (لا ورد لنا إلا القرآن نقرأ مع كل صلاة أربع أرباع مع الفهم والتدبر) فقلت: (أنى لي أن أفهم القـرآن ولم أتعلم شيئاً ؟) قال : (اقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض عليك التفصيل، فإذا خلوت فـاذكر اللـه) على طريقـة بينهـا لي، وأخـذت أعمـل مـا قـال لي من اليوم الثامن، فلم تمض علي مـدة أيـام إلا وقـد رأيتـني أطـير بنفسـي في عـالم آخـر غـير الـذي كنت أعهـده، واتسع عندي ما كنت أعهده، واتسع عندي ما كان ضيقاً، وصغر عندي ما كان متسعاً، وعظم عندي أمـر العرفـان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس، وتفرقت عني جميع الهمـوم ولم يبـق لي إلا هم واحـد وهـو أن أكـون كامـل المعرفة كامـل آداب النفس ولم أجـد من يرشـدني إلى مما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيـام من سـجن الجهـل إلى فضـاء المعرفـة ومن قيـوده التقليـد إلى إطلاق التوحيـد هـذا هـو الأثـر الـذي وجدته في نفسـي من صـحبة أحـد أقـاربي وهـو الشـيخ الدرويش خضر من أهالي مديرية (البحيرة) وهـو مفتـاح سعادتي أن كان لي سعادة في هـذه الحيـاة الـدنيا وهـو الـذي كشـف لي مـا كـان غـاب عـني ممـا أودع في

فطرتي..إلخ)[1]

ثانيا ـ الذكر وضرورته للسلوك:

عرفنا عند الحديث عن الاتجاه الفكري للطرق الصوفية اهتمام الصوفية بالأذكار، واعتبارها أقرب طريق إلى الله، بل يعتبرون أنه لا يمكن أن تكون هناك طريقة من دون أذكار.

وقد وافقتهم جمعية العلماء في هذا الاعتبار، واختلفت معهم في بعض الرسوم التي تمارس بها تلك الأذكار، كالجهر بالذكر، والاجتماع عليه، والالتزام ببعض الصيغ فيه، وخصوصا الذكر بالاسم المفرد، ونحوها.

وسنحاول أن نستعرض هنا كلا الموقفين، مع الأدلة التي يعتمد عليها.

موقف جمعية العلماء:

لا تختلف الجمعية عن الطرق الصوفية، بل عن جميع المسلمين في أهمية الأذكار وتأثيرها، وشموليتها، وقد كتب ابن باديس فصلا مهما في الشهاب[2] في الحديث عنه قدم له بقوله: (الذكر أصل من أصول الدين العظيمة، أو هو الدين كله، ولذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه. فالمسلم إذا شديد الحاجة إلى معرفته وفقهه، وطريقة العمل به)[3]

ثم بين المعاني التي يراد بها من الذكر في القرآن الكريم والحديث الشريف، فذكر أنها ثلاثة: (ذكر القلب فكراً واعتقاداً واستحضاراً، وذكر اللسان قولاً، وذكر

---

[1] مجلة المنار (8/ 379)

[2] الشهاب، ج 2 م 5 ص 1 ـ 7. غرة شوال 1347 - مارس 1929، وانظر: آثار ابن باديس (1/ 129، وما بعدها)

[3] آثار ابن باديس (1/ 129)

الجوارح عملاً)[4]

ثم شرحها واحدا واحدا، وسنحاول هنا أن نختصر ما ذكره لأهميته في بيان مواضع الاتفاق بين الجمعية والطرق الصوفية في هذه المسألة الخطيرة.

ذكر القلب:

وقد ذكر ابن باديس أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام[2]:

الأول: التفكر في عظمة الله وجبروته وملكوته، وآياته في أرضه وسمواته وجميع مخلوقاته، وأنواع آلائه وعظيم إنعامه على خلقه، واعتبر ابن باديس هذا القسم من أعظم الأذكار وأجلها وأفضلها، وبه يتوصل إليها ويستحق الثواب عليها، إذ هو أساسها الذي تبنى عليه. فالأعمال مبنية على العقائد، والعقائد لا تثبت إلا بالتفكر، وبه تنجلي في العقول، وترسخ في النفوس، وتحصل للناظر طمأنينة اليقين.

الثاني: العقد الجازم بعقائد الإسلام في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله، عقداً عن فهم صحيح وإدراك راسخ تتحلّى به النفس بمقتضيات تلك العقائد وتتذوق حلاوتها وتتكون لها منها إرادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها، تلك الإرادة التي لا تكون إلا عن عقيدة راسخة في النفس ويقين مطمئن به القلب. ولذا كان هذا الضرب من ذكر القلب متفرعاً عن الضرب الأول ومبنياً عليه.

الثالث: استحضار عظمة الرب وإنعامه وما يستحقه من القيام بحقه عند كل فعل وترك فيفعله بإذنه لوجهه ويترك بإذنه لوجهه. ولا يدوم هذا الإستحضار إلا إذا رسخت العقيدة التي هي من مقتضى

---

[4] آثار ابن باديس (1/ 131)

[2] آثار ابن باديس (1/ 131)

الضـرب الثـاني، ودامت الفكـرة الـتي هي من مقتضـى الضرب الأول، فهو متفرع عنهما ومتوقف عليهما.

وضـرب ابن بـاديس الأمثلـة على هـذا بقولـه: (فـإن الذكر المناسـب لمـواطن الحـرب هـو استحضـار عظيم حق الله على العبد في القيام بذلك الفرض، واستحضار وعده ووعيده، مما يقوي القلب ويكسب الجرأة والثبات وانتظار النصر)[1]

ذكر اللسان:

وقد قسمه ابن باديس إلى الأقسام التالية[2]:

الأول: ذكر الله تعالى بالثناء عليه والاعتراف بنعمه وإظهار الفقر إليه بـأنواع الأذكـار والـدعوات، وذكـر ابن باديس أن من شرط الإعتداد بهذا الذكر (حضـور القلب عنده)

الثاني: ذكره تعالى بدعوة الخلـق إليـه، وإرشـادهم إلى صراطه المستقيم الموصل إليه بتعليم دينه والتنبيـه على آياتـه وإنعاماتـه وتبـيين محاسـن شـرعه وتفهيم أحكامـه وشـرح حكمتـه في خلقـه وأمـره والـترغيب والترهيب بوعده ووعيده.

ويذكر ابن باديس هنا - نقلا عن عطاء – أن (مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيـف تشـتري وتـبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج... وأشباه هذا)[3]

وكـأن ابن بـاديس يـرد من خلال هـذا على الطـرق الصوفية التي تعتبر مجالسها التي تذكر اللـه فيهـا ذكـرا جماعيا هي مجالس الذكر الثابت فضـلها في النصـوص، لأنها تعتبر أن الاجتماع على الذكر بدعة.

---

[1] آثار ابن باديس (1/ 133)

[2] آثار ابن باديس (1/ 134)

[3] آثار ابن باديس (1/ 134)

ذكر الجوارح:

وقد فسر ابن باديس هذا النوع من الذكر باستعمال الجوارح في الطاعات، وكل عمل لها أو انكفاف على مقتضى الشرع، فهو طاعة، وكل طاعة لله فهي ذكر، فكل عامل لله بطاعته فهو ذاكر لله تعالى.

بناء على هذه التقسيمات خلص ابن باديس – كعادته في دروس تفسيره- ختم هذا البيان بنتيجة عملية دعا من خلالها إلى الذكر بمختلف أنواعه، وحذر عن الاشتغال (بالتعلم والعلم عن الأذكار المأثورة حتى يتركها الطالب جملة ويكون عنها من الغافلين، فيحرم من خير كثير وعلم غزير، وقد كان- صلى الله عليه وآله وسلم- معلم الخلق، وما كان يغفل عن تلك الأذكار)[1]

وعلى عكس هؤلاء (بالغ قوم في بعض هذه الأذكار فأتوا منه بالآلاف، وأهملوا جانب التفكير الذي هو أعظم أذكار القلب، والذكر اللساني أحد وسائله، فتشغلهم الوسيلة عن المقصود. وليس ذلك من هدى من كان- كما تقدم- دائم التفكير. وقد يؤديهم الذكر اللساني بالألوف إلى الإنقطاع عن مجالس العلم والزهد في التعلم فيفوتهم ما قد يكون تعلمه عليهم من فروض الأعيان. وليس من سداد الرأي وفقه الدين إهمال المفروض اشتغالاً بغير المفروض)[2]

وابن باديس بهذا يشير إلى ما عليه الصوفية من الإكثار من الذكر إلى درجة الانشغال عن كثير من العلم، كما سنرى ذلك عند بيان منهج الصوفية في التلقي من المصادر الغيبية.

بالإضافة إلى هذا كتب ابن باديس مقالا مطولا

---

[1] آثار ابن باديس (1/ 136)

[2] آثار ابن باديس (1/ 136)

تساءل فيه عن (أَفْضَلُ الْأَذْكَـار)[1]، وقـد وصـل فيـه إلى نتيجة هي أن (القرآن أفضل الأذكار)[2]، ذلك أن (أشرف حالتي الإنسان- وهي حالة انفراده بربه، وتوجهـه بكليتـه إليه، وخلوص قلبه له وتعلقه به- إنما تحصل على أكملها لتالي القرآن العظيم. فـإن أفضـل مـا فيـه- وهـو قلبـه- يكـون قائمـاً بأفضـل أعمالـه، وهـو التفكـر والتـدبر في أفضل المعاني، وهي معاني القـرآن. وأن ترجمـان ذلـك القلب- وهو لسـانه- يكـون قائمـاً بأفضـل أعمالـه، وهي البيان بأفضـل كلام وهـو القـرآن. وجوارحـه- إذا لم يكن في صـلاة- كـانت محبوسـة على قيـام القلب واللسـان بأفضل الأعمال. وإذا كان في صلاة كانت قائمة بأفضــل عبـادة، وهي الصـلاة في أشـرف موقـف، وهـو مناجـاة الرحمن بآيات القرآن)[3]

ويظهر من خلال هذا المقال رد ابن بـاديس بطريقـة غـير مباشـرة على الصـوفية لاهتمـامهم بكـثرة الأذكـار، وتعدد صيغها، وقد تصور أن ذلك حجاب عن القرآن.

بـل إنـه صـرح بـذلك حين نقـل عن سـفيان الثـوري قوله: (سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر)، ونقل عن النووي قوله: (واعلم أن المذهب الصـحيح المختـار الـذي عليـه من يعتمـد من العلمـاء أن قـراءة القـرآن أفضل من التسبيح والتهليـل وغيرهمـا من الأذكـار، وقـد تظـاهرت الأدلـة على ذلـك، قالـه في البـاب الثـاني من كتاب التبيان) [4]

ونرى أن ما ذكره ابن بـاديس من هـذا التفاضـل هـو

---

[1] الشهاب: ج 3، م 5، ص 1 ـ 6. غرة ذي القعدة 1347هـ افريل 1929م، وانظر: آثار ابن باديس (1/ 138، وما بعدها)

[2] آثار ابن باديس (1/ 140)

[3] آثار ابن باديس (1/ 140)

[4] آثار ابن باديس (1/ 143)

في الحقيقة نوع من الاحتيال للصد عن الـذكر، ذلـك أن للذكر محله، وللقرآن محلـه، وللصـلاة محلهـا، ولا يمكن لشيء أن يعوض شيئا، بالإضافة إلى هذا فـإن النصـوص القرآنيـة تعـبر عن تلاوة القـرآن بـالتلاوة، لا بالـذكر، وبالتـالي فلا يمكن أن ننسـخ الـذكر بـالتلاوة، كمـا لا نستطيع أن ننسخ التلاوة بالذكر.

بعد هذا، فإن جمعية العلماء – كما عرفنا في الفصل السابق- تعتبر أكثر ما يمارسه الصوفية في بـاب الـذكر من البدع المحرمة، وقد عـبر عن هـذا التوجـه السـلفي المتشدد من طرف الجميعة الشيخ العربي التبسي أثناء تقسيمه الأحكام الشرعية التعبدية إلى قسمين[1]:

1 ــ قسم تـولى اللـه تعيينـه في نفسـه وفي عـدده وفي وقته، كالصـلوات الخمس في الفـرائض وكركعـتي الفجر في النوافل وكرمضان في صوم الفـرض وعرفـة في النفل.

2 ــ قسم طلبه منا طلبا وأوكل تعـيين عـدده ووقتـه إلى قوة المكلف، وما جعل عليه مسيطرا ولا وكيلا، وله في نفسه أن يعين مـا شـاء في أي وقت شـاء على مـا تعطيه القوة البشرية.

ثم رأى، بل جزم بـأن (الأذكـار في غـالب أمرهـا من هذا القبيل.. فمنها ما رغب الشـرع في عـدد منهـا طلبـا للكثرة ومنها ما طلبه طلبا مطلقا موكـولا لقـوة الـذاكر يـزن نفسـه ثم يثبت مـا يسـتطيع أن يـداوم عليـه. ومـا علمنا أن رسول الله ﷺ مدة عمره حدد الأذكار لأحد من أصـحابه تحديـدا يماثـل تحديـد الطرقـيين على اختلاف أسمائهم. ولا تقل عن أحد من السلف أنـه حـدد الأذكـار لغيره ممن عاصره فضلا عن أن يجعله ذكرا شائعا ذائعا

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 10)

يعرف بذكره طريقة فلان)[1]

ومن خلال ما استقرأناه من مواقف الجمعية وغيرها، نرى اعتبارهم لكل ما يمارسه الصوفية من الجهر بالذكر، أو الاهتزاز والحركة أثناء الذكر، أو الذكر الجماعي، أو الذكر بالاسم المفرد بدعا حادثة.

وسنرى تفاصيل رد الطرق الصوفية على هذا في العنوان التالي.

موقف الطرق الصوفية:

قبل أن نذكر تفاصيل أجوبة الطرق الصوفية على ما اعترض به عليها مما يتعلق بالأذكار، نحب أن ننقل نصا للشيخ ابن عليوة يرد به على كتاب (المرآة لإظهار الضلالات) للشيخ عثمان ابن المكي[2] المدرس بمدينة تونس بجامعها الأعظم، صاحب التوجه السلفي المتشدد الذي لا يقل تشددا عن أعضاء جمعية العلماء، لنتبين أين وصل الأمر بالمختلفين في قضايا شرعية تكاد تكون بديهية.

يقول الشيخ ابن عليوة مخاطبا الشيخ عثمان بن المكي: (أو ليس قد تقرّر لدى الفكر العام بالتواتر أنّ مجلسا من مجالس الذكر يمحو عدّة مجالس من مجالس السوء، وهذا ممّا أطبقت عليه عقائد الأمّة خصوصا وعموما، فقمت أيّها الشيخ تبرهن في مرآتكم على أنّ المجالس المعدّة للذكر على اختلافها بين طبقات الذاكرين بدعة ضالّة على خلاف ما كان عليه

---

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 12)

[2] هو عثمان بن عبد القاسم بن المكي، التوزري الزبيدي المالكي. فقيه، كان مدرسًا بجامع الزيتونة بتونس، له: «توضيح الأحكام على تحفة الحكام» مطبوع، فرغ من تأليفه سنة 1338هـ.، و«الهداية لأهل البيان» مطبوع في تونس في فقه مالك، توفي بعد سنة 1338ه، (انظر: الزركلي، الأعلام (4/212)

السلف دون أن تذكر وجه مجالس الـذكر المنـدوب لهـا شـرعا، ومن المعلـوم أنـه يقـع من يعتـني بكلامـك في حيرة)[1]

وصدق الشيخ في هـذا، وهـو كمـا ذكرنـا بـأن المنهج السـلفي يعتمـد الهـدم، ولا يعتمـد البنـاء، فهـو يعتـبر مجـالس الـذكر المقامـة عنـد الطـرق الصـوفية بدعـة، ولكنه لا يصف مجـالس الـذكر الـتي تلـتزم السـنة، وإذا تحـدثوا عنهـا ذكـروا – كمـا نقلنـا عن ابن بـاديس- أنهـا مجالس العلم مع أن النصوص الـواردة في هـذا، والـتي سنرى بعضها تفرق بين مجالس الـذكر ومجـالس العلم، كمـا تفـرق بين تلاوة القـرآن والـذكر، لكن المنطـق السلفي يعتمد ضـرب الشـرائع بعضـها ببعض، فيضـرب الذكر بالتلاوة، ويضرب مجالس الذكر بمجالس العلم.

بعدها يبين الشيخ السر في هـذا الموقـف المتشـدد المخالف لما عليه أكـثر المسـلمين في جميـع الأعصـار، فقال: (وكلّ ذلك أصابك ولعلّه من عـدم الفقـه في دين الله، ولهذا اشترط عليه الصلاة والسلام في حـق الآمـر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر بـه فقيهـا فيمـا ينهى عنـه، لئلا يـأمر بمنكـر وينهى عن معروف، ومن أجل ذلك تورّع أكـابر العلمـاء عن القـول في دين الله بغير نصّ صريح، أو ما هو كالصريح.. فـإنّ من الحـق عليـك أن تنكـر مـا علمت إنكـاره من الـدين بالضـرورة، وتـأمر بمـا تحققت معروفيتـه من الـدين بالضـرورة، وتحسـن الظنّ فيمـا تفـرّع عن اجتهـاد المجتهـدين من أئمـة الـدين من الصـوفيّة وغـيرهم، أو ليس في علمك قـد يوجـد من المشـتبه مـا ثبت حرمتـه في مـذهب وإباحتـه في آخـر، أو ندبـه في مـذهب،

[1] ابن عليوة، القول المعروف، ص 46.

وكراهيته في الآخـــــر ؟)[1]

بعد هذا نرى الصـوفية يعمـدون إلى التفاصـيل الـتي أنكرهـا عليهم خصـومهم باعتبارهـا بدعـة لـيردوا عليهـا، وسـنحاول هنـا أن نختصـر في ذلـك معتمـدين بالدرجـة الأولى على ما كتبه رجال الطرق الصوفية في الجزائـر، وخصوصـا مـا كتبـه الشـيخ ابن عليـوة في ردوده على رجال الجمعية أو غيرهم من أصحاب الاتجاه السلفي.

وقد قسمنا ذلك بحسب تفاصيل مـا أنكـر عليهم إلى ما يلي:

1 ــ الاجتماع على الذكر:

وهي من المسائل المهمة التي وقع فيها الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية، ذلك أن الجمعية ومعها التيار السـلفي تعتـبر تلـك المجـالس بدعـة، بـل وصـل الأمـر ببعض دعاة التيار السلفي في وقت الجمعية وهو الشيخ عثمـــان ابن المكي إلى اعتبـــار مـــا يحصـــل في تلـــك المجلس بدعة وضلالة، بل وكفرا[2].

---

[1]) ابن عليـــوة، أعـــذب المناهل في الأجوبـــة والمســـائل، نقلا عن: صـــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص202.

[2]) حاولنا أن نبحث عن جملة مفيدة في كتاب المرآة لإظهـار الضـلالات يمكن أن نقتبسها للدلالة على موقف الرجـل، فلم نجـد، فالكتـاب مـع عظم اهتمـام المعاصرين به ليس إلا نقول غير موثقة، وكمثال على ذلك وضعه هذا العنـــوان (الفصل الأول في الاجتماع للذِّكر وذم البدع)، ثم بدء هذا الفصل مباشرة بهـذا النقل: (سُئل الحسن البصري عن اجتمـاع جماعـة من أهـل السـنة والجماعـة يقــرءون القــرآن في بيت أحــد ويصــلُّون على النــبي ﷺ ويــدعون لأنفســهم ولجماعة المسلمين؟ فنهى عن ذلك أشدَّ النهي؛ لأنه لم يكن من عمل السلف الصالح، وما لم يكن عليه عمل السلف، فليس من الـدين؛ فقـد كـانوا أحـرص الناس على الخير من هؤلاء، فلو كان فيـه خـير لفعلـوه ..(عثمـان ابن المكي،

وقـد رد عليـه الشـيخ ابن عليـوة – خصوصـا- ردودا كثيرة مفصلة سنوردها، وقبل ذلك نذكر هذا الـرد الـذي عبر عنه بقوله: (وإذا تقرّر لديك مـا تقـدّم من الـترغيب في مجالس الذكر، فقل لي : بالله عليك أين يوجـد هـذا الاجتماع المرغب فيه ؟، هل هـو في غـير البسـيطة، أم هو في غير أمّة محمد؟، أم هو يسمع ولا يرى؟)[1]

وهذا رد مهم جدا، وهو يـدل على مـدى فقـه الشـيخ ابن عليـوة، ذلـك أن من حكمـة اللـه أن الـدين لا يـزال قائمـا يتمثـل في طوائـف الأمـة جميعـا ومـذاهبها، فـإذا وجدنا أن رسول الله ﷺ حدثنا عن وجود مجـالس الـذكر – لا التــذكير- فهــذا يعــني أنهــا موجــودة، فنبحث عن مصداقها الـواقعي في الأمـة، ولا يوجـد مصـداق واقعي لهذه المجالس إلا عند الصـوفية، لأن غـيرهم وإن جلس مجالس العلم والوعظ، واعتبرها مجالس ذكر لم يسـلم له، فالذكر مصطلح شرعي له دلالتـه الخاصـة، ولا تنفى الدلالـة الخاصـة بالدلالـة العامـة، لأن في ذلـك نـوع من تمييع المصطلحات الشرعية.

ثم رد الشيخ على عثمان بن المكي برد آخـر أقـوى، وهو ما تحدثه تلك المجالس من وحدة اجتماعية، وألفــة روحية تعجز مجالس العلم عن إحداثها، بل لا نـرى أكـثر مجـالس العلم للأسـف لا تحـدث إلا الشـقاق والجـدال والتناحر والانقسام، يقول الشيخ ابن عليوة: (وفي ظنّي إنّـك احتقـرت المنتسـبين المجتمعين على الـذكر، وإلاّ حسـدتهم فيمـا هم عليـه، أليس وهم المتحـابّين الـذين

المرآة لإظهار الضلالات، دار الوطن، السعودية، ص11)، ولسـنا نـدري من أين حصل على هذا النص الذي يظهر بطلانـه ووضـعه، فلم يكن في وقت الحسـن البصري هذا المصطلح.

[1]) ابن عليــوة، أعــذب المناهل في الأجوبــة والمســائل، نقلا عن: صــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص162.

يقول فيهم الحقّ سبحانه وتعالى يوم القيامـة وينـاديهم، فعن معاذ بن جبل ، قال : قال رسول الله ﷺ : (يقــول الله عزّ وجلّ : المتحابّون في جلالي لهم منـابر من نـور يغبطهم النـبيّيون والشـهداء)[1] رواه الإمـام أحمد في مسنده، والترمـذي في سـننه، ألم تعلم أن محبّـة اللـه هي عبارة عن حبّ الذكر والذاكرين ؟، ألم تعلم أنّ الله يغير على أهل نسبته ولو كانوا كاذبين ؟)[2]

بعـد هـذا سـنذكر هنـا بعض مـا يـورده الصـوفية من الأدلة على جواز الذكر الجماعي، بل استحبابه، مصنفين له بحسب مصدر الدليل.

من القرآن الكريم:

1 ـــ من الآيـات الـتي اسـتدل بهـا الصـوفية على مشروعية الذكر الجماعي النصوص القرآنيـة الـتي تـأمر بالذكر على صيغة الجماعة، كقولـه تعـالى: {فَـاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ } [البقرة: 152]، وقولـه: {الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًــا وَقُعُــودًا وَعَلَى جُنُــوبِهِمْ} [آل عمــران: 191]، وقوله: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِـيرًا وَالـذَّاكِرَاتِ أَعَـدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 35]، وقوله: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَـبِّحُوهُ بُكْـرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: 41، 42]

ووجـه الدلالـة فيهـا واضـح، وهـو أن اللـه خـاطب المؤمنين بصيغة الجمـع الـتي لا تفيـد فقـط الأمـر بـأداء المطلوب، وإنما يضم إليه التعاون الجماعي عليه.

2 ـ قوله تعـالى: {وَاعْتَصِـمُوا بِحَبْـلِ اللَّهِ جَمِيعًـا وَلَا تَفَرَّقُـوا } [آل عمـران: 103]، والأمـر فيهـا واضـح في الاعتصام بحبل الله، ومن حبله الذكر.

3 ـ أن الله تعالى شـبه القلـوب القاسـية بالحجـارة

---

[1] سنن الترمذي (4/ 597)

[2] ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص34.

في شدة قساوتها فقـال: {ثُمَّ قَسَـتْ قُلُـوبُكُمْ مِنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ فَهِيَ كَالْحِجَـارَةِ أَوْ أَشَـدُّ قَسْـوَةً } [البقـرة: 74]، فكما أن الحجارة لا يستطيع كسرها إلا الجماعة فكـذلك القلب القاسي يسهل تليينـه إذا تسـاعدت عليـه جماعـة الذاكرين.

من الحديث الشريف:

من الأحاديث الشريفة التي أوردهـا الصـوفية كـدليل على استحباب الذكر الجمـاعي والحث عليـه، وقـد أورد الشـيخ عـدة بن تـونس الكثـير منهـا في كتابـه (رسـالة وقاية الذاكرين من غواية الغافلين) ومنها:

1 ــ قوله ﷺ : (إن لله ملائكة يطوفون في الطريــق يلتمسـون أهـل الـذكر فـإذا وجـدوا قومـا يـذكرون اللـه تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال : فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم – ما يقــول عبــادي؟ قــال : يقولــون يســبحونك ويكبرونــك ويحمـدونك ويمجـدونك قـال فيقـول هـل رأوني ؟ قـال فيقولون لا والله ما رأوك قال فيقـول كيـف لـو رأوني؟ قال يقولون لـو رأوك كـانوا أشـد لـك عبـادة وأشـد لـك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا اقل يقول فما يسـألوني؟ قـال يسألونك الجنة قال يقول وهـل رأوهـا؟ قـال يقولـون لا والله يا رب ما رأوها قال يقـول فكيـف لـو أنهم رأوهـا؟ قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشــد لها طلبـا وأعظم فيهـا رغبـة قـال: فمم يتعـوذون؟ قـال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها؟ قـال يقولـون لا والله ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها؟ فقال: يقولون لو رأوها كانوا أشـد منهـا فـرارا وأشـد لهـا مخافـة قـال فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)[1]

[1] صحيح البخاري (8/ 108)

وقد عقب على هـذا الحـديث الشـيخ ابن عليـوة في معرض رده على المخالف بقوله: (فانظر بارك الله فيك هـذه الجماعـة الـتي أخـبرت بهـا ملائكـة ربّ العـالمين، أليست هي نظيرة النكير فيما قال الله سـبحانه وتعـالى يوسّع على الـذاكرين، ويعـدهم بمـا لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر على قلب بشـر، وأنتم قـابلتموهم بالنقمة نظير مـا قـابلهم اللـه بـه من رحمـة، فمـا بالـك تـركت مـا أفـتى بـه الحـقّ سـبحانه وتعـالى في أهـل مجالس الـذكر على لسـان رسـوله، وبمـوجب لمـا وراء ذلك، فأخذت تقابل الشـيء بنقيضـه، أو ليس هـذا منـك تحريفا في شرع الله ؟)[1]

2 ـــ ومنهـا قولـه ﷺ :(إذا مـررتم بريـاض الجنـة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلـق الذكر)[2]

3 ــ ومنها ما رواه عبد الرحمن بن سـهل بن حـنيف قال: نـزلت على رسـول اللـه ﷺ وهـو في بضـع أبياتـه: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الكهف: 28]، فخرج يلتمسهم فوجد قومه يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد وذو الثوب الواحـد فلما رآهم جلس معهم وقال: (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم)[3]

وقد اعتبر الشيخ ابن عليوة هذا الحديث الكافيـة في إثبات سنية ما يفعله الصوفية من الاجتمـاع على الـذكر، فقال في خطابه لعثمان بن المكي: (ثمّ أقـول : ولعلّـك قـد كنت في غفلـة عن هـذا فقـد يقـول الحـقّ لـك : {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [ق: 22]،

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص34.

[2] سنن الترمذي (5/ 532)

[3] مسند البزار (18/ 89)

فتأمّـل مـا جـاءك عن الرسـول إن كنت تـزعم أنّـك من أمتّـه، فحـديث واحـد يكفيـك العمـل بـه في مشـروعيّة مجالس الذكر، والذي يزيـدك يقينـا من أنّهـا كـانت على عهد النبّي ﷺ)[1]

ثم ذكـر الحـديث، وعقب عليـه بقولـه: (أو لا يكفيـك هذا في مشروعيّة مجالس الذكر في زمانـه ﷺ)[2]، ومـا ذكره الشيخ ابن عليوة صحيح، فللأسف نجـد الكثـير من المسـائل يجوزهـا الفقهـاء، وليس هم من دليـل عليهـا سوى قياس بعيد، أو سد الذرائع، فإذا جاءوا لمثـل هـذه المسائل تشددوا وتحرجوا وتورعوا ورعا باردا.

4 ـ ومنها ما رواه أبو سعيد الخدري أن رسول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم قال: يقول الله عز وجل يوم القيامة: (سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم) فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: (أهل مجالس الذكر)[3]

5 ـــ ومنهـا مـا رواه شـداد بن أوس قـال: إنـا لعنـد رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسـلم إذ قـال: ارفعـوا أيديكم قولـوا لا إلـه إلا اللـه ففعلنـا فقـال رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم : اللهم إنـك بعثتـني بهـذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليهـا الجنة إنـك لا تخلـف الميعاد ثم قال: ابشروا فإن الله قد غفر لكم)[4]

6 ـ ومنها ما رواه أنس بن مالك قال: كـان عبداللـه بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم قال: تعال نؤمن بربنا ساعة فقـال ذات يوم لرجـل فغضـب الرجـل فجـاء إلى النـبي صـلى

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف: ص37.

[2] ابن عليوة، القول المعروف: ص37.

[3] مسند أحمد بن حنبل (3/ 68)

[4] مسند أحمد بن حنبل (4/ 124)

الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسـول اللـه ألا تـرى إلى ابن رواحـة يـرغب عن إيمانـك إلى إيمـان سـاعة فقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم : (يـرحم اللـه ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)[1]

7 ـ ومنها قوله ﷺ: (يقول الله تعالى : أنـا عنـد ظن عبدي بي... وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منـه)[2]

8 ـ ومنها قوله ﷺ : (لا يقعد قوم يذكرون اللـه عـز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده)[3]

9 ـ ومنها قوله ﷺ : (ما من قـوم اجتمعـوا يـذكرون الله عز وجل لا يريـدون بـذلك إلا وجهه إلا نـاداهم منـاد من السماء أن قومـوا مغفـورا لكم قـد بـدلت سـيئاتكم حسنات)[4]

2 ـ الجهر بالذكر:

يهتم الصوفية عمومـا بـالجهر بالـذكر لمـا يـرون من تأثيره الكبير في حصول الحضور للـذاكر، يقـول الشـيخ عبـدالوهاب الشـعراني نـاقلا إجمـاعهم على ذلـك: (وأجمعوا على انه يجب على المريد الجهر بالذكر بقـوة تامة، بحيث لا يبقى منه متسع إلا ويهتز من فـوق رأسـه إلى إصبع قدميه)[5]

وقـال الشـيخ ابن عطـاء الله : (وينبغي إن كـان الذاكرون جماعة، فالأولى في حقهم رفع الصوت بالذكر

---

[1] مسند أحمد بن حنبل (3/ 265)

[2] صحيح البخاري (9/ 148)

[3] صحيح مسلم (8/ 72)

[4] مسند أحمد بن حنبل (3/ 142)

[5] عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية (1/38).

مع توافق الأصوات بطريقة موزونة، فذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيرا وأشد قوة فيرفع الحجب عن القلب)

وقد ذكر هذه المسألة، واهتم لها وبها الشيخ ابن عليوة في معرض رده على الشيخ عثمان ابن المكي، فقال مخاطبا له: (ولعلّ رفع أصواتهم بالذكر، وبسببه أنّه لم يبلغك، فعن ابن عباس ، قال : (إنّ رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال ابن عباس : كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته) رواه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري في صحيحه، وأبو داود في سننه، وكذلك أقول إنّه كان على عهد الخلفاء، فقد روي أنّ أناسا كانوا يذكرون الله عند غروب الشمس يرفعون أصواتهم فإذا خفيت أرسل إليهم عمر بن الخطاب أن نوهوا الذكر أي ارفعوا أصواتكم[1]، وعن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال لا إله إلاّ الله ومدّ بها صوته أسكنه الله دار الجلال ورزقه النظر إلى وجهه) رواه أبو شجاع الديلمي في مسند الفردوس[2]، أو ليس في هذا أبلغ حجّة على مشروعيّة الجهر بالذكر ؟، حتى لو قلنا إنّك لم تجد له نصّا في الاجتماع عليه بصوت واحد كان من حقّك أن تقول فيه ما قالت الفقراء في اجتماع المؤذنين على صوت واحد)[3]

بالإضافة إلى ما أجاب به الشيخ ابن عليوة أجاب

[1] السيوطي، نتيجة الفكر في الجهر بالذكر (ضمن: الحاوي للفتاوي)، (2/75)

[2] وهي مطبوعة ضمن فتاوي السيوطي المسماة (الحاوي للفتاوي) (1/389)

[3] ابن عليوة، القول المعروف: ص 71.

السيوطي في كتابه (نتيجة الفكـر في الجهـر بالـذكر) [1] على ما يورده المخـالفون من الاسـتدلال بقولـه تعـالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَـةً وَدُونَ الْجَهْـرِ مِنَ الْقَـوْلِ } [الأعـراف: 205]، حيث ذكـر أن الجـواب عن هذه الآية من ثلاثة أوجه[2] :

الأول: إنهـا مكيـة لأنهـا من سـورة الأعـراف، وهي مكية كآية الإسـراء {وَلَا تَجْهَـرْ بِصَـلَاتِكَ وَلَا تُخَـافِتْ بِهَا} [الإسراء: 110]، وقـد نـزلت حين كـان النـبي ﷺ يجهـر بالقرآن فيسمعه المشركون فيسبون القرآن ومن أنزله فامره الله بترك الجهر سدا للذريعة كمـا نهى عن سـب الأصـنام في قولـه: {وَلَا تَسُـبُّوا الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعـام: 108]، وقـد زال هذا المعنى.

والثـاني: أن جماعــة من المفســرين منهم عبــد الرحمن بن يزيد بن أسلم شيخ مالك وابن جريـر حملـوا الآية على الذكر حال قراءة القـرآن، وأنـه أمـره بالـذكر على هــذه الصــفة تعظيمــا للقــرآن الكــريم أن ترفــع الأصوات عنده ويقويه اتصاله بقوله تعالى: { وَإِذَا قُــرِئَ الْقُــرْآنُ فَاسْــتَمِعُوا لَــهُ وَأَنْصِــتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُــونَ} [الأعراف: 204]،، وكأنه لمـا أمـر بالإنصـات خشـي من ذلك الإخلاد إلى البطالة فنبه على أنـه وإن كـان مـأمورا بالسكوت باللسان إلا أن تمكين الذكر بالقلب باق حـتى لا يغفل عن ذكر الله ولذا ختم الآية بقوله: {وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: 205]

الثالث: أن الأمر في الآية خاص بالنبي ﷺ وأما غـيره ومن هو محل الوساوس والخواطر فمأمور بـالجهر لأنـه أشد تأثيرا في دفعها.

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف: ص 71.

[2] السـيوطي، نتيجـة الفكـر في الجهـر بالـذكر (ضـمن: الحـاوي للفتـاوي) ((1/389

وأجـاب على مـا يـورده المخـالفون من الاسـتدلال بقوله تعـالى: {ادْعُـوا رَبَّكُمْ تَضَـرُّعًا وَخُفْيَـةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ} [الأعـراف: 55] على اسـتحباب الإسـرار بوجهين[1]:

الأول: أن الراجح في تفسيرها أنـه تجـاوز المـأمور أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع فعن عبداللـه بن مغفل أنـه سـمع ابنـه يقـول: (اللهم إني أسـألك القصـر الأبيض عن يمين الجنة) فقال: إني سمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: (يكـون في الأمـة قـوم يعتـدون في الـدعاء والطهور)[2]، وقرأ هذه الآية، فهـذا تفسـير صـحابي وهـو أعلم بالمراد.

الثاني: على تقـدير التسـليم، فالآيـة في الـدعاء لا في الذكر، والدعاء بخصوصه الأفضل فيـه الإسـرار لأنـه أقرب إلى الإجابة ولـذا قـال تعـالى: {إِذْ نَـادَى رَبَّهُ نِـدَاءً خَفِيًّا } [مريم: 3]

بالإضـافة إلى هـذا، فقـد اسـتدلوا على جـواز الجهـر بالذكر، بل استحبابه بأدلة كثيرة:

منها ما ورد في القرآن الكريم من النصوص الكثيرة الحاثة على الذكر، وهي لم تحدد هيئة معينة لـه، لا سـرا ولا جهرا، وفي ذلك دلالة على جواز الجميع.

ومنهـا مـا تقـدم ذكـره من الأحـاديث في الـذكر الجماعي، باعتبار أن مجالس الذكر تقتضي الجهر به.

ومنها ما روي عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يـذكرون اللـه فمـر النـبي ﷺ فكفـوا فقـال: (مـا كنتم تقولون؟ قلنا نـذكر اللـه قـال: إني رأيت الرحمـة تـنزل عليكم فـأحببت أن أشـارككم فيها ثم قـال: الحمـد للـه

---

[1] السـيوطي، نتيجـة الفكـر في الجهـر بالـذكر (ضـمن: الحـاوي للفتـاوي)، (1/392)

[2] مسند أحمد بن حنبل (4/ 86)

الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم)[1]، فكف سلمان وأصحابه عن الذكر لقدوم رسول الله ﷺ عليهم دليل على أنهم كانوا يجهرون فيه قبل قدومه وهذا دليل الجهر به.

ومنها ما حدث به زيد بن أسلم قال: قال ابن الأدرع : انطلقت مع النبي ﷺ ليلة، فمر برجل بالمسجد يرفع صوته قلت: يا رسول الله عسى أن يكون ذلك مرائيا؟ قال: لا ولكنه أواه، وفي رواية عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو البجادين : إنه أواه وذلك أنه كان يذكر الله[2].

ومنها ما حدث به الحسن بن مسلم، قال: كان رجل من أهل نجد إن دعا رفع صوته وإن صلى رفع صوته وإن قرأ رفع صوته فشكاه أبو ذر إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن هذا الأعرابي قد آذاني لئن دعا ليرفعن صوته ولئن قرأ ليرفعن صوته فقال النبي ﷺ : (دعه فإنه أواه)[3]

ومنها ما روى غير واحد بسند صحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من صلاته يقول (سبحان الملك القدوس ثلاثاً يمد بها صوته)[4]

ومنها قوله ﷺ: (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله

---

[1] مسند البزار (18/ 89)

[2] مسند أحمد بن حنبل (4/ 159)

[3] أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية، 1403ـ (3/ 522)

[4] انظر المنتقى لابن الجارود (1/78) وصحيح ابن حبان (6/203) السنن الكبرى للبيهقي (3/39) وسنن الدارقطني (2/31) وغيرهم

له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، وبـنى لـه بيتاً في الجنة)[1]

ومنها قوله ﷺ : (أنا عند ظن عبدي بي.. وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خـير منـه)[2]، والـذكر في الملأ لا يكون إلا عن جهر.

ومنها ما حدث به ابن عباس قـال: إن رفـع الصـوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كـان على عهـد النبي صلى الله عليه وآله وسلم[3].

ومنها ما حدث به أبو الجوزاء عن رسول الله ﷺ أننه قـال: (أكـثروا ذكـر اللـه حـتى يقـول المنـافقون إنكم مراؤون)[4]

ومنها ما روي من أدلة من رفع الصوت بالتكبير كـان على عهد النبي ﷺ، وقـد كـان يسـتعمله الصـحابة كثـيرا بين يديـه ﷺ، ولمـا داومـوا عليـه ورفعـوا أصـواتهم بـه أمـرهم بخفض الصـوت شـيئاً قليلا وذلـك تعليمـاً للأمـة؛ بمشروعية الجهر والخفض، وتعليماً لنا الأدب في الـذكر بـأن نكـون حاضـري العقـل فيـه، ونعلم أن اللـه تعـالى يسمعنا وهو معنا أينما كنا، ومن تلـك الروايـات مـا روي عن أبي موسى قال: كنا مع النبي ﷺ في سـفر فجعـل الناس يجهـرون بـالتكبير، فقـال النـبي ﷺ: (أيهـا النـاس

---

[1] سنن الترمذي (5/491) والدارمي في السنن (2/379)

[2] رواه مسـلم في صـحيحه (4/2061) والبخـاري (6/2694) وابن حبـان (2/36) وغيرهم، ونص الحديث: (يقول الله عز وجـل: أنـا عنـد ظن عبـدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكـرني في نفسـه ذكرتـه في نفسـي، وإن ذكـرني في ملإ ذكرته في ملإ هم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليـه ذراعـا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)

[3] صحيح البخاري (1/288) مسلم (1/410) وابن خزيمة (3/102)

[4] الـبيهقي في الشـعب (1/397) قـال الهيثمي في مجمـع الزوائـد (10/76) :وفيه الحسن ابن أبي جعفر الجفري وهو ضعيف.

أربعـوا على أنفسـكم إنكم ليس تـدعون أصـم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبـا وهـو معكم) قـال: وأنـا خلفـه وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله فقال: يا عبد اللـه بن قيس ألا أدلك على كنز من كنـوز الجنـة؟ فقلت: بلى يـا رسول الله قال: قل: لا حول ولا قـوة إلا باللـه. ومعـنى قوله عليه الصلاة والسلام (أربعـوا) لا تتعبـوا أنفسـكم برفـع الصـوت، بـل اخفضـوا أصـواتكم شـيئاً قليلا بحيث يسمع أحدكم نفسه وصـاحبه الـذي بجانبـه، وهـذا دليـل على سنية رفع الصوت بالذكر، والذكر جماعة) [1]

3 ــ الذكر بالاسم المفرد:

يعتبر الذكر بالاسم المفرد أو (اللـه) من أهم الأذكـار التي تتفق الصوفية على استعمالها في ترقية المريــدين وتــربيتهم الروحيــة، وذلــك بنــاء على تجــاربهم معــه، ورؤيتهم لمدى تأثيره، بل اختصاره الطريق للمريدين.

وفي ذلك يقول ابن عجيبة: (فالاسـم المفـرد (اللـه) هوسـلطان الأسـماء وهـو اسـم اللـه الأعظم ولا يـزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمـه ودمـه وتسري أنواره في كلياته وجزئياته..)[2]

وقـال الشـيخ أبـو العبـاس المرسي: (ليكن ذكـرك (اللـه، اللـه)، فـإن هـذا الاسـم سـلطان الأسـماء، ولـه بساط وثمرة، فبساطه العلم، وثمرته النور، وليس النور مقصـودا لذاتـه، بـل لمـا يقـع بـه من الكشـف والعيـان، فينبغي الإكثـار من ذكـره واختيـاره على سـائر الأذكـار لتضمنه جميع ما في (لا إله إلا الله) من العقائد والعلوم

---

[1] مسـلم في صـحيحه (4/2076،2077) والبخـاري في صـحيحه في عــدة مواضع منه (3/1091)، (4/1541) (5/2346،2354)، (6/2437) (6/2690)

[2] تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية ص 15.

والآداب والحقائق)[1]

ومــع أهميتــه هــذه لقي إنكــارا من المخــالفين من الاتجاه السلفي، وقد ذكرنا كيـف سـخر الشـيخ العـربي التبسي من طريقـة ذكـرهم لـه في المقـال الـذي كتبـه حول الخلوة العليوية، فقد قال – نقلا عن صـاحبه الـذي دخـل الخلـوة، وأخـبره عمـا فيهـا-: (.. وقـد زودنـا – أي الشيخ ابن عليوة- كلنا وصايا متفقة، وجماع هذه الوصايا أن يذكروا لفظ (اللـــه) ويمدونـه مـدا ينقضـي بانقضـاء نفس الإنسـان، بلهجـة وانفعـال يتصـنعونه أولا ثم يصـير ملكة فيهم.. يؤكد عليهم جـد التوكيـد أن تكـون حـروف لفظ الله حالة في قلوبهم، أعني يعتبرون هذه الحـروف مكتوبـة في قلـوبهم، فمن يعـرف الكتابـة فـالأمر عليـه سهل، ومن لا يعرفها يتحيلون عليه حـتى ينتهـوا بـه إلى أن يضـعها في قلبـه كمـا وضـعها رفقـاؤه، ثم يغمضـون أعينهم، ويقبلون على ما يسمونه بالذكر، ويأمرهم أمــرا لا هوادة فيه، بأن يجمعوا قـوى الحـواس الظـاهرة إلى البـاطن، ويصـرفونها إلى الحـروف الحالـة في قلـوبهم. ومن ذهل عن هذه الحروف فليفتح عينيه، ويأخـذ شـكل الحروف إلى قلبه من الشكل المكتوب أمامـه، ثم يعـود إلى إغماض عينيه وغيره مما قصصناه) [2]

بهـذه الطريقـة يـذكر اسـم اللـه – كمـا ذكـر الشـيخ العربي التبسي مستنكرا- ليستفاد منه في تعميق معناه في قلوب المريدين، ولسنا ندري محل الإنكار في هــذا، فإن كان إنكاره للمد، فقد ذكر الفقهاء أنه يجوز أن يمـد

---

[1] نور التحقيق ص 174.

[2] العربي التبسي، الخلوة العليويـة هـل هي من الإسـلام، جريـدة الشـهاب، السنة الثالثة، عـدد 118، الخميس 20/10/1927م الموافق 23/ربيـع الثـاني/ 1346هـ، ص 10 .

حرف المد إلى 24 حركة[1].

وإن كان المراد أن يضعوا في خيالهم حروف اسم الله، فما الحرج في ذلك، لأن الغرض منه إبعاد التشويش والشرود الذي قد يحصل حال الذكر.

ولكن مع وضوح المسألة في تصورنا وبساطتها إلا أنها لقيت اهتماما كبيرا، وإنكارا شديدا في ذلك الوقت الذي كان يستعمل المستعمر فيه كل الوسائل لينسي المسلمين اسم (الله)

وقد دعا هذا الشيخ ابن عليوة إلى كتابة ثلاث مقالات علمية حول هذا الاسم في صفحات البلاغ الجزائري[2]، وقد جمعت بعد ذلك في رسالة بعنوان (القول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسم المفرد)، وقد أضيف إليها جملة من تقاريظ علماء القرويين وغيرهم لتأكيد ما ذكره فيها.

وقد دافع الشيخ ابن عليوة في هذه الرسالة على ناحيتين كليهما كان محل إنكار من المخالفين:

الأولى، هي ذكر الاسم في كل المحال، لمناسبة وغير مناسبة، كما يقول المخالفون.

والثانية، هي الذكر بهذا الاسم منفردا.

وسنلخص هنا بتخليص مختصر ما قاله الشيخ في كلا المسألتين مع إضافة ما نراه مناسبا لما ذكره.

---

[1] بالإضافة إلى هذا، فقد رد الشيخ ابن عليوة على استنكار مد الهمزة من الاسم المفرد، فقال: (و مثال ذلك اعتراض بعض الناس على مد الهمزة من الله وقولهم: إن الهمزة هنا للاستفهام لا غير مع أن الاستفهام لا يكون إلا في الجمل، وهنا دخل على اللفظ المفرد، فهو منادى لا غير)

ونقل عن ابن مالك في الخلاصة قوله: والمنادى النائي أو كالنائي يا و أي وآ كذا أيا ثم هيا (انظر: ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد: ص7)

[2] البلاغ الجزائري: عدد 69 و70 و71.

أدلة ذكر الاسم المفرد في كل المحال:

ذكر الشيخ ابن عليوة في الرسالة غرضه منها، وأنها موجهة لشخص محترم لم يتح لي أن أطلع على اسـمه، ويظهر من خلال حديثه عنه أنـه من رجـال الجمعيـة، أو على الأقل متأثر بمنهجها الإصلاحي السـلفي، فقـد قـال في بداية الرسالة بعد السلام عليـه: (أمـا بعـد أيهـا الأخ المحـترم، فقـد كنتُ تشـرفتُ بزيـارتكم صـحبة صـديق الجميع حضـرة الشـيخ....... وبمناسـبة مـا دار بيننـا من الحـديث، في تلـك السـويعات الـتي رأيتكم فيهـا مـوغر الصدر على إخوانكم العلاويين، حسبما لاح لي في ذلــك الحين، لا لــذنب ارتكبــوه ســوى أنهم مولعــون بــإجراء الاســم المفــرد على ألســنتهم، وهــو قــولهم: (اللــه). فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليـه العتـاب، أو نقـول العقــاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجــون بــذكر ذلــك الاســم بمناسـبة أو غـير مناسـبة، سـواء عليهم في الأزقـة، أو غيرها من الأماكن التي لا تليق للـذكر، حـتى أن أحـدهم إذا طرق الباب يقول: (اللـه)، وإذا نـاداه إنسـان يقـول: (اللــه)، وإذا قــام يقــول: (اللــه)، وإذا جلس يقــول: (الله)، إلى غير ذلك مما جرى به الحديث)[1]

هـذه هي المسـألة، وهـو كمـا ذكـر، وقـد كـان هـذا منتشـرا في الجزائـر، وقـد رأيت بعضـه في مرحلـة من عمـري، وكـان ظـاهرة طيبـة، ولكنـه حـورب للأسـف، وانتصر المحارب، ولم يستطع أن يضع أي بديل.

ومن خلال مـا ذكـره الشـيخ ابن عليـوة حـول هـذا الموضوع نستطيع أن نستنبط الأدلة التالية:

1 ـــ أن الــذكر ورد في الشــرع مطلقــا لم يحــدد (بــوقت دون وقت، أو مكــان دون مكــان، والمعــنى أن ســائر الأزمنــة والأمكنــة مناسـبة لـذكر اللـه، والإنسـان مطلـوب في جميـع ذلـك بعمـارة أوقاتـه، وبرفـع لـوازم

[1]) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد ص6.

الغفلة، من أن تستحكم على مشاعره وتستولي على إدراكاته.. وبعبارة أخرى: إن الذكر محمود على كل حال، والغفلة مذمومة على كل حال) [1]

بهذا التعبير عبر الشيخ ابن عليوة على الدليل الأول، وهو من الناحية الفقهية معتبر غاية الاعتبار لا يجادل فيه فقيه، فالشرع لم يحدد للذكر وقتا خاصا، بل أمر به على العموم، وما دام كذلك، فما الحرج في أن يجريه المؤمن على لسانه في كل حال؟

2 ــ ورود النصوص القرآنية والنبوية الدالة على تحريم الغفلة والتحذير منها، وهو ما يقتضي ذكر الله في كل الأحوال، وقد طالب الشيخ ابن عليوة – بناء على هذا – مخالفه بالرجوع إلى الكتاب والسنة التي تزعم الجمعية ومثلها التيار السلفية أنهم يمثلونها، قال في ذلك: (و لا شك أن ما يجمل بنا وبكم في هذا الباب، هو الالتجاء للكتاب والسنة، أما ما جاء في الكتاب من الأمر بالذكر، والتحذير من الغفلة عنه، فقد لا يحتاج إلى سرده لوضوحه خصوصا بين أمثالكم، وأما ما جاء في السنة، فهو ليس بأقل ظهورًا منه، وعلى كل ذلك) [2]

وقد ذكر الشيخ في ختام رسالته بعض هذه النصوص، ومنها قوله ﷺ: (ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة) [3]

3 ــ ورود النصوص الخاصة بدليل جواز مثل هذا أو استحبابه، ومن الأحاديث التي استدل بها الشيخ ابن

---

[1]) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص21.

[2]) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص26.

[3]) أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (4/ 264)

عليــوة في هــذا قولــه ﷺ: (عليــك بتقــوى اللــه مــا استطعت، واذكر الله عنـد كـل شـجر وحجـر)[1]، وعلـق عليه بأن (المراد من الإطلاق تعميم الزمان والمكان)

واستدل كذلك بحديث عائشة: (أنه ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه) [2]

4 ــ ما ذكره العلماء المحققون في مسألة ذكر اللـه على كـل حـال، فــ (من تتبـع دواوين العلمـاء في هـذا الباب، يجد ما يفيد إجماع الأمة على الأخذ بـالإطلاق في مسألة الذكر)[3]

ومن النصوص التي نقلها في هذا ما نقل عن السادة الحنفية حسبما جاء في (نجـوم المهتـدين) عن القاضـي خـان أنـه قـال: (الـذكر في الأسـواق ومجـالس الغفلـة والفسوق جائز بنية أنهم مشتغلون بالدنيا، وهو مشــتغل بالتسـبيح والتهليـل)، علـق على هـذا الاقتبـاس بقولـه: (فتأمل يرحمك اللـه قولـه: مجـالس الغفلـة والفسـوق، تجـد العلاويين لم يبلـغ بهم الإسـتهتتار إلى ذلـك الحـد، وبالجملة، إنهم أجازوا الذكر حتى في الحمام، الـذي هـو محل الغفلة وكشف العـورة، زيـادة عن كونـه مسـتودع القـاذورات، حسـبما جـاء في (مجمـوع النـوازل)، قـال نصه: (إن قراءة القرآن في الحمام بالصوت رفيع تكره، وبصوت خفي لا تكره، ولا يكـره التسـبيح والتهليـل ولـو برفع الصوت) [4]

وقد عقب على هذه الفتوى بقولـه: (و إذا كـان ذكـر

---

[1] قال في مجمع الزوائد: (رواه الطبراني وإسناده حسـن) (انظـر: الحافـظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبـع الفوائـد، دار الفكـر، بيروت، طبعة 1412 هـ، الموافق 1992 ميلادي، (10/ 15)

[2] صحيح البخاري (1/ 83)

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص18.

[4] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص18.

الله جـائزا في نحـو الحمـام، فمـا هـو ذنب العلاويين إذا ذكر أحدهم في نحو الطرقات مثلا ؟)[1]

5 ــ أن الأحكام الشرعية لا يرجع فيها للاشــمئزار أو للرضى، وإنما يرجع فيها إلى المصـادر الشـرعية، يقـول ابن عليوة: (و على فرض أن تشمئز منه بعض النفــوس غــير المتعــودة على اســتماع الأذكــار، فــالواجب على المصـنف إذا أراد الحكم على غـيره، أن لا يحكم إلا بمـا يـراه حكمـا عنـد اللـه ورسـوله ﷺ، لا بمـا يختـاره هـو بطبيعتـه، ويستحسـنه في نظـره، وغـير خـاف أن كـون الإنسان قد يستحسن شيئا ويستقبحه غيره، ولهـذا كـان الــواجب علينـــا أن لا نرجـــع للاستحســـانات، ونكتفي باختيارات دون اختيارات الشرع لنا، وإذًا فـالواجب على من يؤمن باللـه واليـوم الآخـر، أن يقـف عنـد النصـوص الشـرعية، ويعمـل بمقتضـاها، بـدون مـا يختـار من عنـد نفسه شيئا إلا ما إختاره الله له، {وَمَـا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: 36][2]

وما ذكره الشيخ ابن عليوة في هـذا يكـاد يكـون ردا على الاشمئزازات الكثـيرة من طـرف جمعيـة العلمـاء، والــتي جعلتهم بــدل أن يناقشــوا المســائل بعلميــة وموضوعية يعالجونهـا بالسـخرية والاسـتهزاء والضـحك، وقد رأينـا الأمثلـة الكثـيرة على هـذا عنـد بيـان أسـلوب الجمعية في تعاملها مع الطرق الصوفية.

6 ــ ما ورد في فتاوى العلمـاء من جـواز الـذكر في الكـنيف، وهـو أخطـر من المـواطن الـتي شـنت عليهـا الجمعية حملتها، يقول الشيخ ابن عليوة قبـل نقـل بعض الفتاوى في هذا: (هذا وأنت يا حضرة الأخ مهما كان من

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص19.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص23.

شــريف مقاصــدك الإطلاع على مــا في المســألة من النصوص وأقوال العلماء في ذلـك حسـبما ذكـرت، فقـد يكفيـك مـا سـطرناه، وعلى كـل حـال فهـو شـيء في الجملة، وعلى فرض احتياجكم لما وراء ذلك، وكثـير مـا يحتاج المؤمن إلى الزيادة من الخـير، أقـول لكم بعبـارة أخرى: إن الذكر قد صرح بجوازه غير واحـد من الأئمـة، حتى في الكنيف، وما ذكرنا لكم هذا، إلا لتدركوا وجه ما استبعدتموه من جواز الذكر، في نحو الطرقات)[1]

ومن الفتاوى التي نقلهـا في هـذا، وهي من مواضـع لهـا حرمتهـا عنـد علمـاء الجمعيـة - وكأنـه يـدعوهم من خلالها إلى المطالعة - ما نقلـه عن القاضـي عيـاض من قولــه: (إن مــذهب عبــد اللــه بن عمــرو بن العــاص والشافعي ومالك وابن بشير، جواز ذكر اللـه تعـالى في الكنيف) [2]

ونقل لـه بـأن ابن رشد فهم من سـماع (سـحنون) ومن كلام (البرزلي) نقلـه (أبـو الفيض الشـيخ محمـد الكتاني) في رسالة له على تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًـا غَيْـرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} [النور: 27]، وعنه أيضا في (سنن المهتـدين) مـا نصـه: قـال اللخمي: (يـذكر اللـه قاضـي الحاجة قبل دخوله لموضع قضاء الحاجة) [3]

و روى عياض جوازه فيـه (القاضـي) ذهب بعضـهم إلى جــواز ذكــر اللــه في الكــنيف، وهــو قــول مالــك، والنخعي، وعبـد اللـه بن عمـرو بن العـاص، وقـال ابن القاسم: (إذا عطس وهو يبول يحمد الله) [4]

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص23.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص24.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص24.

[4] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص24.

وبعد أن ذكـر هـذه النصـوص وغيرهـا، وذكـر الخلاف في المذهب، قال: (و ما كان اسـتجلابنا لهـذه النصـوص على نية ترجيح أحد المذهبين من جهـة جـواز الـذكر في الكنيف أو عدمه، إنما ذكرناها يا حضرة الأخ، لتعلم كيف أجاز الأئمة الذكر حتى في مثل هـذا المكـان، الـذي هـو أخبث بقعة تعتـبر على الإطلاق، وعلى فـرض أنـك تجـد من يحرك لسانه بذكر الله، وهو على مثل تلـك الحالـة، فلا تستغرب ذلك منه، بـأن تـراه مبتـدعا ضـالا، مـادمت ترى من هو الشافعي ومالك قائلين بجـواز ذلـك، وكفى بهما قـدوة في الاعتصـام بحبـل اللـه، والاعتصـام بسـنة رسول الله ﷺ)[1]

وبنـاء على هـذا شـكا الشـيخ ابن عليـوة من ظلم الجمعيـة لـه ولأتباعـه وللطـرق الصـوفية من غـير بينـة سوى التحكم، فقال: (و لا شك أنـه بهـذا النقـل ونحـوه، يتضح كـون العلاويين مظلـومين فيمـا أنكرتمـوه عليهم، على أنهم لم يبلغ بهم الاسـتهتار في الـذكر، الحـد الـذي انتهى إليه الجواز حسبما ذكر من أنه لا يمتنع الذكر ولـو بكنيف، أو ما هو كمحال الفسوق، إذ غايـة مـا ينقـل عن بعض العلاويين، أنه إذا نبهه أحد يقول (اللـه)، وإذا نبـه هو أحدا يقـول (اللـه) وهلم جـرا، وفي ظـني أن شـبه هذا لا يترتب عليه أدنى مكروه فيما يظهـر، وهـذا إذا لم نقل لكم إنه من السنة بمكـان، وحـتى إذا لم يكن منهـا على التقدير يكون أشبه بالحق منه بالباطل)[2]

7 ــ الرد على ما ذكـره المخـالفون من ادعـائهم أن أسماء الله تعـالى أجـل من (أن تجعـل آلـة يتوصـل بهـا لغير الأخرويات، فلا يجوز أن توضـع للتنبيـه والاسـتلفات ونحوهما)[3]

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص24.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص25.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص25.

وقد رد الشيخ ابن عليوة على هذا الاعتراض بقولــه: (هذا يستقيم لو لم يكن في الشرع ما يسمح بنظيره، أو نقول يـأمر بـه، وأنت إذا تتبعت المظـان في شـبه هاتـه النوازل، تجد مراد الشارع منـا مـا يقـرب من الصـراحة بالأمر في مثل ذلك)[1]

وذكر من الأمثلة على الآذان، يقول الشيخ ابن عليوة مستدلا بهذا: (فلا شك أنك تجدها وضعت للإعلام بدخول الوقت، أو للأمر بالحضور لأداء الفريضة، وكـان الأقـرب والأنســب للمقــام أن ينــادى: الصــلاة قــد حضــرت، أو الوقت قد دخل، وما في معنى ذلك، وإذًا فلم جاء بسرد العقيــدة بتمامهــا، بــدلا عمــا ينــوب عنهــا من الألفــاظ الوجيزة ؟ وعليه فهل تسـتطيع أن تقـول لمـاذا صـيرت أسماء الله آلة يتوصل بها إلى نداء المصلين ؟)[2]

ومن الأمثلة التي ذكرها الشيخ على هذا (ما ورد عن الصحابة من أنهم كانوا يوقظ بعضهم بعضا بنحو التكبير، يشهد لذلك لمـا جـاء في الصـحيحين في قضـية الـوادي لما ناموا عن صلاة الصـبح، وكـان أول مـا اسـتيقظ أبـو بكر، وكان عمر رابع مسـتيقظ، فأخـذ في التكبـير حـتى استيقظ النبي ﷺ)[3]

ثم علق على هذا بقوله: (فتأمل يرحمـك اللــه كيـف كانوا يسـتعملون الأذكـار في إيقـاظ النيـام ونحـو ذلـك، وهكذا كان شأنه في الحروب وغيرها) [4]

8 ـــ مـا ورد من النصـوص الخاصـة بالمسـألة، وقـد قدم لهذا النوع من الأدلة الشيخ ابن عليوة بقولـه: (إنــه لمــا كــان من المحتمــل أن يــرى مــا اســتجلبناه من

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص26.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص26.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص26.

[4] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص26.

النصوص غير كاف من جهة صريح الدلالـة، ظهـر لي أن أذكـر جملا ممـا ورد في خصـوص مطلوبيـة الاسـتئذان بذكر الله عز وجل، وبذلك يدرك الأخ الكريم بغيته الـتي كان بتطلبها بإرادتـه الوقـوف على نصـوص الشـارع في مثل ذلك)[1]

ومن النصوص التي أوردها في هذا الباب ما ورد في الحديث من قوله ﷺ : (إذا أتيتم أبـواب ديـاركم فـأعلنوا بذكر الله)[2]

واسـتدل لهـذا أيضـا بمـا ورد في تفسـير معـنى الاستئناس الوارد في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْـرَ بُيُـوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} [النور: 27]، فقد نقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، بعدما تكلم عن الاسـتئناس من عـدة وجـوه، عن عكرمة: (هو التكبير والتسـبيح ونحـوه)، يعـني من بقيـة الأذكار[3].

ومثله ما ورد في الحديث عن أبي أيـوب قـال: قلتُ يا رسول الله، أريتَ قول اللـه تعـالى: {حَتَّى تَسْتَأْنِسُـوا وَتُسَـلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} [النـور: 27] هـذا التسـليم قـد عرفناه، فما الاستئناس ؟ قال: (يتكلم الرجـل بتسـبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح فيؤذن أهل البيت)[4]

9 ــ المصالح المترتبـة على اسـتعمال ذكـر اللـه في

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص27.

[2] لم أجد الحديث بعد البحث الطويل عنه في مصادر الحديث المعروفة، وقد ذكر الشيخ ابن عليوة أنه نقله عن العلامة السنوسي صاحب العقائد في كتابـه (نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير) من غير أن يعزوه هذا الأخير إلى مصدره، انظر: ابن عليـوة، القـول المعتمـد في مشـروعية الـذكر بالاسـم المفرد، ص27.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص27.

تلك المحال، وقد ختم به الشيخ رسالته، وهو دليل على اهتمامه بالمقاصد الشرعية، قال في تقرير ذلك: (.. إنه لا نزاع بين الأئمة في كون الذكر في الاستئذان أفضل من الصياح ودق الباب، خصوصا إذا كان بعنف) [1]

وقد ختم الشيخ رسالته بذكر السبب في وقوع الإشكال في هذه المسألة مع وضوحها، فقال: (و أنت يا حضرة الأخ مهما أمعنت النظر بإنصاف فيما قدمناه، يتضح عندك، إن السنة لما بعدت الشقة بينها وبيننا، تمثلت في نظرنا في شكل بدعة، فلهذا قمنا نحاربها بغير شعور، وعلى غير علم منا) [2]

أدلة الذكر بالاسم المفرد للترقي:

يمكن تقسم الأدلة التي اعتمد عليها القائلون بجواز أو استحباب الذكر بالاسم المفرد إلى قسمين اعتباريين:

الأول: هو الإجابة على الإشكالات التي أوردها المخالفون لهم حول شرعية الذكر بهذا الاسم.

الثاني: هو استنباطهم للأدلة المتعلقة بالإجازة أو الاستحباب من خلال النصوص أو الاستصحاب أو غيرها.

وقد آثرنا أن نبدأ بالقسم الأول، ونعتمد فيه على ما ذكره الشيخ ابن عليوة في مناقشته لجمعية العلماء، وللاتجاه السلفي الذي تعتمد عليه.

1 ــ الإجابة على الإشكالات التي أوردها المخالفون:

لعل أهم الإشكالات التي أوردها المخالفون بخصوص جواز الذكر بالاسم المفرد، اعتبارهم أنه لا

---

[4]) ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، مكتبة أبي المعاطي (4/ 657)

[1]) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص27.

[2]) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص28.

يؤلف جملة مفيدة تامة يحسن السـكوت عليهـا، كقولنـا (اللــه غفــور)، وقــد عــبر الشــيخ ابن عليــوة عن هــذا الإشكال، فقال: (من جهة أخرى أنكم كنتم ترون أن هذا الاسم، لا يصلح أن يكون ذكرا، ولا هو من أقسام الكلام المفيد، جريا منكم على ما اشترطه النحويون، من لزوم الـتركيب، في تعـريفهم الكلام المفيـد) [1]، وقـد رد على هذا الإشكال بالأدلة التالية:

1 ــ أن النحويين عند اشتراطهم لزوم التركيب فيما يعتــبر كلامــا أرادوا من خلال ذلـك تعريـف الكلام الـذي تتوقف عليه إفادة السامع، وهذا القيـد (بعيـدٌ أن ينطبـق على الأذكار، وما يخصها من جهة المشروعية أو عدمها، وما يترتب على ذلك من الثواب ونحوه، ولاشك أنـك لـو سألتهم في ذلك الحين، أو هذا الحين، لأجـابوك قـائلين: إن ما قررناه هو مجرد اصـطلاح نعتمـده في عرفنـا، ولا مشاحة في الاصطلاح) [2]

2 ــ أن الاصطلاح الـذي اصـطلح عليـه أهـل الفنـون والعلـوم المختلـف لا علاقـة لـه بالأحكـام الشـرعية، ولا تأثير له عليها، ولهذا قد نجـد المصـطلح الواحـد يتداولـه أصحاب العلوم المختلفة، وكـل يريـد منـه غـير مـا يريـد الآخر، قال ابن عليوة مخاطبـا المخـالف: (و أنتَ خبـير من كون الكلام عند النحويين هو غــيره عنــد المتكلمين، وعند المتكلمين هو غيره عند الفقهاء، وعند الفقهاء هــو غــيره عنــد الأصــوليين، وهلم جــرا، فــإن لكــل قــوم اصـطلاحا، وينتج لنـا من هـذا أن النحـويين كـانوا بصـدد تعريــف الكلام المفيــد، الــذي يحســن ســكوت المتكلم عليــه، لا بصــدد تعريـف الأذكـار المشـروعة من الأذكـار الغير المشروعة) [3]

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص7.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص7.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص7.

3 ــــ أنــه حــتى لــو طبقنــا المقــاييس الــتي ذكرهــا المتكلمون، فإنها لا تنطبق على هذا الـذكر ذلـك أن (مـا اشترطه النحويـون من لـزوم الـتركيب، هـو خـاص بمن يريد بكلامه إفادة غيره، أما الـذاكر فلا يقصـد بـذكره إلا إفادة نفسه، وتمكين معنى ذلك الاسـم من قلبـه، أو مـا يشبه ذلك المقاصد) [1]

4 ــ أن النحويين لم يشترطوا هـذا الشـرط في كـل الأحــوال، بــل إنهم في حــق المتوجــه أو المتــأوه لم يشـترطوا وجـود الـتركيب فيمـا يـبرز من لسـانه، لأن قصده غير قصد النحويين، ومن البعيد أن يقول النحــوي للمتوجــه أو للمتــأوه: (إنــني مــا فهمتُ مقصــودك من تأوهك)، لأنه لفظ غـير مـركب يحتـاج إلى خـبر أو شـبه ذلـك! وهـذا كلـه لا يتفـق مـع مقصـود المتوجـع، لأنـه لا يقصد إفادة غيره، إنما يقصد الترويح بـذلك اللفـظ على نفسه) [2]

وقد قاس الشيخ ابن عليوة هذا الحال بحال الــذاكر، وهو قيـاس قـوي، فالجـامع بينهمـا قـوي جـدا، قـال ابن عليوة: (و هكذا ذاكر الاسم، لا يقصد إلا تمكين أثر ذلــك الاسم من نفسه) [3]

5 ــــ أن لكــل كلمــة في اللغــة تأثيرهــا الخــاص في النفس، فـإذا كررهـا صـاحبها أحـدثت في نفسـه تـأثيرا خاصا، وهذه حقيقة يقررها علم النفس الحـديث، يقــول ابن عليــوة في شــرح هــذا الوجــه من الأدلــة مخاطبــا المخالف: (و أنت تعلم يا حضرة الأخ، من أن لكل اســم أثرا يتعلق بنفس ذاكره، ولـو من غـير الأسـماء الإلهيـة، حتى إن الإنسـان إذا ردد على لسـانه ذكـر المـوت مثلا، فإنه يحس بـأثر يتعلـق بـالنفس، من ذكـر ذلـك الاسـم،

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص7.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص8.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص8.

بالخصوص إذا دام عليه، ولا شك أن ذلك الأثـر هـو غـير الأثر المسـتفاد من ذكـر المـال، أو العـز، أو السـلطان، ولولا مراعاة ذلك الأثر، لما ورد في الحـديث الشـريف: (أكثروا من ذكر هادم اللذات) [1] يعـني المـوت، ولا شـك أنهـا كلمـة مفـردة، وقـد ورد أنهـا كـانت وردا لبعض السلف)[2]

6 ــ أنه يمكن، وعن طريـق كلام النحـويين، أن نثبت أن الاسم المفرد ليس كلمة مجرد، وإنما جملـة مفيـدة، وقد عبر الشيخ ابن عليوة عن هذا بقوله: (ثم أقـول: إن جميع ما قدمناه هو جـري من على سـبيل الفـرض، من جهـة كونـه اسـما مفـردا غـير منظم لشـيء، ولـو على سبيل التقدير. أما إذا استطلعنا الحقيقة وأمطنـا القنـاع، فإننا نستطيع أن نقول: إنه ممـا يجـوز ذكـره حـتى على قـول من يشـترط الـتركيب. لأنـه في الواقـع منـادى، والمنادى عندهم من أقسـام الكلام المفيـد، لأنهم أولـوا حرف النداء بمعنى أدعو، وحذفـه جـائز وشـائع في لغـة العرب، وكثيرًا ما يدعو المقـام لحذفـه لزومـا، كمـا في القضـية هنـا مراعـاة لمـا تطلبـه منـا الآداب القرآنيـة والتعاليم الإسلامية، التي قد يكون منها للسادة الصوفية أكثر مما لغيرهم)[3]

وبناء على هذا اعتبر الشيخ ابن عليـوة أنـه يمكن أن نعتبر ذاكر الاسـم المفـرد، وكأنـه يقـول: وعلى يـا اللـه ارحمنا، أو اغفر لنا أو نحو ذلك، واسـتدل لـه بمـا ذكـره النحويون في هذا، وهو معروف مشهور[4].

7 ـــ أن إسـقاط الصـوفية حـرف النـداء من الاسـم

---

[1] سنن الترمذي (4/ 639)

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص8.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص10.

[4] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص10.

المفرد في حال إرادة النداء، هـو دليـل على مـا تتطلبـه القرب من حضرة الله من إسقاط وسائط النداء، يقـول ابن عليـوة: (..و عنـد محـاولتهم واسـتفراغهم الجهـد، واستغراق الهمة في الخلوات والجلـوات، قيامـا وقعـودا وعلى جنوبهم، احتفاظا منهم بواجب الدعاء المأمور به، دفعهم التوفيق الإلهي إلى لزوم إسـقاط حـرف النـداء، وكل ذلك لمـا تطلبهم بـه حضـرة القـرب، بنـاء على أن أدوات النداء، جـاءت للبعيـد لا لمن هـو أقـرب إلينـا من حبل الوريد)[1]

وقد استدل الشيخ لهـذا بمـا ذكـره الشـاطبي الـذي اعتبره مفخرة للمغرب، فقـال: (و قـد كنت وقفتُ على كلام لمفخـرة المغـرب الأسـتاذ أبي إسـحاق الشـاطبي يكفينـا مئونـة مـا نسـتجليه من التفصـيلات في هـذا الموضوع)[2]

ثم نقل كلاما له ذكره في كتاب (الموافقات)[3]، وهو دليل على اطلاع الشيخ عليه، في الـوقت الـذي لم أجـد

(1) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص11.

(2) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص11.

(3) هذا هو النص الذي ذكره الشاطبي في كتابه الموافقات، ونقلـه الشـيخ ابن عليوة: (إن القرآن أتى بالنداء من الله تعالى للعباد، ومن العبـاد للـه سـبحانه، إما حكاية، وإما تعليما، فحين أتى بالنداء من قبل الله للعباد جاء بحرف النـداء المقتضي للبعد، ثابتا غير محـذوف، كقولـه تعـالى: {يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ} [العنكبوت: 56] {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ} [الزمـر: 53] {قُـلْ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعـراف: 158] {يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ} [الأعـراف: 158]{يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا} [البقـرة: 104]فإذا أتي بالنداء من العباد إلى الله تعالى، جـاء من غـير حـرف [فلا تجـد فيه نداء بالرب تعالى بحرف] نداء ثابت بناء على أن حـرف النـداء للتنبيـه في الأصل، والله منزه عن التنبيه، وأيضا، فإن أكثر حروف النداء للبعيد، ومنها "يا" التي هي أم الباب، وقد أخبر الله تعالى أنه قريب من الـداعي خصوصـا لقولـه

دليلا يربط الجمعية بهذا الكتاب، بـل لم أجـد دليلا يربـط الجمعيــة بالشــاطبي ســوى كتابــه (الاعتصــام)، وذلــك لخدمته للحرب التي أعلنوها على الطرق الصـوفية، مـع أن للشـاطبي كلام كثـير يتنـاقض مـع مـا يـورده التيـار السلفي أو الجمعية خصوصـا، وقـد كتب بعض السـلفية المحدثين في مخالفاته[1]، وهذا يدل على مدى الانتقائيـة التي كانت تتعامل بها الجمعية مع المسائل العلمية.

8 ـ أن استدلال المخالف باشتراط النقـل من فعـل السلف صعب جدا ذلك أنه (لا يتأتى حصر ما كان يجري

تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} الآية [البقرة: 186] ومن الخلـق عمومـا، لقولـه: {مَـا يَكُـونُ مِنْ نَجْـوَى ثَلاثَـةٍ إِلَّا هُـوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَـةٍ إِلَّا هُـوَ سَادِسُهُمْ} [المجادلة: 7] وقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16] فحصـل من هـذا التنبيـهُ على أدبين: أحـدهما: تـرك حـرف النـداء. والآخـر: استشعار القـرب. كمـا أن في إثبـات الحـرف في القسـم الآخـر التنبيـه على معنيين إثبات التنبيه لمن شأنه الغفلة والإعراض والغيبة، وهـو العبـد، والدلالـة على ارتفاع شأن المنادي وأنه منزه عن مـداناة العبـاد، إذ هـو في دنـوه عـالٍ، وفي علوه دانٍ، سبحانه. (انظر: الموافقات (2/ 164))

[1] من ذلك ما كتبه ناصر بن حمد بن حمين الفهد في كتابه (الإعلام بمخالفات الموافقات والإعتصام) يقول: (لما كان للشاطبي رحمه اللـه تعـالى جهـود في حرب البدعة، وحرب البدع مما اشتهر به السلفيون، فقد انتشر بين الناس أنـه سلفي الاعتقاد - حتى بين بعض طلبة العلم- والحقيقـة الـتي تظهـر لكـل من يقـرأ كتابيـه هـذين أنـه أشـعري المعتقـد في بـاب الصـفات والقـدر والإيمـان وغيرها، ومرجعه في أبواب الاعتقاد هي كتب الأشاعرة كما سيأتي تفصـيله إن شاء الله تعالى.

وموقف الشاطبي رحمه الله تعالى من البدع العملية (وهي البدع في العبادات) في تحذيره منها وبيان مفاسدها والتشديد على التمسك بالسنة فيهـا موقـف جيـد، وعمـل مشـكور، ولكنـه مـع ذلـك وقـع في بـدع الأشـاعرة والمتكلمين الاعتقادية في الصفات والقدر وغيرها)

على ألسنة السلف من صيغ الأدعية والأذكار، حتى نستطيع أن نقول هذا الاسم لم يكن ذكرًا للسلف على سبيل القطع، أو هذا الاسم كانوا لا يرونه ذكرًا، كل ذلك لقصورنا عن الإحاطة بجميع ما كان يجري على ألسنتهم في خلواتهم وجلواتهم وسقمهم وعافيتهم، ومن البعيد أن نعتقد كون الصحابة ما كان يمر على ألسنتهم اسم الجلالة مكررا (الله الله) برأهم الله من مثل ذلك)[1]

2 ـــ الأدلة الخاصة على شرعية الذكر بالاسم المفرد:

بعد أن استعرض الشيخ ابن عليوة ما ذكره المخالفون من أدلة، وأجاب عليه خاطب مخالفه قائلا: (و مع ما قدمناه من الاستشهادات فإني لا أنسى كون الخصم، أو نقول المسترشد، لا ينفك متشوفا لما بأيدي القوم من النصوص والاستشهادات الدالة على مشروعية ذكر اسم الجلالة بانفراده، من حيث وروده على ألسنة السلف بتلك الصيغة، غير أنه ينبغي لصاحب هذا التشوف أن لا ينسى أن القوم لا ينفكون متشوفين لما بأيدي الخصم أيضا من النصوص والاستشهادات القاضية بعدم مشروعية ذكر الاسم بمفرده، وكونه لم

بل إن هذه التهمة لم تطاله وحده، بل تطال أيضا كل من تكلم في البدع، فقد قال نفس الكاتب: (ولم ينفرد الشاطبي رحمه الله تعالى بهذا الأمر بين العلماء ؛ فقد وقع فيه غيره كأبي بكرٍ الطرطوشي رحمه الله تعالى فإنه ألّف كتاب (البدع والحوادث) في التحذير من البدع العملية ومع ذلك فقد وافق الأشاعرة في أصولهم، وكأبي شامة الدمشقي رحمه الله تعالى فإن له كتاب (الباعث في إنكار البدع والحوادث) في البدع العملية وهو أشعري المعتقد) (انظر: ناصر بن حمد بن حمين الفهد، الإعلام بمخالفات الموافقات والإعتصام، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة : الأولى، 1420 هـ - 1999 م، (ص: 5، 6)

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص14.

يكن من ذكر السلف، لا في خلواتهم ولا في جلواتهم)[1]

ويمكن اعتبار ما ذكره الشيخ هنا دليلا قائما بذاته، ذلك أن النصوص أطلقت الأمر في باب الدعاء، فلم تقيده بقيد، والأصل في المطلق أن يبقى على إطلاقه ما لم يرد دليل يقيده، وفي هذه الحالة يحتاج المقيد إلى الدليل.

بعد هذا نذكر بعض ما ذكره الشيخ وغيره من الأدلة المثبتة لهذا:

1 ـ مطالبة المخالف بتحديد الحكم الخاص بذكر الاسم المفرد بدقة، ذلك أن كل مسألة خاضعة لأحكام الشرع الخمسة من (الوجوب – والندب – والحرمة – والكراهة – والإباحة)، وهذا يتطلب من المخالفين تحديد الحكم الخاص بهذا الذكر بدقة، (فإن وجدناه داخلا تحت أقسام المحرمات أو المكروهات، وجب علينا توجيه اعتراضنا على المتلفظ به، لأنه جاء شيئا نكرًا، وإلا فإن وجدناه من غير ذلك القسم، فيكون الإنكار عليه منكرا، لأنه لم يزد على أن تلفظ بشيء مباح على الفرض، هذا إذا لم يكن واجبا أو مندوبا، وإذا كان اللفظ في حده مباحًا، فما يمنعنا من تكرار المباح، حتى نجعل المتلفظ به مستحقا للعتاب أو نقول للعقاب)[2]

وفي هذا المحل يلزم الشيخ ابن عليوة المخالف بما ينبغي عليه التعامل في مثل هذه المسائل التي تتحمل الخلاف، فقال: (فإن كان أقصى ما يعتمده في هذه النازلة هو ما يرجع للقواعد النحوية من جهة عدم التركيب، فإننا قد قدمنا له عدم صلاحيتها لأن تكون حجة في هذا الباب، وإن كان بيده من النصوص غير ذلك فينبغي له أيضا أن لا يسارع بالنكير، لما ربما يكون

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص13.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص14.

بيد القوم ما يعارضها، وعلى فرض وجـود التسـاوي في الطـرفين، أو عـدم الوجـود في الوجهـتين، فلا تزيـد المسألة عن أن يشملها دور الاجتهاد، وإذًا فيكـون قـول الخصم: إنه لا يجوز ذكر هذا الاسم بانفراده ليس بحجـة على من يقـول بجـوازه، وغايـة الأمـر أن يكـون قـولكم بعدم الجواز مقصودا على ما يخصكم أنتم، لأن التشريع للغير وإلزام الناس بسلوكه هو من خصـائص المعصـوم ﷺ، أما غيره فلا يستطيع لأن يقول هذا جائز، وهـذا غـير جـائز، ومن كـان ذلـك شـأنه فجـدير بـه أن يغض من صوته، في شبه دائرة جهلـه فيهـا أكـثر من علمـه، وهي قاعدة تشمل سـائر النـوازل، فالصـوفي كغـيره ملـزوم بخفض الجمجمة وسلب الاختيار أمـام الشـرع الشـريف والوضع الإلهي المقدس)[1]

2 ـــ أن الأسـماء الإلهيـة مشـروعة للتعبـد بتلاوتهـا، بمقتضى قولـه تعـالى:{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: 180] وهي مفردة، ومـع كونهـا مفـردة لم تنص الآية الكريمة ولا غيرها عن كيفية الدعاء بها من جهة الصيغة، أو التركيب ونحوه، وقـد فسـر الشـيخ ابن عليوة أن سر ذلك يرجع إلى (مراعاة أحـوال السـائرين والمتـوجهين للـه، حيث أنهم مختلفـون من جهـة القـوة والضعف، والرغبة والرهبة والشوق والاشـتياق، والنـاس طبقات والشوق مراتب، وأسرار الخلق متباينة من جهة علاقتهم مع الله عز وجل)[2]

3 ـ ما ورد من النصوص الـتي يمكن الاسـتدلال بهـا على شرعية الذكر بالاسم المفرد، ومن النصـوص الـتي أوردها الشيخ ابن عليوة في هذا حدث به من أن مريضا أنَّ في حضرته ﷺ فنهـاه بعضـهم وأمـره بالصـبر، فقـال النـبي ﷺ: (ذروه يئن فإنـه يـذكر اسـما من أسـماء اللـه

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص15.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص15.

تعالى)[1]، وعلق الشيخ على هذا بقوله: (و إذاً فماذا ترى يرحمك الله في هاته الواقعة، على الفرض لو أن ذلك المريض كان متلفظاً باسم الجلالة مكرراً (الله الله) بدل قوله (آه آه) أكان يصح من ذلك الصحابي توجيه الاعتراض عليه ؟ كلا ! فإن المقام يأبى ذلك على ما يظهر، وما كان اعتراضه إلا لما فاته من إدراك معنى كلمة (آه) من كونها اسماً من أسماء الله تعالى، حتى أرشده النبي ﷺ لذلك بقوله:(ذروه يئن، فإنه يذكر اسماً من أسماء الله) وأظنه دليلا كافياً على ما يظهر، وحجتنا فيه كون كلمة (آه) مفردة، فقرر النبي ﷺ على ذكرها بتلك الصفة، وهذا زيادة على ما استفدناه من كونها اسماً من أسماء الله)[2]

4 ـ اتفاق الكثير من العلماء والصالحين على تأثير الذكر بالاسم المفرد في المريد، وهو معتبر في الاستدلال المقاصدي، وقد نقل الشيخ ابن عليوة عن ابن عجيبة في (شرح المباحث الأصلية) أن أبا حامد الغزالي قال: (لقد أردتُ في بداية أمري سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد، والصوم والصلاة، فلما علم الله صدق نيتي، قيض لي ولياً من أوليائه قال لي: يا بُني، اقطع عن قلبك كل علاقة إلا الله وحده، واخل بنفسك، واجمع همتك وقل: الله الله الله)[3]

ونقل عن الغزالي ما ذكره في كتابه (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) حين تحدث على اسم الجلالة (الله)، فقال: (ينبغي أن يكون حظ العبد

---

[1] قال الألباني في تخريجه: رواه الرافعي في تاريخ قزوين عن عائشة، وأشار إلى ضعفه، (انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، (ص: 673)

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص15.

[3] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص16.

منه، يعني ذكر هـذا الاسـم التألـه، ونعـني بـه أن يكـون مستغرق القلب والهمـة باللـه تعـالى لا يـرى غـيره، ولا يلتفتُ إلى سواه)[1]

ثم علق على هذا بأن (هذا ما اختـاره الغـزالي لكـل مؤمن أن يجعـل حظـه من هـذا الاسـم.فـإن اخـترتم يـا حضرة الأخ ما اختاره الغزالي لكَ فَـذاكَ، وإلا فلا تطمـع بأن يكون عدم اختيـاركم حجـة على من وافـق اختيـاره اختيار الغزالي)[2]

5 ــ أنه لا حـرج على الطـرق الصـوفية في أن تقلـد من تشاء من العلماء، كما لا حرج على الجمعية أوغيرها أن تقلـد من تشـاء منهم، وبالتـالي فـإن المنهج العلمي يقتضـي عـدم الإنكـار على المقلـد، بـل يتوجـه الإنكـار بالبحث العلمي على العالم الذي قلد، يقـول الشـيخ ابن عليوة في تقرير هذا الدليل: (و هب أن قولكم يصلح أن يكون حُجةً على شـبه العلاويين، فهـل يكـون حجـة على من سبقهم أيضا من العلماء الأعلام المفسرين، كالفخر الرازي وغيره ؟ فقد التزم على نفسه، وصـرح باختيـاره لذكر هذا الاسم حسبما ذكره في تفسـيره الكبـير، عنـد الكلام على البسملة[3]

6 ــ أن الذكر بهذا الاسـم مشـتهر منتشـر في الأمـة جميعا، وليس خاصا بالعلاويين وحدهم، يقول ابن عليوة:

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص17.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص17.

[3] حيث يقول : (و اعلموا أيها الناس أني أقول طول حياتي (الله)، وإذا مت أقول (الله)، وإذا سُئلتُ قي قبري أقول (الله) ويوم القيامة أقـول (اللـه) وإذا أخذتُ الكتاب أقول (الله) وإذا وزنت أعمـالي أقـول (اللـه) وإذا جـزتُ على الصـراط أقـول (اللـه) وإذا دخلتُ الجنـة أقـول (اللـه) وإذا رأيتُ اللـه أقول (الله) (انظر: محمد بن عمر بن الحسـين الـرازي الشـافعي المعـروف بالفخر الرازي، تفسير الفخر الرازى، دار إحياء التراث العربى، (1/27)

(ليكن في علمك أيضا أن عموم المتصـوفة يشـاركونهم في ذلك، ويعتقدون أنه الاسم الأعظم الذي إذا دعي بـه سبحانه وتعالى أجاب، وإذا سُـئل بـه أعطى، وليس هـذا مقصورا على اختيار الصوفية، إنما هو اختيار غـير واحـد من الأئمة وجُل المحدثين والأصوليين)[1]

ثم نقل النقول الكثـيرة من الفقهـاء المعتـبرين على شرعية الذكر بهذا الاسم،مما لا محل لطرحه هنا.

7 ـــ مـا ورد في الحـديث من قولـه ﷺ :(لا تقـوم الساعة على أحـد يقـول: اللـه، اللـه)[2]، وفي روايـة (لا تقوم الساعة حـتى لا يبقى على وجـه الأرض من يقـول الله الله)[3]

وقد ذكر الشيخ ابن عليـوة أن الحـديث استشـهد بـه شيخ الجماعة أبو محمد عبد القادر بن يوسـف الفاسـي في نوازله.

وذكر وجه الاستدلال به، فقال: (و أبلغ شـاهد يُعتمـد عليه في هذا الحـديث، هـو مجيء لفـظ الجلالـة مكـررًا فكان صريحا في إرادته ذكر ذلك الاسم، أما لو جاء غـير مكـرر لاحتمـل أن يكـون المـراد بـه، حـتى لا يبقى على وجـه الأرض من يعتقـد وجـود (اللـه) أمـا مـع وجـود التكرار فلا احتمال)[4]

8 ــ أنه على فرض أنه لا يوجد في الشرع الشـريف أي دليل على جواز تكرار ذلـك الاسـم، فكـذلك لا يوجـد فيه أيضـا مـا يفيـد المنـع من تكـراراه على اللسـان، أو

---

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص19

[2] صحيح مسلم (1/ 91)

[3] مسند البزار (13/ 169)

[4] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص19.

مروره على القلب، بل ليس في الشرع على مـا يظهـر ما يمنـع من تكريـر أي اسـم من أسـماء المحـدثات، إذا صح هـذا، فكيـف يوجـد مـا يمنـع من التلفـظ باسـم من أسماء الله الحسنى ؟ فحاشا أن يوجد في الشرع ما هو قبيل هاته التعسفات والتنطعات، التي تلزم المــؤمن أن لا يردد اسم مولاه على لسانه، بأن يقول (اللــه اللــه)، أو ما في معناه من بقية أسمائه[1].

9 ـــ بالإضـافة إلى مـا ذكـره الشـيخ ابن عليـوة من الأدلة يورد الصوفية بعض النصوص القرآنية الدالــة على شرعية هذا الاسم، ومنها قوله تعالى: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [المزمل: 8]، وقوله لرسـول اللـه ﷺ: {قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعـام: 91]، وقوله: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الإنسان: 25]، فهذه النصوص تأمر بـذكر اسـم (اللـه)، وتطـبيق ظـاهر الأمر فيها يدل على مشروعية الذكر بالاسم المفرد.

المطلب الثاني: ممارسات السلوك الصوفي بين الجمعية والطرق الصوفية

بناء على ما سبق ذكره في الفصل الخـاص بالاتجـاه الفكـري والإصـلاحي للطـرق الصـوفية من بيـان أهميـة وضــرورة وتنــوع الممارســات الصــوفية المتمثلــة في الأوراد والخلوة، فإنا سنحاول هنـا أن نقتصـر على بيـان موقــف الجمعيــة من تلــك الممارســات، والــرد العلمي عليها من طرف الطرق الصوفية.

أولا ــ الأوراد الصوفية

تتفق الطرق الصـوفية جميعـا – كمـا عرفنـا سـابقا- على ضــرورة الــتزام المريــد بمجموعــة من الوظــائف التعبديــة الــتي تشــمل عــادة: الاســتغفار والصــلاة على

[1] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد، ص19.

رسول الله ﷺ، وكلمة التوحيد، وبعض السور القرآنية، وبعض الصلوات التي وضعها المشايخ كصلاة الفاتح والمشيشية ونحوها.

وقد كان الورد بهذه الصورة محل خلاف بين الجمعية والطرق الصوفية، وسنعرض لهذا الخلاف وأدلته في هذا المطلب.

موقف الجمعية:

انطلق الشيخ العربي التبسي – لسان الجمعية في هذه المسائل، ومفتيها- في معرض رده على الأوراد التي تمارسها الطرق الصوفية بذكر الموقف العام، وهو موقف ينطبق تماما مع أكثر المدارس السلفية تشددا، وقد عبر عنه بقوله: (من البين لجميع من عرف الطرائق التي غضت بها الجزائر؛ أنها اشتركت في أمور وامتازت كل واحدة بخواص تجعلها منفصلة عن البقية تستحق بها اسم: طريقة فلان، وقد وضعوا طرائقهم كالشرع الموضوع المتبع، وبنوا هذه الأذكار على أوضاع وهيآت وألحقوا بها أدعية أحدثها من أسس الطريقة.. ومن الشائع الذائع: أن هذه الأذكار يعطيها رؤساء الطرائق أو من يقيمونه، ويسمى بأخذ الورد أو رفع السبحة ويعينون أعدادها وصيغها وأوقاتها وما يرتئونه من آدابها، ونحن نعرض عملهم هذا ونقيسه بالهدي النبوي وعمل السلف فذلك الدين، وما لم يعرف في هذه الأيام بعموم أو خصوص فليس من الدين، وما دام ليس من الدين فإنكاره قربة والاعتراف به بدعة)[1]

والشيخ العربي التبسي في هذا النص – حسب تصوره - يضع الطرقيين في موضع حرج، لأنه يكلفهم بالدليل النصي عن كل صيغة أو عدد أو هيئة يفعلونها ترتبط بالذكر، وذلك محال لأن في صيغ الذكر وخاصة

[1] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص10.

الصلوات والمناجاة مـا كـان من وضـع مشـايخ الطـرق، فكيف ينقل مثل هذا عن رسول اللـه ﷺ أو عن السـلف الذين يكونون معتبرين عند الاتجاه السلفي.

ولم ينتظر الشيخ من الطرقـيين الإثبـات، وإنمـا راح يبادر بذكر ما ورد في الأحاديث، وهـو موضـع اتفـاق بين الجمعية والطرقيين من (أن الذكر كان على عهد رسول الله ﷺ ولم يتول تحديده ولا توقيته)، وبناء على هـذا، فـ (كل من تعرض لتحديده أو توقيته أو إدخال زيادة كيفمـا كـان شـأنها فيـه عمـا كـان في عصـره؛ يعـد مبتـدعا مستدركا على الشريعة) [1]

وبمـا أن المنهج السـلفي لا يكتفي برسـول اللـه ﷺ وبتشريعاته، بل يضم إليها فعل السلف، فقد نص الشيخ العربي التبسي – بنـاء على هـذا - على أن (أن السـلف لمـا لم ينقـل عنهم تحديـد ولا تـوقيت وهم أهـل الـدين صـدقا وأصـحاب الـذكر حقـا دل على أنهم فهمـوا من الشرع عدم التحديد والتوقيت، ولن يستطيع آخـر الأمـة أن يأتي بهداية لم يأت بها أولها) [2]

بناء على هذا الاستدلال المعتمد على (قاعدة الترك) التي سـبق ذكرهـا يخـرج العـربي التبسي من اسـتدلاله بهـذه النتيجـة الخطـيرة الـتي عـبر عنهـا بقولـه: (ونحن نجـزم بـأن السـنة في فعلـه ﷺ وقـد تـرك التحديـد وأن الخير في اتباع من سلف وقد تركوا التحديـد والتـوقيت، فالبدعة والشر في التحديد والتوقيت، وهو ما لم تتركــه طريقـة من الطرائـق، ولنـورد شـيئا من كلام المحققين يخدم هذا الغرض) [3]

وقد عبرنا عن كون هذه النتيجة بتلـك الصـياغة الـتي

---

[1] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص12.

[2] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص12.

[3] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص12.

صاغها خطيرة، لأنه ينبني عليها أن كل من نصح شخصا بالتزام الاستغفار مثلا كل يوم ألف مرة، يعتبر الناصح والمنصوح مبتدعا، بل يجر ذلك الاستغفار على صاحبه مكاييل من الذنوب، لأن صاحبها خضع للتحديد مع أن رسول الله ﷺ لم يحدد، وهذا التزام خطير.

وهو يستند في ذلك – كما تستند المدرسة السلفية المحافظة – إلى الشاطبي، فيقتبس منه قوله – عند ذكره لمآخذ البدع وأهلها في الاستدلالات على ما انتحلوا -: (ومنها تحريف الأدلة (وقد علمت أن منها لفظه وعمله صلى الله عليه وسلم)[1] عن مواضعها بأن يرد الدليل على مناط فيصرف عن ذلك المناط إلى آخر (كذكر الله) موهما أن المناطين واحد وهو من خيبات تحريف الكلم عن مواضعه)[2] إلى أن قال: (وبيان ذلك: أن الدليل الشرعي إذا اقتضى أمرا في الجملة مما يتعلق بالعبادات فأتى به المكلف في الجملة أيضا كذكر الله والدعاء والنوافل المستحبات مما يعلم فيه التوسعة شرعا كان الدليل عاضدا لعمله من جهتين، من جهة معناه، ومن جهة عمل السلف به. فإن أتى المكلف في ذلك الأمر بكيفية مخصوصة أو زمان مخصوص أو مقارن لعبادة مخصوصة والتزم ذلك بحيث صار متخيلا أن الكيفية المخصوصة أو الزمان أو المكان مقصود من غير أن يدل الدليل عليه كان بمعزل عن ذلك المعنى المستدل عليه. فإذا ا ندب الشرع مثلا إلى ذكر الله، فالتزم قوم الاجتماع عليه على لسان واحد وبصوت أو في وقت معلوم مخصوص من سائر الأوقات، لم يكن في ندب الشرع ما يدل على هذا التخصيص بل فيه ما

---

1) ما بين القوسين من كلام الشيخ العربي التبسي.

2) راجع كتاب الإعتصام للشاطبي(1/ 249)

يدل على خلافه)[1]

وبناء على هذا النص الذي يرجع إليه السلفية كثيرا، ويتعاملون معه كما يتعاملون مع النصوص المقدسة، يقول العربي التبسي معقبا على ما نقله عن الشاطبي: (ثم حكم ببدعية ما كان على هذا الوصف، وما ذكره يجري في تحديد الأذكار للأتباع) [2]

وقد ذكر الشيخ هنا قضية لست أدري مدى صدقها، بل إن ظاهر ما في كتب الطرق الصوفية ينفيها، وهو ذكره بأن من مستلزمات تلك البدع أنه (أصبح بعض أسماء الله من ميزة طريقة فلان، فمن لم يأخذ عهده ووروده لا يحوم حول ذلك الاسم)[3]

ثم يعقب على هذا القول الخطير الذي لم يورد عليه أي دليل بقوله: (وأي شر بقي بعد هذا وأي إلحاد في أسماء الله شر من هذا)[4]

وربما الشيخ يشير بهذا إلى تلقين الأذكار، والتلقين لا علاقه له بهذا، لأن المراد من التلقين هو التزام الذاكر بالذكر المحدد، وفيه نوع من التبرك بالإسناد، لأن كل شيخ يكون قد لقن الورد من شيخ آخر، وهكذا في زعمهم إلى رسول الله ﷺ، وهم لا يختلفون في هذا عن المحدثين، فمع أن المحدث قد يكون حافظا للحديث، ولكنه مع ذلك يرحل بغية سماعه من راويه حتى يرفع إسناده، أو حتى يتصل سماعه له برسول الله ﷺ عبر سند وسلسلة معينة.

وفوق هذا، فإن الشيخ العربي التبسي – كسائر السلفيين- يعتبرون من يحدد ويلزم غيره مشرعا، وهو

---

[1] الاعتصام ـ للشاطبى (1/ 249)

[2] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص13.

[3] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص13.

[4] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص16.

في ذلك يريد أن يقوم مقام النبي ﷺ، وفي ذلك – كما يعبر - قلب لمعالم الإسلام ظهرا لبطن، (فقد كان من مبادئ الإسلام الأولية أن المسلم يتلقى الأحكام من ينبوعها؛ وهو ما جاء به الرسول من غير استئذان أحد ولا واسطة أحد، فصير شيوخ الطرائق الذكر يتوقف على إذنهم وتابع لميولهم وأهوائهم) [1]

بعد هذا الطرح السلفي المتشدد يرد الشيخ العربي التبسي على من يتوهم أن المسألة فرعية بسيطة لا تضر، وقد كان ذلك – كما عرفنا سابقا – طرح دعاة الصلح بين الجمعية والطرق، بقوله: (ولعل زاعما يتوهم أن هذا التحديد والتوقيت لا يضر، وقد قصد واضعوه الخير، فنقول: أخطأ الواهم في وهمه، فإن السلف الذين شاهدوا عصر النبوة لما وقع بين أيديهم شيء أقل من هذا ولا يشاركه في غير أن الرسول لم يفعله أنكروه وعدوه ضلالة) [2]

وردا على هذا الفريق أخذ الشيخ ينقل النصوص عن السلف، والتي رأينا بعضها عند الحديث عن الموقف من البدعة، ومما نقله هذا النص المشهور المتداول، وهو الرواية التي نقلها الشاطبي[3] عن ابن وضاح عن الأعمش عن بعض أصحابه قال: مر عبد الله (يعني ابن مسعود) برجل يقص على أصحابه وهو يقول: سبحوا عشرا وهللوا عشرا، فقال عبد الله: إنكم لأهدى من أصحاب محمد ﷺ أو أضل؟ بل هذه يعني أضل.

وفي رواية عنه: أن رجلا كان يجمع الناس فيقول: رحم الله من قال كذا وكذا مرة سبحان الله، قال: فيقول القوم ويقول: رحم الله من قال كذا وكذا مرة

---

[1] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص14.

[2] العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص14.

[3] الاعتصام ـ للشاطبى (2/ 28)

الحمد لله، قال: فيقول القوم قال: فمر بهم عبد الله بن مسعود فقال: فديتم لما لم يهتد له نبيكم أو إنكم لتمسكون بذنب ضلاله.

وذكر له أيضا أن أناسا يسبحون بالحصى في المسجد فأتاهم وقد كوم كل رجل منهم كوما من حصى قال فلم يزل يحصبهم بالحصى حتى أخرجهم من المسجد ويقول لقد أحدثتم بدعة وظلما وقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علما[1].

ثم يعقب على هذه الرواية المختلف في سندها ومتنها بقوله: (فتفهم رحمك الله رأي الصحابة فيمن خالف ما كان عليه نبينا ﷺ كيف ضللوه وأنكروا ما أتى به ولم يعذروه ولا تأولوا له وجها ولا نقبوا له عن نية، بل مخالفته كفتهم دلالة على إنكار ما أحدث، وتأملوا يا أولي الألباب ويا رجال العلم فيما أحدثه أشياخ الطرائق فإنهم يحدثوننا بأن حكما وأسرارا أخفيت على رسول الله ﷺ وعلى سلف الأمة أدركها هؤلاء المستدركون وأن فضائل وخواص في أعداد لم يهد لها نبي الرحمة وهدي إليها هؤلاء الأقوام الذين تجارت بهم أهوائهم إلى أبعد مدى)[2]

وما ذكره الشيخ من اعتبار قول ابن مسعود – إن صحت الرواية عنه- قول للصحابة يحتاج إلى أدلة سندية عن كل الصحابة، فالإجماع السكوتي أضعف أنواع الإجماع، ولا عبرة به عند أكثر الفقهاء.

أما ما ذكره عن الصوفية، فنحن نسلم أن هناك انحرافات كثيرة وقعت في هذا الباب، ولكنا نسلم كذلك بأن الطبيب الجراح الحاذق هو الذي يستأصل العضو الفاسد، لا كل الجسد.

موقف الطرق الصوفية:

---

[1]) أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (4/ 380- 381)

[2]) العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص15.

يجيب الصـوفية على مـا يـورده مخـالفوهم في هـذا الباب بما ذكرناه سابقا من أنهم يرون التحديد في أسوأ أحواله بدعة حسنة، ويستدلون لذلك بمـا ورد من جـواز تقييد المطلق من النصوص بالعدد والزمان ونحوه، كمـا ذكرناه في الفصل الأول من هذا الباب.

بالإضافة إلى هذا نحب أن نورد هنا باختصار مناقشة علمية حصـلت بين شـيخ تيجـاني هـو الشـيخ أبـو طـاهر المغـربي التيجـاني آل أبي القاسـم، وعضـو من أعضـاء الجمعية الشرفيين هو الشـيخ محمـد تقي الهلالي الـذي كان في ذلك الحين مدرسا بالمسـجد النبـوي الشـريف، والذي نشر مقالا نشر في جريدة الشهاب بالعـدد 151، بعنـــوان (الطرائـــق في الحجـــاز) للشـــيخ محمـــد تقي الهلالي، ومما جاء فيه أن (ألفـا هاشـم) شـيخ الطريقـة التيجانية بالمدينة المنورة، استدعاه الشيخ عبـد اللـه بن حسن رئيس هيئة مراقبة القضاء بحضرة الشـيخ محمـد تقي الهلالي، وسـأله عمـا بلغـه عنـه من أنـه متمسـك بطريقة بل هو شيخ متبوع فيها فقـال : (نعم، وليس في هذه الطريقة ما يخالف السنة إنّما هي أذكار مشـروعة: الاستغفار، والصلاة على النبي، وكلمة الإخلاص لا اله إلاّ اللـه)، فأومـأ الشـيخ عبـد اللـه إلى الشـيخ محمـد تقي الهلالي أن تكلمْ، فقال : (يا ألفا هاشم إني كنت تيجانيا، وقـرأت كتب الطريقـة، وليسـت ذكـرا مجـردا، بـل هي أقوال وأفعال وعقائد . ولـو سـلّمنا أنهـا أذكـار مجـردة، ففيها بدع كثيرة، من تحديد ما لم يحد اللـه ورسـوله ﷺ بالعدد، والوقت الاختياري والضروري، والقضاء لما فات، والاجتمـاع على هيئـة غـير مشـروعة، وألفـاظ من كلام أهل الوحـدة، مثـل اللهم صـلّ وسـلم على عين الحـق، وعين ذاتـــك العليـــة، ووصـــف النـــبي ﷺ بالأســـقم، أيّ

الأمرض)[1]

وقد رد الشيخ أبو طاهر على هـذه الشـبهات بإجابـة مفصلة في رسالة سماها (إفحام الخصم الملـد بالـدفاع عن الشيخ الممد) والذي يعنينـا منهـا هنـا هـو مـا يتعلـق بـالورد الصـوفي، وقـد بـدأ الشـيخ رده ببيـان أن تحديـد الأذكار بالعدد والوقت والاجتماع كـل ذلـك لا حـرج فيـه، ولا دليـل يـدل على بدعيتـه، يقـول في ذلـك: (اعلم أن الأذكار اللازمة لهذه الطريقة هي الوردان والوظيفة في كل يوم، وذكـر لا إلـه إلاّ اللـه بعـد عصـر يـوم الجمعـة، ولكلٍّ وقت معين على ما قرر في كتب الطريقـة، وإنمـا يُجتَمَعُ للوظيفة والهيللة)[2]

ثم أخذ يذكر أوراد الطريقـة، ومـا ورد في النصـوص من الأمر بها، فقال: (وإذا تقرر هذا فأوراد هذه الطريقة المباركة ووظيفتها استغفار، وذكـر اللـه، وصـلاة وسـلام على رسوله ﷺ، وكـل ذلـك مشـروع، قـال اللـه تعـالى: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} [نوح: 10]، وقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُـرُوا اللَّهَ ذِكْـرًا كَثِـيرًا (41) وَسَـبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِـيلًا (42)} [الأحـزاب: 41ـ 42]، وقـال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56])[3]

هذا في أصل الأمر بالاستغفار والـذكر والصـلاة على

---

[1] نقلا عن: الشيخ أبو طاهر المغربي التيجاني آل أبي القاسم، إفحام الخصم الملد بالدفاع عن الشيخ الممد، دط، دت، ص2.

[2] الشيخ أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصـم الملـد بالدفاع عن الشيخ الممد، ص3.

[3] الشيخ أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصـم الملـد بالدفاع عن الشيخ الممد، ص3.

رسول الله ﷺ، وأما التقييدات التي قيدت بهـا الطريقـة هذه الأذكار، فأجاب عنها بقوله: (وأما تحديد ذلك بالعـدد والـوقت، فلـه أصـل في الشـريعة، إذ كثـير من الأذكـار الثابتـة بالسـنة محـدد بـالوقت والعـدد، فأدعيـة الصـباح والمساء، والنوم والاستيقاظ منه، محدودة بــوقت، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قـال : (من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شـريك لـه لـه الملـك وله الحمد وهو على كل شئ قـدير في يـوم مائـة مـرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومـه ذلـك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل ممـا جـاء بـه الاّ رجـل عمل أكثر منـه)[1]، وقـال: (ومن قـال في يـوم سـبحان الله وبحمده مائـة مـرة حطت عنـه خطايـاه وإن كـانت مثل زبد البحر)[2]، فهذا تحديد بالعدد)[3]

وبناء على هذا يرى أن رؤيا الشـيخ لرسـول اللـه ﷺ وتحديده (الأوراد والوظيفة بالعدد والوقت، مما له أصـل في الشريعة)، ومـا دام كـذلك فلا مشـاحة في الوسـيلة التي تم بها تأسيس تلك الأوراد.

وقـد أجـاب عن الشـبهة الـتي عرضـها الهلالي حـول الأداء والقضاء في الأوراد بقولـه: (اعلم أنّ سـالك هـذه الطريقــة الــتزم عامــة أذكارهــا في الأوقــات المعينــة، والوفـاء بمـا يعاقـد العبـد ربـه عليـه في وقت معين من القربـات واجب شـرعا، ومن فاتـه شـيء من ذلـك في وقتـه وجب عليـه قضـاؤه)، ثم نقـل عن الشـيخ محمـد

---

[1] صحيح مسلم (8/ 69)

[2] صحيح البخاري (8/ 107)

[3] الشيخ أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصـم الملـد بالدفاع عن الشيخ الممد، ص4.

العـربي بن السـائح في كتابـه (بغيـة المسـتفيد) قولـه: (وحقيقـة الأوراد عقـود وعهـود أخـذها اللـه على عبـاده بواسـطة المشـايخ، فمن بجّـل المشـايخ وحافـظ على العقود، ووفىّ بالعهود، كان له خير الدارين، ومَن تهـاون بالمشايخ، وفرّط في العقـود والعهـود، كـان ذلـك سـببا لزيغه، وخرق سفينته . قال اللـه تعـالى: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: 1]، {كَبُـرَ مَقْتًـا عِنْـدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُـونَ } [الصـف: 3]، {مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْـهِ } [الأحـزاب: 23]، وهذه الآيات الثلاث هي أصول الأوراد من لدن النـبي ﷺ إلى يومنا هذا)[1]

وبعـد أن ذكـر أقـوال المفسـرين للآيـات السـابقة، والـتي تـدل على إمكـان دخـول الأوراد فيهـا، حـاول أن يبرهن على ذلك من السنة، فذكر أن (أن الـتزام نوافـل العبـادات لـه أصـل في السـنة، فقـد كـان عبـد اللـه بن عمرو بن العاص يصـوم النهـار ويقـوم الليـل، ولم ينكـر النبي ﷺ عليه التزامه من حيث أنه التزام، بـل من حيث أنه مظنة للعجز عن الـدوام عليـه، كمـا هـو نص صـريح الحديث، أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبد اللـه بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال له : (يا عبد الله ألم أُخْبَـرْ أنـك تصـوم النهـار وتقـوم الليل ؟، قلت : بلى يا رسول الله، قـال : فلا تفعـل، صـمْ وأفطـر، وقُمْ ونَمْ، فإنّ لجسدك عليك حقا، وإنّ لعينك عليك حقا، وإنّ لزوجك عليك حقا، وإنّ لزورك عليك حقـا، وإنّ بحسـبك أنْ تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسـنة عشـر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كلّه، فشددت فشُدّدَ عليّ، قلت : يا رسول الله إني أجـد قـوة، قـال : فصـم صـيام

[1] الشيخ أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصـم الملـد بالدفاع عن الشيخ الممد، ص4.

نبي الله داود ولا تزد عليه، قلت : وما كـان صـيام نـبي الله داود ؟ قال : نصف الدهر، وكان عبد الله يقول بعـد ما كبر : يا ليتني قبلت رخصة النبي) [1]

ثم كعادة رجال الطرق الصوفية في لجوئهم إلى من يهتم بهم التيـار السـلفي ويعـود إليهم نـرى الشـيخ أبـا طاهر ينقل عن الشاطبي المسـألة الثامنـة من مسـائل النوع الرابع في (بيان قصد الشارع في دخـول المكلـف تحت أحكـــام الشـــريعة) في كتـــاب (المقاصـــد من الموافقــات)[2] مــا نصــه: (من مقصــود الشــارع في الأعمال، دوام المكلف عليها، والـدليل على ذلـك واضـح كقولــــه تعــــالى: {إِلَّا الْمُصَــــلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَاتِهِمْ دَائِمُـونَ (23)} [المعـارج: 22،ـ 23]، وقولـه: {يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } [المائدة: 55]، وإِقام الصلاة بمعــنى الدوام عليها . بهذا فُسرت الإقامة حيث ذكـرت مضـافة إلى الصلاة، وجاء هذا كله في معرض المدح، وهو دليــل على قصد الشارع إليه . وجاء الأمر صـريحا في مواضـع كثيرة كقوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ } [البقـرة: 43]، وفي الحديث : (أَحَبُّ العمل إلى الله ما داوم عليه صـاحبه وإن قَــلَّ)[3]، وقـال ﷺ: (خـذوا من العمـل مـا تطيقون فإنّ الله لن يَمَـلّ حـتى تملـوا) [4]، وكـان عليـه السلام إذا عمل عملا أثبته . وكان عملـه ديمـة . وأيضـا، فـــإن في تـــوقيت الشـــارع وظـــائف العبـــادات، من مفروضاتٍ ومسنوناتٍ ومسـتحباتٍ في أوقـات معلومـة

---

[1] صحيح البخاري (3/ 51)

[2] الموافقات (2/ 289)

[3] صحيح مسلم (3/ 161)

[4] صحيح مسلم (3/ 161)

الأسباب ظـاهرة، ولغـير أسـباب، مـا يكفي في حصـول القطع بقصد الشارع إلى إدامـة العمـل . وقـد قيـل في قولـه تعـالى في الـذين ترهبـوا : {فَمَـا رَعَوْهَـا حَـقَّ رِعَايَتِهَا } [الحديد: 27]، إن عدم مراعاتهم لها هو تركها بعد الدخول فيها والاستمرار) [1]

وبناء على هـذا يـذكر الشـاطبي أنـه من هـذا البـاب (يؤخذ حكم ما ألزمـه الصـوفية أنفسـهم من الأوراد في الأوقات، وأمروا بالمحافظة عليها بإطلاق . لكنهم قـاموا بأمور لا يقوم بها غيرهم، فالمكلف إذا أراد الـدخول في عمـل غـير واجب، فمن حقـه أن لا ينظـر إلى سـهولة الدخول فيه ابتداء حتى ينظر في مآله فيـه، وهـل يقـدر على الوفاء به طـول عمـره أم لا ؟ فـإن المشـقة الـتي تـدخل على المكلـف من وجهين، أحـدهما من شـدة التكليف في نفسه، بكثرتـه أو ثقلـه في نفسـه، والثـاني من جهة المداومة عليه وإن كان في نفسه خفيفا)[2]

هذا كلام الشاطبي كما نقله الشيخ أبـو طـاهر، وقـد علـق عليـه بقولـه: (وهـو صـريح في أن مـا يُلـتزم من الأوراد إذا علم المكلف من نفسه القـدرة على المضـي فيه، فهو مما لا بأس فيه)[3]

ونقل عنه في محل آخر من كتابه (الاعتصام) قولـه: (إن الإلـتزام على وجهين : نـذري، وغـير نـذري . فأمـا الأول فالوفـاء بـه واجب، وأمـا الثـاني فالأدلـة تقـتضي الوفاء بـه في الجملـة، ولكن لا تبلـغ مبلـغ العتـاب على

---

[1]) الموافقات (2/ 404)

[2]) الموافقات (2/ 405)

[3]) الشيخ أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصـم الملـد بالدفاع عن الشيخ الممد، ص6.

الترك)[1]

ونقــل عنــه في محــل آخــر قولــه: (إذا ثبت هــذا فالـدخول في عمـل على نيـة الالـتزام لـه إن كـان في المعتاد، بحيث إذا داوم عليه أورث مللا، ينبغي أن يعتقـد أن هذا الالتزام مكروه ابتداء)[2]

ثم علـق عليـه بقولـه: (فـانظر كيـف جعـل الالـتزام لمكروه ما تورث المداومة عليه الملـل . وأمـا الاجتمـاع للـذكر، فـالخلاف فيـه قـديم بين أهـل العلم وهـو، وإن كرهه الإمـام مالك رحمـه اللـه، فـالجمهور على جـوازه بدون كراهة)[3]

وعلى هذا المنوال نجـد الشـيخ ابن عليـوة يـرد على مخالفـه الشـيخ العـربي والتبسـي والجمعيـة بقـول ابن تيمية في هذه المسألة، وهو (مجـالس الـذكر المعهـودة عن الصوفية، واعتباره لها من السنة بمكان)[4]

ومن النقول التي أوردها في هذا قـول ابن تيمية في مسألة يقول صاحبها: (مسألة في رجل ينكـر على أهـل الذكر يقول لهم هذا الذكر بدعة، وجهركم بالـذكر بدعـة وهم يفتتحون بالقرآن ويختتمـون ثم يـدعون للمسـلمين الأحياء والأموات ويجتمعون للتسبيح والتحميـد والتهليـل

---

[1] الاعتصام للشاطبي (1/ 385)

[2] الاعتصام للشاطبي (1/ 386)

[3] الشيخ أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصـم الملـد بالدفاع عن الشيخ الممد، ص7.

[4] تقي الدين أبـو العبـاس أحمـد بن عبـد الحليم بن تيميـة الحـراني، الفتـاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مصـطفى عبـدالقادر عطـا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1408هـ - 1987م (2/ 384)

والتكبير والحوقلة ويصلون على النبي ﷺ)[1]

وقد أجاب ابن تيمية بقوله: (الاجتماع لذكر الله والاستماع لكتابه والدعاء عمل صالح وهو من أفضل القربات والعبادات في الأوقات ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض فإذا مروا بقوم يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم)[2]..

وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجل القلب ودمع العين واقشعرار الجسوم فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة، وأما الاضطراب الشديد والغشي والموت والصياحات فهذا إن كان صاحبه مغلوباً عليه لم يلم عليه كما قد كان في التابعين ومن بعدهم فإن منشأه قوة الوارد على القلب مع ضعف القلب والقوة والتمكن أفضل كما هو حال النبي ﷺ والصحابة وأما قسوة وجفاء فهو مذموم ولا خير فيه)[3]

وقد عقب عليه الشيخ ابن عليوة بقوله: (لا شيء أبلغ من هذا التلميح بل التصريح من جناب الشيخ، وقد لاح لي أنك عندما تصل إلى هذه النقول الصحيحة وتتأملها بإنصاف ترجع عن سوء ظنك بالقوم سيما عندما تتأمل هذا النقل الأخير عن شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، لأني أراك في الغالب ممن يجل ويحترم نظريتهما واختياراتهما بما رأيت من احترامهما عند أبناء العصر الحاضر وها هو قد استبان لك ما قد كنت تجهله ولم يبق لك إلا أن تقول {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

[1] الفتاوى الكبرى (2/ 384)

[2] سنن الترمذي (5/ 578)

[3] الفتاوى الكبرى (2/ 384)

الْخَاسِــرِينَ} [الأعــراف: 23] وإني على ثقــة من كــون الرجوع عندكم إلى الحق أولى من التمادي على الباطل حسبما قدمناه)[1]

ثانيا: الخلوة الصوفية

ذكرنا في الفصل الخاص بالاتجاه الفكري للطــرق الصوفية أهمية الخلوة وضرورتها السـلوكية عنـد الكثـير من الطرق الصوفية، وذكرنا كذلك أنها كانت محــل نقــد من طرف الجمعية، وخصوصا الشيخ العربي التبسي.

ولـذلك سـنكتفي هنـا – باختصـار – بعـرض بعض مـا تراه الطرق الصـوفية من أدلـة على صـحة ممارسـاتهم في الخلوة.

وقبــل ذلــك ننقــل رســالة كتبهــا الشــيخ ابن عليــوة لشخص عاتبهم في شـأن الخلـوة لم يـذكره، وهي على اختصارها تدل على المقصد من الخلوة.

قال الشيخ ابن عليوة: (هذا أيّهـا المحبّ، قـد اتصّـل بيدي كتابكم، بعـد مـا تشـوفت إليـه أيامـا، وهـا أنـا الآن أحمد الله على سلامتكم الدينيّة والبدنيّة، صـرفهما اللــه في مرضــاته، وقــد كنت وصّـيت بعضــا من إخواننــا من جملتهم المقـدّم سـيدي (......) وكـذلك سـيدي (.......) فأخبروني أنّكم بخير، أمّا مـا أرشـدتمونا إليـه من شـأن الخلوة، وعلى أنّ هنالـك أناسـا ليسـوا بأهـل ذلـك، فمـا أخبرتمونـا إلاّ بالصـدق بعينـه، ولكن كيـف العمـل أخي عندما يأتيك الإنسان قائلا : نريـد أن ننقطـع أيامـا لـذكر الله، بقصد التوبة والرجـوع إلى اللـه، فمـا عليـك إلاّ أن تـأمره بالـذكر، لأنّ الخلـوة عنـدنا على ضـربين، خلـوة بقصد التصفية، وخلوة بقصد السلوك إلى الله عزّ وجلّ، ولا يأخذ كلتيهما إلاّ من سـبقت لـه العنايـة، والمعـنى أنّ هناك أناسا لا حـظّ لهم فيمـا عنـد اللـه، وكيفمـا كـان لا

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص204.

يسوغ للمرشد أن يمنع من قصده طالبا الله، غير أنّه يرشده لما يناسبه، وعلى الله قصد السبيل، ولكنّكم نبهتموني إلى شيء كنت عنه في غفلة - بارك الله فيكم - لأنّي ما كنت أظنّ أنّ المؤمن يأتي للخلوة بقصد التجسس: {لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ} [الروم: 4]، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم)[1]

بناء على هذا يذكر الصوفية أدلتهم على مشروعيتها، والتي نختصرها فيما يلي:

1 ــ قوله تعالى: {واذكرِ اسم ربِّكَ وتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً } [المزمل: 8]، فالآية الكريمة تدعو إلى التبتل، وهو الانقطاع التام لله تعالى، وهو نفس معنى الخلوة، كما قال العلامة أبو السعود في تفسيره لها: (ودُم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان ؛ من التسبيح والتهليل والتحميد.. وانقطعَ إليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة في مراقبته، وحيث لم يكن ذلك إلا بتجريد نفسه عليه الصلاة والسلام عن العوائق الصادرة المانعة عن مراقبة الله تعالى، وقطع العلائق عما سواه)[2]

2 ــ ما ورد في الحديث من أن (أولُ ما بُدِىءَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِراءَ؛ فيتَحَنَّثُ فيه ــ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، ويتزود لمثلها، حتى

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص171.

[2]) محمد بن محمد العمادي أبو السعود، رشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (9/ 51)

جاءه الحق، وهو في غار حراء)[1]

وقـد علـق المحـدث الصـوفي ابن أبي جمـرة في شرحه لهذا الحديث بقوله: (في الحـديث دليـل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينه، لأن النـبي ﷺ لما اعتزل عن النـاس وخلا بنفسـه، أتـاه هـذا الخـير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم له من مقامات الولاية، وفيه دليـل على أن الأوْلى بأهـل البدايـة الخلـوة والاعـتزال، لأن النـبي ﷺ كـان في أول أمره يخلو بنفسـه.. وفيـه دليـل على أن البدايـة ليسـت كالنهاية، لأن النبي ﷺ أول ما بُدِىءَ في نبوته بـالمرائي، فمـا زال عليـه الصـلاة والسـلام يـرتقي في الـدرجات والفضل، حتى جاءه المَلـكُ في اليقظـة بـالوحي، ثم مـا زال يـرتقي، حـتى كـان كقـاب قوسـين أو أدنى، وهي النهاية. فإذا كان هذا في الرسل فكيف به في الأتباع ؟! لكن بين الرسل والأتباع فـرق، وهـو أن الأتبـاع يـترقون في مقامات الولاية ـ ما عدا مقام النبوة، فإنـه لا سـبيل لهم إليها، لأن ذلك قد طُويَ بسـاطه ــ حـتى ينتهـوا إلى مقـام المعرفـة والرضـا، وهـو أعلى مقامـات الولايـة.. ولأجل هذا تقـول الصـوفية: من نـال مقامـاً فـدام عليـه بأدبه ترقى إلى ما هو أعلى منه، لأن النبي ﷺ أخــذ أولاً في التحنث ودام عليـه بأدبـه، إلى أن تـرقى من مقـام إلى مقـام، حـتى وصـل إلى مقـام النبـوة، ثم أخـذ في الترقي في مقامات النبـوة حـتى وصـل بـه المقـام إلى قـاب قوسـين أو أدنى كمـا تقـدم. فـالوارثون لـه بتلـك النسـبة ؛ من دام منهم على التـأدب في المقـام الـذي أُقيم فيه ترقى في المقامات حيث شاء الله، عدا مقــام النبوة التي لا مشاركة للغير فيها بعـد النـبي صـلى اللـه

[1] صحيح البخاري (1/ 3)

عليه وسلم)[1]

وقد أجاب الصوفية على الإشكال الذي يمنع الاستدلال بهذه الأحاديث باعتبار أن خلوة الرسول ﷺ في الغر كانت قبل الرسالة، ولا حكم إلا بعد الرسالة، بما ذكره المحدث القسطلاني بقوله: (إنه أول ما بدىء به عليه الصلاة والسلام من الوحي الرؤيا الصالحة، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء كما مر، فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحي، لأن كلمة [ثم] للترتيب. وأيضاً لو لم تكن من الدين لنهى عنها، بل هي ذريعة لمجيء الحق، وظهورُه مبارك عليه وعلى أمته تأسِّياً وسلامة من المناكير وضررها، ولها شروط مذكورة في محلها من كتب القوم)[2]

3 ـــ أن فيها من المصالح الشرعية ما يجعلها مشروعة بشرعية مقاصدها، وقد أشار كثير من العلماء إلى فوائدها وأهميتها، كما ذكر الفيروز أبادي صاحب القاموس ذلك، فذكر أن خلوة طلاب طريق الحق على أنواع[3]:

الأول: أن تكون خلوتهم لطلب مزيد علم الحق من الحق لا بطريق النظر والفكر، وهذا غاية مقاصد أهل الحق، لأن من خاطب في خلوته كوناً من الأكوان، أو

---

[1] الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1972 (1/10)

[2] أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، 1323 هـ، (1/62)

[3] الفيروز أبادي، كتاب سفر السعادة، دار العصور للطبع والنشر، مصر، ص 3.

فكَّر فيـه فليس هـو في خلـوة. قـال شـخص من طلاب الطريـق لبعض الأكـابر: اذكـرني عنـد ربـك في خلوتـك. قال: إذا ذكرتك فلسـتُ معـه في خلـوة.. وشـرط هـذه الخلوة أن يذكر بنفسه وروحه، لا بنفسه ولسانه.

الثـاني: أن تكـون خلـوتهم لصـفاء الفكـر لكي يصـح نظــرهم في طلب المعلومــات، وهــذه الخلــوة لقــوم يطلبون العلم من ميزان العقل، وذلك الميزان في غاية اللطافة، وهو بأدنى هوى يخـرج عن الاسـتقامة، وطلاب طريق الحق لا يدخلون في مثل هذه الخلوة، بـل تكـون خلوتهم للـذكر، وليس للفكـر عليهم قـدرة ولا سـلطان، ومهما وُجِـدَ الفكـر إلى صـاحب الخلـوة فينبغي أن يعلم أنه ليس من أهل الخلوة، ويخرج من الخلـوة ويعلم أنـه ليس من أهل العلم الصحيح الإلهي، إذ لو كان من أهــل ذلك لحالت العناية الإلهية بينه وبين دوران رأسه بالفكر.

الثـالث: خلـوة يفعلهـا جماعـة لـدفع الوحشـة من مخالطة غير الجنس، والاشتغال بمـا لا يعـني، فـإنهم إذا رأوا الخلق انقبضوا، فلذلك اختاروا الخلوة.

الرابع: خلوة لطلب زيادة لذة توجد في الخلوة.

وذكر الغـزالي فوائـد الخلـوة، فقـال: (وأمـا الخلـوة ففائدتها دفع الشواغل، وضـبط السـمع والبصـر، فإنهمـا دهليز القلب، والقلب في حكم حوض تنصـب إليـه ميـاه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس. ومقصـود الرياضـة تفريــغ الحــوض من تلــك الميــاه ومن الطين الحاصــل منها ؛ ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منـه المـاء النظيـف الطـاهر. وكيـف يصـح لـه أن يـنزح المـاء من الحـوض، والأنهار مفتوحة إليه ؟ فيتجـدد في كـل حـال أكـثر ممـا ينقص. فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قـدر الضـرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة)[1]

---

[1] إحياء علوم الدين (3/ 76)ا

وذكر الشيخ الغزالي تجربته العملية فيها، فقال: (وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أُمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره ليُنتفعَ به، أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصْوَبُ الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمِع عقل العقلاء، وحكمة العلماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سَيْرِهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به)[1]

وذكر شيخ الصوفية الأكبر محيي الدين بن عربي أهميتها، فقال (فإن المتأهب الطالب للمزيد، المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود إذا لزم الخلوة والذكر، وفرَّغ المحل من الفكر، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربه، حينئذ يمنحه الله تعالى، ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده خضر فقال: {عبْداً مِنْ عِبادِنا آتيناهُ رحمَةً مِنْ عندِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا علماً} [الكهف: 65]. وقال تعالى: {واتَّقوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ} [البقرة: 282]. قال تعالى: {إنْ تتَّقوا اللهَ يَجعَلْ لكُمْ فُرقاناً} [الأنفال: 29]. وقال: {ويجعلْ لَكُمْ نُوراً تمشونَ به} [الحديد: 28]، وقيل للجنيد: بم نلت ما نلت ؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة، وقال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. فيحصل لصاحب الهمة في الخلوة مع الله وبه جلّت هيبته وعظمت منته، من العلوم ما يغيب

---

[1] المنقذ من الضلال، ص131.

عندها كل متكلم على البسيطة، بل كل صاحب نظر وبرهان، ليست له هذه الحالة)[1]

وذكر شيخ الطرق الصوفية الأكبر ابن عجيبة فوائدها عند شرحه لقول ابن عطاء الله: (ما نفعَ القلبَ شيءٌ مثلُ عُزلةٍ يدخل بها مَيْدانَ فكرة)، فقال: (والعزلة انفراد القلب بالله. وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القالب عن الناس، وهو المراد هنا، إذ لا ينفرد القلب بالله إلا إذا انفرد القالب. والفكرة سير القلب إلى حضرة الرب، وهي على قسمين: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. ولا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة، لأن العزلة كالحِمْية، والفكرة كالدواء، فلا ينفع الدواء بغير حمية، ولا فائدة في الحمية من غير دواء، فلا خير في عزلة لا فكرة فيها ولا نهوض بفكرة لا عزلة معها، إذ المقصود من العزلة هو تفريغ القلب، والمقصود من التفرغ هو جَولاَن القلب واشتغال الفكرة، والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية صحته، وهو الذي سماه الله القلب السليم، قال الله تعالى في شأن القيامة: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)} [الشعراء: 88، 89])[2]

وشبه تأثير الخلوة التربوي بتأثير الحمية، فقال: (إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت، ولا ينفعها إلا الحمية، وهو قلة موادها، ومنعها من كثرة الأخلاط (المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء). وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض، وربما مات، ولا ينفعه إلا الحمية منها،

[1] الفتوحات المكية، (1/ 280)

[2] المنقذ من الضلال، ص131.

والفرار من مواطنها، وهي الخلطة، فـإذا اعـتزل النـاس واسـتعمل الفكـرة نجح دواؤه، واسـتقام قلبـه، وإلا بقي سقيماً حـتى يلقى اللـه بقلب سـقيم بالشـك والخـواطر الرديئة، نسأل الله العافية)[1]

ثم ذكر للخلوة عشر فوائد:

1ـ السلامة من آفات اللسان، فإنَّ مَنْ كان وحـده لا يجد معه من يتكلم، ولا يسـلم في الغـالب من آفاتـه إلا من آثرَ الخلوة على الاجتماع.

2ـ السلامة من آفات النظـر، فـإنَّ من كـان معـتزلاً عن الناس سلم من النظر إلى ما هم مُنْكَبُّون عليـه من زهرة الدنيا وزخرفها، قال بعضهم: (من كـثرت لحظاتـه دامت حسراته).

3ـــ حفــظ القلب وصــونه عن الريــاء والمداهنــة وغيرهما من الأمراض.

4ـ حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلـك شرف العبد وكماله.

5ــ السـلامة من صـحبة الأشـرار ومخالطـة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم.

6ـ التفرغ للعبادة والذكر، والعزم على التقوى والبر.

7ــ وُجْـدانُ حلاوة الطاعـات، وتمكن لذيـذ المناجـاة بفراغ سره.

8ـ راحة القلب والبدن، فإن في مخالطـة النـاس مـا يوجب تعب القلب.

9ـــ صــيانة نفســه ودينــه من التعــرض للشــرور والخصومات التي توجبها الخلطة.

10ـــ التمكن من عبــادة التفكــر والاعتبــار، وهــو المقصود الأعظم من الخلوة[2].

---

[1] إيقاظ الهمم في شرح الحكم، (1/30)

[2] إيقاظ الهمم في شرح الحكم، (1/30)

المبحث الثاني

جوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية حول ميسرات السلوك ومنشطاته

بالإضـافة إلى الممارسـات السـلوكية الـتي تـرى الطرق الصوفية ضـرورتها للسـلوك هنـاك مـا يمكن أن نسميه (ميسرات السلوك ومنشـطاته)، باعتبـار تأثيرهـا الجاذب للمريدين، والمخفف عن التعب والإرهـاق الـذي قد يصيب السالك في سلوكه.

وقـد تفطن المستشـرق الصـوفي المتخصـص نيكولسـن إلى أهميـة هـذا الجـانب في التصـوف، بـل وضرورته للسلوك، فقال: (وسرعان ما عـرف الصـوفية أن الإنجـذاب يمكن أن يسـتعان عليـه بالصـنعة لا بجمـع الفكر وبالذكر وغيرها من طرق التنـويم الـذاتي وحـدها، بـل كـذلك بالموسـيقى والغنـاء والـرقص، وهـذه جميعـا تـدخل تحت كلمـة (السـماع) الـتي لا تـدل إلا على الاستماع للغناء)[1]

بنـاء على هـذا، وبنـاء على مـا ذكرنـا سـابقا من ممارسات الطرق الصوفية في هذا الجـانب، نكتفي هنـا بذكر ما نتج عن تلك الممارسـات من مناقشـات علميـة أو غير علمية.

وقبل أن نذكر ذلك ننقل كلمة للشيخ ابن عليوة يـرد بها على الشيخ عثمان بن المكي الذي لم يكتف بتحـريم بعض هذا النوع من الممارسات، وخاصة العمـارة منهـا، وإنما راح يكفرهم بسبب ذلك، يقـول الشـيخ ابن عليـوة

---

[1]) أرنولد رينولدز نيكلسون، فى التصوف الإسلامى وتاريخه، مجمـوع مقـالات ترجمها الدكتور أبو العلا عفيفى، القاهرة 1947م. (ص66)

ردا عليه: (ولكنّك ظننت أنّ التصوّف عبـارة عن جماعـة من الناس يجتمعـون للـرقص، وإنشـاد الأشـعار لا غـير، ومثلك كمن قصد راعي الغنم بالليـل يطلبـه أن يتصـدّق عليه بماشية، فأذن لـه في ذلـك فـذهب ليأخـذ ماشـية، فوقعت يده بالليل على كلب الحراسـة الـذي هـو عـادة يكون مختلطا بالمواشي، فلمّا أصبح الصـباح وجـد بيـده كلبا فأخذ يتهم راعي المواشـي، ويلقبّـه بـراعي الكلاب، وهـذا مـا يقتضـيه لسـان مـا جمعتمـوه لأنّكم أقصـرتم التصوّف على الرقص وما في معناه)[1]

وهذه هي الحقيقة للأسف التي تعاملت بها الجمعيـة مـع الطـرق الصـوفية، فهي لم تلاحـظ إلا هـذا الجـانب خصوصا، فأكثر ما كتبته الجمعيـة في الـرد على الطـرق الصـوفية مرتبـط بالحضـرة أو بالموالـد أو مـا تسـمى بالزرد ونحوها، وكـأن التصـوف والصـوفية ليس إلا هـذه الأمور.

المطلب الأول: السماع والرقص

يعتبر السـماع ومـا يصـاحبه من حركـات واهـتزازات ركنا أساسيا في أكثر الطرق الصـوفية، ولـو أنهم – كمـا ذكرنا- لا يعتبرونه ركنا في السلوك، ولا شرطا فيـه، بـل يعتبرونه من الوسائل المساعدة التي يحتـاج إليهـا أكـثر الناس للنهوض والسير.

ولهـذا نجـد كبـار المشـايخ ينكـرون على من يعتمـد عليه، أو يعتبر الأحوال الناشئة عنه أحوالا حقيقيـة يمكن التعويـل عليهـا، وهم يتفقـون في كثـير من هـذا مـع مـا يذكره الفقهاء والسلفيون منهم خصوصا.

بنـاء على هـذا نحـاول في هـذا المطلب بعـد تحديـد المفاهيم أن نرى موقف الجمعية والطرق الصـوفية من هذا الركن المهم من الأركـان المسـاعدة على السـلوك

[1] ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص65.

الصوفي.

أولا ــ موقف الجمعية:

من خلال الاطلاع على مــا كتبــه علمــاء الجمعيــة وغيرهم حـول السـماع والـرقص الصـوفي نجـد إجماعـا على إنكاره، بل اعتباره من البدع الخطيرة التي تسـيء إلى الدين والمجتمع، ولعل أكبر صوت منكر لهـذا النـوع من الممارســات الطرقيــة الشــيخ محمــد البشــير الإبراهيمي، فقد قال في معـرض حملتـه الشـديدة على التصوف، بل على كلمة (التصوف): (فقد أصـبحت هـذه الكلمة التي غفلوا عنها أمًّا ولـودًا تلـد الـبر والفـاجر. ثم تمـادى بهـا الـزمن فأصـبحت قلعـة محصـنة تـؤوي كـل فاسق وكل زنديق وكل ممخرق وكل داعر وكـل سـاحر وكل لص وكل أفاك أثيم.. وإن هذه القلعة لهي المعقـل الأسـمى والملاذ الأحمى لأصـحابنا اليـوم. فكـل راقص صوفي، وكل ضارب بالطبل صوفي، وكل عابث بأحكـام الله صوفي، وكـل مـاجن خليـع صـوفي، وكـل مسـلوب العقل صـوفي، وكـل آكـل للـدنيا بالـدين صـوفي، وكـل ملحد في آيات الله صوفي، وهلم سحبًا)[1]

ونفس الموقف يقفه عضو الجمعية الشـرفي محمـد تقي الــدين الهلالي، فقــد قــال في كتابــه (الحســام الماحق): (فدخل في ذلك البدع الحقيقية، كالتقرب إلى الله بالرقص، وقرع الطبول ونحو ذلك)[2]

وقــال في كتابــه: (الــدعوة إلى اللــه في أقطــار مختلفـة): (وأمـا عبـادة الحمـير فـأذكر فيهـا قصـتين: إحداهما وقعت في طرابلس الغرب على ما حـدثني بـه ثقة، وذلك أنه كان في تلك الديار شـيخ متصـوف اسـمه

---

[1] آثار الإبراهيمي: 1/175.

[2] ا محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي، لحسـام المـاحق لكـل مشـرك ومنافق، دار الفتح - الشارقة; 1415 (ص: 47)

عبد السلام الأسمر   كان يرقص مع أصحابه ويضربون بالدفوف حتى يخروا صرعى على الأرض، ويعتقدون أن الدف الذي كان يضرب به الشيخ عبد السلام نزل من الجنة، وكان يضرب به علي بن أبي طالب للنبي، والشيخ عبد السلام والمريدون المنقطعون للعبادة معه لم يكونوا يكتسبون معيشتهم لأنهم كانوا بزعمهم متوكلين. وكان للشيخ المذكور حمار يطوف على بيوت البلدة وحده كل صباح ومساء وعليه خرج فكلما وقف بباب بيت يضع أهله شيئا من الطعام في ذلك الخرج فيرجع إلى الشيخ والمريدين بطعام كثير غدوة وعشية، فلما مات الشيخ وتفرق المريدون وبقي الحمار بلا عمل فصار الناس يقدمون له العلف ويتبركون به إلى أن مات فدفنوه وعكفوا على قبره يعبدونه) [1]

واستمر هذا الموقف من الجمعية بعد الاستقلال، فقد كان الشيخ أحمد حماني – مع حساسية المناصب التي تولاها- يتحين كل فرصة لينكر على الطرق الصوفية هذا النوع من الممارسات، ومن تصريحاته في هذا ما كتبه في كتابه (صراع بين السنّة والبدعة): (كان من مقاتل خصوم الإصلاح عبادة الله (بالرقص)... هذا ما كان ينكره حزب الإصلاح على الطرقيين عموما وقد التزمه العليويون ودافعوا عنه ووضعوا له آداب وأسماء، واستشهدوا بأحاديث لا يعترف بها المختصون من رجال الحديث ولا تصح عندهم ولا تستحسن)[2]

وقد ذكر بعض تلك الأحاديث التي تصور أنها كل ما عند أصحاب الطرق من أدلة، فقال: (وأما الاهتزاز والرقص فقد احتجوا له بما زعموه مرويا عن رسول الله ﷺ: (ليس بالكريم من لم يهتزّ عند ذكر

---

[1] محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي، الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة، دار الطباعة الحديثة الدار البيضاء (ص: 24)

[2] صراع بين السنّة والبدعة (1/169).

الحبيب...سبق المهتزّون بـذكر اللـه...يضـع الـذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافا).. ورائحة الوضع تفوح من هــذا الكلام، ومنــذ عهــد الســلف كــان من أكــبر الوضّاعين للحديث جهلة المتصوّفة)[1]

وقال ردا على استدلالهم بما نقل بعض أهل التفسير أنّ ابن عمـر وعـروة ابن الزبـير وجماعـة من الصـحابة خرجوا يوم العيـد وقـاموا يـذكرون اللـه على أقـدامهم: (من أنكر المنكر أن يستدلوا لشـرعية هـذه (الحضـرة) بعمـل بعض الصـحابة والتـابعين، ذكـروا أنّ بعض أهـل التفسير (الألوسي) نقل أنّ ابن عمر وعـروة ابن الزبـير وجماعة من الصحابة خرجوا يوم العيد للمصلى فجعلــوا يذكرون الله تعـالى فقـال بعضـهم لبعض أمـا قـال اللـه تعــالى: {الَّذِينَ يَــذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًــا وَقُعُــودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: 191]، فقاموا يـذكرون اللـه على أقدامهم.. لو صـح النقـل والخـبر، واسـتقام عنـد أربـاب الصناعة فليس فيه إذن باجتماع القوم، والقيام، والجهر، والتطريب والتلحين ولروي عنهم بجماعة مستفيضة، لـو صـحّ لمـا دلّ مطلقـا على (الحضـرة) الـتي عـرفت عن القـوم وصـورها بأمانـة قلم الشـيخ المفـتي، وحـدد لهـا شروطها وآدابها، وعين لها ألفاظا ليس فيها مـا هـو من الذكر الشرعي سوى كلمـة (لا إلـه إلا اللـه) ووضـع لهـا أسماء الهيللة، والاسم الأعظم واسم الهويّـة وهـو اسـم المتأوهين والمعنون عنه باسم الصدر واسم المتــولهين، أمّــا كلمــات (هــو) و(أهــ) و(هــ) إلخ فإنّهــا أصــوات الحيوانات العجمي أشبه منها بأصوات العقلاء)[2]

وقــد ســبق أعضــاء الجمعيــة في هــذا الكثــير من المصـلحين الجزائـريين الـذين نظـروا بعين النقـد لمـا يحدث في تلك المجـالس، ولعـل أشـهرهم الشـيخ عبـد

---

[1] صراع بين السنّة والبدعة : 1/171.

[2] صراع بين السنّة والبدعة : 1/171.

الرحمن الأخضري الذي قال في منظومته التي نقد فيها الصوفية:

والرقصُ والصراخ والتصفيق ... عمداً بذكر الله لا يليق

وإنما المطلوبُ في الأذكارِ ... الذكرُ بالخُشوع والوقارِ

فقد رأينا فرقةً إنْ ذَكَروا ... تَبَدَّعوا وربّما قد كفروا

وفعلوا في الذكرِ فعلاً منكراً ... صعياً فجاهدهم جهاداً أكبرا

خلّوا من اسم الله حرف الهاء ... ألحدوا في أعظم الأسماء

لقد أتوا والله شيئاً إدا ... تخرمنه الشامخات هدا

والألف المحذوف قبل الهاء ... قد أسقطوه وهو ذو إخفاء

وزعموا أن لهم أحوالا ... وأنهم قد بلغوا الكمالا

والقوم لا يدرون ما الأحوال ... فكونها لمثلهم محال

حاشا بساط القدس والكمال ... تطؤه حوافر الجهال

والجاهلون ... والعارفون سادة

كالحمير الموكفه / مشرفة

وقال بعض السادة المتبعة / في رجز يهجو به المبتدعة

ويذكرون الله بالتَّغْبِير / ويشْطَحون الشَّطح كالحمير

وينبحون النبح كالكلاب / طَريقُهم ليست على الصَّواب

وليس فيهم من فتى مطيع / فلعنة الله على الجميع

قد ادَّعوا مراتباً جليلة / والشرع قد تجنَّبوا سبيله

قد نبذوا شرعة الرسولِ / والقوم قد حادوا عن السبيلِ

لم يدخلوا دائرة الحقيقة / كلا ولا دائرة الطريقة

لم يقتدوا بسيد الأنام / فخرجوا عن ملَّة الإسلام

لم يدخلوا دائرة الشريعة / وأولعوا ببدعٍ شنيعةٍ

لم يعملوا بمقتضى الكتاب / وسنَّةِ الهادي إلى الصَّواب

قد مَلَكَت قلوبَهم أوهام / فالقوم إبليس لهم إمام

والجمعيــة في موقفهــا هــذا ترجــع إلى مصــدريها المعتمــدين لــديها : الســلفية التنويريــة، والســلفية المحافظة، وسنلخص هنا باختصار ما يعتمد عليـه هـذان المصدران من الأدلة:

المصدر التنويري:

وأهم دليل يعتمد عليه - بالإضافة إلى ما ســنراه من أدلة المحافظين - هو أن ما يحصل فيـه تلـك المجـالس مما يسيئ للإسلام، وإلى السلوك الحضـاري الـذي جـاء به الإسلام، أو كما عبر عن ذلك الشـيخ محمـد الغـزالي حين سئل عن (طائفة من العباد يجتمعون على ذكر الله بأســمائه الحســنى كلهــا أو بعضــها، وقــد يتمــايلون أو يهتزون، فما حكم هذه العبادة؟)

فأجـاب قـائلا: (هـذه بدعـة قديمـة اسـتحدثها بعض أصــحاب المشــاعر المضــطربة، وقــد ســماها بعض الصحافيين الأجانب (الرقص الديني) وهي تسـمية يحس المسلم بالخزي إذا سـمعها، لأنهـا تجعـل الإسـلام أشـبه بالعبادات التي يمارسها الزنوج في أفريقيـة وهـذه فتنـة مزعجة، وإهانة شديدة للإسلام)[1]

وقريب من هـذا التـبرير نجـد الشـيخ محمـد البشـير الإبراهيمي يخـاطب الطـرق الصـوفية لا بمنطـق الأدلـة التي تعتمدها السلفية المحافظة، وإنمـا بمنطـق الواقـع والمقاصدية التي تعتمدها السـلفية التنويريـة، فيـذكرهم بعــواقب مــا يقومــون بــه من اهــتزاز ورقص، فيقــول: (تــدرون عــواقب مــا صــنعتم بهـذه الأمّـة؟ إنكم اقتلعتم ببدعكم كل ما غرس الإســلام فيهــا من فضــائل فمكّنتم فيها لأعـراض الانحلال والتفكـك والسـقوط. وأتيتم على مــا فيهــا من ذكــاء ونشــاط وعمــل فأصــبحت بين الأمم وهي مضرب المثل في البلادة والجمود والكسل ولو كنا

[1] محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، دار نهضة مصر للنشر، (ص366)

وحدنا في أرض الله لهان الأمر في الجملة ولكن من ورائنا الأجانب عن هذا الدين يتربّصون به الدوائر فيأخذونكم في عداد أبنائه ويأخذون أعمالكم في عداد أعماله. فهل في أعمالكم ما يبيّض وجه الإسلام ويدفع عنه عادية الألسنة والأقلام، وإن منكم من يرقص أمام أولئك الأجانب رقص القرود وتلبسه شيطانيته فيلتهم الزجاج والحديد والحيات وهم يضحكون ولا رأي لهم إلا أن هذا هو الإسلام وهذه هي تعاليمه وهذه آثاره، ولا منطق لهم إلا أن هؤلاء أتباع طريقة كذا، وطريقة كذا من الإسلام، فهذا هو الإسلام ونحن نقول لهم إن الإسلام لا يعرف طريقة كذا ولا طريقة كذا فهو بريء من هذه البعران والتماسيح وهو من أفعالهم أبرأ)[1]

المصدر المحافظ:

وهو من أشد من وقف من هذه الظاهرة، ولعل أسبق من تحدث عنها، وألف فيها الرسائل والقصائد الشيخ ابن القيم في كثير من كتبه، وخاصه كتابه (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)، فمما جاء فيه قوله: (ومن مكايد عدو الله –أي الشيطان- ومصايده، التى كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين، سماع المكاء، والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذى يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن)[2]

ويصف ابن القيم بدقة ما يحصل في عصره في مجالس السماع، وهو يشبه كثيرا ما يحدث في كثير من

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 120)

[2]) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، 1395 – 1975، (1/ 224)

مجالس الطرق الصوفية، فيقول: (حتى إذا عمل السكر فيهم عملـــه، وبلـــغ الشـــيطان منهم أمنيتـــه وأملـــه، واستفزهم بصـوته وحيلـه، وأجلب عليهم برجلـه وخيلـه، وخَــزَ في صــدورهم وخــزاً. وأزَّهم إلى ضــرب الأرض بالأقدام أزا، فطورا يجعلهم كالحمير حول المدار، وتـارة كالـذباب تـرقص وسُـيَطَ الـديار. فيـا رحمتـا للسـقوف والأرض من دك تلــك الأقــدام، ويــا ســوأتا من أشــباه الحمــير والأنعــام، ويا شــماتة أعــداء الإســلام، بالــذين يزعمون أنهم خواص الإسلام قضوا حياتهم لـذة وطربـاً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً)[1]

ومن المصـادر الـتي اعتمـدتها الجمعيـة في موقفهـا هذا ما كتبه الشيخ أبو بكر الطرطوشي، فقـد سـئل عن (جماعة من رجال فيكـثرون من ذكـر اللـه تعـالى وذكـر محمــد ﷺ، ثم إنهم يوقعــون بالقضــيب على شــيء من الأديم ويقوم بعضهم يـرقص ويتواجـد حـتى يقـع مغشـيا عليه، ويحضرون شيئا يأكلونـه هـل الحضـور معهم جـائز أم لا؟)[2]

فأجاب الطرطوشي: (يرحمك الله مذهب الصــوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الاسلام إلا كتـاب اللـه وسـنة رسوله، وأما الرقص والتواجد، فأول من أحدثه أصـحاب السـامري لمـا اتخـذ لهم عجلا جسـدا لـه خـوار قـاموا يرقصـون حواليـه ويتواجـدون فهـو دين الكفـار وعبـاد العجل.

وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقـة ليشـغلوا بـه المسلمين عن كتاب الله تعالى وإنما كـان يجلس النـبي ﷺ مـع أصـحابه كأنمـا على رءوسـهم الطـير من الوقـار فينبغي للســلطان ونوابــه أن يمنعهم من الحضــور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليـوم الآخـر

---

[1] إغاثة اللهفان (1/ 224)

[2] نقلا عن: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (11/ 237)

أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطل هذا مـذهب مالـك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق)[1]

ومن المصـادر الـتي اعتمـدتها الجمعيـة موقـف أبي إسحاق الشاطبي، فقد قال في إنكار السـماع والـرقص الصـوفي: (وأمـا المقلـد فكـذلك أيضـا لأنـه يقـول فلان المقتدى به يعمل بهذا العمل ويتنى كاتخـاذ الغنـاء جـزءا من أجـزاء طريقـة التصـوف بنـاء منهم على أن شـيوخ التصـوف قـد سـمعوه وتواجـدوا عليـه ومنهم من مـات بسـببه وكتمزيـق الثيـاب عنـد التواجـد بـالرقص وسـواه لأنهم قـد فعلـوه وأكـثر مـا يقـع مثـل هـذا في هـؤلاء المنتمين إلى التصـوف، وربمـا احتجـوا على بـدعتهم بالجنيد والبسطامى والشبلى وغيرهم فيما صـح عنـدهم أو لم يصح ويتركون أن يحتجوا بسنة الله ورسـوله وهي الـتي لا شـائبة فيهـا إذا نقلهـا العـدول وفسـرها أهلهـا المكبون على فهمها وتعلمها، ولكنهم مع ذلـك لا يقـرون بالخلاف للسنة بحتا بل يدخلون تحت أذيال التأويـل إذ لا يرضـى منتم إلى الإسـلام بإبـداء صـفحة الخلاف للسـنة أصلا)[2]

ومن المصادر التي اعتمـدتها الجامعيـة، وهي أقـرب المصادر إليها مـا كتبـه الشـيخ عثمـان بن المكي العـالم السلفي التونسي في كتابه (المرآة لإظهـار الضـلالات)، والـذي رد عليـه الشـيخ ابن عليـوة في رسـالته (القـول المعروف في الرد على من أنكر التصوف)

وقد لقيت رسالة ابن المكي اهتماما كبيرا خاصة في السـعودية وغيرهـا، وقـد طبعت طبعـة أنيقـة وحققت بالإضـافة إلى انتشـارها الواسـع في النـوادي والمواقـع المختلفة.

---

[1] تفسير القرطبي (11/238)

[2] الإعتصام (ص 405-406).

وهي مع ذلك تفتقر – كما يفتقر الكثير من كتب الاتجاه السلفي- إلى اللغة العلمية المؤدبة، بل حتى إلى التوثيق العلمي، وكمثال على ذلك أن المحقق عبد الله بن صالح البراك لم يعلق على النصوص الكثيرة التي أوردها ابن المكي، والتي لا سند لها، بل هي ظاهرة الوضع، بل لو كان سندها صحيحا لكانت دليلا يحتج به الصوفية، ومن ذلك قوله (سُئل الحسن البصري عن اجتماع جماعة من أهل السنة والجماعة يقرؤون القرآن في بيت أحد ويصلّون على النبي ﷺ ويدعون لأنفسهم ولجماعة المسلمين؟ فنهى عن ذلك أشدَّ النهي؛ لأنه لم يكن من عمل السلف الصالح، وما لم يكن عليه عمل السلف، فليس من الدين؛ فقد كانوا أحرص الناس على الخير من هؤلاء، فلو كان فيه خير لفعلوه..)[1]، وهكذا لا نعلم من أين اعتمد على هذا النقل، الذي يحمل دلائل بطلانه، فلم يكن في ذلك الحين هذا المصطلح (أهل السنة والجماعة)

ثم إنه إن صح هذا النقل كان دليلا للصوفية، كما قال الشيخ ابن عليوة في رده عليه: (فإذا كان هذا الذي ضاق به صدرك من أحوال القوم حتى أنّك لم تجد له قولا بالجواز، حيث إنّهم يجتمعون في بيت أحدهم يقرؤون القرآن ويصلّون على النبيّ ﷺ، ويدعون لأنفسهم ولجماعة المسلمين فظهر لك أنّه معصية مخالف لما كان عليه السلف، فأنا أقول : اللّهم اجعل معاصينا ومعاصي أصدقائنا ومعاصي عموم المسلمين من هذا القبيل إن كان بالاجتماع على وجه ما ذكرتموه، وإن كان فيه زلّة لم تتضح، فالله يعصمنا وإيّاكم من الزلل، ثمّ أقول إنّ هذا النقل إن صحّ عن الحسن البصري فلا يفيدنا عموم النهي عن الاجتماع بصفة ما

[1] ابن المكي، المرآة لإظهار الضلالات، ص11.

ذكر، وإن كان الحسن مجتهدا فلا يبعد أن يكـون مجتهـد غيره في عصره إن لم نقـل في تلـك الجماعـة نفسـها، لأنّ العصر عصر التابعين وثانيـا إنّ هاتـه الواقعـة تصـلح أن تكون حجّـة للصـوفيّة لا عليهم حيث إنّكم قـررتم أنّ الاجتماع وقع بتلك الصفة في عصر التابعين لأنّ المتعين علينـا الاهتـداء بهـداهم، وهـل تظنّ أنّ هاتـه الطائفـة الميمونة وضعت دعائمها على غير أساس متين؟)[1]

بـل إن من العجب أن يسـتدل الشـيخ عثمـان ابن المكي على شيء يتصور أنه يكفر فاعله بإسـرائيليات لا سند لها إلا تلك الأسانيد التي وضعها كعب الأحبار ووهب بن المنبه الذين هم من أئمة الـدين وثقاتـه عنـد الاتجـاه السـلفي، فقـد قـال في معـرض رده عن الـرقص الصـوفي: (أمّـا الـرقص والتواجـد، فـأول من أحدثـه أصـحاب السـامري، فـإنّهم لمّـا عبـدوا العجـل صـاروا يرقصون حوله ويتواجدون فهو دين الكفار وعبّاد العجل)[2]

وقد رد عليـه الشـيخ ابن عليـوة بقولـه: (ولم يكفكم حـتى وضـعتم عليهم تشـبيها بليغـا أخـرجهم من دائـرة الإسلام والمسلمين، وهو قـولكم نقلا عمن لا يتقي اللـه مثلكم، أو لم يقصد بـذلك إلاّ جماعـة بعينهـا.. وفي ظنّي أنّكم تجاوزتم الحدّ فيما ارتكبتموه، فلا مسلك وخيم في أعـراض أهـل اللـه إلاّ وسـلكتموه، ثمّ أقـول : إن كـان تشبيهكم هذا للفقراء بعبّاد العجـل فيـه إصـابة من حيث الهيئـة الموجـودة في الفـريقين، وقـد صـادفتم فيمـا زعمتم، فهل صـادفتم وجـه الشـبه فيمـا بين المعبـودين المتواجـد من أجلهمـا بين عجـل الإسـرائيليين وإلـه

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف، ص29، 30.

[2] ابن المكي، المرآة لإظهار الضلالات، ص13.

الذاكرين ؟، فتعالى الله عمّا يقول الظالمون)[1]

ثانيا ــ موقف الطرق الصوفية:

لا نجد طريقة من الطرق الصوفية - ما عدا الطريقة التيجانية فيما نعلم - لا تهتم بهذا الجانب، وذلك لأهميتــه الكبرى في نشر المعاني الروحية التي يحرص الصــوفية بكل الوسائل على نشرها في عالم النفس والمجتمع.

بنـاء على هـذا نحـاول هنـا أن نطـرح هـذه المسـألة الخطيرة من زاويتين:

الأولى: هي بيـان أهميـة السـماع وتوابعـه التربويـة، والتي جعلت الصوفية يحرصون عليه.

الثانية: بيان أدلتهم على شـرعيته مـا يمارسـونه في هذا الجانب من طقوس.

وكلا الجانبين مرتبط بالآخر، وكلاهما يوجه الكلام فيه للمخـالفين سـواء من رجـال الجمعيـة، أو من أصـحاب الاتجاه السلفي، أو من الفقهاء المتشددين.

الدور التربوي للسماع والرقص:

أشاد الصوفية وغـيرهم بأهميـة السـماع في التربيـة والسلوك والـترقي، واختلفت عبـاراتهم في ذلـك، فهـذا ذكــر العلامــة الإســفاريني يــذكر في (غــذاء الألبــاب) الدواعي التي جعلت الصوفية يولـون هـذا الجـانب تلـك الأهمية الكبرى مع كونـه من ميسـرات السـلوك، وليس من أصولها، ولا من شـروطها، فيقـول: (والسـماع مهيج لمـا في القلـوب، محـرك لمـا فيهـا، فلمـا كـانت قلـوب القــوم معمــرة بــذكر اللــه تعــالى، صــافية من كــدر الشـهوات، محترقـة بحب اللـه، ليس فيهـا سـواه، كـان الشـوق والوجـد والهيجـان والقلـق كـامن في قلــوبهم كمــون النــار في الزنــاد، فلا تظهــر إلا بمصــادفة مــا يشاكلها، فمراد القوم فيما يسمعون إنما هو مصادف ما

[1] ابن عليوة، القول المعروف، ص29، 30.

في قلوبهم، فيستثيره بصدمة طروقـه، وقـوة سـلطانه، فتعجـــز القلـــوب عن الثبـــوت عن اصـــطدامه، فتبعث الجوارح بالحركات والصـرخات والصـعقات، لثـوران مـا في القلوب)[1]

وهذا أبو حامد الغزالي يذكر وجـه تـأثير السـماع في النفس، ودوره بالتـــالي في التربيـــة والترقيـــة، فقـــال: (اعلم أن السماع هو أول الأمر، ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، إمـــا بحركة غير موزونـة فتسـمى الاضـطراب، وإمـا موزونـة فتسمى التصفيق أو الرقص)[2]

ثم يعقب على هـذا ببيـان أنـه لا يوجـد أي دليـل في تحريم السماع والرقص المرتبط به، فقال: (والقول بأن السماع حرام معناه أن الله يعاقب عليه، وهـذا الأمـر لا يعرف بمجرد العقل، بـل بالسـمع، ومعرفـة الشـرعيات محصـــورة في النص أو القيـــاس إلى المنصـــوص، ولم يسـتقم في هـذا المجـال نص ولا قيـاس، وبهـذا يبطـل القـــول بتحريمـــه، ويبقى فعلا لا حـــرج فيـــه كســـائر المباحات)[3]

بل إنه فوق ذلك يـذكر أن (هنـاك نصوصـا تـدل على إباحته، فالغناء سماع صوت طيب مفهوم المعنى محرك للقلب، وسماع الصوت الطيب بالنسـبة لحاسـة السـمع كرؤية الخضرة والماء الجاري بالنسبة للعين، فلا يحـرم، فـإن أدى المنظـر إلى الاطلاع على شـيء حـرام حـرم النظـر كـالنظرة إلى العـروة، وكـالنظر بشـهوة وكـذلك

[1] محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق : محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1423 هـ - 2002 م، الطبعة : الثانية، (1/127)

[2] إحياء علوم الدين (2/ 268)

[3] إحياء علوم الدين (2/ 270)

يحرم السماع إذا كان سـماعا لشـيء غـير حلال أو أدى بطريق انحرف عن الحلال) [1]

بـل إن الغـزالي، وهـو الفقيـه والمـربي يجعـل كتابـا كاملا في إحيائه خاصا بهذا الموضوع على اعتبار أهميتـه التربوية والسلوكية والروحية، والـتي نص عليهـا بقولـه: (لله تعالى سر في مناسـبة النغمـات الموزونـة للأرواح حـتى إنهـا لتـؤثر فيهـا تـأثيرا عجيبـا، فمن الأصـوات مـا يفرح، ومنها ما يحزن، ومنها ما ينوم، ومنهـا مـا يضـحك ويطرب، ومنها مـا يسـتخرج من الأعضـاء حركـات على وزنها باليد والرجل والرأس..) [2]

ثم يلخص ذلـك كلـه بقولـه: (إن تـأثير السـماع في القلب محسـوس، ومن لم يحركـه السـماع فهـو نـاقص مائـل عن الاعتـدال بعيـد عن الروحانيـة زائـد في غلـظ الطبـع وكثافتـه على الجمـال والطيـور بـل على جميـع البهائم فإنها جميعا تتأثر بالنغمات الموزونة)[3]

فمـا دام للسـماع كـل هـذا التـأثير، فمـا المـانع من استثماره في التربية والسلوك، بل وترقية المريدين في درجات العرفان، يقول الغزالي: (سـماع من أحب اللـه وعشقه واشـتاق إلى لقائـه فلا ينظـر إلى شـيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منـه أو فيـه فالسماع في حقـه مهيج لشـوقه ومؤكـد لعشـقه وحبـه ومور زناد قلبه ومسـتخرج منـه احـوالا من المكاشـفات والملاطفـات لا يحيـط الوصـف بهـا يعرفهـا من ذاقهـا وينكرها من كل حسه عن ذوقها) [4]

ثم يـذكر تـأثير تلـك المسـتخرجات الـتي اسـتجرجها

---

[1]) إحياء علوم الدين (2/ 270)

[2]) إحياء علوم الدين (2/ 275)

[3]) إحياء علوم الدين (2/ 275)

[4]) إحياء علوم الدين (2/ 279)

السـماع ومـا عقبـه من الوجـد، فقـال: (ثم تكـون تلـك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانهـا، وتنقيه من الكدورات كما تنقى النار الجواهر المعروضـة عليها من الخبث، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشـاهدات ومكاشـفات، وهي غايـة مطـالب المحـبين للـه تعـالى ونهاية ثمرة القربات كلها)[1]

وبناء على هذا يخلص الغـزالي إلى أن السـماع ومـا يتبعه بالنسبة للصوفية ليس مباحا فقـط، وإنمـا هـو من المسـتحبات، فقـال: (.. فالمفضـي إليهـا – أي لتلـك الأحـوال الـتي سـبق ذكرهـا- من جملـة القربـات لا من جملة المعاصي والمباحات) [2]

ثم بين أن المنكـر لهـذا منكـر للطبـع والفطـرة السليمة التي فطر الله عليها الأنفس، والـتي تميـل إلى الغنـاء جبليـا من غـير تكلـف، ولهـذا فـإن من ينكـر هـذا يسميه الغزالي (البليد الجامد القاسـي القلب المحـروم عن لذة السماع) ذلك أنـه (يتعجب من التـذاذ المسـتمع ووجده واضطراب حالـه وتغـير لونـه تعجب البهيمـة من لذة اللوزينج، وتعجب الصـبي من لـذة الرياسـة واتسـاع أسباب الجاه، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه) [3]

ثم بين علة هـذه البلادة، فقـال: (ولكـل ذلـك سـبب واحـد، وهـو أن اللـذة نـوع إدراك، والإدراك يسـتدعي مـدركا، ويسـتدعي قـوة مدركـة، فمن لم تكمـل قـوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ، فكيف يـدري لـذة الطعـوم من فقـد الـذوق، وكيـف يـدرك لـذة الألحـان من فقـد السمع، ولذة المعقـولات من فقـد العقـل، وكـذلك ذوق

---

[1] إحياء علوم الدين (2/ 279)

[2] إحياء علوم الدين (2/ 279)

[3] إحياء علوم الدين (2/ 279)

السماع)[1]

وبناء على هذا نجد الطرق الصوفية في الجزائر تولي أهمية كبرى للسماع، بل لو قلنا بأن الفن الجزائري بأنواعه المختلفة الشعبية والأندلسية وغيرها كان مصدره الطرق الصوفية لم نبالغ في ذلك، وللأسف عندما رمي التصوف بالبدعة والضلال، ورميت البردة التي كانت تنشد في الأعراس والجنائز بالشرك والإلحاد، ورميت تقاليدنا وعاداتنا الطيبة المحافظة بالتخلف استبدل الناس بدلها هذه الأغاني الفاسقة الفاجرة، وللأسف لا نجد من التيار السلفي من يحمل عليها حملته على التصوف والطرق.

لكن أهم طريقة أولت هذا الجانب أهمية كبرى بالإضافة إلى الطريقة العيساوية الطريقة العلاوية فقد كان لها اهتمام خاص بهذا الجانب، خاصة وأن للشيخ ابن عليوة ديوان مشهور، لا تزال قصائده يغنى بها في جميع العالم الإسلامي، وقد كان للغته الغنائية البسيطة تأثيرها الكبير في النفوس خاصة في ظل الاستعمار الفرنسي، الذي لم يكن للجزائري مجال للاسترواح فيه غير هذا المجال.

وقد كان الشيخ يعطي أهمية بالغة للإنشاد والغناء، بل كان محاطا دائما بمجموعة من الطلبة لهم أصوات شجية يقومون بأداء القصائد الصوفية بألحان عذبة لها تأثيرها الكبير في النفوس، ولم يكن يمزجها بالآلات الموسيقية، إما رعاية لما وقع في ذلك من خلاف فقهي، أو كما علل ذلك لأوغسطين بارك عندما قال له: (إن الموسيقى ليست جافة كالكلمات، إنها تنساب كالجدول وتصل بالإنسان إلى الله)[2]

---

[1]) إحياء علوم الدين (2/ 279)

[2]) نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص 180.

والقصائد التي كانت تنشد في المجامع العلاوية عادة تتشكل من قصائد ابن الفـارض أو الشـيخ أبي مـدين أو الشــيخ عبــد القــادر الجيلاني، أو قصــائد أبي الحســن الششتري، وهي القصائد التي تنشد عادة عنـد أصـحاب الطريقة الشاذلية، وخصوصا الدرقاوية منها.

إلى جانب قصائد الشيخ ابن عليوة التي كانت غنائية بالأساس، وقصائد شيخه البوزيدي، ثم أضيفت بعد ذلـك قصـائد تلميـذه وخليفتـه الشـيخ عـدة بن تـونس، وقـد جمعت كلهــا في ديــوان واحــد تحت عنــوان (آيــات المحــبين)، ويعتـبر الآن مصـدرا للأغـاني الصـوفية في العالم الإسلامي، خاصة في المناطق الـتي تنتشـر فيهـا طريقته كالشام والمغرب.

أدلة شرعية السماع والرقص:

بناء على مـا ذكرنـا سـابقا من رد الشـيخ ابن عليـوة على ما أورده الشـيخ عثمـان ابن المكي حـول الـرقص الصوفي، نذكر هنا أمرين كلاهما مرتبط بالأدلة:

الأول: إجابــة الطــرق الصــوفية على مــا أورده المخالفون من الأدلة.

الثاني: هو الأدلـة الـتي يعتمـدونها بحسـب تصـورهم للجواز أو للاستحباب.

وسنورد هنا ذلك باختصـار باعتبـار أن المسـألة تكلم فيها الكثير من رجال الطـرق الصـوفية، وبسـطت فيهـا الأدلة المفصلة.

إجابــة الطــرق الصــوفية على مــا أورده المخالفون من الأدلة:

ابتدأ الشـيخ ابن عليـوة رده على عثمـان ابن المكي من حكمه على مجوزي الـرقص بـالكفر بنـاء على نقـل نقله من ابن وهبان حيث قـال : (ومن يستحل الــرقص قالوا بكفره ولا سـيما بالـدف يلهـو ويزمـر)، ونقلـه عن المعيار عن جماعة من الشـيوخ : (إنّ من حبس زاويـة

أو غيرهـا على فقـراء الـوقت فحبسـه باطـل لأنّـه على معصية)[1]

وقد رد عليه الشيخ ابن عليوة بقوله: (وهكـذا شـأنك مهما وجدت سيرة شنيعة أو حالـة فظيعـة إلاّ وألصـقتها بجنب الذاكرين تدليسا منك على القارىء حتى لا يتبـادر لفهمـه من مـذهب التصـوّف إلاّ مجـرد مـا ذكرتـه من الرقص واللهو والتزمـير ونحـو ذلـك، ألا تـرى أنّـه تقـرّر لديك أنّ مستحل الـرقص قـالوا بكفـره، فكيـف بـك إذا بلغك أنّ الحبشة دخلوا مسجد النبّي ﷺ يـوم العيـد على هيئتهم المعروفة من الرقص ونحوه، وهـو عليـه الصـلاة والسلام ناظر لهم وعائشة تتطلع عليهم من خلفه، حتى فرغــوا من أعمــالهم، ولم ينكــر عليهم عليــه الصــلاة والسلام، فبالله عليـك أي شـيء تفهمـه من ذلـك وأنت تقـول الـرقص حـرام مطلقـا، وهـل تـراه عليـه الصـلاة والسلام يقرر على الحرام ؟، وهلا تجـد فرقـا بين رقص السفهاء المتخنثين وبين رقص الحبشة ؟)

ثم احتج عليــه بمــا ورد في حــديث جعفــر بن أبي طــالب، واهــتزازه طربــا عنــدما قــال لــه النــبي ﷺ: (أشبهت خلقي وخلقي)[2]

قــال تعليقــا على هــذا الحــديث، وردا على الشــيخ عثمان بن المكي: (ولم ينكر عليه ولم ينهه، وهلا يفيدك هذا إباحـة في الحكم ؟، وهـل يصـح التطـبيق بين رقص جعفر وبين الرقص المشار إليه في قصيدة ابن وهبان؟،

---

[1] المرآة لإظهار الضلالات: ص14.

[2] قوله ﷺ : (أشبهت خلقي وخلقي) موجود في صحيح البخـاري (3/ـ 242) من غير ذكر اهـتزازه طربـا، وفي (مسـند أحمـد بن حنبل (1/ـ 108) عن على قال : أتيت النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وجعفـر وزيـد قـال فقـال لزيـد أنت مولاي فحجل، وقال لجعفـر أنت أشـبهت خلقي وخلقي قـال فحجـل وراء زيـد قال وقال لي أنت منى وأنا منك قال فحجلت وراء جعفر.

ألم تعلم أنّ التخصـيص يفيـد الإطلاق؟، وهـل تـرى أنّ الصوفيّة يقولون بتحليـل الـرقص مطلقـا كمـا قلت أنت بتحريمـه مطلقـا؟، كلا وإنّمـا هم أوسـع منـك نظـرا لا يقولون في دين الله بغير علم)[1]

ثم ذكر أنه في انتصـار للصـوفية في هـذا الجـانب لا ينتصـر للـرقص، وإنمـا ينتصـر للأمـة الـتي حكم عليهـا بالردة، فقلا: (إنّ ما قررناه في هاته النازلة ليس مجـرد انتصـار لجـانب الـرقص، كلا، وإنّمـا هـو إظهـار للحكم وانتصار للأمّة المحمديّة التي قضيت بـالكفر على الجـلّ منهـا، لأنّ الغـالب فيهـا يعتقـد جـواز الاهـتزاز، وأمّـا المنتسبون فيعتقدون مطلوبيته)[2]

ثم ذكـر لـه العلـة في إنكـاره على الصـوفية وعـدم فهمه لسر حركاتهم، فقال: (وبـالطبع كـلّ حـبيب يرتعـد عند ذكـر حبيبـه، وإنّي على علم من أن الحجّـة لا تقـوم عندك بما ذكرناه، لأنّك لم تـذق طعم المحبّـة، ولـو دبّت في مفاصلك لاشتهيت أن تسمع ذكر الله ولو من كـافر، ثمّ نقول كما قال سلطان العاشقين [3]:

ولي ذكرهـا يحلـو على كـــــلّ صـــــيغة ... وإن مزجـــــــوه عـــــــذّالي بخصـــــــام

وحينئذ تعرف معنى الوجل، وتنظر هل تملك نفسـك أم لا ؟)

ثم ذكر له ما قصه القـرآن الكـريم من شـأن نسـوة مصـر، فقـال: (ألم يبلغـك في كتـاب اللـه خـبر النسـوة اللاتي قطعن أيـديهن لمّـا خـرج عليهن يوسـف عليـه

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف، ص65.

[2] ابن عليوة، القول المعروف، ص66.

[3] ابن عليوة، القول المعروف، ص67.

السـلام، {وَقُلْنَ حَـاشَ لِلَّهِ مَـا هَـذَا بَشَـرًا } [يوسـف: 31] ، فإن كان مثل هذا يقـع بمشـاهدة جمـال مخلـوق، فلم لا يقع ما يقرب منه عند مشـاهدة جمـال خالقـه إذا ظهر بسلطان كبريائه)[1]

ثم نبهــه إلى خطــورة تكفــيره لأصــحاب الطــرق الصـوفية، ونتـائج المترتبـة على ذلـك، فقـال: (ألم تعلم أنّك إذا قلت بكفر مؤمن، فقد حكمت بإباحة ماله ودمــه وبخلوده في النــار ؟، ألم تعلم أنّ حرمـة المـؤمن عنـد الله أعظم من حرمة الكعبة، وإنّ هدمها عنده أهون من تكفير المؤمن المعلن بكلمـة الإخلاص المـردّدة لهـا في سائر الأنفاس، وإنّي أحذرك الله أن تتقيه في أهل لا إله إلاّ الله ولا تقـل فيهم برأيـك، فـإنّهم أقـوام خلقهم اللـه لــذكره واختــارهم في ســابق علمــه، فعلى الأقــل أن تراقبهم لله وتحترمهم في اللـه، والإضـافة تغنيـك واللـه يلهمك ويهديك)[2]

بالإضــافة إلى مــا ذكــره الشــيخ ابن عليــوة تنــاول المنتسبون للطرق الصوفية النصـوص الـتي اسـتدل بهـا المخالفون ووجهوها التوجيه الذي تتناسب مع مــوقفهم، وهذه بعض تلك النصوص، وموقفهم منها:

1 ـ قوله تعالى: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَـدِيثِ تَعْجَبُـونَ (59) وَتَضْـــحَكُونَ وَلَا تَبْكُـــونَ (60) وَأَنْتُمْ سَـــامِدُونَ (61)} [النجم: 59 - 61]، فقد نقل المنكرون للسماع الصوفي في تفسير هذه الآيـة أن ابن عبـاس (سـامدون) بالغنـاء بلغـة حمـير، وقـد رد الغـزالي على هـذا الـدليل بقولـه: (ينبغي أن يحرم الضـحك وعـدم البكـاء أيضـا، لأن الآيـة تشتمل عليه، فإن قيل: إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسـلامهم، فهـذا أيضـا مخصـوص بأشـعارهم

[1] ابن عليوة، القول المعروف، ص67.

[2] ابن عليوة، القول المعروف، ص68.

في معـرض الاسـتهزاء بالمسـلمين، وكمـا قـال تعـالى {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء: 224]، وأراد بـه شعر الكفار ولم يدل على ذلك تحـريم نظم الشـعر في نفسه)[1]

2 ــ قولـه تعـالى: {وَاسْـتَفْزِزْ مَنِ اسْـتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـوْتِكَ } [الإسـراء: 64]، وقـد اسـتدلوا على هـذا بمـا روي عن ابن عباس من أن المراد بذلك الغناء، وقد عبر ابن القيم – وهو من أكـبر المعارضـين للغنـاء والسـماع الصوفي وغير الصوفي- عن هذا بقولـه: (ومن المعلـوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية، ولهذا فسـر صوت الشـيطان بـه وقـول مجاهـد إنـه الغنـاء الباطـل. ورواية أخرى عنه: صوته هو المزامير)[2]

وقـد رد الصـوفية على هـذا الاسـتدلال بـأن أكـثر المفسرين ذهبـوا إلى إلى تفسـيرها (بصـوتك)، وصـوته كـل داع يـدعو إلى معصـية اللـه تعـالى لـذلك فلا وجـه للتخصيص بالغناء فقط، وإنمـا بكـل وسـيلة تكـون سـببا إلى معصية الله.

بالإضافة إلى هذا، فإن الغناء وإن استعمله الشيطان في سبيل الضلالة، فيصح أن يسـتعمله غـيره في سـبيل الخـير والاسـتقامة، فمـا هـو إلا أسـلوب حسـنه حسـن، وقبيحه قبيح.

الأدلة المجيزة للسماع والرقص الصوفي:

من الأدلة التي ذكرها الشيخ ابن عليـوة، وغـيره من رجـال الطـرق الصـوفية على صـحة مـا يمـارس في مجالس الطرق الصوفية من السماع والرقص:

1 ــ قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

---

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (2/351)

[2] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية (1/255)

وَجِلَتْ قُلُــوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُــهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًــا } [الأنفال: 2]، وقد علق الشيخ ابن عليوة على هذه الآيــة بقوله: (فها هو تعالى أخبرك عمّا يلحق الذكر من الوجل وجعله من أخص صفة المؤمنين) [1]

بل ذكر – مخاطبا الشيخ ابن المكي- منبها له أن مــا يفعله الصـوفية ليس مقصـودا لذاتـه، وإنمـا (هـو نتيجـة الوجل الذي عدمتموه)[2]

2 ــ أن الله تعالى أثنى على أهل الكتاب بما يحصـل لهم من الوجـد، فـذكر أحـد لوازمـه أبلـغ مـا يكـون من المدح فقال: {وَإِذَا سَمِعُوا مَـا أُنْـزِلَ إِلَى الرَّسُـولِ تَـرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الــــدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُــــوا مِنَ الْحَــــقِّ} [المائدة: 83]، وقـد علـق الشـيخ ابن عليـوة على هـذه الآية بقوله: (أو ليس هذا ما يـدّل على وقـوع حركـة في باطن المؤمن من أجل ذكر الله واستماع كلامه؟)[3]

3 ــ أنّ الصحابة رضوان الله عليهم تناشدوا الأشعار بحضرة النـبيّ ﷺ ولم ينكـر عليهم، وفي قصـة كعب بن زهـير كفايــة لمن تـدبرها كيـف اسـتمع منـه النـبيّ ﷺ قصـيدته المعروفـة : (بـانت سـعاد)، مـع مـا فيهـا من التغـزّلات، وكيـف جـزاه بـالعفو والـبردة زيـادة لـه عن تقريره له في إنشاد الشعر بحضرته[4].

ومن ذلـك مـا حـدث بـه أنس أن النـبي ﷺ كـان في سفره وكان غلام يحدو بهن يقال له أنجشة فقال النــبي

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف، ص67.

[2] ابن عليوة، القول المعروف، ص67.

[3] ابن عليوة، القول المعروف، ص68.

[4] ابن عليوة، القول المعروف، ص68.

ﷺ: (رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير) قال أبو قلابــة : يعني ضعفة النساء)[1]

ومن ذلك مـا حـدث بـه عـامر بن سـعد قـال: دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصـاري في عـرس وإذا جوار يغنين فقلت أي صاحبا رسول الله صـلى اللـه عليه وآله وسلم ومن أهـل بـدر يُفعـل هـذا عنـدكم؟!... فقالا: اجلس إن شئت فاستمع معنـا وإن شـئت فـاذهب فإنه قد رخص لنا في اللهو عن العـرس[2].. وغيرهـا من النصوص الكثيرة.

المطلب الثاني: الموالد (الزردات)

من الأمور التي تكاد تكون مختصة بالطرق الصوفية، وإن شاركها فيها غيرهم، الاحتفـالات الـتي يقيمونهـا في مناســبات مختلفــة، إمــا إحيــاء لــذكرى ميلاد شــخص يعتقدون ولايته، أو وفاته، أو لأجـل غـرض من الأغـراض المختلفـة، والـتي يطلـق عليهـا في المجتمـع الجزائـري اسـم (زردة)[3]، ويطلـق عليهـا كـذلك اسـم (الجمـوع)

[1] صحيح البخاري (8/ 58)

[2] سنن النسائي (6/ 135)

[3] عرف الشيخ مبارك الميلي الـزردة بقـول: (وأمـا الـزردة؛ فهي في لسـان العرب: المرة من زرد اللقمة- كفهم- زردا: بلعها، وازدردهـا: ابتلعهـا، وهي في عرفنا طعام يتخذ على ذبائح من بهيمة الأنعام عند مزارات من يعتقد صلاحهم، ولها وقتان: أحدهما: في فصـل الخريـف عنـد الاسـتعداد للحـرث. والآخـر: في فصل الربيع عند رجاء الغلة. والغرض منها التقرب من ذلك الصـالح كي يغيثهم بالأمطار تسهيلا للحرث أو حفظا للغلة، فهو عندهم كـوزير عنـد ملـك يرشـونه بالزردة ليقضي حاجتهم عند الله!! ما أجهلهم بمقام الألوهية!! (انظـر: رسـالة الشرك ومظاهره (ص: 379)

و(الاحتفالات) و(الموالد) بحسب الطرق المختلفة.

وعلاقة هذا بالممارسات الميسرة للسلوك الصــوفي واضــحة، وهي أنــه في هــذه التجمعــات يلتقي إخــوان الطريقة من كل البلاد، ويتذاكرون، وينشــدون القصــائد، ويكتسبون أفرادا جــددا في الطريقــة، بالإضــافة إلى مــا يقام في تلك المناسبات من ولائم، وهي كلها مما ترغب فيــه النفس، ويميــل إليــه الطبــع، وهي بــذلك تعطي شحنات إضافية للسالك يتزود منها مدة طويلة.

بالإضافة إلى ما في تلك الموالـد من آثـار اجتماعيـة تربط المجتمع بعضه ببعض، بل تربط المجتمـع بتاريخـه وثقافته والرجـال الـذين يميـل إلى تقديسـهم، وبالتـالي فللموالد أثرها البعيد في تشكيل الهوية، والحفاظ عليها.

والطقوس في هذه الموالـد تختلـف من مجتمـع إلى آخر، والالتزام الديني فيه كذلك يختلـف من طريقـة إلى أخرى، وبالتالي، فإن الحكم على هـذه الموالـد سـلبا أو إيجابا يحتاج إلى النظر في كل مولد على حدة، وإلا كان في الحكم جورا وخطأ كبيرا.

بنـاء على هـذا نحـاول في هـذا المطلب أن نتعـرف على موقف الجمعية من تلك الموالد، ثم نقارنه بموقف الطرق الصوفية.

موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الموالد:

لعــل أهم مــا اهتمت الجمعيــة بقلعــه من عــادات وتقاليد المجتمـع الجزائـري ظـاهرة الموالـد والـزردات، والــتي أصــبح يطلــق عليهــا عنــد الجمعيــة بــأعراس الشـيطان، حـتى أن الأمـر وصـل بهـا إلى تحـريم أكـل الطعام الذي يعد في تلك المناسـبات، بـل وصـل الأمـر إلى أخطر من ذلك حين اعتبرت الموالد مواسم شركية لا تختلف عن تلك الاحتفالات الـتي كـان يقيمهـا العـرب في الجاهلية للات والعزى وغيرها من الأصنام.

ولعل أهم من ركز اهتمامه على محاربة هذه الموالد من غير هوادة الشيخ البشير الإبراهيمي، ونحب – للتعرف على موقفه من الموالد- أن نقتصر على تحليل مقال له نشره البصائر[1] بعنوان (أعراس الشيطان)[2]، استهله على طريقته في تغليب الأدب على العلم، والبيان على البرهان، فهو بدأ بذكر الشيطان وتأثيراته المختلفة بطريقته تهكمية ساخرة، فقال: (كنا نفهم أن الشيطان يطوف ما يطوف ثم يأوي إلى قلوب أوليائه، لينفث فيها الشر، ويزين لها معصية الله، ويحركها إلى الفساد والمنكر، ويذكرها بسننه المنسية لتتوب إليه من إهمالها وإضاعتها؛ وما كنا نعلم أن للشيطان مراج خاصة لا يبرحها في فصلين من السنة، ومعظمها في (العمالة الوهرانية)، وما ذلك لطيب في هوائها، أو عذوبة في مائها، أو اعتدال في جوها، فالشيطان غني عن هذا كله، ولا يعبأ بهذا كله، وإنما ذلك للذة يجدها الشيطان في هواها ... وسهولة انقياد يجدها في أوليائه بها، وقابلية للتسويل والتزين قلما يجدها في غيرهم من رعاياه، وصدق الله العظيم، فإن الشياطين لا تنزل إلا على كل أفاك أثيم)[3]

بعد هذا الاستهلال الذي خصصه للشيطان مع أن الحديث مرتبط بالموالد، أخذ يربط بين الشيطان والموالد، فقال – بأسلوبه التعميمي الذي لا يحب الاستثناء- : (هذه (الزرد) التي تقام في طول العمالة الوهرانية وعرضها هي أعراس الشيطان وولائمه، وحفلاته ومواسمه، وكل ما يقع فيها من البداية إلى

---

[1] في العدد 95 من جريدة «البصائر»، 14 نوفمبر سنة 1949.

[2] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 319)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 319)

النهاية كله رجس من عمل الشيطان، وكل داع إليها، أو معين عليها، أو مكثر لسوادها فهو من أعوان الشيطان)[1]

ثم ذكر المـبررات الداعيـة إلى هـذا الحكم الشـديد، فقــال: (ألم تــر إلى مــا يــركب فيهــا من فــواحش ومحرمات؛ وما يهتـك فيهـا من أعـراض وحرمـات؟ كـل ذلك مما يأمر به الشيطان البدوي، وكل ذلك مما ذكرنـا بـه القـرآن، وبين لنـا أنـه من أمـره ووعـده، وتزيينـه وإغوائه)[2]

ولم يذكر الشيخ أي دليل على هذا القذف العام لكل الموالــد من دون اســتثناء، وكأنهــا جميعــا مناســبات للمنكـرات والفـواحش، ولا حـظ فيـه لعبـادة أو دين أو علم.

ولم يكتف الشيخ بهذا القذف العام لجميـع المجتمـع الجزائــري، وإنمــا راح يشــهر ســلاح التكفــير والــرمي بالشرك الأكـبر الـذي تلقفـه من شـيخه محمـد بن عبـد الوهاب، فقال: (كلما انتصف فصل الربيع من كـل سـنة تداعى أولياء الشيطان في كـل بقعـة من هـذه العمالـة إلى زردة يقيمونهــا على وثن معــروف من أوثــانهم، يسوله لهم الشيطان وليـا صـالحا، بـل يصـوره لهم إلهـا متصرفا في الكون، متصـرفا في النفـع والضـر والـرزق والأجـل بين عبـاد اللـه، وقـد يكـون صـاحب القـبر رجلا صالحا، فما علاقة هذه الـزرد بصـلاحه؟ ومـا مكانهـا في الدين؟ وهل يرضى بها لو كان حيا وكان صـالحا الصـلاح الشرعي؟ وقد كانت هذه الزرد تقـام في أيـام الجـدوب للاستسقاء غير المشـروع، فأصـبحت عـادة مسـتحكمة، وشـرعة محكمـة، وعبـادة موقوتـة، يتقـرب بهـا هـؤلاء

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 320)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 320)

المبتدعة إلى أوثانهم في أوقات الجدوب والغيوث على السواء، يدعوهم إليها شيطانهم في النصف الأخير من كل ربيع، فإذا جاء الغيث نسبوه إلى أوثانهم، وإذا كان الجدب نسبوه إلى الله، عكس ما قال الله وحكم، ثم إذا جاء الصيف فاءوا إلى الأعمال الصيفية مضطرين، فإذا أقبل الخريف عادوا إلى تلك العادة النكراء فأنفقوا فيها كل ما جمعوه، وتداينوا بالربا المضاعف بما لا تقوم به ذممهم ولا أموالهم؛ فإذا ثقل الدين وألح الدائن، باع من يملك قطعة أرض أرضه، وباع من يملك دابة دابته، وتلك هي الغاية التي يعمل لها الشيطانان، شيطان الجن، وشيطان الاستعمار!)[1]

بعد هذا الحكم القاسي الشديد المفتقر إلى اللغة العلمية والحكمة في معالجة الظواهر، راح يعتبر أن ذلك التقديس الذي جبل عليه الجزائريون للأولياء والصالحين هو نفخة من نفخات الشيطان أو كيد من كيد الاستعمار، وأنه لا علاقة له بحب الصلاح والولاية والتدين، فلا يحب الصالحين إلا من يحب الصلاح نفسه، ولا يعظم أهل الدين إلا من سبق تعظيمهم لهم تعظيم الدين نفسه.

يقول الإبراهيمي: (سر ما شئت في جميع الأوقات، وفي جميع طرق المواصلات تر القباب البيضاء لائحة في جميع الثنايا والآكام ورؤوس الجبال، وسل تجد القليل منها منسوبا إلى معروف من أجداد القبائل، وتجد الأقل مجهولا، والكثرة منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني. واسأل الحقيقة تجبك عن نفسها بأن الكثير من هذه القباب إنما بناها المعمرون الأوربيون في أطراف مزارعهم الواسعة، بعد ما عرفوا افتتان هؤلاء المجانين بالقباب، واحترامهم لها، وتقديسهم

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 320)

للشيخ عبد القادر الجيلاني، فعلوا ذلك لحماية مـزارعهم من السرقة والإتلاف. فكل معمر يبني قبة أو قبـتين من هـذا النـوع يـأمن على مزارعـه السـرقة، ويسـتغني عن الحراس ونفقـات الحراسـة، ثم يـترك لهـؤلاء العميـان- الذين خسروا دينهم ودنياهم- إقامة المواسـم عليهـا في كـل سـنة، وإنفـاق النفقـات الطائلـة في النـذور لهـا وتعاهدها بالتبييض والإصلاح، وقـد يحضـر المعمـر معهم الزردة، ويشـاركهم في ذبح القـرابين، ليقولـوا عنـه إنـه محب في الأولياء خـادم لهم، حـتى إذا تمكن من غـرس هـذه العقيـدة في نفوسـهم راغ عليهم نزغـا للأرض من أيـديهم، وإجلاء لهم عنهـا، وبهـذه الوسـيلة الشـيطانية اسـتولى المعمـرون على تلـك الأراضـي الخصـبة الـتي أحالوها إلى جنـات، زيـادة على الوسـائل الكثـيرة الـتى انتزعوا بها الأرض من أهلها)[1]

ثم بين أثر الحركة الإصلاحية في قلع هـذه العـادات، ويقـر في نفس الـوقت بأنـه لم يمض عليهـا زمن حـتى عـادت من جديـد من غـير أن يبحث في سـر عودتهـا، فقال: (ولقد ماتت هذه العوائد الشيطانية قبـل الحـرب الأخـيرة أو كـادت تمـوت، بتـأثير الحركـة الإصـلاحية المطهرة للعقائد، ثم قضي عليهـا بتـأثر النـاس بـالحرب ولأوائها، وقد عادت في السنتين الأخيرتين إلى ما كـانت عليه)[2]

ثم ختم مقاله بفتاوى خطيرة تفتقر إلى لغة الفقهاء، فقـال: (يـا قومنـا، أجيبـوا داعي اللـه، ولا تجيبـوا داعي الشيطان، يا قومنـا إن أصـول هـذه المنكـرات مفسـدة للعقيـدة، وإن فروعهـا مفسـدة للعقـل والمـال، وإنكم مسـؤولون عنـد اللـه عن جميـع ذلـك، يـا قومنـا إنكم

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 321)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 321)

تنفقــون هــذه الأمــوال في حــرام وإن الــذبائح الــتي تذبحونها حرام لا يحل أكلها، لأنها مما أهل به لغير اللــه؛ فمن أفتـاكم بغـير هـذا فهـو مفـتي الشـيطان، لا مفـتي القرآن)[1]

وعلى هذا المنهج المتشدد نرى الشيخ مبارك الميلي الــذي استنسـخ المنهج الوهـابي كـاملا غـير منقـوص، وخاصة في كتابه (رسالة الشرك ومظاهره) الــذي حكم به على شرك جميع الجزائـريين، بـل على شـرك جميـع المســلمين الــذين يــزورون الأضــرحة أو يتوســلون بأصحابها.

بل إنه يعتقد ما كان يعتقـد الشـيخ ابن عبـد الوهـاب من عـودة الجاهليـة الأولى، بـل إنـه يـرى أن الجاهليـة الآخرة أشد، فيقول: (ولقـد سـادت هـذه الحالـة العـالم الإسلامي، فانتهوا إلى جاهلية كجاهلية العرب في الدين لا في اللسان والبيان، فقد ارتقى العرب أيام جــاهليتهم في معرفــة معــاني الكلام والإبانــة عمــا في أنفســهم بالألفاظ المؤدية لأصل المعنى، ولكن المسـلمين شـمل انحطاطهم هـذه الناحيـة أيضـا؛ فلم يكونـوا مثـل أولئـك العــرب في فصــاحة اللســان ووضــع الأســماء على مســمياتها؛ فــتراهم يعتقــدون في الغــوث والقطب وصـاحب الكشـف والتصـريف معـنى الألوهيـة، ولكن لا يسمونهم آلهة!! ويخضعون لأوليائهم ويخشونهم كخشية الله أو أشد، ولا يسمون ذلك عبادة!!)[2]

ويخاطب الذي يشـكك في كـون المسـلمين تحولـوا إلى مشـركين لا يختلفـون عن أبي جهـل وأبي لهب، إن لم يكونوا أشـد منهم شـركا، فيقـول: (ألسـت تـرى في أوســاطهم قبابــا تبــذل في تشــييدها الأمــوال، وتشــد

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 322)

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 162)

لزيارتها الرحال؟! أم لست تسمع منهم استغاثات وطلب حاجات من الغائبين والأموات؛! أم لم تعلم بدور تنعت بدار الضمان تشترى ضمانتها بالأثمان؛! أم لم تجتمع بذرية نسب للمرابطين إعطاؤها بقوة غيبية؟! أم لم تتكرر عليك مناظر مكلفين إباحيين يقدسون بصفتهم مرابطين أو طرقيين؟! هذا إلى اجتماعات تنتهك فيها كل الحرمات باسم الزردات، أو تحت ستار الاعتقادات والدعوة إلى أوضاع مبتدعة صدت الناس عن اتباع السنة المطهرة.. والخبير بحياة أهل عصره، العالم بأصول دينه، لا يتردد في ظهور الشرك وانتشاره، وتعدد مظاهره وآثاره، والعامي الفطري لو سألته وأفهمته؛ لوجدت عنده الخبر اليقين لإثبات أن أمثاله- وما أكثرهم- في ضلال مبين)[1]

والشيخ مبارك الميلي كالشيخ البشير الإبراهيمي يفتي بحرمة الطعام الذي يقدم في تلك المحال، لأنه في تصوره مما أهل به لغير الله، على الرغم من أن الذابحين لتلك الأنعام يذكرون اسم الله عليها، ويطبقون فيها ما يذكره الفقهاء من أحكام الذبائح، فيقول: (هذه الزردة يذكرون اسم الله على ذبيحتها، ونيتهم الذبح للصالح عندهم، فأعمل الجامدون من الطلبة جانب اللفظ، ورأوا إباحة أكلها، وهم يقرؤون قول خليل في نية المصلي ولفظه: (وإن تخالفا، فالعقد)؛ يريد أن العبرة عند اختلاف القلب واللسان بما يعقده القلب لا بما يلفظه اللسان، وهي قاعدة عامة في جميع الطاعات)[2]

ولسنا ندري كيف اطلع الشيخ على نية الذابح، وهي باطنة لا يمكن لأحد الاطلاع عليها إلا ربها أو صاحبها،

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 164)

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 379)

ولكنه مع ذلك يصر على أنهم يريدون بها غير وجه اللــه، ويعتـبر أن المخـالف في ذلـك جامـد ومغـرض، فيقـول: (وقد يقول الجامدون والمغرضـون: إنـا نحكم بـالظواهر والله يتولى السرائر، وقد ظهر من حال الذابح أنـه ذكـر اسم الله، فلا نبحث عن نيته الباطنـة! فنقـول لهم: أولا: إن المفتي لا يقتصر دائمـا على الظـواهر؛ ففي الأيمـان والطلاق مســائل تنبــني على النيــة والقصــد، ويختلــف حكمها باختلاف النية مـع اتحـاد اللفـظ، بـل تقـدم قريبـا الاســتناد إلى النيــة في حكم الــذبائح عن علي وغــيره.. وثانيا: إن من السرائر ما تحف بـه قـرائن تجعـل الحكم للنية ولا تقبـل معـه الظـواهر.. وذبـائح الـزردة من هـذا القبيل؛ فإن كل من خالط العامة يجزم بأن قصدهم بهــا التقرب من صاحب المزار)[1]

ثم اعتبر من القرائن الدالة على أن الذبح فيها لغــير الله، وهي لذلك محرمة، والأخطـر من ذلـك الحكم على فاعل ذلك بالشرك الجلي، لأنه قدم القرابين لغير اللــه، فيذكر[2]:

الأول:ــ أنهم يضـيفون الـزردة إلى صـاحب المـزار؛ فيقولــون: زردة ســيدي فلان، أو: طعــام ســيدي عبــد القادر، مثلا.

ثانيهــا: أنهم يفعلونهــا عنــد قــبره وفي جــواره، ولا يرضون لها مكانا آخر.

ثالثهـا: أنهم إن نـزل المطـر إثرهـا نسـبوا إلى سـر المذبوح له، وقوي اعتقادهم فيه وتعويلهم عليه.

رابعها: أنهم إن نهوا عن فعلهـا في المكـان الخـاص، غضـبوا ورمـوا النـاهي بضـعف الـدين أو بالإلحـاد، وقـد يجــاوزون الجهــر بالســوء من القــول إلى مــد الأيــدي

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 380)

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 380)

بالإذاية.

خامسـها: أنهم لـو تركوهـا فأصـيبوا بمصـيبة نكسـوا على رؤوسهم وقالوا: إن وليهم غضب عليهم لتقصيرهم في جانبه.

ثم علق على هذه القرائن بقولـه: (فهـذه دلائـل من أحـوال النـاس وأفعـالهم وأقـوالهم الـتي لم يلقنهـا لهم المكـابرون المتسـترون وراء التأويـل تريـك أن ذبـائح الزردة مما ذبح على النصب وأهل به لغير الله وإن ذكـر عليها اسمه)[1]

بـل حكم عليهـا بأنهـا من (من الشـرك، فيجب على العلماء تحذير الأمة منهـا والنصـح باجتنابهـا، ويجب على الأمة الاتباع والمبادرة إلى الإقلاع)[2]

واسـتدل لـذلك بــ (مشـابهتها في المعـنى لعتـائر الجاهلية وقرابينها واجتماعاتهـا على أنصـابها وأصـنامها، وتقـدم حكم الشـرع في ذلـك، ومشـابهتها في الصـورة لعقر الجاهلية على قبور أجاودهم)[3]

ثم عاد كرجال الجمعية جميعا إلى الشاطبي ليسـتند إليه في الدلالة على أن ما يقوم به المسلمون البسطاء أمام أضرحة من يعظمونهم من الصالحين شرك جلي لا يختلف عن شرك الجاهلية، فيقول: (كان أهـل الجاهليـة يعقرون الإبل على قبر الرجل الجـواد؛ يقولـون: نجازيـه على فعلــه، لأنــه كــان يعقرهــا في حياتــه، فيطعمهــا الأضـياف، فنحن نعقرهـا عنـد قـبره؛ لتأكلهـا السـباع والطير، فيكون مطعما بعد مماته كمـا كـان مطعمـا في حياتـه ... ومنهم من كـان يـذهب في ذلـك إلى أنـه إذا

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 381)

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 381)

[3] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 381)

عقرت راحلته عند قبره؛ حشـر في القيامـة راكبـا، ومن لم يعقر عنه، حشر راجلا)[1]

ولسنا ندري العلاقة بين ما ذكره الشاطبي عن أهـل الجاهليـة وبين مـا يفعلـه المسـلمون أمـام أضـرحة من يصومون ويصلون ويذكرون الله ذكرا كثيرا.

وهكـذا يسترسـل الشـيخ مبـارك الميلي في النقـول والاسـتدلالات المبنيـة جميعـا على أسـاس أن أولئـك البسـطاء الـذين اجتمعـوا قصـدوا بـذبحهم غـير اللـه، وبالتـالي صـار حكمهم حكم المشـركين، وهـو الكفـر البواح.

وقـد ذكرنـا سـابقا عجبنـا من تسـاهل الجمعيـة في النيات في أمر أخطر من هـذا، وهـو الـردة، حيث أفـتى الشـيخ العـربي التبسي أن الـذي يسـب اللـه ورسـوله بالألفـاظ الصـريحة لا يقصـد ذلـك، وأن نيتـه طيبـة رغم أنفه، أما الذي يسمي الله عند الذبيحة فكـاذب لأن نيتـه غير الله، وهـذا من المكاييـل المزدوجـة، ومن الانتقائيـة التي تمارسها الجمعية في فتاواها.

وقـد اسـتمر – للأسـف – منهج خلـف الجمعيـة على درب سلفها في هذه المواقـف الخطـيرة المفتقـرة إلى اللغـة العلميـة، والمتسـرعة في الحكم بـالتكفير، حيث نجد الشيخ أحمـد حمـاني الرجـل المتسـاهل في الكثـير من الفتــاوى يتكلم بنفس تلــك اللغــة الــتي تكلم بهــا الإبراهيمي والميلي، فيقـول - متأسـفا- :(وفي الجزائـر ينادي كـل قـوم بـرجلهم: أهـل الغـرب بسـيدي بومـدين وسـيدي الهـواري وفي الوسـط سـيدي عبـد الرحمـان وسيدي محمـد وسـيدي منصـور، وأهـل الشـرق سـيدي الخـير وسـيدي راشـد، وسـيدي عبـد القـادر للجميـع للجميع ،وقد كانت الدعوة الإصلاحية قضـت على معظم

---

[1]) رسالة الشرك ومظاهره (ص: 382

هذه البدع ورجعت بالناس إلى ذكـر اللـه وحـده، ولكننـا عدنا إلى سماع هذا حـتى في إذاعتنـا ووسـائل إعلامنـا، وما كان يجوز هذا في أمة موحدة وإنما يذكر عندنا اسم الله وحده ،فإننا أمة وحدها الإسلام)[1]

ولسـنا نـدري مـا الحـرج في أن تشـتهر المنـاطق المختلفة بأسماء الأولياء والصالحين، بـل نـرى في ذلـك تشجيعا للصلاح والتقوى التي أهلت أولئك ليتبـوؤوا تلـك المكانة الرفيعة في المجتمع.

ولكن الجمعيـة للأسـف، والـتي بـالغت في تقـديس أعضائها لم ترض للناس أن يقدسوا أحـدا غـيرهم، وهي تعلم أن المجتمع إن لم يرفع الصالحين فسيرفع غـيرهم لا محالـة، فهي سـنة اجتماعيـة، فلكـل مجتمـع أبطالـه ورجاله وأهل القدوة فيه، فإذا مـا ضـربوا ضـربت هويـة المجتمع معهم، وللأسف فقد استبدل الناس بعـد أولئـك الصـالحين – بغض النظـر عن حقيقـة صـلاحهم ومـدى صدقهم فيه- بمطربين ومهرجين ولاعـبين وسياسـيين .. ولم نجد أحدا ينكر ذلك.

والأخطـر من هـذا أن الشـيخ أحمـد حمـاني الـذي أتيحت له فرص كثيرة بعد الاستقلال ضيعها جميعـا، ولم يجد شيئا ينكره إلا هذه العادات ليقتلعها من جذورها من غير أن يضع أي بديل صالح لهـا، وكمثـال على ذلـك أنـه طـرح عليـه في الإذاعـة الوطنيـة هـذا السـؤال: (عـادة موروثـة كـانت منتشـرة فينـا ورثناهـا عن الأجـداد وهي إقامة حفلات الزردة، يتهيأ لها الناس...ويجتمعون بمكان ولي فينحرون البقر ويذبحون الشياه...وتقام الاحتفـالات بالحضرة والآلات والتهـوال ويضـرع للأوليـاء والصـالحين فيمدونهم بالبركات والخيرات ،اختفت هـذه العـادة أيـام الثورة لكنها عادت بعد 1962 وكان الناس فيها قسـمان

[1] أحمد حماني: حياة وآثار ،شهادات ومواقف، دار الأمة، 2001، ص 123.

مؤيد ومعارض) [1]

فأجاب عن هذا السؤال بنفس الحمية التي كان ينطق بها الشيخ الإبراهيمي والتبسي والميلي، فذكر أن آخر زردة كانت في قسنطينة سنة 1937 لأن إقامتها ليست من الإسلام في شيء لما فيها من مظاهر الشرك ودعاء للأولياء والذبح لغير الله ،زيادة على أنها من مظاهر التخلف ووراءها الاستعمار وقد اختفت هذه البدع بعد الاستقلال حتى عادت للظهور من جديد في الثمانينيات، ووجه حماني لومه للمذيع والإذاعة الوطنية أنه لو احترم نفسه كصحافي صادق لقدم لأمته الحقائق لتتمسك بها بما يفيدها وتهجر القبيح الذي يضرها[2] .

ولسنا ندرى لم لم ينكر الشيخ تلك الاحتفالات الكبرى أو أنواع الزردة التي تقام في ملاعب كرة القدم، والتي استبدل بها المجتمع احترامه وتعظيمه للصالحين بتعظيمه للاعبين، فحصد نتيجة ذلك صراعات كبرى بين أهل المناطق المختلفة من أجل هدف أو لاعب أو حكم، ولم يكن للشيخ أحمد حماني في ذلك الوقت - للأسف- إلا أن ينضم إلى قائمة المشجعين، فيشجع فريقا على حساب فريق[3] .

---

[1] أحمد حماني: الفتاوى ،الجزء 3،، ط 1، قصر الكتاب ،البليدة، 2001 ،ص 312.

[2] أحمد حماني: الفتاوى ،الجزء 3،، ص 312.

[3] وردت الكثير من الروايات التي تدل على غرام الشيخ أحمد حماني بزرد كرة القدم، وقد ذكر الأستاذ محمد الهادي الحسني ذلك، فقال: (ذات مرة ركبت إلى جانبه في الطائرة المتوجهة إلى تبسة، فقلت له: يا شيخ أريد أن أسألك، فرد علي انتظر حتى أكمل قراء مقال عن (الموك) مولودية قسنطينة.

بل إن الشيخ لم يكتف بالتبشير في الإذاعة التي هي ملك للجزائريين جميعا بهذه التصـريحات الخطـيرة، بـل راح في كل النـوادي يبشـر بهـا، وكأنهـا قضـية السـاعة، فقد وردت إليه استفتاء[4] حول الـزردة، فأجـاب بلغـة لا تختلف عن لغة الوهابيين التكفييريين، نجتزئ منها – من باب الاختصار- هذه العبارات المفرقة الدالة على المنهج الفكري للشيخ وللجمعية جميعا.

فقد ذكر أن المقصودين بالزيارة (كانوا عـاطلين عن كلّ ما يؤهّلهم للزيارة ! فلا علم ولا زهد ولا صلاح ولكن نسب مرتاب في صحّته)

وذكـر أن الممارسـات الـتي تـؤدى عنـد الأضـرحة ممارسات شركية، فقال: (إنّ مثل هذا التمسّح نوع من الشرك ولا يكـون إلاّ للحجـر الأسـود بالكعبـة فقـط مـع التوحيد الخالص لله وقد قال له عمر يخاطبه : (والله ما أنت إلا حجر لا تنفع ولا تضر ولو لا أنّي رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك)، فإن كنت مع الحجر الأسـود كمـا قـال عمر فلا بأس أن تقبّله، أمّا غيره فلا يجـوز لـك التمسّـح به فإنّ التمسّـح بـه وتقبيلـه شـرك يتنَـزّه عنـه المـؤمن الموحّد)

ثم إنه حكم بالشرك حتى على التوسل الـذي لم يـر الشـيخ ابن بـاديس فيـه أي حـرج، فقـال: (إنّ التوسّـل الشائع بين الناس وهو الدعاء – الدعاء هو مخ العبـادة –

وذكر أنه في أحد الاجتماعات الرسمية الخاصة بموسم الحج، سمع الحاضرون صوت المذياع، واستفسر مسير الاجتماع عن هذا الصوت فقيل له، إنه الشـيخ حماني يتابع مقابلة مولودية قسنطينة.

انظر: مقال بعنوان (الشيخ المرحوم أحمد حماني كما عرفته عائلته ومقربوه) ورد على هذا الرابط (http://www.rayanaljazair.com/vb/t5133.html)

[4]) جريدة الشعب الجزائرية الصادرة بتاريخ 18 /11 / 1991 الصفحة 9.

شرك محض، فالتوحيد أن تدعو الله الذي خلقـك – ولـو عظمت ذنوبك – فإنه معك يسمع دعاءك فإن كان لا بـدّ من التوسّـل فتوسّـل بصـالح أعمالـك كمـا فعـل الثلاثـة اصحاب الغار حينما نزلت عليهم الصخرة وسدّته عليهم، فاســتجاب لهم من يعلم شــدّتهم. هــذا هــو التوسّــل الصحيح وغـيره قـد يوقـع صـاحبه في الشـرك، فلا تحم حوله)

ثم اعتبر كالوهابيين جميعا أن الأضـرحة ليسـت غـير أصنام لا تختلف عن أصنام الجاهلية، فقال: (وكانت هذه الزردة كثيرة لأنّ لكـلّ قـوم لإلههم من أصـحاب القبـور من حدود تبسة إلى مغنية، كـانت القبـور تعبـد من دون اللـه ولكـلّ قـوم من يقدسـونه. فـ(سـيدي سـعيد) في تبسة، و(سـيدي راشـد) في قسـنطينة و(سـيدي الخـير) بســطيف و(ســيدي بن حملاوي) بالتلاغمــة، و(ســيدي الـزين) بسـكيكدة و(سـيدي منصـور) بولايـة تـيزي وزو و(سيدي محمد الكبير) في البليدة، و(سيدي بن يوسف) بمليانــة و(ســيدي الهــواري) بــوهران و(ســيدي عابــد) بغلــيزان و(ســيدي بومــدين) بتلمســان و(ســيدي عبــد الرحمن) بالجزائر، ويزاحمه (سيدي امحمد)، وليعــذرني الإخـوة ممن لم أذكـر آلهـة بلـدانهم وهم ألـوف، ففعـل هؤلاء القوم مع هؤلاء المشايخ يشبه فعـل الجاهليـة مـع هبـل واللات والعـزّى وخصوصـا إقامــة الـزردة حولهـا والذبح لها والتمسح بالقبور، أفترانـا نحـيي آثـار الشـرك ونحن الموحدون ؟)

ثم أفتى بأن (الطعـام واللحم المقـدّم في الـزردة لا يحلّ أكله شرعا لأنّه ممـا نصّ القـرآن على حرمـة أكلـه فإنــه ســبحانه وتعــالى يقــول : {حُـرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَـةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِـلَّ لِغَيْـرِ اللَّهِ بِـهِ } [المائـدة: 3] فاللحم من القسم الرابع أي مما أهل لغـير اللـه، أي ذبح لغير الله بل للمشايخ، فزردة (سيدي عابــد) أقيمت

له وهكذا (سيدي أحمـد بن عـودة) و(سـيدي بومـدبن).. أقيمت له الزردة ليرضى وينفع ويدفع الضّـر، وتقـول إنّ هذه الذبائح قد ذكر اسم الله عليهـا، فـأقول : ولـو ذكـر اسـم اللـه فـإنَّ النّيـة الأولى وهي تقـديمها إلى صـاحب المقام، يجعلها لغير الله)

موقف الطرق الصوفية:

اهتم الصــوفية ابتــداء من ظهــور ظــاهرة التكفــير المرتبطة بالموالـد والأضـرحة ونحوهـا بكتابـة الرسـائل والكتب التي ترد على هـذا، وتـبين مـدى مشـروعية مـا يمـــارس في تلـــك الموالـــد، بغض النظـــر عن بعض الممارسات الخاطئة التي يتفق الصوفية والسلفية على إنكارهـا، كـدخول بعض الفسـاق والمنحـرفين إلى تلـك المحـال، لأن ذلـك لا علاقـة لـه في الأصـل بالمولـد ولا بالضريح.

وقد ذكرنا الكثير من المؤلفات في الرد على الحركة الوهابيـة في الفصـل الخـاص بأسـاليب تعامـل الطـرق الصوفية مع الجمعية، وفي معظم تلـك المؤلفـات نـرى الردود المرتبطة بهذا الجـانب، باعتبـاره أخص خصـائص الحركة الوهابية والحركات السـلفية الـتي نشـأت عنهـا، ومن ضمنها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ولعل أهم من كتب في هـذا الجـانب ممـا لـه علاقـة بـالطرق الصـوفية الجزائريـة مـا كتبـه العلامـة الحافـظ المغربي أبو الفيض أحمد بن الصديق الغماري الحسـني في رسالته التي خصصها لهذا، وعنوانها (إحيـاء المقبـور من أدلـة جـواز بنـاء المسـاجد والقبـاب على القبـور)، ومثله كتـاب (مفـاهيم يجب أن تصـحح) للشـيخ العلامـة محمد علـوي المـالكي الحسـني، فكلاهمـا من المراجـع المعتمدة عند الطرق الصوفية في هذا الباب.

وقــد ردا في هــذين الكتــابين على دعــوة الوهابيــة لتهــديم الأضــرحة، وحكمهم قبــل ذلــك بكفــر زوارهــا

معتمـدين في ذلـك على مجموعـة من الأدلـة الحديثيـة، منهـا: مـا روي عن علي أنـه قـال لـه: (أبعثـك علي مـا بعثني عليه رسول الله ﷺ لا تـدع تمثـالاً إلا طمسـته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)[1]

وما روي عن جابر بن عبد الله قـال: (نهى النـبي ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يبـنى عليهـا وأن توطأ)[2]

وقد أجاب الشيخ الغمـاري على هـذا بمجموعـة من الأدلة قدم لها بقوله – بعـد عـرض الكثـير من النصـوص التي يعتمد عليها الوهابيون- مخاطبا مستفتيه: (وذكـرت أنه أشكل عليك أمر هذه الأحاديث ولم تدر وجـه الجمـع بينها وبين ما اتفقت عليه الأمـة المعصـومة في اتفاقهـا من الخطأ على بناء الأحواش والقباب والمساجد قـديماً وحديثاً بمشارق الأرض ومغاربهـا على القبـور، ورجـوت أن نبين لك على وجه الجمع بين ذلك ونوضح لـك الحـق في المسألة، ونـذكر لـك من دلائـل القـول المختـار مـا يسفر عن وجه الصواب ويزيح عنه كل شك وارتياب)

ولا يمكننا في هذا المحل الضيق أن نستوعب كل ما ذكر في المسألة من إجابات، ولكنـا سـنحاول فقـط من خلال ذينك المـرجعين وغيرهمـا وخصوصـا مـا كتبـه أبـو الفيض أحمد بن الصديق الغماري الحسـني في رسـالته (إحياء المقبـور من أدلـة جـواز بنـاء المسـاجد والقبـاب

---

[1] رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجة من حديث أبي الهياج الأسدي، انظـر: أبو الفيض أحمد بن الصديق الغماري الحسني، إحيـاء المقبـور من أدلـة جـواز بناء المساجد والقباب على القبور، طبعة دار النفائس1419 ـ 1999 الطبعة الأولى، ص3.

[2] رواه أبو داود والترمذي، وكذلك هـو عنـد أحمـد ومسـلم والنسـائي بنحـوه، انظر: إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص3

على القبور) - باعتبار أنها مستوعبة للكثير مما ذكره المتقدمون عليه- أن نبين مباني الأدلة التي يعتمدون عليها في المسألة، وبعض فروعها.

وقد رأينا من خلال تحليل ما يمارس في الموالد والزردات أنها تحتوي - عموما- على خمسة أشياء:

1 ـ تعظيم المناسبة أو المكان المرتبط بالمولد.

2 ـ البناء على القبور.

3 ـ التوسل والاستغاثة بأصحاب القبور.

4 ـ إقامة الولائم على القبور.

5 ـ الذكر والإنشاد عند القبور.

فهذه الأمور جميعا، والتي تشكل باجتماعها ما يسمى بالمولد والزردة، هي التي على أساسها قامت الجمعية بذلك النكير الشديد الذي وصل إلى حد الحكم بالشرك الأكبر متابعة في ذلك لما يذكره الوهابيون من غير اطلاع على ما يورده المخالفون لهم من الأدلة.

بناء على هذا نحاول هنا باختصار أن نذكر الأدلة الكثيرة على ما ذهب إليه الصوفية من جواز البناء على القبور وغيره[1]، وسنوردها هنا، لا من باب تأييد موقفهم في ذلك، وإنما من باب بيان أن المسألة من مسائل الخلاف الفقهي، وأنها لا ترقى إلى الحد الذي بلغت بها الجمعية تبعا للوهابيين من اعتبارها من مسائل الشرك والإيمان، فالحكم بالشرك لا يكون في أمر مختلف فيه.

ويمكن من خلال ما طرحه الغماري تصنيف ما أورده من أدلة كما يلي:

---

[1]) ركزنا هنا الحديث عن البناء على المقابر ووضع القباب عليها وتعظيمها باعتبار أن ذلك من أهم ما توجه إليه إنكار المخالفين، أما الموالد الزمنية، فالجمعية لا تنكر الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، وبالتالي فإنها تتفق مع الطرق الصوفية على الأقل في هذه الناحية، أما التوسل، فقد ذكرنا أن ابن باديس لا ينكره.

اختلاف الفقهـاء في مشـروعية البنـاء على القبور:

يـورد الشـيخ الغمـاري كغـيره من فقهـاء ومحـدثي الصـــوفية الخلاف الفقهي في هـــذه المســـألة بشـــقيه المجيز وغير المجيز، ليذكروا للمخـالف أن الأمـر متسـع للجميع، وأن الأمة لم تختلف في هذه المسألة إلا لكـون النصوص الواردة فيها غير قطعية أو معارضة بغيرها.

وليقولوا لهم كذلك: لا حـرج عليكم أن لا تبنـوا أو أن لا تـزوروا، ولكن كـل الحـرج عليكم أن تنكـروا على من خالفكم لأن من أصـول النهي عن المنكـر أن يكـون من المتفق عليه لا المختلف فيه، وقد قال الشيخ ابن عليوة مخاطبا مخالفه الذي اعتـبر مـا يفعلـه نهيـا عن المنكـر: (وكلّ ذلك أصابك ولعلّـه من عـدم الفقـه في دين اللـه، ولهـذا اشـترط عليـه الصـلاة والسـلام في حـق الآمـر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر بـه فقيهـا فيمـا ينهى عنـه، لئلا يـأمر بمنكـر وينهى عن معروف، ومن أجل ذلك تورّع أكـابر العلمـاء عن القـول في دين الله بغير نصّ صريح، أو مـا هـو كالصـريح، ذكـر ابن عبـد الـبر، عن عطـاء، أنّـه قـال: (لا ينبغي لأحـد أن يفتي الناس حتى يكون عالمـا بـاختلاف النـاس، وإن لم يكن كذلك ردّ من العلم ما هـو أوثـق من الـذي هـو في يده)[1]، فإنّ من الحق عليك أن تنكـر مـا علمت إنكـاره من الدين بالضـرورة، وتـأمر بمـا تحققت معروفيتـه من الدين بالضرورة، وتحســن الظنّ فيمـا تفـرّع عن اجتهـاد المجتهـدين من أئمـة الـدين من الصـوفيّة وغـيرهم، أو ليس في علمك قـد يوجـد من المشـتبه مـا ثبت حرمتـه في مـــذهب وإباحتـــه في آخـــر، أو ندبـــه في مـــذهب،

---

[1] انظر: يوسف بن عبـد الـبر النمـري، جـامع بيـان العلم وفضـله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398، (2/ 46)

وكراهيته في الآخر؟)[1]

بناء على هذا نحاول أن نسرد هنا باختصـار بعض مـا ذكره الشيخ الغماري من خلاف في المسـألة، مصـنفين لـه بحسـب المسـائل ليتيسـر على البـاحث بعـدها أن يتعرف على الدليل من جميع نواحيه.

1 ـــ أن الـدفن في البنـاء على القـبر لا شـبهة في جـوازه كمـا نص عليـه الفقهـاء إلا أحمـد بن حنبل الـذي رأى - مع الجواز - أن الدفن في مقابر المسـلمين أولى مراعاة لعمل أكـثر النـاس، ورأى أن دفن النـبي ﷺ في البنـاء لأجـل التميـيز اللائـق بمقامـه الأرفـع ﷺ وهـذا لا يخفي ما فيه لأنه تخصيص بدون مخصص .

وأورد الغمـاري للدلالـة على هـذا حـديثا عن رسـول اللـه ﷺ قـال فيه[2]: (إنمـا تـدفن الأجسـاد حيث تقبض الأرواح)، وعلق عليه بقولـه: (ومعلـوم أن الأرواح تقبض غالبـاً في الـبيوت، فمقتضـى هـذا أن الـدفن في البنـاء أولى)[3]

بالإضافة إلى هذا، فقد اتفق الصـحابة على دفن أبي بكر وعمر مع النبي ﷺ فلم يبق بعد هـذا وجـه لمـا قالـه أحمد.

2 ــ أن البنـاء بعـد الـدفن إذا كـان في الملـك، فقـد كرهه الجمهور كراهة تنزيه إذا أمن نبش سارق أو سـبع أو سيل وقصد به إحكام البناء والبقـاء والزينـة وإلا جـاز

---

[1]) ابن عليـوة، أعـذب المناهل في الأجوبـة والمسـائل، نقلا عن: صـفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص202.

[2]) ذكر الغماري أن الحديث رواه ابن سعد في الطبقات، انظر: إحياء المقبـور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص4.

[3]) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص4.

عنـدهم، وزاد المالكيـة التصـريح بحرمتـه إذا قصـد بـه المباهاة وأجازه آخرون مطلقاً، ولـو قصـد بـه المباهـاة، وقيـد الأكـثرون جـوازه إذا قصـد بـه التميـيز، وصـرح أكـثرهم بحرمتــه ووجــوب هدمــه إذا وقــع في الأرض الموقوفة للدفن، ومنهم من قيده بما إذا كان كبيراً زائداً على قدر القبر وهذا أمـر خـارج عن حكم البنـاء نفسـه، وفصل جماعة بين ما كان فوق القبر نفسه وبين ما كان حوله دائرً به كالحوش فأجازه الأكثرون، ومنهم من قيـد بما إذا كـان صـغيراً على قـدر الحاجـة ولم يسـقف ولم تطل أسواره ومنهم من صرح بجوازه ولو كان بيتـاً وهـو قول المحققين من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم[1].

3 ــ أن تخصيص الصالحين ببنـاء الأضـرحة والقبـاب قد نص جماعـة من العلمـاء على جـوازه، بـل اسـتحبابه في حقهم تعظيمـــاً لحـــرمتهم وحفظـــاً لقبـــورهم من الامتهـان والانـدثار الـذي يعـدم معـه الانتفـاع بزيـارتهم والتبرك بهم[2]:

ومنهم العز بن عبد السلام الذي أفتى بهـدم القبـاب والبيوت والأبنية الكثيرة الواقعة في قرافـة مصـر، لأنهـا واقعة في أرض موقوفة على دفن المسلمين، واسـتثنى من ذلك قبة الإمام الشافعي معللا لذلك بأنها مبنيــة في دار ابن عبــد الحكم، وهــذا منــه ذهــاب إلى جــواز بنــاء القباب على مثل قبر الإمام الشافعي إذا كـان ذلـك في الملك ولم يكن في أرض الحبس .

ومنهم الحافظ السيوطي الذي أفـتى باسـتثناء قبـور الأوليــاء والصــالحين ولــو كــانت في الأرض المحبســة

---

[1]) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص4.

[2]) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبـور، ص6، ومـا بعدها.

ووافقه جماعـة ممن جـاءوا بعـده من فقهـاء الشـافعية وقد ذكر هو ذلك في جزئه الذي سـماه (بـذل المجهـود في خزانة محمود)، ونقـل كلامـه بطولـه في المسـألة.. وهكـذا ورد في الكثـير من كتب الفقهـاء من المـذاهب المختلفة.

وفي مصـباح الأنـام وجلاء الظلام للعلامـة علي بن أحمد الحداد الذي أشـرنا إليـه سـابقا: (ومن قـال بكفـر أهل البلد الـذي فيـه القبـاب وإنهم كالصـنم فهـو تكفـير للمتقدمين والمتأخرين من الأكابر والعلمـاء والصـالحين من جميع المسلمين من أحقاب وسنين مخالفاً للإجمـاع السكوتي على الأنبياء والصالحين عصور ودهور صـالحة، قـال تلميـذ ابن تيمية الإمـام بن مفلح الحنبلي في الفصول : (القبة والحظيرة في التربة يعـني على القـبر إن كان في ملكه فعل ما شاء وإن كان في مسبله كـره للتضـييق بلا فائـدة ويكـون اسـتعمالاً للمسـبلة فيمـا لم توضع له)، قال ابن القيم الحنبلي : (مـا أعلم تحت أديم السـماء أعلم في الفقـه على مـذهب أحمـد من ابن مفلح)، وقولـه في المسـبلة بلا فائـدة إشـارة إلى أن المقبـور غـير عـالم وولي، أمـا همـا فينـدب قصـدهما للزيارة كالأنبياء عليهم السـلام وينتفـع الزائـر بـذلك من الحر والبرد والمطر والريح والله أعلم لأن الوسائل لهـا حكم المقاصد)[1]

4 ـ أن الفقهاء والمحدثين الكبـار نصـوا على صـحة الوقف لضرائح الأولياء، وقـد نقـل الغمـار في ذلـك عن ابن حجر قوله في التحفة في كتـاب الوصـايا : (ويظهـر أخذا مما مر ومما قالوه في النذر للقبر المعروف جـواز صـحتها كـالوقف لضـريح الشـيخ الفلاني ويصـرف في مصـالح قـبره والبنـاء الجـائز عليـه ومن يخدمونـه أو

[1] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص7.

يقرءون عليه، ويؤيد ذلك ما مر آنفاً من صحتها ببناء قبة على قبر ولي وعالم، أما إذا قال الشيخ الفلاني ولم ينـو ضريحه ونحوه فهي باطلة أي الوصية)[1]

ونص أيضاً على أن القبة في غير مسبلة على العالم والولي من القرب، فقال في التحفة في بـاب الوصـية : (وإذا أوصى لجهة عامة فالشرط أن لا يكـون معصـية .. وشمل عدم المعصية القربة كبناء مسجد ولـو من كـافر ونحو قبة على قبر عالم في غير مسبلة اهـ . ومنعه في المسبلة على العالم ونحوه رده عليه الحلـبي المحشـي على المنهج وعبارتــه، واســتثنى قبــور الأنبيــاء (عليهم السلام) والصحابة والعلماء والأولياء (رحمهم الله) فلا تحرم عمارتها في المسـبلة لأنـه يحـرم نبشـهم والـدفن في محلهم، ولأن في البناء تعظيماً لهم وإحياء لزيـارتهم ولا تغتر بما وقع لابن حجر كغيره في هذا المحل أي في المسبلة لا في المملوكة)[2]

وقـد علـق طـاهر بن محمـد العلـوي على ابن حجـر بقوله: (وإنما جعل ابن حجر وغيره القبة على الولي في غير المسبلة والموقوفة قربة لأن العلماء نصـوا على أن تمييز العالم والصوفي حياً وميتاً مطلوب أخذا من قولــه في حـق نسـاء النـبي ﷺ : {يُـدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُـؤْذَيْنَ } [الأحـزاب: 59]، وقـد علمت أن القبة من عصور وقرون عليهم وعلى الأنبياء (عليهم السلام) قال ابن حجر في شـرح العبـاب : وأمـا المحرمات فلم يعهد في زمان من الأزمنة إطباق جميــع النــاس خاصــتهم وعــامتهم عليهــا كيــف وهــذه الأمــة معصـومة من الاجتمـاع على ضـلالة وإذا عصـمت من ذلك كان إطبـاقهم جميعـاً خاصـتهم وعـامتهم على أمـر

[1] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

[2] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

حجة على جوازه في أي زمان كان سواء الأزمنة الأولى أ, الأزمنــة المتــأخرة، وكلام الأصــوليين صــريح في أن الإجماع الفعلي حجة كالقولى) [1]

5 ــ أن الفقهـاء نصـوا على جـواز بنـاء القبـاب على الصـالحين وتعليـق سـتور الحريـر وغـيره عليهـا، وإيقـاد المصابيح ونحو ذاك، ونقـل من ذلـك النصـوص الكثـيرة، ومنهـا مـا ورد في مسـائل الصـلاة من نـوازل الـبرزلي: سـئل عــز الــدين عن نصــب الشــموع والقناديــل في المساجد للزينة لا للوقود وعن تعليق السـتور فيهـا هـل هو جائز أم لا ؟ . وكذلك فعل مثله في مشـاهد العلمـاء وأهــل الصــلاح فأجــاب : (تــزيين المســاجد بالشــمع والقناديل لا بـأس بـه لأنـه نـوع من الاحـترام والإكـرام، وكذلك الستور وإن كـانت من الحريـر احتمـل أن تلحـق بالتزيين بقناديل الذهب والفضة واحتمـل أن يجـوز ذلـك قولاً واحداً لأن أمر الحرير أهـون من الـذهب والفضـة . ولذلك يجوز اسـتعمال المنسـوج من الحريـر وغـيره إذا كـان الحريــر مغلوبــاً ولا يجــوز مثــل ذلــك في الــذهب والفضة، ولم تزل الكعبة تستر إكرامـاً لهـا واحترامـاً فلا يعد لحاق غيرها من المساجد بها وإن كانت الكعبة أشــد حرمة من سائر المساجد . وأمـا مشـاهد العلمـاء وأهـل الصلاح فحكمها حكم البيوت فمـا جـاز في الـبيوت جـاز فيها وما لا فلا)[2]

6 ــ أن الذي يـدل عليـه الـدليل ويقتضـيه النظـر أن البناء حول القبر جائز سواء كان حوشاً أو بيتاً أو قبــة أو مسجداً، وما يذكره الفقهـاء من الشـروط والاحـترازات أمر خـارج عن حكم البنـاء في ذاتـه، لأنهـا عـوارض لهـا حكم خاص بها يوجد بوجودها وينتفى بانتفائها ككونه في

[1] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

[2] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

الأرض الموقوفـة أو المسـبلة أو قصـد بـه المباهـاة أو الزينـة ونحـو ذلـك، فإنـه لا تعلـق لـه بحكم البنـاء، فلا نتعرض له لأنه خروج عن الموضوع، وإنما المقصود بيان حكم البنـاء في ذاتـه وهـو جـائز حـول القـبر بالكتـاب والسنة والإجماع والقياس[1] .

دفع عموم الأدلة التي استدل بها المخالف:

حيث بين الشيخ الغماري كغيره من فقهـاء الصـوفية أن ما ورد من النصـوص الناهيـة عن البنـاء على القبـور ليسـت عامـة، وإنمـا هي خاصـة بـأحوال معينـة، وهـذا تصنيف مختصر لبعض ما أورده من أدلة:

1 ــ نشأ الخلاف في جواز البناء حـول القبـور نتيجـة الخطأ في الاستدلال وعدم إحكام النظر في الـدليل من جهـة عـدم فهم معنـاه وتحقيقـه أولا، ثم من جهـة عـدم فهم مراد الشارع من ذلك المعنى المفهوم ثانياً، ثم من جهة الإعراض عن النظر في الأدلة المعارضـة لـه ثالثـاً، فإن النهي الوارد في البناء على القبور واتخاذ المسـاجد عليها غير عام في نفسه، ولا في كل زمان بل هو خاص بنـوع من أنواعـه ثم هـو غـير تعبـدي، بـل هـو معقـول المعنى معلل بعلل يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها شـأن كل حكم معلل كمـا هـو معـروف، ومـع هـذا فهـو أيضـاً معارض بما هو أقـوى منـه ممـا يجب النظـر في الجمـع بينهما وجوب العمـل بـالنص والتمسـك بالـدليل ويحـرم الإعراض عن أحدهما والتمسك بـالآخر حرمـة الإعـراض عن النص ومخالفــة الــدليل لأن الكــل شــرع مفــترض طاعته واجب قبوله والعمل بـه فـالإعراض عن أحـدهما دون دليــل، مســوغ إعــراض عمــا أوجب اللــه طاعتــه وفرض على العبد اتباعه وتفريق بيم المتماثلين وتـرجيح

---

[1]) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

بين الدليلين بدون مرجح وهو باطل بالإجماع[1].

2 ــ أن القائل بكراهة البناء فهم أن النهي عن البناء عام، والدليل يـدل على أنـه خـاص بالبنـاء الواقـع فـوق القبر نفسه دون الواقع حولـه، لأن ذلـك هـو الـذي يـدل عليه معـنى حـرف (على) الموضـوع للاسـتعلاء، فالبنـاء على القبر هو الـذي علاه وكـان فوقـه لا مـا كـان حولـه دائراً به قريباً منه على قدر حرم القبر، فكيف بما يكون واسعاً بعيداً عنه كالحوش والقبة والمدرسة، فإن اللفظ لا يتناوله، وعلى فـرض أن هنـاك مـا يـدل على العمـوم فهو عام مخصص لورود الأدلة الدالــة على تخصيصــه أو على إرادة الخصوص به[2].

3 ــ أن القائل بالكراهة لا يخلو أن يكون أعرض عنه وجمد على الظاهر كأنه تعبدي غـير معقـول المعـنى ولا ظاهر العلة وليس هو كـذلك بالاتفـاق، لـورود النصـوص بالعلة أو يكون أخطأ في تعيين مراد الشارع وتحقيقه أو أصـابه ولكنـه أخطـأ في عـدم تنقيحـه، فإنـه لا بـد من تحقيقه ثم تنقيحـه حـتى لا يعم مـا هـو خـارج عنـه غـير داخـل في حكمـه أو أخطـأ في اطـراد العلـة وهي غـير مطردة ولا موجودة في كل بناء، وإنما هي موجـودة في نوع من أنواعه فإن العلماء اختلفـوا في العلـة الـتي من أجلها نهى النبي ﷺ عن البناء على القبر على أقوال[3]:

منها أن العلة في ذلك كون الجص والآجر مما مسته النار، ولا ينبغي أن يقرب ذلك من الميت إما تفـاؤلاً كمـا كـان النـبي ﷺ يحب الفـأل الحسـن ويستبشـر بـه في

[1] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

[2] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

[3] انظر هذه العلل مفصلة مع أدلتها في: إحيـاء المقبـور من أدلـة جـواز بنـاء المساجد والقباب على القبور، ص11، وما بعدها.

الأقـوال والأفعـال والصـفات والأسـماء وسـائر الأشـياء، وإما لمعـنى يعرفـه الشـارع فيمـا مسـته النـار . ولـذلك أوجب منـه الوضـوء في أول الأمـر ثم نسـخه للضـرورة ورفع الحرج والمشقة.

ومنهــا إن العلــة فيــه وجــود الثقــل على الميت والمطلوب التخفيف عنـه، ولهـذا أمـر النـبي ﷺ بتسـوية القبر وعدم وضع التراب فوقـه، ونص الفقهـاء على أنـه يكره أن يجلب له تراب زائد على الذي خرج منه.

ومنها أن العلة كون البناء فيه تمييز عن سـائر قبـور المسلمين حوله.

ومنها أن البناء يمنـع من دفن الغـير معـه، لأن قبـور أهل الحجاز والأرض الصلبة على كيفية اللحد.

ومنها أن فيه تشبهاً بفعـل الكفـار من أهـل الكتـاب والمشـركين من أهـل الجاهليـة، لأنهم يضـعون الرخـام على قدر القبر أو يبنون فوقه . وقد بـنيت الشـريعة في كثير من أحكامها على مخالفة الكفار والمشركين.

ومنها أنه في الزينة الدنيوية ولا ينبغي فعل ذلك بمن انتقل إلى الآخرة.

ومنها أنه يدعو إلى الجلوس على القـبر . والجلـوس عليه منهي عنه لما فيـه من أذيـة الميت بامتهانـه ولهـذا استحبوا أن يكون القـبر مسـنماً ولا يكـون مسـطحاً لأن التسنيم يمنه من الجلوس، ذكره بعضهم .

ومنهـا إنـه يحـول بين الميت وسـماع النـداء والـذكر وتلاوة مـا يتلى على قـبره من القـرآن وسـلام المسـلم عليه.

وقد أورد الشيخ الغماري لكل علة من العلل الثماني ما يدل عليها، وناقشها، وبين أن العلة الوحيدة المعتبرة، هي البناء على نفس القبر، فقـال: (فلم يبـق مقبـولاً إلا العلل الأخرى وهي خاصة بالبناء الواقع على نفس القبر فوقه لا الـذي حولـه دائـراً بـه، فلـذلك كـان مخطئـاً من حمل النهي على العموم وأدخل فيه القبـاب والمـدارس

والأحواش، لأنها غير داخلة في النهي)[1]

وكمثال على مناقشته العلل مناقشته للعلة المتعلقة باعتبار البناء من الزينة التي لا تنبغي لأهل الآخـرة، وقـد ناقشها من وجهين[2]:

أحدهما : أن البناء على القــبر ليس من الزينــة في شيء ولا يراد به الزينة، وإنما يــراد بــه حفـظ القــبر من الدوس والامتهان واندثار الأثر الذي لا يعرف معه القـبر، وإذا قصد به بعضهم الزينة وفعل به مـا هـو منهـا فـذاك أمر زائد على البنـاء، فيكـون الحكم متعلقـاً بـه لا بنفس البناء.

الثــاني: أن كــون الزينــة الدنيويــة لا تنبغي لأهــل الآخــرة دعــوى مجــردة عن الــدليل فهي باطلــة . فـإن الشارع أمر بتزيين الميت وتحسين كفنه وتطييبـه، ونص الفقهاء على استحباب تقليم أظافره وإصلاح شعر لحيته ورأسه ونحو ذلك من أمور الزينـة الـتي لم تطلب للحي إلا في العيدين والجمعة.

4 ــ أن التعليل بخشية عبادة القبر غير صحيح، وذلك لــ (رسوخ الإيمان في نفوس المؤمـنين وتنشـئتهم على التوحيد الخالص واعتقاد نفي الشـريك مـع اللـه تعـالى، وأنه سبحانه وتعـالى المنفـرد بـالخلق والإيجـاد والتـدبير والتصريف لا فاعل غيره ولا مؤثر في ملكــه ســواه وأن المخلوق الحي لا قدرة له على جلب منفعــة لنفســه ولا دفع مضرة عنها إلا بخلق الله تعـالى وإيجـاده فضـلاً عن الميت المقبــور، وبانتفــاء العلــة ينتفي الحكم المــترتب عليها، وهو كراهـة اتخـاذ المسـاجد والقبـاب على قبـور الأولياء والصالحين، فإن من يتخذها عليهم لا يفعل ذلــك لأجل أن يعبدهم ويتخذ قبورهم مساجد يسـجد إليهـا من

[1] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص14.

[2] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص13.

دون الله تعالى، أو يجعلها قبلة يصلى إليها، بـل هـذا مـا سمع في هذه الأمة ولا وجد قط من مسلم يـدين بـدين الإسلام وإنما قصد بتلك القباب مجرد الاحـترام وتعظيم قبور الصالحين وحفظها من الامتهـان والانـدراس الـذي ينعـدم بـه الانتفـاع بزيـارتهم والتـبرك بهم، فـإذا فـرض وجود من بنى قبة أو مسـجداً على قـبر ليعبـده ويتخـذه قبلة فهذا كافر مرتد يجب قتله وهـدم مـا بنـاه، لأنـه لم يبن مسجداً بـل بـنى كنيسـة في صـورة مسـجد مـع أن شيئاً من هذا لم يقع في هذه الأمة والحمد لله)[1]

أمـا مـا يفعلـه بعض جهلـة العـوام إذا أتـوا قبـور الصالحين (من التعظيم ما يشبه صورته صورة العبادة لا يكون موجباً لكراهـة البنـاء، لأن ذلـك لم يـأت من جهـة البناء ولا هو العلة فيه، إنما علته الجهل بطـرق التعظيم والحد اللائق به شرعاً، ولو كان البناء هو علة ذلك للـزم ألا يتخلـف عنـد وجـوده مـع أن جـل من يـزور الأوليـاء المتخذ عليهم القباب والمساجد لا يوجد منه ذلك، وإنمـا يوجد من قليلين جداً من بعض جهلـة العـوام . كمـا أنـه يلزم أن لا يوجد إلا عند القبور المبني عليها مع أننا نـرى بعض الجهلة يفعل ذلك أيضاً ببعض قبور الأولياء التي لم يبن عليها مسجد ولا قبة وليس عليهم بناء أصلاً)[2]

5 ــ أن تعظيم الصالحين لا يرتبط بالبناء وحده، فإنه حـتى لـو هـدمت الأضـرحة يبقى التعظيم، لأن البـاعث على ذلـك هـو الاعتقـاد الناشـئ عن ولايتهم وصـلاحهم ومكـانتهم السـامية عنـد ربهم الـذي وضـع لهم المحبـة والاعتقـــاد في القلـــوب، ولهـــذا، فـــإن (على الجهلـــة

---

[1]) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص13.

[2]) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص13.

القرنيين[1] المبتدعة الضالين أن يهدموا الاعتقاد ويقلعوا أثره من النفوس ويقضوا على الصلاح والولاية والتقـوى والخشية التي يكرم الله تعالى صاحبها، بوضـع ذلـك في القلوب حـتى يسـتريحوا من تعظيم المخلـوق والتوسـل والاستغاثة به أما هدم البناء فلا يأتي لهم بنتيجة ولو أتى بها لما احتاجوا إلى حراس عند القبور يمنعـون من ذلـك بعد الهدم)[2]

وتحدث الشيخ الغمـاري عن نفسـه في تلـك الفـترة التي قام فيها الوهابيون بهدم القباب، فقال: (فأنـا زرت قبر حمزة بعد هـدم البنـاء الـذي عليـه بأزيـد من خمس عشـرة سـنة ووجـدت الحـارس قائمـاً عنـد قـبره يمنـع الزوار من القرب من القـبر والتمسـح بـه وتقبيلـه، ولم يكف مضي خمس عشرة سنة على الهدم في قلع ذلـك من النفوس، وهكذا يبقى ذلـك مـا بقي الإيمـان ومحبـة الله تعالى ورسوله ومحبة أوليائه وأصفيائه . والمقصـود أن البناء لا دخل لـه في تحقيـق علـة النهي وثبوتهـا في هذه العصور المتأخرة، بل ذلك قد زال من البناء وانتقل إلى المحبة والاعتقاد فلم يبق حكم متعلق بالبناء، وكـان المتمسك بظاهر النهي المعرض عن تحقيق علته ومراد الشارع منه مخطئاً في حكمه غـير مصـيب في اجتهـاده وفهمه)[3]

6 ــ أن القائـل بكراهيـة البنـاء على القبـور تمسـك بالنهي ولم يلتفت إلى ما يعارضه من الأدلة، وذلـك ممـا يوجب الخطأ في الحكم وعدم الإصابة في الاجتهاد، فإن الجمــع بين الــدليلين واجب مفــترض والإعــراض عن

[1] يقصد الوهابيين.

[2] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص13.

[3] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص13.

أحـدهما دون ثبـوت النسـخ حـرام والحكم باطـل، فـإن النهي عن البناء ورد ما يعارضه مما هو أقوى منـه ثبوتـاً ودلالة فلا يقبل حكم مـع الإعـراض عنـه، وسـنورد هـذه الأدلة المعارضة في العنوان التالي.

الإجابـــة على النصـــوص الـــتي أوردهـــا المخالفون:

وقـد رد على كـل مـا أورده المخـالفون من نصـوص ببيان سوء فهمهم لها، ومن الأمثلة التي أوردها لذلك ما ورد في الحديث من أن النبي ﷺ أنـه قـال : (قاتـل اللـه اليهود اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد)[1]، وقوله ﷺ لأم سلمة حين ذكرت له كنيسة رأتهـا بـأرض الحبشـة، ومـا رأت فيها من الصور: (أولئك قوم إذا مـات فيهم الرجـل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلـك الصـور أولئك شرار الخلق عند اللــه)[2]، وقولـه ﷺ: (ألا إن من كان قبلكم كـانوا يتخـذون قبـور أنبيـائهم مسـاجد إلا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلـك)[3] وقـد رد على ما فهمه المخالفون بالوجوه التالية[4]:

1 ـــ أن اللــه تعــالى حكى مشــروعية البنــاء عن المؤمنين في سورة الكهف، والنبي ﷺ حكاه عن اليهـود

---

[1] محمد بن حبـان بن أحمـد أبـو حـاتم التميمي البسـتي، صـحيح ابن حبـان بـترتيب ابن بلبـان، تحقيـق : شـعيب الأرنـؤوط، مؤسسـة الرسـالة – بـيروت، الطبعة الثانية، 1414 - 1993 (6/ 95)

[2] صحيح البخاري (1/ 117)

[3] صحيح مسلم (2/ 67)

[4] انظر هذه العلل مفصلة مع أدلتها في: إحيـاء المقبـور من أدلـة جـواز بنـاء المساجد والقباب على القبور، ص11، وما بعدها.

والنصـارى وفـرق بين حـال الفـريقين، فـإن المؤمـنين فعلوا ذلك للتـبرك بآثـار الصـالحين الـذين أكـرمهم اللـه تعالى بهذا الآية وحفظ أرواحهم وأجسامهم تلك القرون الطويلــة . واليهــود والنصــارى يفعلــون ذلــك للعبــادة والإشراك مع الله تعالى . فالدليلان غـير متـواردين على محل واحد . فـإن النـبي ﷺ إنمـا لعن اليهـود والنصـارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد يعبدون فيها تلك القبـور ويسجدون إليها أو يجعلونها قبلة لاتخاذهم الأنبياء شركاء مع الله تعالى فيمـا يسـتحقه من العبـادة، والـدليل على هذا قوله ﷺ في نفس الحديث : (ولا يبقى دينان بــأرض العــرب)، أي لا تفعلــوا مثلهم فتكفــروا فيكــون بــأرض العرب دينان.

2 ــ أنه لو كان كل من بنى على المسجد قـبراً ولـو للتـبرك والزيـارة ملعونـاً كمـا في الحـديث لكـان هـؤلاء المؤمنون الـذي حكى اللـه عنهم ملعـونين أيضـاً داخلين في لعنة النبي ﷺ على من فعل الذي حكـاه اللـه عنهم، ولو كانوا كذلك لكا سكت اللــه تعـالى عن ذمهم ولعنهم والإشارة إلى ضلالهم وخروجهم عن الصراط المسـتقيم فيما أتوا كما عرف من عادته في كتابه الكـريم الـذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

3 ــ أنه ﷺ قال : (أولئك كانوا إذا مـات فيهم الرجـل الصالح اتخذوا على قبره مسجداً وصـوروا فيـه تماثيـل)[1]، فاتخــاذهم الصــور والتماثيــل فيــه دليــل على أنهم يفعلـون ذلـك لأجـل عبـادتهم، وقـد شـهد العيـان بـذلك وأثبت التاريخ مثله، وأنهم ابتدأوا عبـادة الأصـنام بعبـادة صور الصالحين وقبورهم، وهذا لا يوجد منـه شـيء عنـد

[1] إسحاق بن إبراهيم بن راهويه الحنظلي، مسند إسحاق بن راهويه، المحقق : د. عبد الغفـور بن عبـد الحـق البلوشـي، مكتبـة الإيمـان - المدينـة المنـورة، الطبعة : الأولى، 1412 - 1991، (2/ 264)

المسلمين.

4 ــ أنه معلل بخشية العبادة، وكما هو مصرح به في الحديث نفسه فلا يكون تشريعاً عاماً في كل زمان، بـل هو التشريع المؤقت بزمن خشية وجود العلة، وهـو زمن قرب عهد النـاس بالإشـراك دون الزمـان الـذي لم يعـد أهله شركاً ولا دار في خلدهم شيء منه، بل نشأوا على الإيمـان واليقين والتوحيـد واعتقـاد انفـراد اللـه تعـالى بالخلق والتدبير، وأنه لا فاعل إلا اللـه تعـالى، فهـو غـير معـارض لـدليل الكتـاب العـام في كـل زمـان، بـل هـو مخصص لعمومه بزمن ارتفاع خشية العبـادة، وهـو زمن اسـتقرار الإيمـان وانتشـار التوحيـد ورسـوخ العقيـدة رسوخاً لا يتطرق معـه أدنى خلـل ولا شـك في وحدانيـة الله تعالى وتفرده بكل معاني الألوهية والربوبية .

ومثـل هـذا في الشـريعة كثـير جـداً وهـو التشـريع المؤقت الذي يشرع لعلة ثم يزول بزوال علته، إلى أنـه تـارة يكـون منصوصـاً عليـه من الشـارع نفسـه وهـو الناسـخ ,المنسـوخ، وتـارة لا ينص الشـارع على زوال الحكم ونسخه لاحتمال وجود العلة في كل وقت، ولكنـه يشير إلى أن ذلك الحكم غير لازم على الدوام إنما يلزم عند وجود علته فيقول أو يفعـل مـا يخـالف الحكم الأول حتى يظن في بادئ النظر أن بين الأمرين تعارضاً.

وضرب مثالا على هذا بنهيـه ﷺ عن زيـارة القبـور[1] أولاً لما كانوا قريبي عهد بالشرك، فلمـا اسـتقر الإيمـان في نفوسهم أبـاح لهم زيارتهـا للاعتبـار والتـذكر والزهـد في الدنيا، وكذلك نهيه ﷺ عن أكل لحـوم الأضـاحي بعـد ثلاث وعن ادخارهـا لأجـل مجاعـة ألمت بالنـاس، فلمـا

---

[1] نص الحديث كما في (صـحيح مسـلم (3/ـ 65): (نهيتكم عن زيـارة القبـور فزوروها ونهيتكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث فأمسكوا مـا بـدا لكم ونهيتكم عن النبيذ إلا فى سقاء فاشربوا فى الأسقية كلها ولا تشربوا مسكرا)

ذهبت قـال: (إنى كنت نهيتكم عن زيـارة القبـور وأكـل لحوم الأضاحى فوق ثلاث، وعن نبيذ الأوعيـة ألا فـزوروا القبور فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخـرة، وكلـوا لحـوم الأضاحى وأبقوا ما شئتم فإنما نهيتكم عنه إذا لخير قليل فوسعه الله على الناس ألا إن وعـاء لا يحـرم شـيئا وإن كل مسكر حرام) [1]

الأدلة على مشـروعية بنـاء قبـور الصـالحين وتعظيمها:

وقد ذكر الشيخ الغماري خمسة عشـر دليلاً معارضـا نقتصر منها على ما يلي[2] :

1 ـ قـول اللـه تعـالى في قصـة أصـحاب الكهـف: {وَكَـذَلِكَ أَعْثَرْنَـا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُـوا أَنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَـقٌّ وَأَنَّ السَّـاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَـازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْـرَهُمْ فَقَـالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًـا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَـالَ الَّذِينَ غَلَبُـوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا } [الكهـف: 21]، والـذين غلبــوا على أمــرهم هم المؤمنــون على الصــحيح، لأن المسجد إنمـا يبنيـه المؤمنـون، وأمـا الكـافرون فقـالوا: ابنوا عليهم بنيانا، والدليل من هذه الآية إقرار الله تعالى إياهم على ما قالوا وعدم رده عليهم، فإن الله تعـال إذا حكى في كتابه عن قوم مالا يرضـاه ذكـر معـه مـا يـدل على فساده وينبه على بطلانه إما قبله وإما بعـده، فـإذا لم ينبه على ذلك دل على رضاه تعالى بـه وعلى صـحته إن كان عملاً وصدقة إن كان خبراً .

---

[1]) أبـو بكر أحمـد بن الحسـين بن علي الـبيهقي، السـنن الكـبرى وفي ذيلـه الجوهر النقي، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنـة في الهنـد ببلـدة حيـدر آباد، الطبعة الأولى 1344 هـ، (4/ 77)

[2]) انظر هذه العلل مفصلة مع أدلتها في: إحيـاء المقبـور من أدلـة جـواز بنـاء المساجد والقباب على القبور، ص11، وما بعدها.

2 ــ أن الله قضى في سابق علمه باتخاذ المسجد على قبر نبيه ﷺ مع أنه عند ربه جل وعز أعلى قدراً وأحمى جانباً من أن يقع بجسده الشريف ما هو محرم مبغض لله تعالى ملعون فاعله، بل هذا من المتيقن المقطوع ببطلانه لأهل الإيمان، فلو كان اتخاذ المسجد عليه ﷺ ممنوعاً متخذه لحمى الله تعالى جانب نبيه ﷺ منه، ولصرف العباد عنه كما صرفهم عن غيره، فلما لم يفعل ذلك دل على أنه جائز ومطلوب، (ومن اعتقد خلاف هذا فهو قرني ممقوت لم يذق للإيمان طعماً ولا عرف من منزلة النبي ﷺ العليا ومكانته السامية عند ربه شيئاً فهو مدخول العقيدة مختل الإيمان)[1]

3 ــ أن النبي ﷺ أمر أن يدفن في البناء فقال: (لن يقبر نبي إلا حيث يموت فأخروا فراشه، وحفروا له تحت فراشه)[2]، وهو دليل صريح على وجود البناء حول القبر، وأن النهي خاص بما كان فوقه، لأنا بالضرورة نعلم أن النهي عن البناء ليس هو عن فعل الفاعل وبناء البناء، وإنما هو عن وجود نفس البناء على القبر، وإذا جوز الشارع وجود الميت داخل البناء فقد جوز البناء إذ لا فارق بين أن يوجد بعد الدفن أو قبله، لأن الغاية واحدة والصورة متفقة وهي وجود القبر داخل البناء، وإذا جاز ذلك فلا فرق بين أن يكون البناء بيتاً أو قبة أو مدرسة لأن الكل بناء والعلة في ذاته لا في أشكاله وصوره فليس النهي متعلقاً بصورة القبة أو المدرسة، بل بذات البناء كيفما وجد[3].

4 ــ إذا ثبت أن النبي ﷺ أمر أن يدفن في بيته الذي

---

[1] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص25.

[2] مسند أحمد (1/ 7)

[3] إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص26.

هو بناء فقد تقرر في قواعد الفقه أن الرضي بالشيء رضى بما يؤول إليه ذلك الشيء، وبيت النبي ﷺ كان ملاصقاً للمسجد وبابه شارعة إليه حتى كان ﷺ إذا اعتكف يخرج رأسه الشريف إلى عائشة فترجله وهي في البيت وهو في المسجد، وقد علم ﷺ أن أمته ستكثر، وأن المدينة ستتسع وتعظم حتى يصل بناؤها إلى سلع كما أخبر هو ﷺ بذلك، وأمر بشد الرحلة إلى زيارة قبره الشريف وإلى مسجده للصلاة فيه ورغب في ذلك بقوله: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)[1] و(صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام)[2]، ومسجده ﷺ كان في عصره صغيراً لا يسع عشر معشار ربع من يقصده من أمته.

5 ــ أن النبي ﷺ أخبر بأن قبره الشريف سيكون داخل مسجده، وزاد فأخبر بــ (أن ما بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنة)[3]، وهذا منه ﷺ إشارة إلى استحباب إدخال قبره الشريف في المسجد لأنه ترغيب يدعو إلى ذلك، إذ المراد فضيلة الصلاة ما بين القبر والمنبر والترغيب فيها في ذلك الموضع إذا لم يكن القبر الشريف داخل المسجد لا تتصور الصلاة بين القبر

---

[1] أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، ومختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م، (6/ 51)

[2] صحيح البخاري (2/ 76)

[3] نص الحديث (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة) (انظر: مسند أحمد بن حنبل (3/ 64)

والمنبر ولا يتأتى التعبير بقولـه: (مـا بين قـبري ومنـبري روضــة من ريــاض الجنة)، لأنــه إذا كــان المنــبر وســط المسجد والبيت الذي فيه قبره الشريف خارج المســجد لم يصح في العـادة التعبـير بالبينيـة خصوصـاً عنـد إرادة الصلاة، فإن البيت وسوره حاجز بين القبر والمنبر مــانع من الصلاة في موضعه.

6 ـــ إجمــاع الصــحابة واتفــاقهم بعــد الاختلاف في موضع دفنه على دفنه في بيته عملاً بما أخـبرهم بـه أبـو بكر عن النبي ﷺ فلو كان ذلك غير صحيح عن النــبي ﷺ أو منسوخاً بما ذكـره في مـرض وفاتـه مـع أن الخـبر لا يدخله النسخ لما أجمع الصحابة عليه . وقد قـام الــدليل على حجية الإجماع ولا سيما إجماع الصحابة.

7 ــ إجماع التابعين ومن بعدهم في عهد وجـود كبـار أئمتهم مثل عمر بن عبد العزيـز والحسـن وابن سـيرين وفقهاء المدينـة والكوفـة والبصـرة والشـام وغيرهـا من أقطار الإسلام، ثم أجمعت الأمة بعدهم على إدخال بيتـه المشتمل على قبره داخل المسجد وجعلـه في وسـطه، وإجماعهم حجة ولـو كـان ذلـك منهياً عنـه لاسـتحال أن تتفـق الأمـة في عصـر التـابعين على المنكـر والاجتمـاع على الضـلالة لـولا أنهم فهمـوا من النهي أن المـراد بـه علته التي زالت باستقرار الإيمـان ورسـوخ العقيـدة، ولا يقــال إنهم ســكتوا على ذلــك لأجــل ضــرورة توســعة المسجد فإنه كان في الإمكان توسـعته من جهـة القبلـة والجهـة المقابلـة لهـا والجهـة الجنوبيـة لهـا دون الجهـة الشمالية الواقع فيها قبره ﷺ.

8 ــ أن الصحابة بنـوا على القـبر مسـجداً في حياتـه ﷺ فأقرهم على ذلك ولم يـأمرهم بهدمــه ويسـتحيل أن يقر النبي ﷺ على باطل، ويـدل لـذلك مـا رواه ابن عبـد الــبر في الاســتيعاب في ترجمــة أبي بصــير من أن أبــا جندل دفن أبا بصير في مكانه الذي مـات فيـه، ووصـلى

عليه وبنى على قبره مسجداً)[1]

9 ــ أنه جاء في عـدة أحـاديث وآثـار أن جماعـة من الأنبياء والمرسلين مدفونون في المسجد الحرام ما بين زمزم والمقـام، وأخـبر النـبي ﷺ أن منهم نوحـاً، وهـوداً وصــالحاً، وشــعيباً، وأن قبــورهم بين زمــزم والحجــر، وكذلك ورد في قبر إسماعيل أنه بالمسجد الحرام، وهو أشرف مسجد على وجه الأرض هـو ومسـجد النـبي ﷺ، فلو كان وجـود القـبر في المسـجد محرمـاً لذاتـه لنبش النبي ﷺ وأخرجهم فـدفنهم خـارج المسـجد، فإنـه أخـبر الله أن الأرض لا تأكـل أجسـاد الأنبيـاء، وأنهم أحيـاء في قبورهم[2].

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة الـتي يمكننـا استخلاصـها من هـذا الفصل:

1 ـــ رأينـا أن أكـثر مـا توجـه إليـه النقـد من طـرف جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين للطـرق الصـوفية هو تلك الممارسات الـتي يمارسـها الفقـراء أو الإخـوان مما تعتبره الجمعية - بسبب توجهها السلفي أو التنويري - بدعا وزيادات في الدين، بل وضـلالات تنحـرف بالـدين عن مسـاره الصـحيح الـذي رسـمه رسـول اللـه ﷺ في سنته، ورسمه السلف الصالح في هديهم واتباعهم.

2 ـــ رأينـا أن المـواطن الـتي توجـه إليهـا النقـد من

[1]) أبو عمـر يوسـف بن عبـد اللـه بن محمـد بن عبـد الـبر بن عاصـم النمـري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصـحاب، تحقيـق: علي محمـد البجـاوي دار الجيل، بيروت، 1412، الطبعة الأولى، (4/ 1613)

[2]) إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص33.

طـرف جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، ومثلهـا الاتجاه السلفي، وخصوصـا الاتجـاه السـلفي المحافـظ، وقد وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى قسمين:

قسم مرتبط بما يراه الصوفية ضروريا في الســوك، كالشيخ المرشد المربي، والتزام الأذكار بصيغها وهيئاتها المختلفة، أو ما هو من الممارسات التي تختلف الطـرق في شــأنها، كــالأوراد، والخلــوة، فهي تختلــف هيئاتهــا بحسب الطرق.

وقسم لا تراه الصوفية ضروريا، ولكنها تـرى أهميتـه في تيســير الســلوك على المريــد، لإزالــة الكثــير من الإرهاق الذي يصيبه خلال السـير، وقـد وجـدنا بنـاء على استقراء ما يفعلـه الصـوفية، ومـا توجـه إليـه النقـد أنـه أمران: ــ السماع والرقص، والموالـد والزيـارات، أو مـا يسميه علماء الجمعية(الزردة)، أو (أعراس الشيطان)

3 ـــ أن الصــوفية يفرقــون بين شــروط الســلوك وممارسـاته، فالشـروط ضـرورية لا مندوحـة عنهـا لمن أراد الســلوك إلى اللــه، أمــا الممارســات، فيمكن أن تختلف وتتغير بحسب الأحوال، وهذه من النقاط المهمة جدا، والتي نرى أن الجمعية أساءت فهمها حين تصورت أن كـثرة الطـرق دليـل على الصـراع، وهـذا خطـأ، لأن الطرق الصوفية مثل المدارس النفسـية، فكـل مدرسـة ترى أسلوبا خاصا للعلاج النفسي، ولهذا، فإن المريد إن لم يستطع أن يسلك في طريقة من الطرق، أو لم يجــد مأربه فيها ينتقل إلى طريقة أخرى.

4 ـــــ وردت الكثــير من التصــريحات من رجـــال الجمعية الكبار تصف مشـايخ الطـرق الصـوفية بكـونهم دجالين انتهازيين يتاجرون باسم الدين، ليخرجـوا النـاس من الدين، والطرق الصـوفية لا تخـالف الجمعيـة كمـا لا تخالف الاتجـاه السـلفي في وجـود انحرافـات في بعض الطـرق، أو في بعض المشـايخ، أو في بعض المنتسـبين لهم، ولكنها لا تعتبر ذلك مبررا لإلغاء ضرورة الشيخ في

السـلوك إلى اللــه، ولا تعتـبر ذلـك مـبررا للقعـود عن البحث عن الشيخ المربي.

5 ـــ اهتمت الطـرق الصـوفية بالأذكـار، باعتبارهـا أقرب طريق إلى الله، بل يعتبرون أنه لا يمكن أن تكون هنـاك طريقـة من دون أذكـار، وقـد وافقتهم جمعيـة العلمـاء في هـذا الاعتبـار، واختلفت معهم في بعض الرسوم التي تمارس بها تلك الأذكار، كالجهر بالذكر، والاجتماع عليه، والالتزام ببعض الصيغ فيه، وخصوصا الذكر بالاسم المفرد، ونحوها.

6 ـــ تتفـق الطـرق الصـوفية جميعـا على ضـرورة الـتزام المريـد بمجموعـة من الوظـائف التعبديـة الـتي تشمل عـادة: الاسـتغفار والصـلاة على رسـول اللـه ﷺ، وكلمة التوحيد، وبعض السور القرآنية، وبعض الصـلوات التي وضعها المشايخ كصلاة الفاتح والمشيشية ونحوهـا، وقد كان الورد بهـذه الصـورة محـل خلاف بين الجمعيـة والطرق الصوفية.

7 ــ بالإضافة إلى الممارسات السـلوكية الـتي تـرى الطرق الصوفية ضـرورتها للسـلوك هنـاك مـا يمكن أن نسميه (ميسرات السلوك ومنشـطاته)، باعتبـار تأثيرهـا الجاذب للمريدين، والمخفف عن التعب والإرهـاق الـذي قد يصيب السالك في سلوكه.

8 ــ يعتـبر السـماع ومـا يصـاحبه من حركـات واهتزازات ركنا أساسيا في أكثر الطـرق الصـوفية، ولـو أنهم – كمـا ذكرنـا- لا يعتبرونـه ركنـا في السـلوك، ولا شرطا فيه، بل يعتبرونـه من الوسـائل المسـاعدة الـتي يحتاج إليها أكثر الناس للنهـوض والسـير، وقـد خـالفتهم الجمعيـة في هـذا، حيث نجـد إجماعـا على إنكـاره، بـل اعتبـاره من البـدع الخطـيرة الـتي تسـيء إلى الـدين والمجتمـع، ولعـل أكـبر صـوت منكـر لهـذا النـوع من الممارسات الطرقية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

9 ـــ من الأمـور الـتي تكـاد تكـون مختصـة بـالطرق

الصـوفية، وإن شـاركها فيهـا غـيرهم، الاحتفـالات الـتي يقيمونها في مناسبات مختلفـة، إمـا إحيـاء لـذكرى ميلاد شـخص يعتقـدون ولايتـه، أو وفاتـه، أو لأجـل غـرض من الأغـراض المختلفـة، والـتي يطلـق عليهـا في المجتمـع الجزائـري اسـم (زردة) ، ويطلـق عليهـا كـذلك اسـم (الجمـوع) و(الاحتفـالات) و(الموالـد) بحسـب الطـرق المختلفة، وقد خالفتهم الجمعية في هذا، حتى أن الأمـر وصل بهـا إلى تحـريم أكـل الطعـام الـذي يعـد في تلـك المناسـبات، بـل وصـل الأمـر إلى أخطـر من ذلـك حين اعتـبرت الموالـد مواسـم شـركية لا تختلـف عن تلـك الاحتفالات التي كـان يقيمهـا العـرب في الجاهليـة للات والعزى وغيرها من الأصنام.

10 ـ اهتم الصوفية ابتداء من ظهور ظاهرة التكفير المرتبطة بالموالـد والأضـرحة ونحوهـا بكتابـة الرسـائل والكتب التي ترد على هـذا، وتـبين مـدى مشـروعية مـا يمـــارس في تلـــك الموالـــد، بغض النظـــر عن بعض الممارسات الخاطئة التي يتفق الصوفية والسلفية على إنكارهـا، كـدخول بعض الفسـاق والمنحـرفين إلى تلـك المحـال، لأن ذلـك لا علاقـة لـه في الأصـل بالمولـد ولا بالضريح.

الفصل الثالث

جوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية حول العرفان الصوفي

سبق أن عرفنا أن التصوف نوعان أو جانبان: سلوك، وعرفان، وعرفنا أن السلوك هو الغالب على أكثر مريدي الطرق الصوفية، والعرفان درجة رفيعة قد يبلغها السالك حال سلوكه، وقد لا يبلغها، وهو الأعم الأغلب، ثم عند بلوغه لها قد يستطيع أن يعبر عنها، وقد تبقى محصورة في جوانحه ووجدانه، وبالتالي فإن العارفين أو العرفاء الذين استطاعوا أن يعبروا عن معارفهم قليل من قليل.

ولهذا لا نجد في الكتب المؤلفة في الطرق الصوفية الجزائرية في عهد الجمعية إلا عدد قليل ظفر بأكثره الشيخ أحمد بن عليوة شيخ الطريقة العلاوية، والذي فاز من الجمعية – كما عرفنا سابقا- بلقب (شيخ الحلول)

بالإضافة إلى هذا، فإن الإشكال الأكبر الذي اعترضنا في هذا الفصل هو أنا نجد من الجمعية تهما مجملة يعزوها التفصيل والتحديد والبراهين، فهي في هذا الجانب – كما سنرى – ترمي التهم من غير أن تفصل بعض التفصيل مثلما عرفنا سابقا في الجوانب السلوكية، ولهذا سنحاول الرجوع إلى مصادر الجميعة في تهمها، وهي ما كتبه التيار السلفي وخصوصا المحافظ منه، حتى نتعرف على سر التهم التي تلقيها على الطرق الصوفية، وخصوصا على من تسميها طريقة الحلول وشيخها.

وبناء على هذا، فقد قسمنا هذا الفصل إلى قسمين:

الأول: تناولنا فيه مصادر المعرفة عند الجمعية والطرق الصوفية، باعتبارها الأساس الذي يستند إليه

العرفان الصوفي.

الثـاني: تناولنـا فيـه جـوانب الخلاف بين الجمعيـة والطرق الصوفية حول العرفان الصوفي.

المبحث الأول

مصادر المعرفة عند الصوفية وموقف الجمعية منها

من أهم أسـباب الخلاف الفكـري بين الجمعيـة والطرق الصوفية الخلاف في المصادر التي تتلقى منهـا الشريعة الإسلامية بعقيدتها وفقهها وسـلوكها ومواقفهـا المختلفـة، فبينمـا نـرى الجمعيـة تنتهج في التلقي من المصادر التي تـرى أن السـلف الصـالح قـد تلقى منهـا، وهي الكتاب والسنة وفهوم السلف لهما، نجد للصـوفية مصـادرهم الخاصـة بهم، والـتي يزعمـون هم أيضـا أنهـا تسـتند للمصـادر الأولى للشـريعة من الكتـاب والسـنة وغيرها من المصادر.

وانطلاقـا من هـذا لا يمكن أن نتحـدث عن تفاصـيل الخلاف بين الجمعيـة والطـرق الصـوفية حـول العرفـان الصـوفي دون الانطلاق من البحث عن جـذور الخلاف، والتي تتمثل في مصادر التلقي.

وقـد رأينـا من خلال اسـتقراء جـذور الخلاف في المصادر التي يعتمد عليهـا كلا الطـرفين أنهـا ترجـع إلى أمرين:

الأول: الخلاف في نوع التلقي وكيفيته من المصادر النقليـة، وخاصـة القـرآن الكـريم، ذلـك أن الخلاف فيهـا ليس في اعتمادهـا أو عـدم اعتمادهـا، فالكـل يعتمـدها، وإنما في منهج الاستنباط منها وحدوده.

الثاني: الموقف من المصـادر الغيبيـة من الكشـف والإلهـام والـرؤى والاسـتمداد وغيرهـا، والـتي اختص

بالاســتناد إليهــا الصــوفية، ولقيت إنكــارا كبــيرا من المخالفين لهم.
بنـاء على هـذا قسـمنا هـذا المبحث، فخصصـنا كـل قسم منها بمطلب خاص.

المطلب الأول: المصـــادر النقليـــة بين الجمعية والطرق الصوفية

تتفق جمعية العلمـاء والطـرق الصـوفية على تعظيم المصــادر النقليــة ســواء القــرآن الكــريم أو الســنة المطهرة، واعتبارهما المصدر الأول للإسـلام بتشـريعاته جميعا، بل تعتـبران أن الإصـلاح النفسـي والاجتمـاعي لا يمكن أن يتم إلا من خلالهما، وقد مضى ذكر الكثــير من الأدلة على هذا في محلها من الفصول السابقة.
ولكن الخلاف بينهما في هذا المحــل يكمن في منهج التعامل مع هذه المصادر، وكيفية الاستنباط منها، فبينما ترجع الجمعية إلى منهج السلف في ذلك كمـا تتصـوره، وهــو مــا يرجــع في العمــوم إلى ظــواهر النصــوص، أو إشاراتها الواضحة القريبة، نرى الصوفية بطرقها جميعــا - بل قبل أن تكون للتصوف طـرق - أن القـرآن الكـريم أعظم من أن يحصــر بين جــدران الألفــاظ، ولــذلك يتوسعون في فهمه والاستنباط منه بما لا تسعه العبـارة الظــاهرة، ويتعــاملون بنفس المعاملــة مــع الســنة المطهرة.

وقد قال الشيخ ابن عليـوة معـبرا عن هـذه النظـرة في مناقشته للشيخ عثمـان بن المكي الـذي يـرى حكـر الكتاب والسنة للسلفيين: (أمّا قولكم : (فما الإســلام إلاّ كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ)، فمن ذا الذي بلغّــك عن الصوفيّة أنّهم يقولون إنّ الإسلام غير هذين الأصلين ؟، نعم، يقولـون : إنّ في كتـاب اللـه من العلـوم مـا لا

يتوصل إليه العموم، قال سلطان العاشقين[1] :

فثمّ وراء النقـــل	مـــدارك غايـــات
علم يـــــــــــــدق عن	العقـــــول الســـــليمة

ثم عقب على هــذا بقولــه: (ولعــلّ المتجمّــد على الظواهر لا يـدري من كتـاب اللـه إلاّ مـا وصـل إليـه من جهة بضـاعته القليلـة، وقريحتـه الكليلـة وينكـر مـا وراء ذلك، وهل يعتقد أنّ ما وصـل إليـه فهمـه هـو مـا كـانت عليه بواطن أصحاب رسول الله ﷺ في كتاب الله)[2]

بناء على هذا الاختلاف المهم في هـذين المصـدرين، سـنبحث أدلـة الفـريقين، والمناقشـات الـتي حصـلت بينهما، أو بين مدرستيهما على ضوئه.

أولا ــ موقف الجمعية من كيفية الاســتنباط من المصادر الأصلية

بناء على كون الجمعية - كما ذكرنا في بيان اتجاههـا الفكـري – تأخـذ من المدرسـتين السـلفيتين المحافظـة والتنويريــة، فإنهــا قبلت بعض الإشــارات الــتي يوردهــا الصوفية في تفاسيرهم، ولم تجادل فيها بناء على اعتبار كلا الطرفين لها.

أمــا الطــرف التنــويري، فواضــح في كونــه يأخــذ بالتفسير الإشاري، بل هو يبنى تعامله مع القرآن الكريم على أساسـها، فيمكن اعتبـار تفسـير المنـار إلى آخـره عبــارة عن تفســير إشــاري، لأنــه اســتنبط الكثــير من المعـاني النفسـية والاجتماعيـة والحضـارية وغيرهـا من الإشارات القرآنية.

وأما الطرف الثاني، وهـو السـلفية المحافظـة، فـإن مراجعها الكبار كابن تيميـة وابن القيم لا ينكرونـه، فـابن

[1] ابن عليوة، القول المعروف، ص 52.

[2] ابن عليوة، القول المعروف، ص 52.

تيميــــة يــــذكر أنَّ التفســـيرَ المعتمـــدَ على الإشـــاراتِ المنسوبَ إلى بعضِ الأعلامِ، كجعفر الصَّادق (ت: 148) وغــيره، بعضــها كلامٌ حســنٌ، وبعضُــها باطــلٌ مــردودٌ، وبعضُــها مكــذوبٌ مفــترى على قائلــه، وأنهــا من بــابِ الاعتبـــارِ والقيـــاسِ، وإلحـــاقِ مـــا ليس بمنصـــوصٍ بالمنصــوصِ، مثــلُ الاعتبــارِ والقيــاسِ الــذي يســتعمله الفقهاء في الأحكام [1]

وابن القيم يقــول: (وتفســير النَّاسِ يــدورُ على ثلاثــةِ أصــولٍ: تفســيرٌ على اللَّفــظِ، وهــو الــذي ينحــو إليــه المتــأخِّرون، وتفســيرٌ على المعــنى، وهــو الــذي يــذكره السَّلفُ، وتفسيرٌ على الإشارةِ والقياسِ، وهو الذي ينحو إليه كثيرٌ منَ الصُّوفيَّةِ وغيرهم) [2]

ثم عقب على هــذا النــوع الأخــير، وهــو التفســير الإشاري بقوله: (وهذا لا بأسَ بــه بأربعــةِ شــرائط: أن لا يناقضَ معنى الآيةِ، وأن يكون معنًى صــحيحًا في نفسِــهِ، وأن يكــون في اللَّفــظِ إشــعارٌ بــه، وأن يكــون بينــه وبين معــنى الآيــةِ ارتبــاطٌ وتلازمٌ، فــإذا اجتمعت هــذه الأمــورُ الأربعةُ كان استنباطًا حسنًا)[3]

بالإضافة إلى هــذا، فــإن الشــاطبي الــذي هــو مرجــع الجمعية الأكبر في مثل هذه المسائل نص على اعتباره، فقال: (.. وكَونُ الباطنِ هو المرادُ من الخطابِ قد ظَهَرَ أيضًا مما تقــدَّم في المســألةِ قبلهــا، ولكن يُشــترطُ فيــه شرطان: أحدهما: أن يَصِحَّ على مقتضى الظَّاهرِ المقرَّرِ في لســان العـــربِ، ويجـــري على المقاصـــدِ العربيَّةِ. والثاني: أن يكونَ له شاهدٌ – نصًّا أو ظــاهرًا – في محــلٍّ

---

[1] ابن تيمية، ومجموع الفتاوى (2: 28)

[2] ا محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد اللــه ابن القيم الجوزيــة، التبيــان في أقسام القرآن، لابن القيم، دار الفكر، (ص: 51)

[3] التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص: 51)

آخر يشهدُ لصحَّتِه من غير معارضٍ)[1]

وبناء على هذا قبلت الجمعية هذا النوع من التفسير، ولم تنكره، وكمثال على ذلك ما ذكره ابن باديس عند تفسير قوله سبحانه: {مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } [النمل: 20]، فقد اقتبس نصا من القشيري في تفسير الآية[2] واصفا إياه بالإمام وأنه شيخ الصوفية في زمانه، وعقّب عليه بقوله: (مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل، من أجلّ علوم القرآن وذخائره)[3]

ثمَّ ذكر الشروط التي ذكرها ابن تيمية وابن القيم والشاطبي، وغيرهم، وهي:

1 ـ أن يكون ما يذكرونه معاني صحيحة في نفسها.

2 ـ أن تكون المعاني مأخوذة من التركيب القرآني أخذاً عربياً صحيحاً.

3 ـ أن يكون للمعاني ما يشهد لها من أدلة الشرع.

ويعقب على هذه الشروط بقوله: (كلّ ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول، أمّا ما لم تتوفّر فيه الشروط المذكورة وخصوصاً الأول والثاني، فهو

---

[1] الموافقات، للشاطبي، (3: 268)

[2] هذا النص هو قوله: (إنما قال مالي لا أرى لأنه اعتبر حال نفسه ذا علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصر في حق الشكر فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه فقال: مالي، وكذلك تفعل شيوخ الصوفية إذا فقدوا آمالهم تفقدوا أعمالهم، هذا في الآداب فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض)، وابن باديس لم يرجع فيه مباشرة إلى تفسير القشيري مع كونه متداولا، وإنما رجع إلى تفسير ابن العربي، وفي ذلك دلالة على أنه لم يطلع عليه (آثار ابن باديس: 2/34)، وإلا كيف يثني عليه وما ذكره في تفسير لا يختلف عما تذكره الطرق الصوفية في ذلك الحين مما ينكره عليها.

[3] آثار ابن باديس (2/ 35)

الــذي لا يجــوز في تفســير كلام اللــه. وهــو كثــير في التفاسـير المنسـوبة لبعض الصـوفية، كتفسـير ابن عبـد الرحمن السـلمي من المتقـدّمين، والتفسـير المنسـوب لابن عربي من المتأخّرين) [1]

ولكن هذا القبول يكاد يكون نظريـا، أو محصـورا في دائرة ضيقة جيدا من الإشـارات الواضـحة، بنـاء على أن التفسير الإشاري الصوفي مبني على العرفان الصوفي، والجمعية والاتجاه السلفي عمومـا ينكـر هـذا النـوع من العرفان، بل يكفر منتحليه، ويرميهم كما ترمي الجمعيـة الشيح ابن عليوة بالحلول.

ولهذا فإن موقف الجمعيــة الحقيقي أو الــواقعي من هذا النوع من التفسير سلبي إلى درجة كبـيرة، وللدلالـة على هــذا ننقــل موقفــا للشــيخ أحمــد حمــاني من كلام واضح بسيط قاله الشـيخ ابن عليـوة عنـد ذكـره لكيفيـة وشروط الاستفادة من الإشارات القرآنية، فقد قال: (.. لا تستبعد ذلك فإن الكلام كلام الله ولا يتصف به غــيره، نعم الكل يعتقد أنه كلام الله وما فاته إلا أن يسمعه من الله، ولا يسمعه من الله إذا كان سمعه سمع الله)[2]

واســتدل لهــذا بمــا ورد في الحــديث من قولــه ﷺ : (فإذا أحببته كنت سمعه الـذي يسـمع به)[3]، وعلـق على ذلك بقوله: (والصفة لا تنفك عن موصوفها، ولا تظهر إلا من حجـاب لبسـها، {وَمَـا كَـانَ لِبَشَـرٍ أَنْ يُكَلِّمَـهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشـورى: 51] موسـى عليـه السـلام لمـا سـمع خطابـا من جـانب الطـور الأيمن لم يستدل على أنه كلام الله يكلمـه بـه إلا بـه من أجـل مـا أعطي من سلامة الذوق وصحة الوجدان، وهكذا الواحـد منا مهما تقوى يقينه وانشرح باطنه في مـا يسـمعه من

[1] آثار ابن باديس (2/ 35)

[2] ابن عليوة، البحر المسجور، ص19.

[3] صحيح البخاري (8/ 131)

ألفاظ القرآن، فلا يراه إلا كلاما يكلمه الله به في ذلك الحال، ولا يستدل عليه إلا به لما يحده في قلبه من تأثير النزول ورعدة الزواجر)[1]

وقد ذكر الشيخ العلاوي عن نفسه أنه مر بهذه الحالة واستدل لها بما ورد في الحديث عن النواس بن سمعان مرفوعا: (إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي فإذا تكلم بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد فينتهي به جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ قال: الحق وهو العلي الكبير فيقول كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي به جبريل حيث أمر من السماء والأرض)[2]، وقد عبر عن هذا بقوله: (وهكذا لما ينزل به على محمد ﷺ يحصل من تأثر النزول ما ترتعد به مفاصله، ولن يزال هكذا مهما مر على قلب فارغ من الكدورات إلا ويحدث فيه من تأثير النزول، وقد كان لي نصيب من ذلك والحمد لله، فكنت مهما يطرق سمعي كلام الله فترتعد بوادري عن الفحص حتى كأني أسمع حسيسا من بقية صلصلة الجرس، وكنت إذا ما تناولت المصحف الكريم نتناوله بيد التبجيل والتعظيم، ونراه كتابا وصل إلي من حكيم عليم مرقوما في أوله بعد الفاتحة وبسم الله الرحمن الرحيم ألم ذلك الكتاب لا ريب فتأخذ في الفحص فيه أشد من فحص الغريب إذا أتاه كتاب من أهله، فهو بالطبع يسكن إليه ولا يمطمئن إلا إذا استوعبه بأجمعه، وبهذه الخاصية والحمد لله أطلعني

---

[1] ابن عليوة، البحر المسجور، ص19.

[2] قال فيه ابن حجر في (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (6/ـ 474): (رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح، وقد وثق وتكلم فيه من لم يسم بغير قادح معين،وبقية رجاله ثقات)

الله على بعض من جواهره، ولا تحسبن مـا رسـمته هـو مجموع ما فهمته بـل ولا عشـوره ومصـداقه (القـرآن لا تنقضي عجائبه)[1]

وقد لقي هذا الحديث الذي عبر به الرجـل عن حالـة حصـلت لـه قـد يحصـل مثلهـا لأي شـخص - خاصـة إذا توثقت صلته بالقرآن - معارضة كبيرة من الشـيخ أحمـد حماني باعتبار أن الكتاب لم يطبع في عهد ابن بـاديس، ولو أنه طبع في عهـده كمـا يـذكر الشـيخ حمـاني لوجـد معارضة أشـد، وليسـر على الجمعيـة إثبـات الصـلة بين العلاوية والقاديانيـة، باعتبـار أن كليهمـا يـرى (اسـتمرار الوحي بعد رسول الله ﷺ)[2]

يقول الشيخ أحمد حماني: (وكـانت جريـدة الشـهاب قـد أثبتت الصـلة الموجـودة بين العليـويين والقاديانيـة بـاعتراف جريـدتهم البلاغ، ونشـرها رسـالة من أحـد دعـاتهم، وهـاجمت الشـهاب الطـائفتين معـا، فسـكتت العليويـة ولم يتـبرأوا من التهمـة، وهـذه الـدعوى من شيخهم تثبت اتهام الشهاب، ولم ينشر هـذا الكتـاب في حيـاة ابن بـاديس، ولـو نشـر لمـا احتـاج إلى دليـل آخـر ليبرهن على أن مذهب القاديانية يتلاقى مع مذهبهم في هذه النقطة)[3]

وهـذا يـدل على أن الشـيخ أحمـد حمـاني - كالتيـار السـلفي المحافـظ خصوصـا - يفهم ممـا نقلنـاه من نصوص عن الشيخ العلاوي، وقبله من الشـيخ أبي حامـد الغزالي أن الصوفية يدعون استمرار الوحي.

يقول الشيخ أحمد حماني عند ذكره لخطورة المنهج الذي دعا إليـه الشـيخ العلاوي في التعامـل مـع القـرآن الكـريم: (وفي كتـاب منسـوب اليـه، وإن كـان تحريـره

---

[1] البحر المسجور: 19- 20.

[2] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، (1/271).

[3] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، (1/271)

وأسلوبه يعلو عن تعبيراته، ولكن مـا فيـه من الضـلالات يشـبه شـعره، واسـمه (البحـر المسـجور في تفسـير القـرآن بمحض النـور) يقـول عن القـرآن الكـريم: (من المؤمنين من فتح الله بصيرته يراه الآن يتنزل به الـروح الأمين، وإذا قرأه يقرؤه من إمام مبين وأعظمهم درجـة من يتلقاه من ارحم الراحمين وقليل ما هم)[1]

وقد علق على هذا بقوله: (وهذه جراءة لم يتح لأحد ـ فيما مضى ـ أن يعلن بمثلهـا في قـوم من المسـلمين فتروى عنه وتطبع وتروج، إنها تؤدى بقائلها والمصدق به إلى الاستغناء عن رسـالة محمـد ﷺ إذا كـان (المـؤمن) يأخذ القـرآن من الامـام المـبين.. أو يأخـذ مباشـرة من أرحم الراحمين فإنه ليس من أمة محمد لأن أمة محمـد أخذت القرآن منه عليه الصلاة والسلام، أخـذه الصـحابة مباشـرة وكتبـوه ورووه، وبلـغ إلى من لم يكن حاضـرا نزوله ومن بعده برواية بلغت حد التـواتر في كـل كلمـة منـه وكـل حـرف، وهـو عليـه الصـلاة والسـلام لم يأخـذ القرآن مباشرة من اللوح المحفوظ، ولا تلقـاه مباشـرة من الله، وإنما تلقاه من لدن حكيم عليم بواسـطة أمين الـوحي جبريـل عليـه السـلام، كمـا أنبأنـا علام الغيـوب، {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: 192].. إن هـذه الدعوى خطيرة جدا لأنها تؤدي إلى أن الوحي لم ينقطع بختم الرسالة، فمن يقـرأ اللـوح المحفـوظ، ومن يتلقى عن الله فهـو يـوحى إليـه (ومـا كـان لبشـر أن يكلمـه)، ونحن المسـلمين نعتقـد أن الـوحي قـد انتهى بختم الرسالة، ولكن القاديانية تزعم غير ذلك) [2]

ونحب أن ننبـه هنـا إلى أن مـا ذكـره الشـيخ أحمـد حماني من أن الشيخ العلاوي هو السابق لهذا، ولم يقـل به إلا القاديانية غير صحيح، فقد ذكـر أبـو حامد الغـزالي

---

[1] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، (1/272)

[2] أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، (1/272)

في هذا عن بعض الصوفية قوله: (كنت أقرأ القــرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيـه على رسـول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنـا الآن أسـمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه)[1]

وهم لا يقصـدون منـه ــ كمـا هـو ظـاهر ــ المعـاني الحرفيـة للتـنزل أو السـماع، وإنمـا يريـدون بهـذا الأدب وتعظيم القرآن، ففرق كبير بين أن نقرؤه وكأننا نسمعه من الله مباشرة، وبين أن نعتبره كتابا كأي كتاب.

ولعلــه ممــا يثـير الغرابــة أن يســتنكر الكثـير هــذه المقولات من الصوفية في نفس الوقت الذي يثنون فيه على الشيخ محمد إقبال، وينقلون عنه قوله في ذكرياته مع والده: (كنت قد تعودت أن أقرأ القرآن كل يوم بعــد صلاة الصبح، وكان أبي كلما رآني يسألني: مـاذا تصـنع؟ فأجيبــه: أقــرأ القــرآن، وظــل على هــذه الحــال ثلاث سنوات متتاليات يسـألني سـؤاله وأجيبـه جـوابي، حـتى قلت له ذات يوم: أبي ما بالـك تسـألني السـؤال نفسـه وأجيبك الجواب نفسه، ثم تعود إلى السؤال من جديــد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لـك: (يـا ولـدي اقـرأ القـرآن وكأنه أنزل عليك)، ومنذ ذلك الحين بدأت أتفهم القـرآن وأغوص في بحاره وأطير في أجوائه وأجوب في آفاقــه، فأخرج من ذلك بعلم جديد وإشراق جديد، وأزداد إيمانــاً بأن القرآن هو الكتاب الخالد والدسـتور الأبـدي للحيـاة، والنبراس الهادي الـذي يضـيء للبشـرية طريقهـا إذا مـا ادلهمت الظلمات)[2]

---

[1] إحياء علوم الدين: 1/288.

[2] وقد نقل هـذا النص الشـيخ عـائض القـرني في مقـال لـه بعنـوان: (محمـد إقبــــال الشــــاعر الأول) (انظـــــر: موقـــــع الشـــــبكة الإســــلامية) (

ثانيا ـ موقف الطرق الصوفية من كيفية الاستنباط من المصادر الأصلية

لا يختلف الصوفية مع الجمعية في كل ما ذهبوا إليه من التعامل مع المصادر الأصلية، وضرورة تفعيلها في الاستنباط، بل تفعيلها في الحياة جميعا، ولكنهم – مع ذلك- يعتبرون كل ذلك من الظاهر الذي لا يكفي وحده للاستفادة من المصادر الأصلية.

ولذلك يضيفون معان أخرى تتعلق بالنواحي الوجدانية والذوقية والعرفانية، وهذا كما ذكرنا هو لب التصوف بمدارسه جميعا، فهو يجنح إلى الباطن والوجدان، ولا يعني ذلك كما ذكرنا إنكار الباطن أو التهوين من شأنه.

ويمكن تقسيم ما ذكروه في هذا الباب إلى قسمين:

1 ـ قسم يرتبط بالآداب الباطنية التي ينبغي على قارئ القرآن الكريم أن يتحلى بها لتصل المعاني القرآنية إلى أعماقه ووجدانه.

2 ـ وقسم يرتبط بالمعاني التي يرون أنهم يلهمون أو يعلمهم الله إياها أثناء التلاوة، وهو ما يسمى بالتفسير الإشاري أو الباطني على حسب أنواع الإلهامات.

وسنشرح كلا الأمرين في هذا المطلب لأن فيه من القضايا ما يدخل في الخلاف بين المدرسة الصوفية والمدرسة السلفية، وقد حصل بسببه اختلاف في عهد الجمعية بينها وبين الطرق الصوفية، وخصوصا الطريقة العلاوية.

1 ـ أسس الآداب الباطنية للتلقي من القرآن الكريم:

يعتبر الصوفية الاقتصار على الآداب الظاهرية نحو

---

http://www.islamweb.net) مقرا له في نفس الوقت الذي ينكر على الصوفية ما يذكرونه من نفس هذا المعنى.

القرآن الكريم من القصور الكبير في التعامل معه، ذلك أن القرآن ليس ظاهرا فقط، بل هو ظاهر وباطن، وهـو حروف وحقيقة، والأدب مـع الحـروف لا يكفي للوصـول إلى الحقيقة إلا إذا صحبه الأدب مع الحقيقة نفسها.

وبناء على هـذا، فقـد ذكـر الشـيخ العلاوي بعضـا من المعـاني في مقدمـة تفسـيره (البحـر المسـجور في تفسير القرآن بمحض النـور) تشـكل مقـدمات أساسـية للآداب الباطنيـة للقـارئ مـع القـرآن الكـريم، وهي ضرورية لمن يريد أن يفهم العلاقة التي تربـط الصـوفي بالقرآن الكريم، وقد دعا إلى قراءتها والتمعن فيها قبـل قراءة التفسير.

وقـد سـاق هـذه المقـدمات على تـرتيب خـاص، فقسمها إلى سـتة أقسـام أو أسـس، كـل أسـاس منهـا يرشد إلى نافـذة من نوافـذ الأدب البـاطني مـع القـرآن الكريم، وسنختصر هذه المقدمات هنا مع مـا سـاقه من الأدلة عليها، مع التعقيب عليها بما يوضح مقصدها:

الأساس الأول:

وقد خصصه لبيان أن القائم بـالحق موجـود في كـل زمان، ويرد على القـول السـائر: (مـا تـرك الأول للآخـر شـيئا)، وكأنـه يـرد بهـذا على مـا يسـتند إليـه الاتجـاه السـلفي خصوصـا من تقييـد فهم الـدين بفهم السـلف، ومن ثم الاقتصار على مـا ورد في ظـاهر التفسـير دون غـيره من المعـاني الـتي قـد تلـوح لأي شـخص في أي زمن.

وهـذا الـذي ذكـره متفـق عليـه عنـد الصـوفية، فهم يرون أن الفهوم القرآنية ليست خاصة بجيل دون جيـل، وقد لقوا الإنكـار عليهم بسـبب هـذا من طـرف الفقهـاء والمفسـرين الـذين يـرون ضـرورة الرجـوع إلى فهـوم الأولين، وقـد نقـل الغـزالي ذلـك، فقـال: (لعلـك تقـول عظمت الأمـر فيمـا سـبق في فهم أسـرار القـرآن ومـا

ينكشـف لأربـاب القلـوب الزكيـة من معانيـه، فكيـف يستحب ذلـك، وقـد قـال ﷺ : (من فسـر القـرآن برأيـه فليتبـوأ مقعـده من النـار)[1]، وعن هـذا شـنع أهـل العلم بظـاهر التفسـير على أهـل التصـوف من المقصـرين المنسوبين إلى التصوف في تأويـل كلمـات في القـرآن على خلاف مـا نقـل عن ابن عبـاس وسـائر المفسـرين وذهبوا إلى أنه كفر، فإن صح ما قاله أهل التفسـير فمـا معـنى فهم القـرآن سـوى حفـظ تفسـيره وإن لم يصـح ذلك فما معنى قوله ﷺ: (من فسر القرآن برأيه فليتبـوأ مقعده من النار)[2]

وقد أجاب الغزالي على هذا الإشـكال، فقـال: (اعلم أن من زعم أن لا معـنى للقـرآن إلا مـا ترجمـه ظـاهر التفسـير فهـو مخـبر عن حـد نفسـه وهـو مصـيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم بـرد الخلـق كافـة إلى درجتـه الـتي هي حـده ومحطـه، بـل الأخبـار والآثار تـدل على أن في معـاني القـرآن متسـعا لأربـاب الفهم)[3]

وقـد ذكـر بعض هـذه الآثـار، ومنهـا قولـه ﷺ : (إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا)[4]

ومنها قـول علي: (إلا أن يـؤتى اللـه عبـدا فهمـا في القرآن) [5]، وقد عقب الغزالي على هذا بقوله: (فـإن لم

---

[1] نص الحديث كما في (سنن الترمذي (5/ 200): (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 37)

[3] إحياء علوم الدين (1/ 289)

[4] قال العراقي في تخـريج أحـاديث الإحيـاء (ج 1 / ص 232): (أخرجـه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه)

[5] نص الحديث كما في مسند الشافعي: عن أبي جحيفة قـال : سـألت عليًـا ، هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شـيء سـوى القـرآن ؟ فقـال : لا،

يكن سوى الترجمة المنقولة، فما ذلك الفهم؟)[1]

ومن الآثار التي استدل بها الشيخ العلاوي في هذا ما ورد في الحـــديث من قولـــه ﷺ: (لن تخلـــو الأرض من أربعين رجلا مثــل خليــل الــرحمن فبهم تســقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه الآخــر)[2]، وقوله ﷺ : (أمتي مثل المطر لا يدرى أيـه أنفـع أولـه أو آخره) [3]

ويعقب على هـذه النصـوص بقولـه: (حاشـا للـه أن يترك المحبوب أمـة حبيبـه سـدى، فلم تـزل أمـة قائمـة بالحق وبه يعدلون، ولو اعتمدنا مجرد الظن الحسن في الأمة المحمديـة، لكـان كافيـا وأحـرى مـع وجـود النقـل الصحيح والنص الصريح)[4]

ويختم هذا القسم بقوله: (لا يجهـل فضـل السـابقين إلا مغرور، ولا ينكر وجود الباقيـة إلا هالـك مبتـور، ولكن الغبي لا ينكر الوجود إنما ينكر الوجدان بحيث لا يقدر أن يحققه في أي إنسان، والمعاصرة حرمان، ولعل القارئ لا ينكر وحود الباقية إنما ينكر فينـا وجـود الأهليـة، فهـذا كتابي لمن خلفه آية، فإن لم يسر المعاصرين (قُـلْ مَـا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَـا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) (صّ:86)،

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القـرآن ومـا في الصحيفة قلت وما في الصحيفة قـال العقـل وفكـاك الأسـير ولا يقتـل مـؤمن بكافر. (انظر: محمد بن إدريس أبو عبد اللـه الشـافعي، مسـند الشـافعي، دار الكتب العلمية – بيروت، 260)

[1] إحياء علوم الدين (1/ 289)

[2] المعجم الأوسط (4/ 247)

[3] أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق : طـارق بن عوض اللـه بن محمـد ,عبـد المحسـن بن إبـراهيم الحسـيني، الناشـر : دار الحرمين - القاهرة، 1415، (4/ 78)

[4] البحر المسجور، ص9.

(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) (صّ:88)[1]

الأساس الثاني:

وقد خصصه لبيان أن للقرآن الكريم وجوها لا وجها واحد، وأنه لا تنقضي عجائبه حتى يستغنى بفهم المتقدمين منه عن فهم المتأخرين[2].

والفرق بين هذا القسم والقسم الذي سبقه هو أنه في ذلك القسم بين أن المترجمين لمعاني القرآن غير محصورين في جيل من الأجيال، بل هم ينتشرون في كل الأجيال، وفي هذا القسم بين أن المعاني القرآنية ليست محصورة في وجه واحد، بحيث يصح فهم واحد منها دون ما عداه، أو يصبح ما عداه معارضا لما قبله، بل القرآن الكريم حمال وجوه، وهو بذلك لا تتعارض فيه المعاني.

وقد استدل لهذا بما ورد في الأحاديث، وخاصة قوله ﷺ : (إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحداومطلعا)[3]

وقوله ﷺ : (القرآن لا تنقضي عجائبه)[4]

وقد عقب الشيخ العلاوي على هذا الحديث بقوله: (ومن عجائبه أن المتدبر فيه يرى من غرائبه كل يوم ما لا يراه بالأمس) [5]

ويستدل لهذا من فعل سلف الصوفية بقول ابن عون: (ثلان أحبهن لي ولإخواني، وذكر منها أن هذا القرآن يتدبره الرجل ويتفكر فيه، فيوشك أن يقع على

---

[1] إحياء علوم الدين: 1/288.

[2] البحر المسجور، ص10.

[3] قال العرافي في تخريج أحاديث الإحياء (ج 1 / ص 232): (أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه)

[4] سنن الترمذي (5/ 172)

[5] البحر المسجور،ص 12.

علم لم يكن يعلمه)

وبما ذكره أبو بكر بن العربي في فنون التأويل من أن (علوم القرآن خمسون علما، وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع، وهذا دون اعتبار التركيبات وما بينها من الروابط) [1]

بل هو يذكر فوق هذا أن هذه الفهوم لا ترتبط فقط بالجمل والكلمات الواضحة، بل يرتبط فوق ذلك بالحروف نفسها، وهو يستند في ذلك إلى قوله ﷺ : (لا أقول ألم حرف، بل الألف حرف، واللام حرف والميم حرف)[2]

وبما ورد من الآثار من أن (ما في الكتاب في الفاتحة وما في الفاتحة في بسم الله الرحمن الرحيم)، وبما ورد من أن (البسملة في بائها، وفي الباء في النقطة التي تحتها)[3]

بالإضافة إلى هذه الأدلة النقلية يستدل من المعقول بقوله: (ولولا ما اشتمل عليه كتاب الله من الغرائب لم

---

[1] البحر المسجور، ص 12.

[2] نص الحديث: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) (سنن الترمذي: (5/ 175).

[3] لم أجد الحديث في مصادر الحديث المعروفة، وقد ذكره القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة) من غير إسناد، ولعل الشيخ نقله عنه، وهذا نص ما في (ينابيع المودّة، طبعة إسلامبول، ص 69): (وفي الدرّ المنظم: إعلم أنّ جميع أسرار الكتب السماوية في القرآن، وجميع ما في القرآن في الفاتحة، وجميع ما في الفاتحة في البسملة، وجميع ما في البسملة في باء البسملة، وجميع ما في باء البسملة في النقطة التي تحت الباء، قال الإمام علي كرّم اللّه وجهه: أنا النقطة التي تحت الباء)

نؤمر بالتدبر فيه على مر الدهور) [1]

ويرد على من يتصور أن الفهوم محصورة في الجيل الأول، فيقول: (ولعـل القائـل يقـول: قـد كفانـا اللـه مـا أهمنا من استخراج جواهره على يد من تقدمنا، فـأقول، وإذن لضاع حظنا من التدبر فيـه، وحاشـا للـه فلا يقـول بهذا عاقل، ولا من هو بالإيمان حافل، فإن كان ذلــك لم لم يكتف أهـل القـرن الثـاني على الكلام فيـه بكلام من تقـدمهم من أهـل القـرن الأول وأهـل الثـالث بالثـاني، وهكذا.. فدل هذا على أن الحق جـل ذكـره لم يخصـص بالتدبر جيلا دون جيل وأيضـا لـو كـان التخصـيص يشـعر بانقضاء معانيه والحالة بخلاف ذلك)[2]

ويرى الشيخ أن هذه الفهوم الباطنية للقـرآن تحتـاج إلى أوعية خاصـة، فكمـا أن ظـاهر التفسـير يحتـاج إلى علـوم وآلات، فكـذلك بـاطن المعـاني يحتـاج إلى قلب صالح لاستقرار المعاني الإيمانيـة فيـه، يقـول في ذلـك: (ولا يقـع على علومـه ويتفـرس في وجوهـه إلا مفتـوح عليه، وأما المحجوب فإنه ينادى من مكان بعيد، ويسـمع من وراء حجـاب، فهـو أبعـد من أن يتنـاول الغايـة من ظـواهره، فكيـف بباطنـه، وأين هـو من حـده ومطلعـه، ومن فتح الله عليه بالتوصل إلى شيء من ذلـك لا يبعـد أن يقول كما قال الإمـام علي كـرم اللـه وجهـه وشـئت لـوقرت أربعين وقـرا من شـرح الفاتحـة، أو كلامـا هـذا معنــاه، ولعلــك تقــول أين الإمــام علي وأين علومــه؟ فأقول: يا لله العجب، ومع ذلـك لم يحتفـل بـه من أهـل زمانه إلا القليل، حـتى كـان يقـول: أنـا جنب اللـه الـذي فرطتم فيه، وهو على المنبر والمفرط فيه هو المفــرط الآن في أهل زمانه) [3]

---

[1] البحر المسجور، ص11.

[2] البحر المسجور:ص 11.

[3] البحر المسجور:ص 11.

الأساس الثالث:

وتحــدث فيــه الشــيخ العلاوي على أن من العلــوم القرآنيــة مــا هــو خــاص بالخاصــة، ولا يمكن للعامــة أن تفهمه أو تتعاطاه، يقول في بيان ذلك: (ولعـل المتجمـد على الظواهر لا يرى من كتاب الله إلا ما وصل إليـه من جهـة بضعته القليلـة، وقريحتـه الكليلـة، وينكـر مـا وراء ذلك، ولم يعلم أن ما عرفــه من ظـاهر الكتـاب إلا كمن عرف القشر من اللباب، ومـا وراء ذلـك مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهل يعتقد أن ما وصل إليه فهمه ما كانت عليه بواطن أصحاب رسول الله ﷺ في كتاب الله، وليفتش نفسـه إن كـان مـا أكنـه فؤاده أعز ما تحدث به فهـو على بينـه من ربـه، وإلا مـا ضاع له أكثر مما حصل عليه) [1]

واستدل لهذا بما يورده الصوفية عـادة في تـبرير مـا يطرحونــه من مســائل غامضــة مستعصــية على الفهم العامي البسيط، ومن ذلك مـا يـروون أنـه ﷺ قـال: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء باللــه، فـإذا أظهروه أنكرته أهل الغرة بالله) [2]

ومــا روي في الآثــار من أن (علم البــاطن ســر من أسرار الله، يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده)[3]،

---

1) البحر المسجور، ص13.

2) قال العراقي في تخريجه: (رواه أبو عبد الرحمن السـلمي في الأربعين لـه في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف) (انظر: أبو الفضل العراقي، المغـني عن حمـل الأسـفار، تحقيـق : أشـرف عبـد المقصـود، مكتبـة طبريـة الرياض، 1415هـ - 1995م، (1/ 23)

3) أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمذاني الملقب إلكيـا، الفردوس بمـأثور الخطـاب، تحقيـق : السـعيد بن بسـيوني زغلـول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406 هـ - 1986م، (3/ 42)

و(العلم علمان: فعلم في القلب، فذلك العلم النافع)(1)

وما روي عن أبي هريرة من قوله: (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم)(2)، وعن ابن عباس: (لو قلت لكم ما أعلم من تفسير قوله تعالى: { يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: 12] لرجمتموني) (3)

ويروون عن سلمان الفارسي: (لو حدثتكم بكل ما أعلم لقلتم رحم الله قاتل سلمان)، ويروون عن زين العابدين قوله(4):

إني لأكتم من   كيلا يرى الحق

---

1) رواه الدارمي، انظر: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق : تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة : الثالثة - 1405 – 1985، (1/ 58)

2) نص قول أبي هريرة: (حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم) (صحيح البخاري (1/ 41)

3) لم أجد نص الحديث، ولكني رأيت في (الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، قوله: (أخرج عَبد بن حُمَيد، وَابن المنذر من طريق أبي رزين قال : سألت ابن عباس هل تحت الأرض خلق قال : نعم ألم تر إلى قوله : {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: 12]. (انظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالماثور، تحقيق : مركز هجر للبحوث، دار هجر – مصر، [1424هـ - 2003م])

4) وقد نسب الغزالي هذه الأبيات في (منهاج العابدين) إلى زين العابدين ونسبها ابن عربي في الفتوحات إلى الرضى من حفدة علي بن أبي طالب وكان الخطيب أول من ذكرها في تاريخ بغداد ونسبها إلى العتابي (ت:220هـ) وهو متهم بالزندقة قال د/الشيبي: (وهذه النسبة أقرب للصواب) (انظر صابر طعيمة، التصوف والتفلسف - الوسائل والغايات، مكتبة مدبولي، القاهرة, 2005، (ص:81)

علمي جـــــــــــواهره ... ذو جهـــــــــــل فيفتننا

يـا رب جـوهر علم لـــــــو أبـــــــوح به ... لقيـــــل لي أنت ممن يعبــــــــد الوثنا

ولاســتحل رجــال مســــــــلمون دمي ... يـــرون أقبح مـــا يرونـــــه حســـــنا

ويركز الشيخ العلاوي في هذا خصوصا على مـا وري عن الإمـام علي الـذي يعـده الصـوفية إمـامهم الأول والأكبر، فأكثر الطرق تعود في سندها إليـه، وممـا نقلـه عن الشيخ العلاوي في هذا قولـه: (إن بجـانبي علمـا لـو قلته لأزلتم هذا عن هذا)، وأشار برأسه عن جثته، وعلق على هذا بقوله: (فدل هذا على أن في الزوايا خبايا)[1]

ونقــل كــذلك وصــيته المشــهورة لكميــل بن زيــاد بطولها، وقد قدم لها بقوله: (وفي وصابته لسيدنا كميـل بن زياد ما يلائم أكثر المشار، ولنردها مع طولها لما فيها من الحكم التي لا يستغنى عنها)[2]

وهذه الوصية هي التي يقـول فيهـا علي لكميـل: (يـا كُميل، إن هذه القلـوب أوعيـة فخيرهـا أوعاهـا، فاحفـظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة؛ عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعـاع أتبـاعُ كـل نـاعق، مـع كـل ريح يميلـون، لم يستضـيئوا بنـور العلم ولم يلجئـوا إلى ركن وثيق، فاحذر أن تكون منهم يـا كميـل.. العمـل خـير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت محرس المـال والمـال تُنقصه النفقة، والعلم يزكوا على الإنفاق، ومنفعـة العلم باقية ومنفقعة المال تزول بزواله.. يا كميل: محبة العلم دين يدان به يكسب الإنسان به الطاعة في حياته وميـل

---

[1]) البحر المسجور، ص13.

[2]) البحر المسجور، ص13.

الأحدوثة بعد وفاته، العلم حاكم والمـال محكـوم عليـه.. يا كميل: مات خزَّان المال وهم أحيـاء، والعلمـاء بـاقون مـا بقي الـدهر أعيـانهم مفقـودة وأمثـالهم في القلـوب موجودة... آه لو وجدت لهذا العلم حملة لا أجـد إلا لقنـاً غير مأمون، يستعمل آلـة الـدين للـدنيا، ويسـتظهر بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقـاداً لحملـة الحق، ولا بصيرة له في أحناته، ينقـدح الشـك في قلبـه لأول عـارض من شُـبهة، لا إلى هـؤلاء ولا إلى هـؤلاء، أو منهوكا باللذة سلس القيـاد للشـهوة، أو مغرمـاً بـالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدين في شـيء، أقـربُ شـبهاً بهما الأنعامُ السائمة كـذلك يمـوت العلم بمـوت حامليـه مستترا.. يا كميل: لا تخلو الأرض من قائم بحجـة اللـه، إمـا ظـاهراً مشـهوراً أو مغمـوراً لئلا تبطـل حجج اللـه وبيناته، أولئك والله الأقلون عدداً والعظمـون قـدراً، بهم يحفـظ اللـه حججـه، وبيناتـه حـتى يودعوهـا نظـراءهم ويزرعوهــا في قلــوب أشــباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمـان حـتى باشـروا روح اليقين، فاسـتلانوا مـا استخشـــن المـــترفون، وأنســـوا بمـــا اســـتوحش من الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان معلقة بالرفيق العلى.. يا كميل: أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه شوقاً إليهم)[1]

وبعد نقله لهذه النصوص وغيرهـا قـال: (والمحصـول مما نقلناه أن جميع ما أشارت إليه الكتب هو بعض ممـا تضمنته القلوب وما عند الله خير للأبرار)[2]

---

[1] البحـر المسـجور، ص17، وانظـر: عبـد الحميـد بن هبـة اللـه بن محمـد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمـد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البـابي الحلـبي وشـركاه، (18/ 346)

[2] البحر المسجور، ص17.

ونحب أن نشـير هنـا إلى أن هـذه الغـوامض الـتي يسـميها الصـوفية أسـرارا لا تعـني السـر بمفهومـه السطحي، والتي يتصور البعض أنها قد تخـالف الظـاهر، بل تعني عندهم كل معنى عميق لا يطاق فهمـه لمن لم يستكمل أدوات فهمه.

وأدوات الفهم هنا ليست علوما آلية كسـائر العلـوم، بل هي المجاهدات والسلوك، أو كما قال الغزالي بعدما درس التصـوف، وبعـدما مـا انشـغل قبلـه بدراسـة علم الكلام والفلسفة وغيرهما: (ثم إني لما فـرغت من هـذه العلوم، أقبلت بـهمتي على طريـق الصـوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمـل ؛ وكـان حاصـل علـومهم قطـع عقبـات النفس. والتنــزه عن أخلاقهـا المذمومـة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل (بــها) إلى تخليـة القلب عن غير الله (تعالى) وتحليته بـذكر اللـه.. وكـان العلم أيسـر عليّ من العمـل. فابتـدأت بتحصـيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: (قوت القلوب) لأبي طالب المكي (رحمـــه اللـــه) وكتب (الحـــارث المحاســـبي)، والمتفرقات المـأثورة عن (الجنيد) و(الشـبلي) و(أبي يزيد البسطامي) [قدس اللـه أرواحهم]، وغـيرهم من المشـايخ ؛ حـتى اطلعت على كنـه مقاصـدهم العلميـة، وحصــلت مــا يمكن أن يحصــل من طــريقهم بــالتعلم والســماع. فظهــر لي أن أخص خواصــهم، مــا لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصـفات. وكم من الفـرق بين أن تعلم حـد الصـحة وحـد الشـبع وأسبابـهما وشروطهما، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان؟ وبين أن تعرف حد السكر، وأنه عبارة عن حالـة تحصـل من اسـتيلاء أبخـرة تتصـاعد من المعـدة على معـادن الفكر، وبين أن تكون سـكران! بـل السـكران لا يعـرف حـدّ السـكر وعِلمـه وهـو سـكران ومـا معـه من علمـه شيء! والصَّاحي يعرف حدّ السُكر واركأنه ومَا معـه من السكر شـيء. والطـبيب في حالـة المـرض يعـرف حـدّ

الصحة وأسبابــها وأدويتهـا، وهـو فاقـد الصـحة. فكـذلك فـرقٌ بين أن تعـرف حقيقـة الزهـد وشـروطه وأسـبابه، وبين أن تكون حالك الزهد وعـزوف النفس عن الـدنيا!)[1]

الأساس الرابع:

وقــد خصصــه الشــيخ العلاوي لبيــان أن المقصــود بالخطاب في القرآن هـو جميـع المكلفين واحـدا واحـدا و(ولا واحـد أولى من الآخـر في كـل زمـان)، يقـول في بيان هذا: (إن القـرآن كلام اللـه يكلم بـه عبـاده، وهم لا يشعرون، وكتاب بعث إليهم بالخصـوص وهم لا يـدرون، لاهيـة قلـوبهم كـأنهم يظنـون أنـه وجـد اتفاقـا، فصـاروا يأخذون منه أحكامهم وليسوا بالمقصودين في علم)[2]

وهــو لا يريــد بهــذا المعــنى مــا هــو مشــهور من أن الخطــاب في القــرآن يتوجــه إلى المكلفين باعتبــارهم المقصودين بالأوامر الإلهية فقـط، فـذلك لا يجـادل فيـه أحد، وإنمـا يشـير إلى معـنى أعمـق وأخطـر، وقـد لقي معارضة من المنكرين، كما لقي قبله من قـال ذلـك من الصوفية، وهو ما عبر عنه بقوله: (فمن فتح الله بصيرته يراه الآن يتنزل بــه الــروح الأمين، وإذا قــرأه يقــرأه من إمـــام مـــبين، وأعظمهم درجـــة من يتلقـــاه من أرحم الراحمين وقليل ما هم)[3]

وقد أشار الصوفية قبله إلى هذا المعـنى، فقـد ذكـر الشيخ الغزالي عند ذكره للآداب الباطنة مع القرآن أدبـا خاصا بهذا سماه (الـترقي)، وعرفـه بـأن (يسـمع الكلام

---

[1] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص32.

[2] ابن عليوة، البحر المسجور، ص17.

[3] ابن عليوة، البحر المسجور، ص18.

من الله عز وجل لا من نفسه)[1]

وبين أن القراءة النافعة ثلاث درجـات، ولكـل درجـة السلوك الخاص المرتبط بها، ولا بأس أن نذكر ما ذكـره هنا لصلته بمـا ذكـره الشـيخ العلاوي أولا، ولبيـان أن مـا يـذكره الصـوفية من درجـات لا تتنـافى مـع مـا يـذكره غـيرهم، وإنمـا يختلفـون فقـط في المـراتب، لا في الحقائق، فالصوفية يعتبرون أن ما يذكره غيرهم صحيح، ولكنه درجة دنيا، وهناك ما هـو أرفـع منـه، وهم يـدعون إلى هـذا الأرفـع، ولهـذا فـإن مـراتب السـماع الـروحي للقرآن تتدرج عند الغزالي والصـوفية معـه في هـذا إلى ثلاث مراتب[2]:

الأولى، وهي أدناها أن يقدر العبد كأنه يقـرؤه على الله عز وجل واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملـق والتضـرع والابتهال.

والثانية، وهي أرفع من التي قبلها: أن يشهد بقلبـه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم

والثالثة، وهي أعلى الجميـع: أن يـرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعـام بـه من حيث إنـه منعم عليـه، بـل يكـون مقصـور الهم على المتكلم، موقـوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غـيره، وقد عبر عن هذه الدرجة جعفر بن محمـد الصـادق حين قال: (والله لقد تجلى اللـه عـز وجـل لخلقـه في كلامـه ولكنهم لا يبصرون)، وقال، وقد سألوه عن حالـة لحقتـه في الصلاة حتى خر مغشيا عليه فلما سرى عنه قيل لـه في ذلـك فقـال: (مـا زلت أردد الآيـة على قلـبي حـتى

---

[1] إحياء علوم الدين (1/ 287)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 287)

سمعتها من المتكلم) [1]

وقــد ذكــر الغــزالي أن هــذه الدرجــة هي درجــة المقربين، وما قبله درجة أصحاب اليمين، وما خـرج عن هذا فهو درجات الغافلين[2].

الأساس الخامس:

وقد خصصه الشيخ العلاوي بناء على ما سبق على أن كل ما ورد في القرآن الكـريم خـاص بكـل المكلفين في كــل وقت وآن، حــتى مــا تعلــق من ذلــك بــالأمم السابقة، يقول في بيان هذا الأساس: (ومهما اعتبرنا ما بين دفتي المصحف كتابا من الله جل ثنـاؤه وصـل إلينـا بالخصوص لزمنا أن لا نحمـل مـا أوعـد اللـه أو وعـد بـه على غيرنا من الأمم، فمهما ثبت الاستحقاق في شخص بشــيء من ذلــك فيكــون هــو المقصــود نفســه بــذلك الخطـاب، وهكـذا سـائر الأوامـر والنـواهي والترغيبـات والترهيبات، وهذا وجه كون الكتاب إلينا) [3]

ورد على ما قد يتعقب عليه به مما تذكره عادة كتب التفسير من رد أسباب الـنزول إلى أشـخاص معيـنين أو أحداث معينـة بـأن سـبب الـنزول مرتبـط فقـط بابتـداء النزول، يقول في ذلك: (وأما كون الآية نــزلت في فلان أو فلان، إنما ذلك الشـخص سـبب لابتـداء تهـيئ الجنس المستحق لذلك الوصف أو الحكم، والمعتبر من خطـاب الله عموم اللفظ لا خصوص السبب) [4]

ولم يكتــف الشــيخ العلاوي ـــ كعــادة الصــوفية ــ بالتعليل الأصولي والفقهي، والذي ينص على أن العــبرة

---

[1]) إحياء علوم الدين (1/ 287)

[2]) إحياء علوم الدين (1/ 288)

[3]) ابن عليوة، البحر المسجور، ص23.

[4]) ابن عليوة، البحر المسجور، ص24.

بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإنما راح يستدل على ذلك بما يذكره العرفانيون من الحقائق حول الروح الإنسانية، فقال: (والأرواح جنود مجندة متساوية في تعلق الخطاب بها ليست متعاقبة الوجود كتعاقب الأجسام، فأرواح المنافقين مثلا من عهد رأس المنافقين الأولين إلى خاتمهم يشملهم وعد المنافقين، فتكون آية المنافقين نزلت في كل فرد من ذلك الجنس، وقس على ذلك أنواع المخاطبين، وإلا كان الكثير من ألفاظ التنزيل في حيز التعطيل) [1]

وهنا يقرر الشيخ العلاوي قضية مهمة ركز عليها في تفسيره كما ركز عليها الصوفية من قبله، وهي أنه ليس في القرآن الكريم ما يذكره الكثير من المفسرين من المعطل الذي لا يعمل به، فلا حروف زائدة، ولا مكرر، والناسخ والمنسوخ له محله من العمل.. وهكذا ما ورد في شأن الأمم السابقة فله مقتضاه ومتعلقه في كل زمان، يقول الشيخ العلاوي في بيان هذا: (وإني لا أرى من كتاب الله لفظا معطلا لم يكن مقرونا بمستحقه في كل زمان، وإن لم نقل في كل آن، والمعنى أن سائر ألفاظه دائرة بين مخاطب ومخاطب في كل حين واقعة موقعها من غير زيادة ولا نقصان) [2]

بل حتى ما ورد في شأن النبي ﷺ يرى الشيخ العلاوي أن له أهله من الورثة، يقول في بيان ذلك: (والأغرب من هذا أن الخطاب المختص بالنبي ﷺ حقيقة قد يتناول غيره من ورثته على سبيل الإشارة مجازا، وأما ما فيه من التهديدات ونسبة التقصير له فيكون لوارثه حقيقة لأنه أولى بالتقصير، فالطب المحمدي أو من على قلب سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام إذا طرق سمعه قوله

---

1) ابن عليوة، البحر المسجور، ص24.

2) ابن عليوة، البحر المسجور، ص25.

تعـالى: {يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ} [الأنفـال: 64]، أو {يَـا أَيُّهَـا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [المائـدة: 67] لا يـرى ذلـك إلا أمرا من الله، وهـو المقصـود بـه في تبليـغ الشـرائع، وهذه هي الحكمة، والله أعلم في عدم ندائـه في كتابـه المجيد باسمه كأن يقول: يا محمـد أو يـا أحمـد، كندائـه من تقـدم من المرسـلين عليهم صـلوات اللـه وسـلامه، إنما جاء بالنداء: يا أيها النـبي، يـا أيهـا الرسـول، يـا أيهـا المزمل، يا أيها المدثر، وهكـذا يتنـاول الورثـة من بعـده المبلغين عنه على سبيل الإشارة والعلماء ورثـة الأنبيـاء والمبلغون ورثة الرسل) [1]

وهنا يعود الشيخ إلى ما تنكره عليه الجمعية والاتجاه السـلفي عمومـا من ذكـر اسـتمرار رسـالية التبليـغ، ويستدل لـذلك بمـا ورد في القـرآن الكـريم من الآيـات التي سـمت رسـل المسـيح رسـلا، يقـول في ذلـك: (ألا ترى أن عيسى عليه السلام لمـا بعث المبلغين عنـه إلى مدينـة أنطاكيـة سـماهم اللـه رسـلا، وأضـاف إرسـالهم لنفسه، فقال: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَـذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَـا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} [يس: 14] فلا مانع أن ينـادى المبلـغ من الأمـة المحمديـة على لسـان القـرآن بذلك الاسم، ويكون مقصودا بـه في علم اللـه، ألا تـرى أنه نادى محمدا ﷺ في التوراة وغيرها من الكتب بما هو من هذا القبيل كقوله: (يا أيها الجبار تقلد سيفك)، وهذا الخطاب يحتمل أن يكون متناولا لغيره في ذلـك العصـر مجازا مدخرا للمصطفى ﷺ حقيقة) [2]

ولأجل هذا علـل الشـيخ العلاوي (عـدم نـداء الأنبيـاء بغير الاسم الصـريح)، وذلـك (لعـدم اسـتمرار شـرائعهم بخلاف شريعة نبينا الأحمدية، فإنها مستمرة والنداء فيها يعم كـل وارث، حـتى ينتهي إلى المهـدي، ثم لعيسـى

---

[1] ابن عليوة، البحر المسجور، ص25.

[2] ابن عليوة، البحر المسجور، ص26.

عليهمـا السـلام، فـإن أمـر اللـه لمحمـد ﷺ أمـر لهمـا، وخطابه خطاب لهما، فلهذا جـاء في النـداء في التنزيـل ب (يا أيها)[1]

وهذا التعليل الـذي يـذكره الشـيخ ينبـع من الحقيقـة المحمديــة الــتي تعتــبر من المعــارف الكــبرى لــدى الصوفية، ومن نتائجها أن نبوة محمد ﷺ ما زالت سارية في الوجود، وأن الوفاة لم ترتبط إلا بجسـده الشـريف، أما فاعليته باسم النبـوة والرسـالة فهي ثابتـة دائمـة لم تزل، يقول في ذلك: (ثم اعلم أن المبلـغ الحقيقي الآن، وقبل الآن وبعد الآن ليس هو إلا محمد ﷺ فنوره الكامن في خلفائه هو الذي يسمع النداء المختص به) [2]

واستدل لهذا بحديث نقله عن ابن عبد البر وهـو أنـه ﷺ قال: (رحمة الله على خلفائي)، قالوا: من خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: (الذين يحيون سـنتي ويعلمونهـا عبـاد الله)[3]

واستأنس لهذا أيضا بعدم حذف (قل) في الكثير من المواضـع في القـرآن الكـريم، يقـول في ذلـك: (والـذي يزيدنا شعورا بما قدمناه هو عـدم حـذف كلمـة قـل من التلاوة والرسم مع أنها ليست داخلـة في مقـول القـول ضرورة، فإذا قال الله لنبيه: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِـي نَفْعًـا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَـاءَ اللَّهُ } [الأعـراف: 188]، فالمتبـادر فهمه أن يقول: (لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَـرّاً) بحـذف كلمـة قـل: ومـا أثبتت في هـذه الكلمـة إلا لأنهـا فعـل

---

[1] البحر المسجور: 26.

[2] البحر المسجور: 26.

[3] قال العراقي في (تخريج أحاديث الإحياء (1/ـ 16): (رواه ابن عبد الـبر في العلم والهروي في ذم الكلام من حديث الحسن فقيل هـو ابن علي وقيـل ابن يسار البصري فيكون مرسلا ولابن السني وأبي نعيم في رياضة المتعلمين من حديث علي نحوه)، وانظر: ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (2/ 120)

متصل، الدائم التعلق كغيره من الأفعال، يتناول كـل من يستحق القول، مهمـا فهم عن اللـه، ونعـني بـه الـوارث المحمدي، ولو حذفت كلمة (قل) لضاع حظنا، أو نقـول: فهمنا من كتاب الله وما يعقلها إلا العالمون) [1]

الأساس السادس:

وهــو الأســاس الــذي قــدم لــه بجميــع المقــدمات الســابقة، وهــو الــذي يريــد أن يصــل من خلالــه إلى مــا يذكره في تفسيره من المعـاني الغامضـة، وخلاصـة مـا ذكــره في هــذا القســم هــو أن الــنزول القــرآني ليس مرتبطـا فقـط بالآيـات المتنزلـة، بـل هنـاك أيضـا أنـوار وملائكة خاصة تتنزل مع حروف القرآن وكلماتـه وآياتـه، وهذه الأنوار والملائكـة المصـاحبة لهـا لا تـزال مصـاحبة للقرآن الكريم، وأنها إن وافقت اسـتعدادا من أي قـارئ فإنها تصيبه من بركاتها وأنوارها.

وقد قدم لهذا المعنى بقوله: (وأهم شيء نعتبره من كتاب الله إذا تناولنـاه هـو أن نـراه واصـلا إلينـا الآن من حضرة الله جـل ذكـره على الهيئـة الـتي هـو عليهـا بين دفـتي المصـحف وعلى عنـوان: {ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: 2])[2]

ورد على الإشكال الذي ينظر إلى النواحي التاريخيـة المرتبطة بتوثيق القـرآن الكـريم وحفظـه، فيقـول: (ولا يشكل عليك من أن جمع المصحف وتنظيمه على الهيئة الحاضـرة وبعثـه للأمصـار هـو من أثـر الصـحابة عليهم رضـوان اللـه، نعم كـان ذلـك، ولكنهم مسـخرون، قـال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجـر: 9] فقد تولى الله حفظه كمـا تـولى إنزالـه، فيكـون هـو الجامع له، والمنظم له في الحقيقة على الهيئة السابقة

---

[1] البحر المسجور: 26.

[2] البحر المسجور: 27.

في علمه) [1]

ويستدل لهذا بما ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (البقرة سنم القرآن وذروته نـزل مـع كـل آية منها ثمانون ملكا)[2]

وعقب على هـذا الحـديث بقولـه: (أو هـل تـرى أن الملائكـة النازلـة إلى الأرض مـع هاتـه السـورة بلغوهـا وتركوها بالأرض سـدى، كلا لن يـزال كتـاب اللـه بعنايـة الله محفوفا مشيعا بالملائكـة إلى أن يـرث اللـه الأرض ومن عليهـا، وإلى اللـه تصـير الأمـور، ولا يوهمـك عبث الشياطين ببعض أجزائه فإن حفظه وتشييعه في الجملة من حيث وجوده بين أفراد الإنسـان، وأمـا كـون البقـرة سنمه وذروته دليل على تنظيم الله له في سـابق علمـه وعلم رسول الله ﷺ بهيئة الحاضرة) [3]

ويمكن أن يستدل لهـذا الـذي ذكـره الشـيخ بمـا ورد في الحديث الذي حدث به أسيد بن الحضـير عن نفسـه أنه ذكـر أنـه بينمـا كـان يقـرأ من الليـل سـورة البقـرة، وفرسـه مربوطـة عنـده، إذ جـالت الفـرس، فسـكت فسـكنت، ثم قـرأ، فجـالت، فسـكت فسـكنت، ثم قـرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحـيى قريبـا منهـا، فأشفق أن تصيبه، فلما اجـتره رفـع رأسـه إلى السـماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال:(اقرأ يـا بن حضير، اقرأ يا بن حضير)، قال: فأشفقت يا رسـول الله أن تطـأ يحـيى، وكـان منهـا قريبـا، فـرفعت رأسـي وانصرفت إليه، فرفعت رأسـي إلى السـماء، فـإذا مثـل الظُّلَّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها قال: (أو تدري ما ذاك؟)، قـال: لا، فقـال ﷺ:(الملائكـة دَنَتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبحت نظر النـاس إليها لا تتـوارى

---

[1] البحر المسجور: 27.

[2] مسند أحمد (5/ 26)

[3] البحر المسجور: 28.

منهم)[1]

وفي رواية أخرى عن أسيد بن حضير قـال: قلت: يـا رسول الله، بينما أنا أقرأ البارحـة بسـورة، فلمـا انتهيت إلى آخرهــا ســمعت جبـــة من خلفي، حـــتى ظننت أن فرسي تطلق، فقال رسـول اللـه ﷺ:(اقـرأ أبـا عتيـك) مـرتين، قـال: فـالتفت إلى أمثـال المصـابيح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ:(اقرأ أبا عتيـك)، فقال: والله ما استطعت أن أمضي فقال:(تلك الملائكة نـزلت لقـراءة القـرآن، أمـا إنـك لـو مضـيت لـرأيت الأعاجيب) [2]

2 ــ معاني القرآن الإشارية

بنـاء على مـا سـبق من الأسـس الـتي يقـوم عليهـا التعامـل الصـوفي مـع القـرآن الكـريم نجـد الصـوفية يستنبطون المعاني الكثيرة من الآية الواحـدة، ولـو كـان المعنى المستنبط في ظاهره غريبا تماما عن المقصــود الظاهر من الآية.

وسنحاول هنا أن نذكر بعض النماذج عن الشيخ الذي تلقى النقد الأكبر من طرف جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، وهــو الشــيخ ابن عليــوة، وذلــك من خلال تفسيره السابق، ومن خلال مواضع تفسيرية أخــرى في سائر كتبه ورسائله:

النموذج الأول:

وهــو مـا أورده في تفسـيره لسـورة العصـر، والـتي خصها برسالة عنوانهـا (رسـالة مفتـاح علـوم السـر في

[1] صحيح البخاري (6/ 234)

[2] محمــد بن عبداللــه أبــو عبداللــه الحــاكم النيســابوري، المســتدرك على الصحيحين، تحقيق : مصطفى عبد القـادر عطـا، دار الكتب العلميـة – بـيروت، الطبعة الأولى، 1411 – 1990، (1/ 740)

تفسير سورة والعصر)[1]، وسبب تأليفه لها هو سؤاله من قبل بعض العلماء الأعيان أن يبسط له بعض الحديث في شأن ما يتعلق بها على طريق الفهم الخاص.

فبعد أن أورد فيها ما يورده أصحاب التفسير الظاهر من معاني أخذ يذكر الإشارات الكثيرة المرتبطة بها، وأهمها ما ذكره عند بيانه لسر تأكيد الله تعالى لخسران الإنسان بالقسم بالعصر أن الحكمة من ذلك (تفيد كون الإنسان يجهل خسرانه، ويبعد أن يدركه ما دام لا يشعر بحقيقة ما كان عليه قبل تعلّق الروح بالجسم المعدني، أمّا لو تخيل ذلك عندما كان جوهرا خالصا متخلّصا من عموم المواد، وسائر لوازم الفساد، لاعترف بخسرانه بالنظر لما هو عليه الآن، ومن أين له أن يدرك ذلك وهو مكبول بشهواته، مسجون في ظروف طبيعته، وتلك الحالة هي أبعد المراتب، وأقصى الغايات التي تبعد به عن نيل سعادته الأبديّة، وكذلك يبقى ما دامت بصيرته لم تنفذ إلى ما وراء هذه الظروف المحدقة به، ولكن لا تنفذ إلاّ بتصريح برهان {فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: 33]، وإذ ذاك يدرك خسرانه بالنسبة لما كان عليه قبل تعلّق الروح بالبدن ولو تخيّل ذلك لما احتيج للتوكيد)[2]

وهو يفصل في النواحي الجمالية التي كان يعيشها الإنسان قبل نزوله إلى هذا العالم، فقال: (كانت الروح في كرامة عظيمة وحالة جسيمة تتلّقى نداها من الله

---

1) وقد طبعت أولا بمدينة تونس، وطبعت بعد ذلك في المطبعة العلاوية بسمتغانم.

2) ابن عليوة، مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر، المكتبة الدينية للطريقة العلاوية، ص3.

من غير واسطة، وتجيب جـوابا خاليا من كـلّ شـبه، ولم تفقد حظّها من تلك الكرامـة ولـو بعـد هبوطهـا وتعلّقهـا بـأول جسـم للإنســان فإنّـه توجهـا بتـاج العلم، وكلّلهـا بإكليــل الفهم، وعلمهــا مــا لم تكن تعلم، وكفاهــا أنّــه أسجد لهـــا الملائكة، وعمـوم الأرواح كالـذر وفي ظهـر آدم)[1]

ثم يــبين كيــف انتقــل الإنســان من تلــك الأحــوال السامية إلى الأحـوال الحيوانيـة، وعظم الخسـارة الـتي خسرها بسبب ذلـك، فقـال: (غـير أنّ الرابطـة بالجسـم أكسبتها صبغة غير التي كانـت عليها، فلم يشعر الإنسان إلاّ وهـو نـوع من أنـواع الحيـوان يعمـل بحكم الطبيعـة داخل الجنس العام، وشتان ما بين المرتبـتين، وبعـد مـا بين الحالتين، أعني حال الإنسـان الأوّل، وحـال الإنسـان الثاني على مـا يقتضيه النور الشاسع بين الرتبتين حــتى كأنّـه لم يكن هـو، وليس بمسـتبعد إن قلنـا أنّ الإنسـان الأول هـو غـير الإنسـان الثـاني مهمـا كـان يطلـق لفـظ الإنسان على المعنيين) [2]

وهــو في هــذا ينطلــق من الفهم الصــوفي للحقيقــة الإنسانية، وأن ما هي عليه الإنسان الآن مجرد نشأة من النشآت، وأن هناك نشآت كثـيرة سـابقة، كـان الإنسـان فيها في أعلى عليين، ويعبر العرفانيون عن ذلك الـنزول بــ (قوس النزول)[3]

ثم يــذكر أثــر هــذه النشــأة في تحديــد مصــيره في النشآت الأخرى فيما يسميه العرفانيون (قوس الصعود)

---

[1] ابن عليوة، مفتاح علوم السر في تفسير سـورة والعصـر، المكتبـة الدينيـة للطريقة العلاوية، ص5.

[2] ابن عليوة، مفتاح علوم السر في تفسير سـورة والعصـر، المكتبـة الدينيـة للطريقة العلاوية، ص5.

الذين يستشهدون له بقوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 46]، وقوله: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة: 156]، فيذكر أن باستطاعة الإنسان (أن يتدارك ما فاته من عزّة، وليس ذلك إلاّ أن يكون بالروح إنسانا)[1]، وذلك يتم بالتحقق بمقتضى قوله تعالى: { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3]

يقول معبرا عن ذلك: (أمّا الخلاص النهائي فإنّه لا يتحقّق ولا يتصوّر بمعناه اللازم إلاّ باستجماع تلك الخصال الأربعة وهي : الإيمان، والأعمال الصالحة، والتواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر عليه، أمّا إذا فات الإنسان - والعياذ بالله - حظّه من الإيمان في هاته الحياة، الدنيا فقد خسر خسرانا مبينا يجعله يقول يوم

---

[3]) يذكر فلاسفة العرفان أن لنظام الوجود أو للحركة الجوهرية قوسان:

قوس نزول وقوس صعود:

1 - قوس النزول، وهو الذي يبدأ من عالم العقل، اي المجردات التامة والملائكة المقربين، وينتهي إلى أدنى موجود وهو الهيولى والمادة الأولى لعالم الطبيعة.

2 - قوس الصعود، وهو الذي يبدأ من الهيولى الأولى، أي أدنى موجود - مادة المواد - وينتهي إلى عالم العقل والمجردات التامة؛ لأن مادة المواد تامة القابلية، ولها قابليات متنوعة، وان الله تعالى تام الفاعلية وفياض على الاطلاق، وبلطف الله تعالى تتحرك المادة في مختلف المسيرات وتتلبس بصور وفعليات متنوعة حتى تبلغ مرتبة العقل والوصول إلى الله تعالى، التي هي الغاية من خلق الانسان.. (انظر: حسين علي المنتظري، من المبدأ إلى المعاد في حوار بين طالبين، تعريب السيد حسن علي حسن، دار الفكر، ص ٢٣٩)

[1]) ابن عليوة، مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر، المكتبة الدينية للطريقة العلاوية، ص6.

يرى سعادة السعداء بالنظر إلى شقاوة الأشقياء، يا ليتني كنت ترابا، أمّا إذا نال حظّه من الإيمان في هاته الدنيا بالقدر الذي يفصله عن محيط الكفران بالله ورسوله، فقد يتقدّم بذلك شوطا غير قصير في سبيل سعادته ونيل بغيته، ولكن لا تثبت أقدامه في ذلك الدور إلاّ بالأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة هي جنس يدخل تحته أفراد كلّ فعل محمود، ويخرج منه كلّ فعل مذموم، وهذا الدور يعتبر أرفع درجة في نيل السعادة غير أنّه لا تستقر أقدام صاحبه استقرارا تاما إلاّ مع التواصي بالحقّ، ومن لم يتواص بالحقّ قل أن يصبر في طريق الحقّ، بناء على أن رأس الأعمال الصالحة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن لم ينه ويأمر يخش عليه يوما من الأيام يصبح فيه حيث لا نهي ولا أمر) [1]

وهكذا نجده يعود من العرفان إلى الشريعة، وهو كشأن الصوفي المحققين الذين لا يدلهم عرفانهم إلى على المزيد من التمسك بالشريعة وأحكامها، ولكن في درجة أمتن وأرفع وأحكم.

النموذج الثاني:

وهو في تفسيره للمراد بالأسباط في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ} [النساء: 163]، واعتبار أنهم إخوة يوسف عليه السلام، وأنهم أنبياء على الرغم مما فعلوه مما يتنافى مع عصمة الأنبياء – عليهم السلام- وقد وجه ذلك توجيها نرى فيه نوعا من التكلف، بل نرى الشيخ في

[1]) ابن عليوة، مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر، المكتبة الدينية للطريقة العلاوية، ص7.

هذا اقترب كثيرا من المنهج السلفي الـذي يقصـر كثـيرا في تصوره لعصمة الأنبياء.

وسنعرض توجيهه لذلك، فقذ استنتج من قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَـدَ عَشَـرَ كَوْكَبًا} [يوســف: 4] أن (تمــثيلهم في عــالم الرؤيــا بالكوكب دلالة على نبـوءتهم، لأنّ الكـواكب ممّـا يهتـدى به، قـال تعـالى: {وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ النُّجُـومَ لِتَهْتَـدُوا بِهَا} [الأنعام: 97]، ومثل ذلك قـول سـيدنا يعقـوب في جوابه ليوسف، فيما حكى الله عنه: {وَيُتِمُّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْـكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُــوبَ} [يوســف: 6]، ولا يعــني بــالآل إلاّ الأسباط، ولا يعني بالنعمة إلاّ نعمة النبوءة، واللــه أعلم) [1]

ونرى أن هذا فيه نوع من التكلف، فالآل لا يــراد بهم مجرد الأقربين من أهل الإنسان، كما أن النعمــة لا يــراد بها النبوة فقط.

وفوق ذلك نرى تكلفا في تأويـل تصـرفهم مـع أبيهم وأخيهم، فقد قال الشيخ ابن عليـوة في هـذا: (وأمّـا من جهة فعلهم مع يوسف، فهو قابل للتأويل لو تأملنـاه مـع مراعاة الداعي لذلك فلا نجـده إلاّ شـدّة حبّهم ورغبتهم في أبيهم، والعـبرة بالمقاصـد، والعلّـة غـير خافيـة، من انّهم ما أرادوا بتغريب يوسف إلاّ ليحلـو لهم وجـه أبيهم، فكأنّهم اشتروا بذلك صـفاء الـوقت مـع رسـول اللـه ﷺ بدليل قولهم: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًـا صَـالِحِينَ } [يوسـف: 9]، أمّا القتل فقد كان مجـرد اهتمـام لم يـبرز إلى حـيز الفعـل، وأمّــا الـترغيب فهــو المقصـود، بـدليل قــولهم: {يَلْتَقِطْـهُ بَعْضُ السَّــيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَـاعِلِينَ } [يوســف:

[1] ابن عليــوة، أعــذب المناهل في الأجوبــة والمســائل، نقلا عن: صــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص135.

10].. أمّـا رجـوعهم إلى أبيهم يبكـون، فلاحتمـال لمـا لحقهم من الرقّة والأسف على فعلهم الذي كانوا يرونـه ممّا لا بدّ منه، وإلاّ لما خلا لهم وجه أبيهم)

وهكـذا يمضـي الشـيخ في التأويـل البعيـد، والـذي لا ينسجم مع ما للأنبياء من كرامة وعصمة.

بل إنه يغرب أحيانا في تأويله إلى حد لا يكاد يطـاق، فنراه مثلا يقول في توجيـه قـول يوسـف عليـه السـلام لإخوتـه: {أَنْتُمْ شَـرٌّ مَكَانًا } [يوسـف: 77]: (وإن كـانت كلمـة ذمّ فمـا أتى بهـا يوسـف إلاّ تعجبّـا من دهـائهم، وجـودة فكـرهم، حيث أرادوه وقصـدوه بمـا أرادهم بـه يوسـف، لمّـا جعـل السـقاية في رحـل أخيـه وقصـدهم بقوله: {قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـارِقِينَ} [يوسـف: 73]، وفي هـذا دلالـة على أنّهم متحسّسـون من أن يكـون هـو يوسـف، وإلاّ مـا أقسـموا يمينـا من أنّـه على علم من شـأنهم، ولمّـا أخـرجت السـقاية من رحـل أخيـه، وتحقّقت تهمتهم، لزمهم أن يقصدوه بما قصدهم)[1]

وبعـد هـذه التوجيهـات وغيرهـا ينتقـل الشـيخ إلى الجانب الإشاري الصوفي، والـذي تمنينـا لـو أنـه اقتصـر عليه، فقد قال: (ويسـتنبط من هاتـه القصّـة أنّـه يجـري للقلب الذي يريد اللـه تعـالى أن يستخلصـه لنفسـه مـع النفس الأمارة، مثلما جرى ليوسـف مـع امـرأة العزيـز، لأنّ النفس تريـد أن تسـتحلّ القلب بكـلّ وسـيلة، لتسـتعمله في غرضـها، لمـا يشـغفها من حبّـه، وهكـذا تراوده إلى أن تغلـق عليـه الأبـواب، وتقـول لـه: {هَيْتَ لَكَ} [يوسف: 23]، فيقول القلب المخلص للـه: {مَعَـاذَ

[1] ابن عليـوة، أعـذب المناهل في الأجوبـة والمسـائل، نقلا عن: صـفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص135.

اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ } [يوسف: 23])[1] وهكذا يصور الشيخ الصراع بين النفس الأمارة، والقلب الذي يراد أن يستخلص لله تعالى، وهي إشارة عميقة جميلة مؤثرة.

المطلب الثاني: المصادر الغيبية بين الجمعية والطرق الصوفية

من النواحي التي اختص بها الصوفية بمختلف مدارسهم اهتمامهم بما يمكن تسميته بالمصادر الغيبية للمعرفة[2]، وهي المصادر التي لا يمكن لغير صاحب التجربة أن يستدل لها، ذلك أنها غيبية، لا تدل عليها المدارك الحسية، ولا يدل عليها المنطق العقلي المجرد، والدليل الوحيد الذي يمكن الوثوق به نحوها هو الثقة في من أدركها أو حصلت له، كما قال الشيخ الشيخ أحمد زروق عند تفريقه بين العلم والذوق: (العلم برهانه في نفسه، فمدعيه مصدق باختباره، مكذب باختلاله، والذوق، علمه مقصور على ذائقه،

[1] ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص137.

[2] وقد لقب طه عبد الرحمن هذا النوع من المصادر ب (العقل المؤيد)، وفرق بينه وبين المصادر الأخرى بقوله: (فإذا كان العقل المجرد يطلب أن يعقل من الأشياء أوصافها الظاهرة أو بالاصطلاح "رسومها"، وكان العقل المسدد يقصد أن يعقل من الأشياء أفعالها الخارجية أو "أعمالها"، فإن العقل المؤيد على خلاف منهما يطلب، بالإضافة إلى هذه الرسوم وتلك الأعمال، الأوصاف الباطنة والأفعال الداخلية للأشياء أو "ذواتها"، والمراد بـ "الذات"، ما به يكون الشيء هو هو، أو قل "هويته") (انظر: الدكتور طه عبدالرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، منشورات المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 1997، ص 121)

فدعواه ثابتة بشواهد حاله، كاذبة بها)[1]

والصوفية – رغم المعارضة الشديدة التي ووجهوا بها بالنسبة لهذا النوع من المصادر- يعتبرونها مصادر أساسية لا يمكن للصوفي أن يستغني عنها، بل لا يسمى الصوفي صوفيا إلا إذا آمن بها، وتحققت له.

بينما يرى المخالفون، وخاصة من الاتجاه السلفي الذي ذكرنا أن الجمعية كانت لسانه الناطق في الجزائر، ينكر الاعتماد على هذا النوع من المصادر إنكارا شديدا، ويرمي أصحابه بالخرافة، ويرميهم فوق ذلك بمزاحمة المصادر الأصلية بهذا النوع من المصادر.

انطلاقا من هذا نحاول في هذا المبحث أن نتعرف على حقيقة ذلك الخلاف وأسبابه الفكرية والشرعية والواقعية.

وحرصا منا على جلاء الحقيقة من الطرفين جميعا، فقد حاولنا أن نذكر كل ما يستند إليه الطرفان من الأدلة، لأنا ـ للأسف ـ وجدنا أكثر الباحثين الذي تحدثوا عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يكتفون برمي المخالفين لها في هذا الباب بالخرافة والشعوذة ونحو ذلك متناسين أن القضية لها جذورها التاريخية والفكرية والشرعية بل حتى الفلسفية، فهي من القضايا التي لها علاقة بنظرية المعرفة التي كانت من أوائل ما بحث في الفلسفة.

وربما جرهم إلى هذا الخطأ بعض ما يرونه في الواقع الصوفي من أخطاء، والمنهج العلمي يبرأ من هذا المسلك، وإلا فهل كانت الجمعية مبرأة من المندسين، أم لم تتبرأ الجمعية في يوم من الأيام من لسانها الناطق في الرد على الطرقية الشيخ الزاهري، بل

---

[1]) أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد زروق، قواعد التصوف، مكتبة الكليات الازهرية، الطبعة الثانية، طبعة الثانية، 1976 م، ص 123

تتهمه فوق ذلك بالعمالة، فهل تتهم الجمعية كلها بسـببه بالعمالة؟

وهكذا الأمـر مـع الصـوفية، ففيهم – كمـا يـذكرون – الصديق، وفيهم الزنديق، وحتى صديقهم ليس معصوما، ولذلك فإن المنهج العلمي يستدعي مناقشة القضايا من مصادرهم، أما الأشخاص الممثلون، فيتركون لله، فاللـه هو الديان.

بناء على هذا، وبناء على تصـنيفنا السـابق للمدرسـة التي تنتمي إليها الجمعيـة، والمدرسـة الـتي تنتمي إليهـا الطرق الصوفية، فإنا لا نكتفي في إيراد الأدلة بما ذكره أعضـاء الجمعيـة، ولا أصـحاب الطـرق الصـوفية الـذين عاصـرتهم الجمعيــة، وإنمــا نــذكر مــا تســتند إليــه كلا المدرستين، كما وضـحنا سـابقا أن الخلاف الـذي حصـل بين الجمعيــة والطـرق الصـوفية لـه جـذوره في تراثنـا الإسلامي، ومن غير الموضوعية أن نفصـل القضـايا عن جذورها ومصادرها.

بناء على هذا قسمنا هذا المطلب إلى ثلاثة أقسام:

الأول: في التعريف بالمصادر الغيبية وأنواعها.

الثاني: في موقف الجمعية من المصادر الغيبية.

الثـالث: في موقـف الطـرق الصـوفية من المصـادر الغيبية.

أولا ـ التعريف بالمصادر الغيبية وأنواعها:

أشار الغزالي إلى تنوع المصادر الغيبيـة الـتي يعتمـد عليهــا الصــوفية بقولــه: (فــاعلم أن أربــاب القلــوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهـام بـأن يخطـــر لهم على ســـبيل الـــورود عليهم من حيث لا يعلمون، وتـارة على سـبيل الرؤيـا الصـادقة، وتـارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كمـا يكون في المنام، وهذا أعلى الدرجات وهي من درجـات النبـوة العاليـة كمـا أن الرؤيـا الصـادقة جـزء من سـتة

وأربعين جزءا من النبوة)[1]

وبناء على هذا يمكن تقسيم المصادر الغيبية التي نرى الصوفية عادة يتحدثون عنها إلى أربعة مصادر، هي:

المصدر الأول: الكشف.

المصدر الثاني: الذوق

المصدر الثالث: الإلهام

المصدر الرابع: الرؤى والأحلام

وسنرى سر هذه القسمة ووجه انحصارها عند التعرف عليها، وعلى الفروق بينها، ونحب أن ننبه هنا إلى تعدد المصطلحات في هذا الباب، حيث نجد المصدر الواحد يعبر عنه بالصيغ المختلفة، ونرى أحيانا اختلافا في إيراد هذه المصطلحات بين الصوفية وغيرهم، أي أن الصوفية قد يقصدون من المصطلح معنى، ويقصد المخالفون لهم معنى آخر، ولهذا حاولنا في التعريف بهذه المصادر أن نذكر التعاريف المختلفة سواء من الصوفية أو من غيرهم.

1 ــ الكشف:

لغة: قال ابن منظور كشف الامر يكشف كشفا : أظهره[2].

اصطلاحا: عرفه الجرجانى بأنه (الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية والأمور الحقيقية وجودا وشعورا)[3]، ومعنى الحجاب فى هذا التعريف هو (كل ما يستر مطلوبك، وهو عند الصوفية (انطباع

---

1) إحياء علوم الدين (1/ 82)

2) لسان العرب 12/102.

3) علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1405،ص 237.

الصور الكونية فى القلب المانعة لقبول تجلي الحق)[1]
وعرفه الشيخ أحمد الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية بقولـه: (الكشـف: هـو قـوة جاذبـة بخاصـيتها نـور عين البصـيرة إلى فضـاء الغيب، فيتصـل نورهـا بـه اتصـال الشعاع بالزجاجة الصافية حـال مقابلتهـا إلى فيضـه، ثم ينصـرف نـوره منعكسـاً بضـوئه على صـفاء القلب، ثم يترقى ساطعاً إلى عالم العقل، فيتصل به اتصالاً معنوياً لـه أثـر في استفاضـة نـور العقـل على سـاحة القلب، فيشرق القلب على إنسان عين السـر، فـيرى مـا خفي عن الأبصار موضعه، ودق عن الإفهـام تصـوره، واسـتتر عن الأغيار مرآه) [2]

2 ــ الذوق:

لغة: الـذوق : مصـدر ذاق الشـيء يذوقـه ذوقـا، والمـذاق طعم الشـيء وهـو يقـال فى المحسوسـات والمعنويات[3]:

فمن المحسوسات قوله تعالى: { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا } [الأعراف/22]

ومن المعنويات قوله تعالى في التعبير عن استشعار سـكرات المـوت: { كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَـوْتـِ } [آل عمران/185]، وقوله في التعبـير عن الإحسـاس بـالألم والعذاب: { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَـدَّلْنَاهُمْ جُلُـودًا غَيْرَهَـا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ } [النسـاء/56]، وقولـه في التعبـير عن الإحساس بالرحمـة والنعمـة: { وَلَئِنْ أَذَقْنَـا الإِنسَـانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ } [هود/9]

اصـطلاحا: يعـبر الصـوفية بالـذوق عن المشـاعر

---

[1]) التعريفات للجرجانى، ص 111.

[2]) أحمد الرفاعي الكبير، البرهان المؤيد، طبعة الآستانة، الطبعة الأولى، ص 97.

[3]) لسان العرب 10/111، والمفردات ص182.

الإيمانية التي يجدونها، ولا يستطيعون التعبير عنها، وهــو يجــري في كلامهم كثـيرا، قـال أبــو القاســم القشـيرى: (ومن جملــة مــا يجـرى فى كلامهم، الــذوق والشــرب، ويعبرون بـذلك عمـا يجدونـه من ثمـرات التجلى ونتـائج الكشــوفات وبــوادة الــواردات، وأول ذلــك الــذوق ثم الشــرب ثم الــرى فصـفاء معـاملاتهم يــوجب لهم ذوق المعــانى، ووفــاء منــازلتهم يــوجب لهم الشــرب ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الرى، فصاحب الـذوق متسـاكر، وصاحب الشرب، سكران وصاحب الرى صاح)[1]

وهو يرد خصوصا على ألسنة شعراء الصوفية، ولهـذا يذكرون الشراب والخمرة في أشـعارهم، كمـا مـر ذكـر ذلك، يقول ابن الفارض[2]:

وعـــنى بـــالتلويح يفهم ذائق ... غنى عن التصـريح للمتعنت

منحتــك علمــا إن تـــــرد كشــــفه فــــرد ... ســـبيلى واشـــرع فى اتبـــــاع شــــريعتى

فمنبــع صــدى من شــــــــــــــراب نقيعة ... لــدى فــدعنى من ســــــــــــــراب بقيعة

ويقول الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي[3]:

ومقعـد قــوم قــد مشـــــى من شــــرابنا ... وأعمى ســــقيناه ثلاثـــــــاً فأبصـــــــرا

وأخرسٌ لم ينطق ... أدرنـا عليـه الـراح

---

1) الرسالة القشيرية، 1/239.

2) ابن الفارض، الديوان، دار صادر، بيروت، ص60.

3) الشيخ جمال الدين محمد أبي المواهب الشـاذلي، قـوانين حكم الإشـراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق، مكتبة الكليات الأزهرية، ص 92.

ثمـــــــــــــانين حجة يوماًفـــــــــــــاخبرا

وآخـر بين النـاس لا يعـــــرف الهـــــوى سـقى قطـرة من خمرنـــــا فتحـــــيرا

وميت دعـــــــا الســـــاقي بـــــه فأجابه وســـبح للصـــهباء طوعــــــاً وكـــــبرا

فلو عاين الرهبان ســــــــــرعة بعثه لصـــلوا لــه مثــل المســـــيح وأكـــــثرا

3 ـ الإلهام:

لغة: لتلقين : تقول ألهمه الله الخير أي لقنه إيـاه[1]، قال ابن منظور: (مـا يلقي فى الـروع أو (أن يلقي اللـه فى النفس أمرا يبعثه على الفعل أو الترك)[2]

اصطلاحا : عرفه الشيخ عبـد اللـه الهـروي بقولـه: (الإلهام: هو مقـام المحـدثين، وهـو فـوق الفراسـة، لأن الفراسة ربمـا وقعت نـادرةً أو استصـعبت على صـاحبها وقتـاً واستعصـت عليـه، والإلهـام لا يكـون إلا في مقـام عتيد)[3]

وعرفه ابن عربي بأنه**:** (خـبر إلهي، وإخبـار من اللـه للعبد على يد ملك مغيب عن هذا الملهم، وقـد يلهم من الوجه الخاص. فالرسول والنبي يشهد الملك ويراه رؤية بصر عندما يوحى إليـه، وغـير الرسـول يحس بتـأثره ولا يراه رؤية بصـر، فيلهمـه اللـه بـه مـا شـاء أن يلهمـه أو

[1] القاموس المحيط 4/80.

[2] ابن منظور، لسان العرب المحيط، قدم له الشيخ عبد الله العلايلي ،اعداد وتصنيف يوسف خياط، طباعة دار لسان العرب، بيروت، 12/346.

[3] الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي، كتـاب منـازل السـائرين، مكتبـة الشـرق الجديدة، بغداد، ص 82.

يعطيه من الوجه الخاص بارتفـاع الوسـائط : وهـو أجـل الإلقاء وأشرفه، وهو الذي يجتمع فيه الرسـول والـولي)[1]

وعرفـه الشـريف الجرجـاني في تعريفاتـه بقولـه: (الإلهـام: مـا يُلقَى في الـرُّوع بطريــق الفيض. وقيـل: الإلهام ما وقع في القلب من علم. وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة)[2]

ثانيا ـ موقـف جمعيـة العلمـاء من المصـادر الغيبية:

مثلما وقف الاتجاه السلفي، ومثله كثـير من العلمـاء المعتـبرين، وخصوصـا المالكيــة منهم وقفت الجمعيــة موقفـا سـلبيا من هـذا النـوع من المصـادر، واعتـبرت مــدعيها إمــا كــاذبين، وإمــا مــوحى إليهم من طــرف الشياطين.

وكعادة الجمعية في مناقشـاتها لا تلجـأ إلى مناقشـة النصوص، بل تلجأ إلى اسـتخدام عينـات واقعيـة تنتيقهـا انتقاء لترد من خلالها على المخـالف، من غـير نظـر في الأدلة الـتي يعتمـدها، أو من غـير نظـر إلى خطـأ العينـة التي اعتمدت عليها، وأنها لا تعبر بالضرورة عن الحقيقة من جميع زواياها.

ومن الأمثلة على هذا ما ذكره الشيخ مبــارك الميلي في رده على اعتمــاد هــذا المصــدر من ذكــره نمــاذج سمعها في المقاهي والشوراع، ومنهـا أنـه (كـان بـوادى القطن قرب ميلة شرقيها، كاهن اسمه (سيدي مبـارك) يأتيـه المسـتطلعون للغيب، من مئـات الأميـال، كسـوق هراس وأراضي الحراكتة. ومات فقام ابنــه مقامــه، ولم يــزل حيّـا بــل حيّــةً على الجهّـال.. ومثلــه كثـيرون وإن

[1] ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 3 ص 239.

[2] الجرجاني، تعريفات الشريف، ص23.

اختلفت شهرتهم ضيقا واتّساعا)[1]

وفي موضع آخر قال: (وحدّثني ميليان لم يزالا حيين، قال أحدهما: كنت عند باش تارزي شيخ الطريقة الرحمانية بقسنطينة أعلم القرآن، وكنت نفسي تدعوني إلى (الفاحشة)[2]، فلم يكن يمنعني إلا خشية الشيخ أن يطّلع علي عن طريق الغيب !!

وقال الآخر: كنتُ ذا سوق في تاجنانت من أرض أولاد عبد النّور، وبقربي اثنان يتنازعان، فحلف أحدهما للآخر بسيده عبد الرحمن بن حملاوي، شيخ من شيوخ الطريقة الرحمانية، قرب سقّان فتغير وجه المحلوف له وأنكر على الحالف قائلا: أليس الشيخ عالما بما يجري الآن بيننا ؟ قال محدّثي: ظننته لأوّل سماع إنكاره أنّه ينهاه عن الحلف بالمخلوق، فإذا هو يكبره عن الحلف به ! ويشركه مع الله في غيبه) [3]

ثم ذكر الشيخ كثرة الحكايات التي تروى في هذا (ممّا لا تسعه المجلّدات) [4]

ثم عقب بفتوى خطيرة في هذا المجال كفر بها من يقول بهذا، بل ادعى الإجماع على ذلك من غير أن يذكر عالما واحدا ذكر هذا الإجماع، فقال: (فإنّ نسبة الغيب المطلق إلى الأولياء، ممّا شاع وذاع وملأ الحزن والقاع وهو شرك بإجماع، وإنّما حسّنه الجهل والقعود عن العلم، حتى فقد طلابه وتنوّعت عقباته وصعابه، ولم يبق من أهله إلا من يدعى فقه الفروع على قلّته، وجمود الفقه الأكبر) [5]

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 210)

[2] ما بين قوسين من تصرفي، لأنه ذكر كلمة أربأ بالقارئ عن قراءتها.

[3] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 211)

[4] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 211)

[5] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 211)

وهو – تحت ضغوط عقدة تعظيم المشرق – يذكر أن العلم في الجزائر (انقطع منذ أزمان من وطننا حتى أحياه من ارتحلوا في طلبه، ممّن تكوّنت منهم جمعية العلماء فكانت بهم للوطن توبة. عملوا فيها بآية التوبة: ({فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: 122]) [1]

بالإضافة إلى هذه الدعوى، وهي كون الصوفية يدعون علم الغيب، يدعي الشيخ مبارك الميلي أن الصوفية من خلال هذا المصدر يدعون التصرّف في الكون، ويستدل لذلك من النصوص بقوله: (حدّثني بقرية أبي سعادة من حضر مجلسا فيه كاهن سكّير، ممن يُعرَفون في العرف بالمرابطين، فطلب رجل من مرابطه ذلك ولدا ذكراً فأعطاه إيّاه، وعيّن له علامة تكون بجسمه عند الوضع، وقال له: إن وُضع بها فهو منّي، وإن خلا منها فهو من الله)[2]

بالإضافة إلى ما ذكره الشيخ مبارك الميلي نجد الجمعية ومثلها الاتجاه السلفي يعتبر كلام الصوفية فيه مناقضا للعلم، أو محرضا على ترك العلم الشرعي، والتفرغ لهذا العلم الغيبي، ويستدلون لهذا بما حدث به إبراهيم بن سبتيه من قوله: (حضرت مجلس أبي يزيد البسطامي، والناس يقولون فلانا لقي فلانا وأخذ من علمه وكتب منه الكثير وفلانا لقي فلانا فقال أبو يزيد: (مساكين أخذوا علمهم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت)[3]

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 211)

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 194)

[3] عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق: دكتور عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث، (1/ 346)

ويعتبرون أن أبا يزيد بكلامه هـذا قـد قلـل من شـأن الإسـناد الـذي يعتـبر مفخـرة عظيمـة للأمـة الإسـلامية، بالإضافة إلى أنه قلل من شأن علمـاء السـنة. بالإضـافة إلى أن ادعـاء أبي يزيـد بأنـه أخـذ علمـه هـو وجماعتـه الصوفية عن الله ما هو إلا محض افتراء على الله، ذلـك لأن في هذا دعوى لاستمرار النبوة، وهو مخـالف لقولـه تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُـولَ اللَّهِ وَخَـاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَـانَ اللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمًـا} [الأحزاب: 40]

بـل إن اللـه عـز وجـل أخـبر أنـه لا يكلم البشـر إلا بالوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، وأبـو يزيـد البسـطامي وأمثالـه من المتصـوفة يـدعون أنهم يتلقـون علـومهم من اللـه مـع أنهم ليسـوا بأنبيـاء ولا رسـل، فـدعواهم التلقي المباشـر عن اللـه دعوى لا أساس لها من الصـحة، بـل هي كـذب وافـتراء على الله عز وجل.

ويبنـون على هـذا أن الصـوفية يحتقـرون العلمـاء ويسـخرون منهم بـدعوى أنهم لم يبلغـوا مبلغهم من العلم، ويستدلون لهـذا بمـا بمـا وصـف بـه (ابن عـربي) العلماء، حيث شبههم بأوصاف كثـيرة منهـا أنهم فراعنـة الرسل، وأنهم فاقدو الإدراك، وهكـذا، فمن ذلـك قولـه: (ما خلـق اللـه أشـق ولا أشـد من علمـاء الرسـوم على أهـل اللـه المختصـين بخدمتـه العـارفين بـه من طريـق الوهب الإلهي الـذي منحهم أسـراره في خلقـه وفهمهم معاني كتابه وإشـارات خطابـه فهم لهـذه الطائفـة مثـل الفراعنة للرسل)[1]

وقوله: (ولو كان علمـاء الرسـوم ينصـفون لاعتـبروا بمـا في نفوسـهم إذا نظـروا في الآيـة بـالعين الظـاهرة التي يسلمون بها فيما بينهم، فيرون أنهم يتفاضلون في

---

[1] الفتوحات المكية، (2/ 175)

ذلك ويعلو بعضهم في كلام على معنى تلك الآيــة، ويقــر القاصر بفضل غير القاصر، وكلهم في مجرى واحد. ومع هذا الفضل المشـهود لهم فيمـا بينهم في ذلـك ينكـرون على أهل الله إذا جاءوا بشيء ممـا يغمض عن إدراكـه، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء، وأن العلم لا يحصل إلا بـالتعلم المعتـاد في العـرف، وصـدقوا فـإن أصــحابنا مــا حصــل لهم العلم إلا بــالتعلم وهــو الإعلام الرحماني الرباني)[1]

وقوله: (فلما رأى أهل الله أن الله قـد جعـل الدولـة في الحيـاة الـدنيا لأهـل الظـاهر من علمـاء الرسـوم، وأعطـاهم التحكم في الخلـق بمـا يفتـون بـه، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرا من الحياة الـدنيا وهم عن الآخـرة هم غافلون، وهم في أفكـارهم عن أهـل اللـه يحسـبون أنهم يحسنون صنعا، سلم أهـل اللـه لهم أحـوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا، وصانوا عنهم أنفسـهم لتسـميتهم الحقــائق إشــارات، فــإن علمــاء الرســوم لا ينكــرون الإشارات)[2]

ويستنتجون في الأخير أن التفسير الصحيح لما يرونه من الكشف – في حال عدم كذب أصحابه في دعـواهم- هو أنهم يوحى إليهم من قبل الشياطين، لأن الله تعـالى قد أثبت في كتابـه الكـريم بـأن الشـياطين يوحـون إلى أوليائهم حيث قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَـائِهِمْ لِيُجَـادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُـوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْـرِكُونَ } [الأنعام: 121]، وقـال: {وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَـا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْـرُفَ الْقَـوْلِ غُـرُورًا وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ مَـا فَعَلُـوهُ فَـذَرْهُمْ وَمَـا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: 112]

ويذكرون بناء على هـذا أن الصـوفية لم يفرقـوا بين

---

[1] الفتوحات المكية)، (2/ 176)

[2] الفتوحات المكية، (2/ 279)

الكشف الرحماني والكشف الشـيطاني ممـا فتح البـاب أمام الشيطان ليتلاعب بهم وبعقولهم مع أن هـذا النـوع من الكشف المدعى كمـا يكـون للمـؤمن يكـون لسـواه من الفساق والكفار والمشركين من الكهـان والمنجمين والرمــالين الــذي كــان ســببا في انتشــار أنــواع من الخرافات والشعوذات في محيـط الصـوفية والتصـوف، وقـد ذكـر ابن تيمية عـدة وجـوه تـدل على بطلان هـذا النــوع من الكشــف وعــدم إمكــان الاعتمــاد عليــه في تحصيل المطالب الشرعية وهي[1]:

أولا: أن الرسل لم تأت به وإنما جاءت بالرد للكتـاب والسنة وقال تعـالى: {فَـإِنْ تَنَـازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } [النساء: 59]

ثانيا: أن مجرد تـرك الشـهوات لا يكفي في تحصـيل الحــال الإيمــاني، بــل لا بــد أن تنضــم إليــه أنــواع من العبادات الظاهرة والباطنة حتى تكتمل بصيرته.

ثالثـا: اتفـاق شـيوخ الصـوفية وأئمتهم على وجـوب تعلم العلم الشرعي وأن طـريقتهم لا تسـتقيم إلا باتبـاع الكتاب والسنة.

رابعا: أن الاعتماد في تحصيل المطالب الإلهية عليــه غـير مـأمون لإمكـان أن يكـون الحاصـل في القلب من وساوس الشيطان.

خامســا: أن الكشــف لا يمكن أن يكــون طريقــا للمطــالب الإلهيــة لأن إيصــاله للمطلــوب غــير مــتيقن والــدليل لا بــد أن يســتلزم المــدلول وهــو لا يســتلزم المطلوب فقد يوصل إليه وقد يوصل إلى ضده.

سادسا: عدم معرفة إيصـاله إلى الحـق إلا إذا وصـل إليه فهو ليس بمأمون ولا متعين للوصول إلى الحق.

سابعا: أن الكشف لا يوصل إلا إلى معرفـة إجماليـة، أما التفصيلية فهذا ما لا يمكنه أن يوصل إليــه وإذا ظهـر

---

[1]) مجموع الفتاوى، (2 \ 65، 69، 74، وغيرها)

لنا عدم إمكان الاعتماد على الكشف كطريق للمعرفة الصحيحة المدلول عليها بالكتاب والسنة وأن خطأ الكشف يعرف بمخالفة الكتاب والسنة أو مخالفة العقل الصحيح المهتدي بهما أو مخالفته للحس الظاهر والباطن.

ثالثا ـ موقف الطرق الصوفية من المصادر الغيبية:

يعتبر الصوفية هذا المصدر خصوصا ركنا أصيلا في الطريق الصوفي، بل يعتبرونه هو الغاية التي من أجلها يكون السلوك وتكون المجاهدات، فالسلوك غايته المعرفة، والمعرفة الحقيقية هي التي تنتقش في القلب، لا التي تحفظ في الصدر، وهم يعتبرون أنفسهم (خاصة) بسبب هذا المنهج المعرفي، ذلك أن العلوم الأخرى، والتي يسمونها العلوم الظاهرة يشترك الجميع في معرفتها وتحصيلها، بل لا يستدعي تحصيلها إلا الاجتهاد والمذاكرة وبعض الذكاء، والتمكن فيها لا يدل بحال من الأحوال على قرب صاحبها من الله، أو أن له حظا في درجات الكمال الروحاني.

أما تمكن الصوفي من الاستمداد من المصادر الغيبية، فإنه يدل على أن له مكانة خاصة من الله بحيث استحق بسببها أن ينال معارفة من مصدرها المباشر، ولهذا يردد الصوفية في مجالسهم قول أبي يزيد البسطامي: (أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت)[1]

بناء على هذا التصور العام الذي يقرره الصوفية لحقيقة هذا المصدر، نحاول في هذا المطلب أن نبين أمرين مهمين يرتبطات به، ولهما علاقة بالرد على التهم التي يوجهها التيار السلفي وفرعه في الجزائر جمعية العلماء له:

---

[1]) انظر: الفتوحات المكية، (1/31)

أولهما: الضوابط الـتي تحمي هـذا المصـدر من أن يستغل استغلالا خاطئا.

ثانيهما: هو الأدلة الـتي يعتمـد عليهـا الصـوفية في إثبـات هـذا المصـدر، وردهم على مـا يثـيره خصـومهم نحوها.

1 ـ ضوابط الاعتمـاد على المصـادر الغيبيـة عند الصوفية:

مع الاهتمام والتقـديس لهـذا المنهج المعـرفي يضـع الصوفية له من الضوابط ما يحميه من أن يلتبس به مـا يسيئ إليه أو يشوهه أو ينحرف به إلى غير الجهـة الـتي قصد بهـا، ونسـتطيع من خلال دراسـة مـا كتبـه مشـايخ الصوفية بطرقها المختلفة أن نحصر هـذه الضـوابط في أربعة أمور:

عدم عصمة المصدر:

وذلك لأن المتعرض للكشف أو الإلهام غير معصـوم، وبالتـالي يمكن أن تصـبح للأهـواء والمعـارف السـابقة تأثيرها فيما قد يعتقده كشفا صحيحا، ولهذا اتفق مشايخ الصـوفية سـلفهم وخلفهم على عـرض مـا يكشـف لهم على المصـادر المعصـومة، فـإن وافقت فبهـا، وإلا رمي بها.

وفي هـذا يقـول الإمـام الجنيد سـيد الطائفـة: (إن النكتـة لتقـع في قلـبي من جهـة الكشـف فلا أقبلهـا إلا بشاهدى عدل من الكتاب والسنة)

ويقول الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسـس الطريقـة القادرية: (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقـة.. طِرْ إِلى الحق عز وجل بجناحي الكتـاب والسـنة، ادخـل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ)[1]

---

[1] الشيخ عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحمـاني، دار الكتـاب العربي، بيروت، 1980 ص29.

ويـرد منكـراً على من يعتقـد أن التكـاليف الشـرعية تسـقط عن السـالك في حـال من الأحـوال: (تـرك العبـادات المفروضـة زندقـة، وارتكـاب المحظـورات معصـية، لا تسـقط الفـرائض عن أحـد في حـال من الأحوال)[1]

ومثله الشيخ أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقـة الشاذلية، فقد كان يقـول: (إِذا عـارض كشـفُك الصـحيح الكتابَ والسـنة فاعمـل بالكتـاب والسـنة ودع الكشـف، وقـل لنفسـك: إِن اللـه تعـالى ضـمن لي العصـمة في الكتـاب والسـنة، ولم يضـمنها لي في جـانب الكشـف والإِلهام)[2]

وبنـاء على هـذا يخطئ الصـوفية بعضـهم بعضـا في نتائج الكشـف، ومن ذلـك قـول ابن عـربي في الكشـف الذي لا يمكن اعتباره: (الكشف الـذي يـؤدي إلى فضـل الإنسان على الملائكـة أو فضـل الملائكـة على الإنسـان مطلقاً من الجهتين لا يعول عليه) [3]

ويقول : (كل كشف يريك ذهاب الأشياء بعد وجودهـا لا يعول عليه) [4]

ويقول : (كل كشف لا يكون صرفاً لا يخالطـه شـيء من المـزاج لا يعـول عليـه، إلا أن يكـون صـاحب علم بالمصور) [5]

---

[1] الفتح الرباني للشيخ عبد القادري الجيلاني ص29.

[2] انظر: إِيقاظ الهمم، (2/302)

[3] ابن عربي، رسالة لا يعول عليه، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط1، 1948، ص 3.

[4] رسالة لا يعول عليه، ص 14

[5] رسالة لا يعول عليه، ص 18.

ومما يروى في هذا عن الشيخ ابن عطاء الله وكيفية لقائـه مـع شـيخه أبي العبـاس المرسي، وعلاقـة ذلـك بالكشف وعلاقـة الكشـف بالعصـمة، فيقـول: (قـال في لطائف المنن وكنت أنا لأمـره من المنكـرين وعليـه من المعترضين لا لشئ سمعته منه ولا لشئ صح نقلـه عنـه حتى جرت مقاولة بيني وبين بعض أصـحابه وذلـك قبـل صـحبتي إيـاه وقلت لـذلك الرجـل ليس إلا أهـل العلم الظـاهر وهـؤلاء القـوم يـدعون أمـوراً عظامـاً وظـاهر الشرع يأباها فقال لي ذلك الرجل بعد أن صحبت الشيخ تـدري مـا قـال لي الشـيخ يومـاً تخاصـمنا قلت لا قـال دخلت عليه فأول ما قال لي هؤلاء كـالحجر مـا أخطـأك منه خير مما أصابك فعلمت أن الشيخ كوشـف بنـا قـال ولعمري لقد صحبت الشيخ أثنى عشر عاماً فما سـمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم من الذي كان ينقله عنه من يقصد الأذى وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيـني وبين ذلـك الرجـل دعـني أذهب فأرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارة لا يخفي شـأنها فـأتيت إلى مجلسـه فوجدتـه يتكلم في الأنفـاس التي أمر الشارع بها فقـال الأول إسـلام والثـاني إيمـان والثـالث إحسـان وإن شـئت قلت الأول عبـادة والثـاني عبـودة وإن شـئت قلت الأول شـريعة والثـاني حقيقـة الثالث تحقق أو نحو هذا فما زال يقول وإن شـئت قلت وإن شـئت قلت إلى أن أبهـر عقلي وعلمت أن الرجـل إنما يغرف من فيض بحر إلهي ومدد رباني فـأذهب اللـه ما كان عندي)[6]

ولهـذا يحـرص الصـوفية على تعلم العلـوم الظـاهرة قبل الخوض في السلوك، ولهذا نجد اهتمـام الشـيخ ابن عليوة خصوصا بذكر حرمـة الشـريعة كـل حين، بـل إنـه

---

[6] ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، تحقيق عبد الحليم محمـود، دار المعارف، بيروت، ص76.

وضـــع بعض الكتب الدراســـية المبســـطة في الفقـــه والتوحيد وغيرهمـا، ككتـاب (المنهج المفيـد في أحكـام الفقه والتوحيـد)، ورسـالة (مبـادئ التأييـد في بعض مـا يحتاج إليه المريد)، وغيرهما.

استمداده من المصادر الأصلية:

يعتقد الصوفية – كما مـر معنـا – أن القـرآن الكـريم أعظم من أن ينحصر في قيود الألفاظ، وأنــه ليس ذلـك الذي نقـرؤه فقـط، وإنمـا تختفي وراء حروفـه وألفاظـه جمبـع الحقـائق، ولهـذا فـإنهم يربطـون دائمـا بين نتـائج كشفهم، وما ورد في القرآن الكريم.

وقـد نقـل الشـيخ ابن عليـوة عن ابن عـربي قولـه: (أعطيت مفاتيح القرآن العظيم)[1]، وعقب عليه بقولـه: (وليس هــو أول من أعطي مفاتيحــه، ولا هــو آخــرهم، وإنّما كلّ من كـان لـه نصـيب من فهم القـرآن العظيم، ومن لم يكن له نصيب من هذا العلم فلا نصـيب لـه من باطن القرآن، وإنّما حظّه بظاهر اللفظ، ويستدل الشيخ ابن عليـوة على هـذا بقـول الإمـام عليّ بن أبي طـالب كـرّم اللـه وجهـه: (لـو شـئت لـوقرت أربعين وقـرا من تفسير الفاتحة)[2]

وبناء على هذا، فقد ألف الشيخ العلاوي رسالة حول نقطة الباء التي ذكرهـا في (المنح القدوسـية في شـرح المرشــد المعين على الطريقــة الصــوفية)، فقـال: (إذا اسـتقر في ذهنـك أيّهـا القـارىء اللـبيب أن نقطـة البـاء جامعـة لسـائر الأحكـام والرسـوم والمعـارف والفهـوم، فمن باب أولى وأحرى الكلمـة، فسـلّم لأهـل هـذا العلم ولا تسـتغرب إن رأيتهم اسـتخرجوا من المعـنى الواحـد

---

[1]) لم أجد هذا النص في الفتوحات المكية، ولم أبحث في غيرها لكثرتها.

[2]) ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، ص19.

معاني شتى، ومن الكلمـة الواحـدة كلمـات جمّـة، فلهم أن يستخرجوا ما شاءوا من أي شـيء شـاءوا، تاللـه لـو أراد أحـدهم أن يسـتخرج العسـل من الخـل لفعـل : {يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْـرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ } [الأنعام: 95]، وكلّ ذلك دليـل على مـا منحهم اللـه من الأسرار والمعارف والأنوار)[1]

وكعادته يعود، فيحذر من الاتجـاه السـلفي المتنـامي المتمثل في جمعيـة العلمـاء، فيقـول: (فلا تغـتر يـا أخي بأقوال المغرورين الذين ينقصون أولياء الله، ويخوضـون في أعراضهم، ويزعمون أنّ لهم يـدا عليهم، ومـا هم إلاّ بمنزلـة الصـبيان معهم، لكـونهم لا يـدرون من أي بحـر غرفوا، ولا لأي جهة من الجهات توجّهوا)[2]

عدم التعبير عنه إلا لضرورة:

وهـذا ممـا يتفـق عليـه الصـوفية جميعـا من الناحيـة النظريـة، وإن كـانوا يختلفـون في تطـبيق ذلـك على الواقع، وقد ذكـر الغـزالي، وهـو من الـداعين إلى عـدم التعبير عنه الأسباب الداعية إلى ذلك، والتي حصرها في الأسباب التالية[3]:

الأول: أن يكـون هـذا العلم في نفسـه دقيقـا تكـل أكثر الأفهام عن دركه، فيختص بدركـه الخـواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله، فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك.

وقـد عـبر عن ذلـك الشـيخ ابن عليـوة عنـد ذكـره

---

[1] ابن عليـوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصوفية، ص19.

[2] ابن عليـوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصوفية، ص20.

[3] انظر: إحياء علوم الدين:1/99، وما بعدها.

لشروط الإمامة الروحية، فقـال: (ومن شـروط الكمـال للإمام أن يتكلّم مع الحاضرين كلّ حسب طاقتــه، وعلى ما تسعه حوصـلته من قـوّة وضـعف لأنّ طعـام الرجـال يضرّ بالصبيان، والحقائق ليسـت متعاطيّـة بين الخلائـق، وعليه أن يكتم ما أمره الله بكتمانه)[1]

وقد أورد الغـزالي في بـاب وظـائف المعلم، أن من وظائفه (أن يقتصر بـالمتعلم على قـدر فهمـه، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله، فينفره أو يخبط عليه عقله اقتـداء في ذلك بسيد البشر ﷺ حيث قال: (نحن معاشر الأنبياء أمرنــا أن نــنزل النــاس منــازلهم ونكلمهم على قــدر عقولهم)[2]

ويروي في هذا أن بعض العلماء سئل عن شيء فلم يجب، فقال السائل: أمـا سـمعت رسـول اللـه ﷺ قـال: (من كتم علما يعلمه جاء يوم القيامـة ملجما بلجـام من نار)[3]، فقال العالم: (اترك اللجام، واذهب فإن جـاء من يفقه وكتمته فليلجمني، فقد قال الله تعـالى: (وَلا تُؤْتُـوا السُّفَهَاءَ أَمْـوَالَكُمُ)(النسـاء: من الآية5)) تنبيهـا على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى)[4]

وأنشد[5]:

---

[1] ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، ص264.

[2] قال العراقي تخريجه: ويناه في جزء من حديث أبي بكـر بن الشـخير من حديث عمر أخصر منه وعند أبي داود من حديث عائشة أنزلوا الناس منـازلهم، انظر: تخريج الإحياء، هامش الإحياء: (1/ 57)

[3] مسند أحمد بن حنبل (2/ 508)

[4] إحياء علوم الدين (1/ 58)

[5] إحياء علوم الدين (1/ 58)

أأنـــــــثر درا بين فأصـــبح مخزونـــا
ســـــــــــــــارحة النعم براعيـــــــــــــــــة الغنم

لأنهم أمســــــوا بجهــــــــل لقــــــدره ... فلا أنــا أضـحى أن أطوقــــــــــــه البهم

فــإن لطــف اللــه اللطيــــــــــف بلطفه ... وصـــــــادفت أهلا للعلـــــــــــوم وللحكم

نشـــرت مفيـــدا واســـــــتفدت مــــــودة ... وإلا فمخزون لدي ومكتتم

فمن منج الجهـال علمـــــــــا أضـــــــاعه ... ومن منــــــــــع المســـتوجبين فقـــد ظلم

الثاني: ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه، لكن ذكــره يضــر بــأكثر المســتمعين ولا يضــر بالأنبيــاء والصديقين، كما يضر نور الشـمس بأبصـار الخفـافيش، وكما تضر رياح الورد بالجعل.

وعلى هـذا المنهج يقـول الشـيخ ابن عليـوة واصـفا بعض منازل العارفين: (ففي هذا المقام تكلّ العبــارات، وتضيع الإشارات، وتخشع الأصوات: {لَا يَتَكَلَّمُـونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا } [النبأ: 38]، وكيــف يتكلّم من لم يجد كلاما، إذ الكلام ممنوع على أهل هذا المقـام والذي أعطاهم ذلك مبالغتهم في التوحيد وغوصــهم في ميـادين التفريـد، فاسـتخرجوا من ذلـك البحـر الـراكض والكنز الغامض أقوالا لا تقتضي تعطيـل النعـوت، فلهـذا اسـتحبّوا السـكوت، فهم في كلـل ورهبـة وجلال وغلبـة دعاهم ذلـك إلى الفنـاء عن الحـقّ كمـا أفنـاهم أولا عن الخلــق، فهم في حضــرة مســتوية الطــرفين من نفي وإثبات، وحياة وممات، فإفشاء الحقائق بالنســبة لهـؤلاء

تشريع) [1]

الثالث: أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيــه ضــرر، ولكن يكــنى عنــه على ســبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب، وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه[2].

ولهـذا نجـد اهتمـام الصـوفية بـالتعبير عن معـارفهم بالشعر لما يحمله من قدرات لا توجد في النثر العــادي، ومن هذا الباب نجد اهتمام الشيخ ابن عليوة في ديوانــه بــالرموز الــتي تجعــل القــارئ يتشــوف إلى البحث عن حقيقة المراد منها.

الرابع: أن يدرك الإنسان الشـيء جملـة، ثم يدركـه تفصـيلا بـالتحقيق والـذوق بـأن يصـير حـالا ملابسـا لـه فيتفاوت العلمان، ويكون الأول كالقشر والثاني كاللبـاب والأول كالظـاهر والثـاني كالبـاطن، وذلـك كمـا يتمثـل للإنســان في عينــه شــخص في الظلمــة أو على البعــد فيحصــل لــه نــوع علم فــإذا رآه بــالقرب أو بعــد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له، فكذلك العلم والإيمان والتصديق إذ قـد يصدق الإنسان بوجـود العشـق والمـرض والمـوت قبـل وقوعه ولكن تحققـه بـه عنـد الوقـوع أكمـل من تحققـه قبل الوقوع بـل للإنســان في الشـهوة والعشـق وسـائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة[3].

الخامس: أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحـال، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا والبصير بالحقـائق يـدرك السـر فيـه وهـذا كقـول القائـل: (قـال

---

[1] ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، ص220.

[2] إحياء علوم الدين (1/ 102)

[3] إحياء علوم الدين (1/ 102)

الجدار للوتد لم تشـقني؟) قـال: (سـل من يـدقني، فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي) فهذا تعبير عن لسـان الحال بلسان المقال[1].

عدم تعويضه للعلوم الظاهرة:

وهذا الضابط من النقاط الأساسية التي أسـاء التيـار السلفي فهمهـا، وأسـاءت الجمعيـة تبعـا لـذلك تصـورها للطـــرق، فهي تصـــورت أن تعظيم الصـــوفية لعلـــوم المكاشـفة والإلهـام حـط من العلـوم الأخـرى، وليس مرادهم كذلك، كما تدل على ذلك أفعالهم وأقوالهم:

أمـا أفعـالهم، فـأكثر مشـايخ الصـوفية جمعـوا بين العلمين الظاهر والباطن، أو المعاملـة والمكاشـفة كمـا يعـبر الغـزالي، ومـع أن الغـزالي عظم علم المكاشـفة، واعتـبره العلم الحقيقي، لأنـه لا يتعلـق بالـذهن، وإنمـا يتغلغل في جميع الكيانن إلا أنه كتب في الفقه والأصول الكلام والفلسفة وغيرها، حتى أنه كتب المستصفى بعـد خلوته.

وهكـذا مشـايخ الصـوفية جميعـا، فمشـايخ الطريقـة التيجانية اهتموا بالعلم ابتداء من شيخهم أحمد التيجـاني الـذي زكـاه الكثـير من العلمـاء الـذين عرفـوه، كفهـذا الشـيخ العلامـة محمـد بن سـليمان المنـاعي التونسـي الذي اجتمع بالشيخ التيجاني، ووصـفه فقـال: (بحـر في علوم الشرع الظاهر لا مثيل له فيما رأت عيـني يحفـظ من كتب الفقـه: مختصـر ابن الحـاجب ومختصـر خليـل وتهذيب البرادعي على ظهر قلب، وحكي لي أنه يحفـظ جميـع مـا سـمع من سـماع واحـد، وأمـا كتب الحـديث فيحفظ صـحيح البخـاري وصـحيح مسـلم والموطـأ على ظهر قلبه وأما كتب التوحيد فهو نظير الغزالي)[2]

وقال عنه علامة تونس ومفتيهـا الأعظم إبـراهيم بن

---

[1]) إحياء علوم الدين (1/ 103)

عبدالقادر الرياحي الذي اجتمع بالشـيخ التيجـاني، وقـال عنـه: (اعلم أن الشـيخ المشـار اليـه من الرجـال الـذين طار صيتهم في الآفاق وسارت بأحاديث بركاتهم وتمكنه في علمي الظاهر والباطن طوائف الرفـاق وكلامـه في المعارف وغيرها من أصـدق الشـواهد على ذلـك، ولقـد اجتمعت به في زاويته بفاس مرارا وبداره أيضا وصـليت خلفه صـلاة العصـر فمـا رأيت أتقن لهـا منـه ولا أطـول سجودا وقياما وفرحت كثيرا برؤية صلاة السلف الصالح ولخفة صلاة الناس اليوم كادوا أن لا يقتدى بهم)[1]

ومثـل ذلـك الشـيخ ابن عليـوة، فكمـا أنـه كتب في المعـارف الإلهيـة، والعلـوم الصـوفية كتب في الفقـه والتوحيد ونحوها، بل له كتاب جميل بسـيط في الفلـك، بحسـب مـا انتهى إليـه في عصـره، وهـو دليـل على اهتمامه العلمي، وهو كتابه (مفتاح الشـهود في مظـاهر الوجـود)، وكـان سـبب كتابتـه كمـا يـذكر خليفتـه في الطريقة الشيخ عـدة بن تـونس، قـول الشـيخ: (تـدبرت في عوالم خلـق اللّـه يومـا، وأجلت الفكـر في مواقعهـا وتنظيم حركتها, فوجدتها حكمة بليغة، وقدرة عظيمـة لا يتوصـل الى غايتهـا لـبيب، ولا يـدرك حقيقتهـا أريب {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَـوْلًا} [طـه: 109] لأنهـا من غيب اللـه، واللّـه لا يظهـر على غيبـه أحـدا {إِلَّا مَنِ ارْتَضَـــى مِنْ رَسُـــولٍ } [الجن: 27]، وقـــد كنت قبـــل تسطيري لهـذا الكتـاب أمـرّ في الطريـق، وأنـا مشـتغل البال بالعوالم العلوية حتى أحس من نفسـي كـأني أذود في مناكبهـا وأشـاهد أفلاكهـا رأي العين، ثم يشـملني

[2] نقلا عن: الأستاذ: ديدي السعيد، الشيخ سـيدي أحمـد التيجـاني ، من موقـع التيجانيـة على هـذا الرابـط (http://atijania-online.com/vb/showthread.php?p=2990)

[1] المصدر السابق.

حسي فأرجع الى نفسي وأنا مندهش حيران، ولما غلب علي هذا الحال وتكرر مني مرارا بثثته الى الشيخ -و هو الشيخ سيدي محمد البوزيدي - وأخبرته بما كان يقع لي تفصيلا.فقال لي: (ضعه في كتاب تسترح منه)، فعمـدت الى تـأليف هـذا الكتـاب، ولمـا فـرغت من مسـودته اسـترحت ممـا كـان يعتريـني من ذلـك الابجـذاب والاختطـاف البـاطني، فصـرت مسـتريح البـال متنعمـا بفضل الله، والله ولي المتقين)

ولـو قارنـا موقفـه في هـذا الكتـاب بموقـف الاتجـاه السـلفي من دوران الشـمس حـول الأرض، لوجـدناه موفقا متطورا جدا، فبينما نرى أعمدة الاتجـاه السـلفي، وبعد تطور العلوم لا يزالـون يصـرون على أن الشـمس تـدور حـول الأرض[1]، نـرى الشـيخ ابن عليـوة، وفي المبحت الثاني عشر من كتابه، والذي عقده لما (يتعلـق

---

[1] من البـديهيات العقديـة الـتي تنتشـر بين أصـحاب المدرسـة السـلفية المحافظة (الوهابيين) أن الشمس تدور حول الأرض، وللأسف فإن هذا القـول ينتشر بكثرة في النوادي الإلكترونية، وقد اسـتغله المبشـرون أسـوأ اسـتغلال، ومن أمثلة ما كتبوه في ذلك كتاب (هداية الحيران في مسـألة الـدوران) لعبـد الكريم بن صالح الحميد،، والشيخ يحيى الحجوري فى كتابه [الصـبح الشـارق]، والذي قال فيه:(وهذا البـاب لا يـدور تـارة من الجنـوب، وتـارة من المشـرق، وتارة من الشمال، وتارة ما بين ذلك؛ بل هـو منـذ خلـق السـماوات والأرض لا يزال عن جهة المغرب على ما خلقه الله، ولـو كـانت الأرض تـدور لـدار معهـا يوماً من الدهر من جهة إلى جهة أخرى، لكنها ساكنة لا تتحـرك كمـا قـال اللـه عزَّوجل: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَـكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [فاطر: 41] (انظر: يحيى الحجـوري، الصبح الشارق، (ص 200 -201)

وللاطلاع على استغلال المسيحيين لمثل هذه الأقوال انظر مقالا بعنوان: (هـل تـــدور الارض في الفقـــه الاســـلامي؟) على هـــذا الرابـــط: (http://www.alzakera.eu/fardiga/Ijaz-0011.htm

بحركـة الأرض ومـا ينشـأ عنهـا)[1] يقـول: (إذا تصـورت الحركة في جرم الشمس الذي هو أعظم العلويـات، فلا مـانع من أن تتصـور في الأرض، والحالـة أنهـا صـالحة لذلك، والحاصل أن الأرض لا تتغير ظروفها الزمانيـة من فصـول وغيرهـا إلا بتغـير موقعهـا من الشـمس، وهكـذا يغير الله بهـا كلمـا غـيرت بنفسـها، فبحركتهـا وتكويرهـا تتعاقب قطع الزمـان عليهـا؛ وبيـان ذلـك أن الأرض لهـا حركتـان تعتـبر نتيجتهـا حركـة يوميـة وحركـة سـنوية؛ فالحركة اليومية حركة تكـوير والحركـة السـنوية حركـة مسير، وبحركة التكـوير ينشـأ الليـل والنهـار ولهـذا قـال تعـالى: { يُكَـوِّرُ اللَّيْـلَ عَلَى النَّهَـارِ وَيُكَـوِّرُ النَّهَـارَ عَلَى اللَّيْـلِ} [الزمـر: 5]، فهي دائمـا بهـذه الحركـة بين ليـل ونهار، أي فأحد شقيها ليل والآخر نهار) [2]

ونحسـب أن هـذا النص المهم وغـيره من النصـوص الكثيرة لو قال مثله الإبراهيمي أو ابن باديس لطـار في الآفاق، ولكتبت الرسائل الجامعية عن (علم الفلـك عنـد جمعية العلماء)، ولكن بما أن الكاتب له هـو الشـيخ ابن عليـوة، فقـد كيـل معـه بالمكيـال البخس في زمـان المطففين في الموازين.

ومن هنا نحب أن ننبه الباحثين إلى أن الكتاب جـدير بالاهتمـام، ويسـتحق الدراسـة، وهـو يـدل على ناحيـة قصرت فيهـا جمعيـة العلمـاء، بينهمـا اهتم بهـا الصـوفية كثـيرا، وهي العلـوم الكونيـة والتجريبيـة، سـواء تعلقت بالفلك أو غيره[3]، وخصوصا الطب أو ما يسـمى بـالطب

---

[1]) ابن عليوة، مفتاح الشهود في مظاهر الوجود، المطبعة العلاوية، مسـتغانم، ص28 .

[2]) ابن عليوة، مفتاح الشهود في مظاهر الوجود، ص28.

[3]) وقد كان الشيخ مولود الحافظي من كبار الفلكيين، وقد رأيت مزولة صنعها في الزاوية الحملاوية، بالإضافة إلى بحوثه فيه.

البـديل، حيث نجـد الكثـير من الزوايـا مراجـع في هـذا الباب الذي يعاد الآن اعتباره.

ولسنا ندري بعد هذا أيهمـا أكـثر خرافـة أذلـك الـذي يكتب في علم الفلك، ويحاول أن يبرهن على النظريات العلمية الصحيحة بقدر ما أوتيه من طاقـة تأمـل وطاقـة عقل وطاقة علم، أم ذلك الذي يقبع في قصره العاجي، ولا يهتم إلا بالهـدم وبـرمي النـاس بالخرافـة والضـلال، ويرى القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه.

هذا بالنسبة لأفعـالهم، أمـا أقـوالهم، فقـد ذكـروا أن هـذا العلم لا يعـوض العلـوم الظـاهرة، فلا يمكن لهـذا العالم أن يعرف أركـان الصـلاة ولا الـواجب في الزكـاة من خلال هـذا العلم، وإنمـا يعلم ذلـك من خلال العلـوم الظاهرة، ولهذا كتب الشـيخ ابن عليـوة كتبـه في الفقـه مراعيا ما ورد من ذلك في كتب الفقه.

وقـد بين الغـزالي المجـالات الـتي يكـون فيهـا هـذا العلم، فقال: (هو عبارة عن نـور يظهـر في القلب عنـد تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبـل أسـماءها فيتـوهم لهـا معـاني مجملـة غـير متضـحة فتتضـح إذ ذاك حـتى تحصل المعرفة الحقيقيـة بـذات اللـه سـبحانه وبصـفاته الباقيـات التامـات وبأفعالـه وبحكمـه في خلـق الـدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ومعـنى الـوحي ومعـنى الشـيطان ومعـنى لفـظ الملائكـة والشـياطين وكيفيـة معـاداة الشـياطين للإنسـان وكيفيـة ظهـور الملـك للأنبيـاء وكيفيـة وصـول الـوحي إليهم والمعرفـة بملكـوت السـموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشـياطين فيـه ومعرفـة الفـرق بين لمـة الملـك ولمـة الشـيطان ومعرفة الآخرة والجنـة والنـار وعـذاب القـبر والصـراط والميزان والحساب ومعنى قوله تعالى اقرأ كتابـك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ومعنى قوله تعالى وإن الـدار

الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمـون ومعـنى لقـاء اللـه عز وجل والنظر إلى وجهه الكـريم ومعـنى القـرب منـه والنزول في جـواره ومعـنى حصـول السـعادة بمرافقـة الملأ الأعلى ومقارنـة الملائكـة والنبـيين ومعـنى تفـاوت درجات أهل الجنان)[1]

أمـا مـا ورد من تشـددهم مـع من يسـمونهم علمـاء الظاهر، أو تحذيرهم من كثير من العلوم، فهو لما دخلها من الحشو والمبالغات، مما قد يسيء إلى تدين المتعلم لها، ولذلك صح تحذيرهم منهـا، وقـد ذكـر الغـزالي عنـد بيانه لما بدل من ألفاظ العلوم كلمة (العلم)، فـذكر أنـه (كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياتـه وبأفعالـه في عباده وخلقه.. وقد تصرفوا فيه بالتخصيص حتى شهروه في الأكـثر بمن يشـتغل بالمنـاظرة مـع الخصـوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال هو العالم على الحقيقة وهو الفحل في العلم، ومن لا يمـارس ذلـك ولا يشـتغل بـه يعـد من جملـة الضـعفاء ولا يعدونـه في زمـرة أهـل العلم) [2]

ومثل ذلك لفـظ (التوحيـد)، فقـد حـول إلى (صـناعة الكلام، ومعرفـة طريـق المجادلـة، والإحاطـة بطـرق مناقضات الخصوم، والقـدرة على التشـدق فيهـا بتكثـير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات) [3]

ومثل ذلك لفـظ (الفقـه)، فقـد حولـوه إلى (معرفـة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه)[4]

---

[1] إحياء علوم الدين (1/ 19)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 33)

[3] إحياء علوم الدين (1/ 33)

[4] إحياء علوم الدين (1/ 32

مع أن اسم (الفقه) عند السلف الصالح كـان يطلـق (على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفـات النفـوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقـارة الـدنيا وشـدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب)[1]

وبنـاء على هـذا، فقـد ذكـر الشـيخ ابن عليـوة في رسـالة وجههـا لبعض الأسـاتذة المدرسـين بــ (جـامع الزيتونة) عاتبه فيهـا على في كونـه أفشـى مـا لا ينبغي إفشاؤه من علوم المكاشفة، بأن الأمر ليس كذلك، وأنه يقتصـر مـع المريـدين على العلـوم الظـاهرة، وأن تلـك العلوم الخاصـة لا تـذكر إلا الخـواص، يقـول ابن عليـوة: (بلغنا مكتوبكم، فتصفحناه بعين الإنصاف، فوجدناه كفيلا بالغرض المومى إليـه محضـتمونا النصـح فيـه، لا حرمنـا الله وإياكم من الانتفاع به، غير أنّه قد تجاوزتم الحدّ في بعض الجمل، وكـلّ ذلـك مقبـول، إن قصـدتم {إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا } [الأنفال:70])[2]

ثم ذكر جوابا على أول الأمور التي انتقـد فيهـا، وهـو ما عبر عنه بقوله: (الجملة الأولى: تخبرنا فيها أنّنـا فتنّـا العمـوم بمـا أذعنـاه فيمـا بينهم من الحقـائق، فكأنّنـا ألزمنـاهم بتعـاطي ذلـك، وهـذا يـا سـيدي خلاف مـا اعتقـدتموه، فإننـا مـا ألزمنـا العامّـة إلاّ ببعض الأذكـار، وأدعية وعقيدة بسيطة للغاية، قد طبعت في هذا الحين بعنوان (القول المقبـول فيمـا تتوصـل إليـه العقـول)[3]، وأمّا أسـرار الخصـوص فلم تـزل ولن تـزال حبسـا على

---

[1] إحياء علوم الدين (1/ 32

[2] ابن عليـوة، أعـذب المناهل في الأجوبـة والمسـائل، نقلا عن: صـفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص165.

[3] سنتحدث عن بعض محتوياتها في آخر فصل من الرسالة عنـد الحـديث عن (موقف الطرق الصوفية من وحدة الأديان)

الخصـــوص، تؤخـــذ بشـــروطها، غـــير أنّنـــا اختلفنـــا في الخصـــوص من هم؟، فقـــد عـــبرتم عنهم بأهـــل العلم الظاهر، ونحن نعبّر عنهم بالمتقين)[1]

بعـد هـذا، فـإن الصـوفية - كمـا ذكرنـا سـابقا عنـد الحـديث عن البدعـة - يعتـبرون أن الـدين وإن اكتملت شرائعه ووضحت إلا أنه في مجال التطـبيق المفصـل لا نزال بحاجة إلى سند يدلنا على كيفية ذلك.

فالقرآن الكريم - مثلا – ذكـر بـأن اللـه تعـالى جعـل في القرآن الكريم شفاء، كمـا قـال تعـالى:{وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82]، لكن الدواء يحتاج إلى معرفة المقـادير والمـواقيت والكيفيـات ونحوهـا، وإلا لم ينفـع صاحبه، كما نصت الآية نفسها، والتي اعتبرت أن القرآن الكريم {لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82]

ولهذا، فـإن الصـوفية بنـاء على مفهـومهم العرفـاني لحياة الرسـل والأوليـاء وقـربهم، وأن المـوت لم يصـب منهم إلا أجسـادهم، يـرون أن أنـوارهم سـاطعة قريبـة، يمكن لكـل من تطهـر أن يتصـل بهم، ويسـتفيد منهم، ويتربى على أيديهم، ويستلهم من إرشاداتهم.

بناء على هذه المعرفة يرون أنه يمكن أن تنال بعض العلوم الظاهرة من هذه المصادر المطهرة، وقـد سـبق ذكـر بعض الأمثلـة على ذلـك عنـد الحـديث عن موقـف الصـوفية من تصـحيح الأحـاديث وتضـعيفها، ويضـم إلى ذلك مـا رواه الشـيخ عبـد الوهـاب الشـعراني الطبقـات الكبرى من أنّ الشيخ (إبراهيم المتبولي) رضـي (كـان من أصـحاب الـدوائر الكـبرى في الولايـة، ولم يكن لـه شيخ إلاّ رسول الله ﷺ، وكان يـرى النـبيّ ﷺ في المنـام

[1] ابن عليــوة، أعــذب المناهل في الأجوبــة والمســائل، نقلا عن: صــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص165.

فيخبر أمّه فتقول : يا ولدي إنّما الرجل الـذي يجتمـع بـه في اليقظة، فصار يجتمع به في اليقظـة ويشـاوره على أموره، قالت له : الآن شرعت في مقام الرجولة)[1]

وروي عن الشـيخ أبي العبـاس المرسي أنّـه قـال : (لو حجب عنّي رسـول اللـه ﷺ طرفـة عين مـا عـددت نفسي من المسلمين)، وفي لفـظ آخـــر : (لـو حجبت عنّي جنّة الفردوس طرفة عين أو رسول الله ﷺ وفاتني الوقوف بعرفة سنة واحدة ما عـددت نفسـي من جملـة الرجال)[2]

وروي عن الشـيخ أبي السـعود أبي العشـائر، قـال: (كنت أزور شيخنا أبا العباس البصير أحمد بن محمـد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي الأندلسـي ، الّـذي بـرع في علـوم الشـرع ببلـده ثمّ سـافر على قـدم التجريـد فدخل الصعيد، ثمّ أقام بالقاهرة يقرىء الناس وينفعهم، أجاز سبعة آلاف رجل بالقراءات السبع، وكان بارعـا في الحـديث حافظـا لمتونـه عارفـا بعللـه ورجالـه حسـن الاسـتنباط بـذهن وقّـاد، مـات سـنة ثلاث وعشـرين وسـتمائة، فلمّـا انقطعت واشـتغلت وفتح عليّ لم يكن لي شيخ إلاّ النبيّ ﷺ، وذكر أنّه كـان يصـافحه عقب كـل صلاة وذلك يقظة وحسبه بذلك شرفا)[3]

---

[1] عبـد الوهـاب بن أحمـد بن علي الحَنَفي، نسـبه إلى محمـد ابن الحنفيـة، الشَّعْراني، أبو محمد، الطبقـات الكـبرى (لـوافح الأنـوار في طبقـات الأخيـار)، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، 1315 هـ، (2/75)

[2] عبـد الوهـاب الشَّـعْراني، الطبقـات الكـبرى (لـوافح الأنـوار في طبقـات الأخيار)، (2/13)

[3] عبـد الوهـاب الشَّـعْراني، الطبقـات الكـبرى (لـوافح الأنـوار في طبقـات الأخيار)، (1/137)

وروي عن الشيخ (خليفة بن موسى النهر ملكي) (أنّه كان كثير الرؤية لرسول الله ﷺ يقظة ومناما، ورآه في ليلة واحدة سبع عشرة مرّة، قال في إحداهن : يا خليفة لا تضجر منّي، فكثير من الأولياء مات بحسرة رؤيتي)

وروي عن الشيخ (محمد بن أحمد النبهان الحلبي) أنّه تشرّف بهذه الرؤية المباركة، وممّا قاله في هذا الشأن (.. وكنت أجلس معه ﷺ لا أريد مفارقته ولا يريد مفارقتي، وكان يمشي معي في الطريق ويعلمني كلّ شيء، فإذا أردت أن أنفك عنه لا أقدر، وكنت أجتمع بالرسول ﷺ يقظة وأكلّمه كما يكلّم الجليس جليسه، فالرسول ﷺ إمامنا وصديقنا وإذا صدقتم فهو يمشي معكم في الطريق)[1]

بغض النظر عن مدى صحة هذه الدعاوى، فإنها تدل على أن الصوفي لا يكتفي بالمعرفة الذهنية الظاهرية للحقائق، وإنما يعرج منها إلى أن يعيشها، فهو لذلك لا يكتفي من رسو الله ﷺ بما تلقاه تقليدا أو اتباعا، وإنما يحاول أن يصاحب رسول الله ﷺ، ويتربى على يده كالصحابة سواء بسواء.

تعرض أصحابه للفتنة:

ولعل هذا ما أشار إليه رجال الجمعية، ومثلهم الكثير من أصحاب الاتجاه السلفي، والذين اعتمدوا في إنكارهم لهذه المصادر الغيبية على عينات أساءت استعمال ما كشف الله لها، هذا إن لم تكن كاذبة في ادعاء ذلك الكشف.

فالصوفية ينتقدون بشدة أن تستعمل المكاشفة في

---

[1] انظر: الموقع المخصص له في الإنترنت، موقع العارف بالله محمد بن أحمد النبهان الحلبي على هذا الرابط: (http://alsayed-alnabhan.com/)

غير محلها الصحيح، وقد قال ابن عطـاء الله موجهـا إلى المريدين إلى الحذر من هذا النـوع من الفتن: (تشـوفك إلى ما بطن فيك من العيـوب خـير من تشـوفك إلى مـا حجب عنك من الغيوب)[1]

وعقب ابن عجيبة عليها بقوله شارحا لهـا: (تشـوفك أيهـا الإنسـان إلى مـا بطن فيـك من العيـوب كالحسـد والكبر وحب الجاه والرياسة وهم الـرزق وخـوف الفقـر وطلب الخصوصية وغير ذلـك من العيـوب والبحث عنهـا والسـعي في التخلص منهـا أفضـل من تشـوفك إلى مـا حجب عنك من الغيوب كالاطلاع على أسرار العباد، ومـا يـأتي بـه القـدر من الوقـائع المسـتقبلة وكـالاطلاع على أسرار غوامض التوحيد قبل الأهلية له، لأن تشـوفك إلى ما بطن من العيوب سبب في حيـاة قلبـك وحيـاة قلبـك سبب في الحيـاة الدائمـة والنعيم المقيم، والاطلاع على الغيـوب إنمـا هـو فضـول، وقـد يكـون سـبباً في هلاك النفس كاتصافها بالكبر ورؤية المزية على الناس)[2]

وقـال ابن عطـاء الله في حكمـة أخـرى: (من اطلـع على أسـرار العبـاد ولم يتخلـق بالرحمـة الإلهيـة كـان اطلاعه فتنة لعيه وسبباً بحر الوبال إليه)[3]

وقد شرحها ابن عجيبة بقولـه: (الاطلاع على أسـرار العباد قبل التمكن في الشـهود والتخلـق بـأخلاق الملـك المعبـود فتنـة عظيمـة وبليـة ومصـيبة، وذلـك لأنـه قبـل التمكين في المعرفة قد يشـتغل بـذلك قلبـه ويتشـوش خاطره ولبه، فيفـتره عن الشـهود، ويفتنـه عن الرسـوخ في معرفة الملـك الـودود، وأيضـاً مـا دامت النفس ولم يقـع الفنـاء عنهـا قـد يعتقـد بـذلك المزيـة على النـاس فيدخلـه الكـبر والعجب، وهمـا أصـل المعاصـي فكـان

[1] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم ،ص: 49.

[2] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 49.

[3] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 171.

اطلاعه حينئذ على أسرار العباد سبباً في جر هذا الوبـال أي العقوبة إليه وهو التكبر على النـاس واعتقـاد المزيـة عليهم وهو سبب البعد عن الله) [1]

2 ــ أدلة اعتبار المصادر الغيبية:

بعــد أن تعرفنــا على الضــوابط الــتي تحمي هــذه المصادر من سوء الاستعمال، نحاول هنا - باختصار - أن نــورد مــا يــورده الصــوفية من أدلــة على اعتبــار هــذا المصدر، راجعين في ذلك مـا أمكن إلى مـا كتبـه رجـال الطرق الصوفية الجزائرية المعاصـرين للجمعيـة، أو مـا كتبـه تلاميـذهم، وخصوصـا مـا كتبـه الشـيخ عبـد القـادر عيسـى، وهـو تلميـذ محمـد بن الهاشـمي، والـذي كـان بدوره مريدا للشيخ أحمد بن مصطفى العلوي، وقد أذن لــه بــالورد الخــاص [تلقين الاســم الأعظم] وبالإرشــاد العام، وهو مؤســس الطريقــة العلاويــة في بلاد الشـام، وأهم كتــاب كتبــه في نصــرة الطــرق الصــوفية كتــاب (حقـائق التصـوف)، ويمكن اعتبـاره – من خلال الطـرح الذي طرحه فيه- من تراث الطريقة العلاوية.

بالإضـافة إلى هـذا مـا كتبـه المحـدث الحافـظ جلال الدين السيوطي في نصرة الطرق الصـوفية، وخصوصـا رسالته (تنوير الحلك في إِمكان رؤية النبي والملك)

وقد صنفنا الأدلة بحسب مصادرها إلى أربعة أقسام، وهي نفس الأقسام التي يحتج بهـا علمـاء الجمعيـة على الطرق الصوفية، ويعتـبرون أنهـا حكـر لهم، ودمجنـا مـع كل دليل أنواع المصادر الغيبية.

من القرآن الكريم:

من الآيات القرآنية الـتي يسـتدل بهـا الصـوفية على اعتبار هذا المصدر:

1 ــ قوله تعـالى في حـق إبـراهيم خليـل اللـه عليـه

---

[1]) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم،ص: 171.

السلام: {وكذلِكَ نُري إبراهيم مَلكُوتَ السمواتِ والأرضِ ولِيَكُونَ مِنَ الموقنينَ} [الأنعام: 75]، وهذا هو الكشفَ بعينه، ولم يقيد في النص بالنبوة، بل ذكر باعتبارا إكراما أكرم الله به إبراهيم عليه السلام، وقد يتحقق هذا الإكرام لأي ولي من أولياء الله.

2 ــ ما أخبر الله عز وجل عن الخضر عليه السلام الذي لم تثبت نبوته، حين صحب موسى عليه السلام في المسائل الثلاثة، فقد انكشف للخضر أن السفينة التي ركبها مجاناً في طريقهم عبر البحر، سيأخذها ملك غاشم ظلماً، فخرقها ليعيبها ولينقذها من شر ذلك الغاصب مكافأة للمعروف بالمعروف: {أمَّا السفينَةُ فكانتْ لمساكينَ يعمَلُونَ في البحر فأردْتُ أنْ أعيبَها وكانَ وراءهم مَلِكٌ يأخُذ كلَّ سفينَةٍ غَصْباً} [الكهف: 79].

وكُشف له عن الغلام؛ إِن بقي حياً فسيقتل أبويه في كبره، ويوقعهما في الكفر، فقتله رحمة بأبويه المؤمنيْن، واستجابة لإِرادة الله تعالى بإِبداله بخير منه زكاةً ورحمة: {وأمَّا الغلامُ فكانَ أبواهُ مؤمنينِ فخشينا أنْ يُرهِقَهما طُغياناً وكُفراً. فأردنا أن يُبدِلَهُما رَبُّهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحْماً} [الكهف: 80ـ81].

وكشف له الكنز الذي تحت الجدار، وكان لغلامين يتيمن من أب صالح، فأقام الجدار حفظاً للكنز، ورحمةً للغلامين، ومحبةً لأبيهما الصالح، بلا أجر وبلا مقابل، مروءةً وإخلاصاً: {وأمّا الجدارُ فكانَ لغُلامينِ يتيمينِ في المدينة وكان تحتهُ كنزٌ لهما وكانَ أبوهما صالحاً فأرادَ ربُّكَ أنْ يبْلُغا أشُدَّهما ويَسْتَخرِجا كنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [الكهف: 82].

3 ــ قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)} [الشمس: 7،ـ 8] ، فالآية عامة في أن الله ألهم جميع النفوس فجورها وتقواها، فما المانع بعد ذلك أن يخبر الصوفية بأن ما أعطوا من

علوم إلهامات إلهية.

2 ــ قوله تعالى حكاية عن عن مريم عليها السلام حين أوتْ إِلى النخلة في أيام الشتاء، فخوطبت بإِلهام ووحي من دون واسطة، وقيل لها: {وهُـزِّي إليـكِ بجـذْعِ النَّخلة تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنياً. فكُلِي واشـرَبي وقـرِّي عيناً} [مريم: 25]،

3 ــ قوله تعالى إخبارا عن بشارة الملائكة لمريم عليها السلام: {وإذْ قـالتْ الملائِكَـةُ يـا مـريَمُ إنَّ اللـهَ اصطفاكِ وطَهَّرَكِ واصطَفاكِ على نساءِ العـالَمينَ} [آل عمران: 42]، قال فخر الدين الرازي عند تفسيره الآية: (اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقولـه تعالى: {وما أرْسلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلا رِجالاً نـوحِي إليهم مِنْ أهْلِ القـرى} [يوسف: 109]. وإِذا كـان كـذلك؛ كـان إِرسال جبريل عليه السلام كرامة لها، وكلمها شفاهاً، وليس هذا خاصاً بها، بل هناك كثير من الصالحين كلمتهم الملائكة عليهم السلام)[1]

4 ـــ أن اللـه تعـالى أخبرنـا عن أُم موسى عليه السلام، حينما ضاق بها الحال من أمر ابنها موسى عليه السلام، وداهمها جنود فرعون لقتله، فألهمها، وأوحى إليها بلا واسطة، فقال: {وأوحينَا إلى أمِّ موسى أنْ أرضِعيهِ فإذا خِفتِ عليه فألْقِيـهِ في اليَّمِ ولا تخافي ولا تحـزَني إنَّا رادُّوه إليـكِ وجـاعِلُوه مِنَ المرسـلينَ} [القصص: 7]، قال الألوسي عند تفسيره للآية: (والمراد بالإيحاء عند الجمهور ما كان بإلهام، كما في قوله تعالى: {وأوحَى ربُّكَ إلى النَّحْلِ} [النحل: 68].. وإِلهام الأنفس القدسية مثل ذلك لا بُعد فيه، فإِنه نوع من الكشف)[2]

---

[1] التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي ج2. ص669.

[2] محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج16. ص170.

5 ـ أن الله أخبر أنه ألهم الحواريين، وعبر عن ذلـك بالوحي مع كونهم باتفاق العلماء ليسـوا بأنبيـاء، وأوليـاء الأمـة لا يقلـون عنهم، قـال تعـالى: {وإذ أوحيتُ إلى الحواريينَ} [المائدة: 111].

6 ـ قوله تعـالى في بيـان مـا أكـرم بـه أوليـاءه في الـدنيا: {إنَّ الـذين قـالوا ربُّنـا اللـهُ ثُمَّ اسـتقاموا تَتَنَـزَّلُ عليهِمْ الملائِكَةُ أنْ لا تخـافوا ولا تحزَنُـوا وأبْشِـروا بالجَنَّةِ التيِ كنتم توعَدُونَ. نحنُ أولياؤكُم في الحياة الـدنيا وفي الآخِرة} [فصلت: 30ـ31]، وقد ذكر الألوسي المقـالات الواردة في الآية، ومنها أن الملائكـة تتـنزل عنـد المـوت والقـبر والبعث، أو أنهـا تتـنزل عليهم بمعـنى (يمـدونهم فيما يَعِنُّ ويطـرأ لهم من الأمـور الدينيـة والدنيويـة، بمـا يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخـوف والحـزن، بطريـق الإِلهام)

ثم اعتبر هذا القول هو الأصح والأظهر؛ لمـا فيـه من الإِطلاق والعموم الشامل لتـنزلهم في المـواطن الثلاثـة وغيرها، وأن جمعـاً من النـاس يقولـون بتـنزل الملائكـة على المتقين في كثير من الأحايين، وإِنهم يأخذون منهم ما يأخذون[1].

وفي قوله تعـالى إخبـارا عن مقالـة الملائكـة: {نحنُ أوليـاؤكُمْ في الحيـاة الـدنيا} [فصـلت: 31] دلالـة على الدور الكبير الذي يقوم بـه الملائكـة في صـحبة الأوليـاء والمتقين، كما قال الألوسي: (أي أعوانكم في أمـوركم، نلهمكم الحق ونرشدكم إِلى ما فيه خيركم وصلاحكم)[2]

وعبر الرازي عن هذه الحقيقة القرآنيـة بلغـة أوضـح وأصـرح، فقـال: (ومعـنى كـونهم أوليـاء للمؤمـنين أن

[1] محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج24 ص107

[2] محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج24 ص107

للملائكـــة تـــأثيرات في الأرواح البشـــرية بالإِلهامـــات والمكاشــفات اليقينيــة والمقامــات الحقيقيــة، كمــا أن للشـياطين تـأثيرات في الأرواح بإِلقـاء الوسـاوس فيهـا وتخييل الأباطيل إِليها)

ثم عقب على ذلــك بمــا يــذكره الصــوفية من منهج تحصيل الإلهام، بقوله: (وبالجملة فكون الملائكـة أوليـاء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات، فهم يقولون: كمــا أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا، فهي تكون باقية في الآخرة، فإِن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلــة للــزوال، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك لأن جـوهر النفس من جنس الملائكـة، وهي كالشـعلة بالنسـبة إِلى الشــمس، والقطــرة بالنســبة إِلى البحــر. والتعلقــات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة، كما قــال ﷺ لى: (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظـروا إِلى ملكـوت السـماوات)[1]، فـإِذا زالت العلائـق الجسمانية والتدبيرات البدنية، فقد زال الغطاء والوطاء، فيتصـــل الأثـــر بـــالمؤثر، والقطـــرة بـــالبحر والشـــعلة بالشمس)[2]

من السنة المطهرة:

من الأحاديث التي استدل بهـا الصـوفية على اعتبـار المصادر الغيبية:

1 ــ قوله ﷺ مخبرا عن دور الملك الواعظ في قلب الإنسان: (.. وأمـا لَمَّةُ[3] الملـك فإِيعـادٌ بـالخير وتصـديقٌ

---

[1]) قـال العـراقي: رواه أحمـد من حـديث أبي هريـرة بنحـوه، انظـر: تخـريج أحاديث الإحياء (1/ 189)

[2]) تفسير الإِمام الرازي ج7. ص371.

[3]) واللمة: الهمة والخطرة تقع في القلب. كما في غريب الحديث.

بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمــد الله)[1]، فقــد أخــبر ﷺ أنــه إن وجــد المــؤمن هــذه الخــواطر الطيبة، فلينسبها إلى الله، وهذا ما يفعله الصوفية حينما يتحدثون عن تحديث الله لهم.

2 ــ قوله ﷺ : (إن رجلاً زار أخاً له في قريــة أخــرى، فأرصد اللــه على مَدْرجتِه[2] مَلَكــاً، فلمــا أتى عليــه قــال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القريــة. قــال: هــل لك عليه من نعمة ترُبُّها[3]؟ قال: لا، غــير أني أحببتــه في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بــأن اللــه قــد أحبك كما أحببته فيه)[4]، قــال محمــد بن علاّن الصــديقي الشافعي، وهو من المحدثين المعتبرين لدى الصــوفية:: (ظاهره أن المَلكَ خاطبه وشافهه)[5]

3 ــ قوله ﷺ لحصين بن منذر الخــزاعي لمــا أســلم: (قل: (اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)[6]

4 ــ قولــه ﷺ : (اتقــوا فراســة المــؤمن، فإنــه ينظــر بنور الله)[7]، والفراسة نوع من المصــادر الغيبيــة، و(هي على حسب قوة القرب والمعرفة، فكلما قــوي القــرب،

---

[1] سنن الترمذي (5/ 219)، السنن الكبرى للنسائي (10/ 37)

[2] أرصد الله على مدرجته: أي وكَّله بحفظ المدْرجَــة، وهي الطريــق وجعلــه رصَداً: أي حافظاً مُعَداً.

[3] تَرُبُّها: أي تحفظها وتربيها كما يربي الرجلُ ولدَه.

[4] صحيح مسلم (8/ 12)

[5] محمد علي بن محمــد بن علان بن إبــراهيم البكــري الصــديقي الشــافعي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيــع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، 1425 هـ - 2004 م، ج3. ص232.

[6] سنن الترمذي(5/ 519)، مسند البزار (9/ 53)

[7] سنن الترمذي (5/ 298)

وتمكنت المعرفة صدقت الفراسة، لأن الروح إذا قربت من حضرة الحق لا يتجلى فيها غالباً إلا الحق)[1]

5 ـ قوله ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا)[2]، وقد علق عليه ابن القيم بقوله: (فأخبر أن للإيمان طعما وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب)، وهذا نفس ما يقصده الصوفية من حديثهم عن الذوق.

وهو ما فسر به ابن القيم قوله ﷺ : (إني أظل يطعمني ربي ويسقيني)[3]، فقد عقب عليه بقوله: (وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا الطعام والشراب حس من الفم.. وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة حيث قال لأبي سفيان : (هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقال: لا قال كذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلب)، فاستدل بما يحصل لاتباعه من ذوق الإيمان الذي خالطته بشاشة القلب لم يسخطه ذلك القلب أبدا على أنه دعوة نبوة ورسالة ملك ورياسة.. وبذا يثبت أن للقلب ذوقا يجده كذوق الفم للطعام والشراب وهذا اللفظ والمعنى ثابت بدلالة الكتاب والسنة)[4]

6 ـ أن الكشف وراثة محمدية صادقة، وَرِثَها أولياء

---

[1] ابن عجيبة، معراج التشوف الى حقائق اهل التصوف، تصحيح وتعليق محمد بن احمد بن الهاشمي بن عبد الرحمن التلمساني، مطبعة الاعتدال – دمشق – الطبعة الاولى سنة 1355 هـ – 1937 م ص18.

[2] صحيح مسلم (1/ 46)

[3] صحيح البخاري (9/ 119)

[4] حمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، (2/ 31)

اللـه من رسـول اللـه ﷺ، بسـبب صـدقهم وتصـديقهم وصفاء سريرتهم، ومما يروونـه في كشـف رسـول اللـه ﷺ مـا ورد في الحـديث عن أنس قـال: أقيمت الصـلاة، فأقبـل علينـا رسـول اللـه ﷺ بوجهـه فقـال: (أقيمـوا صـفوفكم وتراصُّـوا، فـإِني أراكم من وراء ظهـري)[1]، وفي الحـديث عن أنس: بعث رسـول اللـه ﷺزيـداً، وجعفـراً وابن رواحـة، ورفـع الرايـة إِلى زيـد، فأصـيبوا جميعاً، فنعَاهم رسول الله ﷺ إِلى الناس قبـل أن يجيءَ الخبر، فقال: (أخذ الراية زيد فأُصـيب، ثم أخـذها جعفـر فأُصـيب، ثم أخـذها عبـد اللـه بن رواحـة فأُصـيب، وإِن عيني رسول الله ﷺ تذرفان، ثم أخـذها خالـد بن الوليـد من غير إِمرة، فَفُتِح له[2]، وهذا يـدل على تلاشـي قيـود الزمان والمكان عن رسول الله ﷺ، فاسـتوى عنـده في الرؤية القرب والبعد، وذلك نهاية الكشف.

من الآثار عن السلف الصالح:

بالإضــافة إلى مــا ســبق من النصــوص القرآنيــة والأحاديث النبوية، وبناء على احـترام الصـوفية للسـلف الصالح من جهـة، وعلى اعتبـارهم أن السـلف لا يمثلهم الاتجـاه السـلفي فقـط، وإنمـا يمثلهم الصـوفية أيضـا، فإنهم يستندون إلى مـا ورد عن الصـحابة والتـابعين من اعتبار هذه المصادر، ومن الروايات الـتي يسـتدلون بهـا لهذا:

1 ــ مـا روي من النصـوص عن إخبـار الصـحابة من الكشـوفات، وممـا يـروى عن علي بن أبي طـالب كـرم الله وجهه من ذلك ما حدث به أصبغ قال: أتينا مـع عليّ فمررْنا بموضـع قـبر الحسـين، فقـال علي: (ههنـا منـاخ

[1] صحيح البخاري (1/ 184)، سنن النسائي (2/ 92)

[2] صحيح البخاري (2/ 92)

ركابهم، وههنا موضع رحالهم، وههنا مهراق دمائهم. فتية من آل محمد ﷺ يقتلون بهذه العَرْصة، تبكي عليهم السماء والأرض)[1]، وقوله لأهل الكوفة: (سينزل بكم أهلُ بيت رسول الله ﷺ، فيستغيثون بكم فلم يغاثوا) فكان منهم في شأن الحسين ما كان[2].

2 ـ ما روي في الحديث عن عمران بن الحصين أنه كان يسمع تسبيح الملائكة حتى اكتوى، فانحبس ذلك عنه، ثم أعاده الله إِليه، فقد روي عن مطرف قال: قال لي عمران بن حصين: قد كان يسلم علي حتى اكتويت فترك ثم تركت الكي فعاد[3]، قال النووي في شرح الحديث: (معنى الحديث أن عمران بن حصين كانت به بواسير، فكان يصبر على ألمها، وكانت الملائكة تسلم عليه، واكتوى، وانقطع سلامهم عليه، ثم ترك الكي فعاد سلامهم عليه)[4]

3 ـ ما روي من الأخبار المتواترة عن كشف العارفين من سلف الصوفية، ومن ذلك ما وري عن أبي سعيد الخراز قال: (دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس؛ فناداني وقال: {واعلموا أنَّ اللهَ يعلَمُ ما في أنْفُسِكُم فاحذَروهُ} [البقرة: 235]. فاستغفرْتُ الله في سرِّي، فناداني وقال: {وهوَ الذي يَقْبَلُ التوبَةَ عن

---

[1] المحب الطبري، الرياض النضره في مناقب العشره، تصحيح: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، طبعه مصر سنه 1951، (2/295)

[2] انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير" للعلامة المناوي ج1. ص143.

[3] صحيح مسلم (4/ 47)

[4] أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، 1392، (4/ 326)

عبادِهِ} [الشورى: 25]. ثم غاب عني، ولم أره)[1]

ومثل هذا وقع لغيره. يقول خير النسَّـاج رحمـه اللـه تعــالى: (كنت جالســاً في بيــتي، فوقــع لي أن الجنيد بالبــاب، فنفيت عن قلــبي ذلــك، فوقــع ثانيــاً وثالثــاً، فخرجت، فـإِذا الجنيد، فقـال: لِمَ لم تخـرج مـع الخـاطر الأول؟)[2]

وحُكي عن إبراهيم الخـوّاص قـال: (كنت في بغـداد في جامع المدينـة، وهنـاك جماعـة من الفقـراء، فأقبـل شاب ظريف طيب الرائحة، حسن الحرمة حسن الوجه، فقلت لأصحابنا: يقع لي أنه يهودي، فكلهم كرهـوا ذلـك، فخرجت وخرج الشاب، ثم رجع إِليهم وقـال: إِيش قـال الشـيخ؟ فاحتشـموه، فـألح عليهم فقـالوا: قـال: إِنـك يهودي. قال: فجاءني، وأكبَّ على يدي وأسلم، فقيل: ما السـبب؟ قــال نجــد في كتبنــا أن الصــدّيق لا تخطىء فراسته فقلتُ: أمتحنُ المسـلمين، فتـأملتهم فقلت: إِن كــان فيهم صــدّيق، ففي هــذه الطائفــة لأنهم يقولــون حديثه سبحانه، فلبَّستُ عليهم، فلما اطّلع عليَّ وتفـرَّس فيَّ علمتُ أنه صدّيق، وصار الشاب من كبار الصوفية)[3]

ووقف نصـراني على الجنيد، وهـو يتكلم في الجـامع على الناس، فقال: أيها الشيخ! ما معنى حـديث: (اتقـوا فراسة المؤمن فإِنـه ينظـر بنـور الله)[4]، فـأطرق الجنيد ثم رفـع رأسـه وقـال: أسـلمْ فقـد جـاء وقت إِسـلامك، فأسلم الغلام[5]

---

[1] الإِحياء" للغزالي ج3 ص21].

[2] الرسالة القشيرية" ص110

[3] الرسالة القشيرية" ص110

[4] سنن الترمذي (5/ 298)

[5] أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، الفتاوى الحديثية، دار الفكر، ص223.

من أقوال العلماء:

بالإضـافة إلى هـذا نـرى اسـتدلال الطـرق الصـوفية وخصوصا الطريقـة العلاويـة بـأقوال العلمـاء، وخصوصـا من كـان منهم مقبـولا لـدى الجمعيـة، وممـا اسـتدل بـه الشيخ ابن عليوة في هذا المجال:

1 ــ عز الدين بن عبد السلام: ونقـل في إثبـات ذلك ما ذكره الشعراني في طبقاته قال: اجتمع الأوليــاء والعلماء في واقعـة الفرنجـة بالمنصـورة قريباً من ثغـر دميــاط جلس الشــيخ عــز الــدين والشــيخ مكين الــدين الأسمر والشيخ ابن دقيق العيد وأضرابهم وقرأت عليهم رســالة القشــيري وصــار كــل واحــدٍ يتكلم إذ جــاء أبــو الحسن الشاذلي، فقالوا له: نريـد أن تسـمعنا شـيئاً من معـاني هـذا الكلام فقـال: أنتم مشـائخ الإسـلام وكـبراء الزمان وقد تكلمتم فما بقي لكلام مثلي موضع، فقـالوا: لا بل تكلم فحمد الله وأثنى عليه وشرع يتكلم صاح عــز الـدين من داخـل الخيمـة وخـرج ينـادي بـأعلى صـوته: (هلمـوا إلى هـذا الكلام القـريب العهـد من اللـه تعـالى تعالوا فاسمعوه)[1]

2 ــ **ابن قيم الجوزية**: وهــو من العلمــاء الكبــار للمدرسة السلفية المحافظـة، وقـد اسـتدل الشـيخ ابن عليـوة بمـا ذكـره في (مـدارج السـالكين)، من قولـه: (فالعـارف صـاحب ضـياء الكشـف أوسـع باطنـاً وقلبـاً وأعظم إطلاقـاً من صـاحب العلم، ونسـبته إليـه كنسـبة صاحب العلم إلى الجاهل، فكما أن العالم أوسـع باطنـاً من الجاهل، وله إطلاق بحسب علمه فالعارف بما معــه من روح العلم وضـياء الكشـف ونـوره هـو أكـثر إطلاقـاً وأوسع باطنـاً من صـاحب العلم فيتقيـد العـالم بظـواهر العلم وأحكامه والعارف لا يراها قيوداً)[2]

---

[1] الرسالة القشيرية، ص110

[2] مدارج السالكين (2/ 420)

وقـد عقب ابن القيم على قولـه هـذا بقولـه: (ومن ههنا تزندق من تزنـدق، وظن أنـه إذا لاحت لـه حقائقهـا وبواطنهـا : خلـع قيـود ظواهرهـا ورسـومها اشـتغالا بالمقصود عن الوسيلة وبالحقيقة عن الرسم فهؤلاء هم المقطوعون عن الله القطاع لطريق الله وهم معـاطب الطريق وآفاتهـا)[1]، وفي هـذا دليـل واضـح على أن ابن القيم لم ينكر الكشف، وإنما أنكـر الاسـتعمال الخـاطئ له، وهو ما يتفق فيه مع الصـوفية، وفي هـذا دليـل على ما ذكرنا من أني في كثـير من المسـائل وجـدت علمـاء الجمعيـة أكـثر تشـددا من السـلفية حـتى المحـافظين منهم، وذلك لغلبة الصراع عليهم على التحقيق والبحث.

3 ــ محمد عبده: وقد استدل به الشيخ ابن عليوة باعتباره مصدرا مهما لدى الجمعية، وقد نقل عنـه قولـه في شـرحه على مقامـات بـديع الزمـان الهمـداني عنـد قـول المصـنف: (فلمـا تجلينـا وأخبرنـا بحالنـا أسـفرت القصة عن أصل كـوفي ومـذهب صـوفي) قـال الأسـتاذ الشارح: (والصوفي نسبة إلى الصوفية وهم طائفــة من المسـلمين هممهم من العمـل إصـلاح القلـوب وتصـفية السرائر والاسـتقبال بـالأرواح وجهـة الحـق الأعلى جـل شأنه حتى تأخـذهم الجـذبات عمن سـواه وتفـنى ذاهتم في ذاته وصفاتهم في صفاته والعـارفون منهم البـالغون إلى الغايــة من ســيرهم في أهلا مرتبــة من الكمــال البشري بعد النبوة)، وعقب على هذا النقل بقوله: (ومـا كانت هاته العقيدة من الشـيخ محمـد عبـده في رجـال التصوف من كونهم في أعلا مرتبة من الكمـال البشـري بعد النبـوي إلا منتزعـة من صـميم عقيـدة سـلف الأمـة على أنها عقيدة الحق الصرف)[2]

4 ــ القاضي أبو بكر بن العربي: وهو أحد أئمة

---

[1] مدارج السالكين (2/ 420)

[2] ابن عليوة، الناصر معروف، ص36.

المالكيــة، وهــو معتــبر اعتبــارا خاصــا عنــد الجمعيــة، وخصوصا عند ابن باديس، فقـد قـال في كتـاب (قـانون التأويـل) – على حسـب مـا ينقـل السـيوطي-: (ذهبت الصوفية إلى أنه إذا حصـل للإنسـان طهـارة النفس في تزكية القلب، وقطع العلائق، وحسم مواد أسـباب الـدنيا من الجاه والمال والخلطة بالجنس، والإقبـال على اللـه تعالى بالكليـة، علمـاً دائمـاً وعملاً مسـتمراً، كشـفت لـه القلـوب، ورأى الملائكـة وسـمع أقـوالهم، واطلـع على أرواح الأنبياء، وسمع كلامهم)، ثم قال ابن العربي تعليقا على هــذا: (ورؤيــة الأنبيــاء والملائكــة وســماع كلامهم ممكن كرامة، وللكافر عقوبة) [1]

المبحث الثاني

جوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية في المعارف الصوفية

على الــرغم من التوجــه الســلفي لجمعيــة العلمــاء المسلمين الجزائريين إلا أنها لم تختلف كبير اختلاف مع الطرق الصوفية في المدرسة العقدية، ذلك أن الجمعية لم تكن ترى في المذهب الأشعري مذهبا يناقض الســنة أو يختلف معها[2]، بل نجد من أعضاء الجمعية من يصرح

---

1) السيوطي، الحاوي للفتاوي ج2 ص257،. انظر المعنى المشار إليـه في : أبو بكر محمد بن عبـد اللـه بن العـربي المعـافري الإشـبيلي المـالكي، قـانون التأويل، تحقيق محمد السليماني، دار القبلة، جدة - ومؤسســة علـوم القـرآن، بيروت، الطبعة الاولى، 1406 هـ، ص460، وما بعدها.

2) وهــذا ممــا تنكــره الســلفية الحديثــة على جمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائريين، فابن باديس كان قد أدرج ضمن قائمة العلـوم الـتي كـان يدرّسـها لطلبة العلم، المتون التي تحكي أصول الأشاعرة في العقائد؛ كمتن بن عاشــر

بقبول المـذهب الأشـعري، ويعتـبره من مـذاهب السـنة المعتبرة، بل يعتبر الجمعية فوق ذلـك أشـعرية الأصـول كما أنها مالكية الفروع.

هـذا من جهـة المـدرس العقديـة، أمـا نقـاط الخلاف الكـبرى، فكـانت تتمثـل في المعتقـدات الـتي تتصـور الجمعية أنها معتقدات لا تخالف السنة فقط، بل تخـالف الإسـلام أيضـا، ولـذلك تحكم على معتقـدها بـالكفر، ثم تطبق هذا الحكم على أصحاب الطرق نفسها.

وهي لا تفعل ذلك من لدن نفسها، بل تعود في ذلـك إلى التيـار السـلفي الـذي تنتمي إليـه، وهي في هـذه الناحية خصوصا أميل إلى المدرسة السـلفية المحافظـة منها إلى المدرسة السلفية التنويرية.

ومن خلال اسـتقراء مـا ورد في جرائـد الجمعيـة ومقالاتها وكتبها، رأينا أن هناك تهمتين خطيرتين توجهت بهمـا للطـرق الصـوفية عمومـا، وللطريقـة العلاويـة خصوصا، وهما:

الأولى: ترتبـط بـ (المعـارف الإلهيـة)، وهي – كمـا عرفنا سابقا – رمي الصـوفية بـالقول بـالحلول والاتحـاد ووحدة الوجود.

والثانية: ترتبط بما يطلق عليه (وحدة الأديان).

وسنحاول في هـذا المبحث أن نبحث هـذين الجـانين من وجهات النظـر المختلفـة مـع أدلـة كـل فريـق، وقـد خصصنا كل جانب منها بمطلب خاص.

المعروف بـ (المرشـد المعين على الضـروري من علـوم الـدين) لابن عاشـر، الذي استفتح متنه بقوله :

فِي عَقْدِ الأَشْعَرِيِّ وفِقْهِ مَالِك   و فِي طَرِيقَةِ الجُنَيْدِ السَّالِك

وقال الشيخ حمّـاني تلميـذ ابن بـاديس في فتـاواه: (وقـد قبـل أسـلافنا تأويـل الأشـاعرة كمـا قبلـوا تفـويض السـلف) (انظـر: فتـاوى الشـيخ أحمـد حمّـاني، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، الجزء 2صفحة 597)

المطلب الأول: المعـــــــــــارف الإلهية بين الجمعية والصوفية

تعتبر المعارف المرتبطـة بالإلهيـات، ومـا يتعلـق بهـا من تفسـير لكيفيـة الخلـق ونظـام القـدر ونحوهمـا من الأسس التي يقـوم عليهـا الـدين، كمـا هي من الأسـس التي يقوم عليها التدين.

ذلك أن مبنى الدين على معرفـة اللـه، فاللـه خلقنـا ليتعـرف إلينـا، كمـا قـال ابن عبـاس في تفسـير قولـه تعـــالى: {وَمَـــا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـــدُونِ} [الذاريات: 56]: (إلا ليعرفون)[1]

ومبنى التدين كذلك، فالغافل عن الله بعيد عنه، ولـو تقرب إليه بجميع أنواع القربات، لأن القصد منهـا جميعـا هو الوصول إلى الله والقرب منـه، كمـا قـال تعـالى في الصلاة: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 14]

ونتيجة لهذا، فإن التدين، وما يرتبـط بـه من مواقـف مختلفة يتأسس على نوع المعرفة التي يحملها المتـدين عن ربه، فإن عرفه لطيفا كـريم رحيمـا كـان أميـل إلى الرجاء والمحبة، وإن عرفـه جبـارا قهـارا عزيـزا منتقمـا كـان أميـل إلى الخـوف، وإن جمـع بين هـذه المعـارف اسـتوت شخصـيته، وتقـومت نفسـيته، وإن زاد عليهـا، فعرف الله لذاته، زاد في كماله بحسب معرفته بربه.

وبناء على هذا، فإنا لو حللنا شخصية أصحاب التوجه السلفي، والتي مبناها على اعتقاد بينونة اللـه عن خلقـه بالمكـان، وأن اللـه في تصـورهم ليس سـوى جـرم من الأجـرام السـماوية العلويـة، نـرى أثـر ذلـك الكبـير في شخصيتهم وفي موقفهم من الآخر.

---

[1] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسـير القـرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشـر والتوزيـع، الطبعـة : الثانية 1420هـ - 1999 م، (7/ 425).

وهكـذا بالنسـبة للصـوفي المتهتـك الـذي خـرج بـه التصـوف إلى إلغـاء الخلـق بالخـالق، أو إلغـاء الخـالق بالخلق، فإنه لا محالة يقع في انحرافات كبيرة حذر منها الصوفية أنفسهم كما سنرى.

بنـاء على هـذا نحـاول أن نتعـرف في هـذا المطلب على موقـف الجمعيـة من الطـرق الصـوفية في هـذه القضية الخطيرة، ونتعرف في نفس الوقت على حقيقة مـذهب الصـوفية في هـذا المجـال، وخصوصـا الطريقـة العلاويـة الـتي كفـرت بسـبب اتهامهـا بـالقول بـالحلول والاتحاد ونحوهما.

ثانيا ــ موقف الجمعية من المعـارف الإلهيـة الصوفية

سبق أن ذكرنـا في مواضـع مختلفـة اتهـام الجمعيـة للطرق الصوفية بالحلول، ووحدة الوجود، وتكفيرهم لهـا على أساس ذلك.

وقــد توجــه التكفــير خصوصــا للطريقــة العلاويــة، وشــيخها ابن عليــوة على الــرغم من أن كــل الطــرق الصــوفية تتفــق في مشــاربها الروحيــة، فلهــا نفس المصادر، ونفس الأفكار، ونفس الأهداف، وقـد عرفنـا – سـابقا – مـدى اهتمـام الكثـير من مشـايخ الطريقـة الرحمانية بابن عربي، في نفس الوقت نرى الجمعية، أو الكثير من أعضـائها يحـترم الطريقـة الرحمانية، أو على الأقل لا يسميها (طريقة حلول)، وهذا من الانتقائية التي تمارسها الجمعية في أكثر أحكامها.

وقد كتب ابن باديس تحت عنوان (دعـوى النبـوة)[1] محاولا الربط بين جميع الطوائف الضالة والعلاوية – من غير أن يسميها- قائلا: (قد ضلت وهلكت باتباع أشخاص

[1] نشـر في الشـهاب: ج1 - م11، ص 11 ـ 13 محـرم 1354 هــ- أفريـل 1935م، وانظر: آثار ابن باديس (2/ 239)

ادعوا النبوة من هذه الأمة طوائف كثيرة، وقد كان منهم أول الإسلام مسيلمة الكذاب والأسود العنسي، ثم كان المختار بن عبيد الثقفي، ثم كان منهم في عصرنا قبيله الباب، وإليه تنسب البابية، والبهاء وإليه تنسب البهائية، وغلام القادياني وإليه تنسب القاديانية، وقد كادت هذه القاديانية تدخل الجزائر على يد طائفة الحلول وشيخها لولا أن قام في وجوههم العلماء المصلحون وفضحوهم على صفحات (الشهاب) أيام كان أسبوعيا فرد الله كيدهم ووقى الله الجزائر شرا عظيما)[1]

قد يشكك البعض في كون المشار إليها هي الطريقة العلاوية، ولهذا نحب أن ننقل هنا ما كتبه الشيخ ابن باديس حول علاقة العلاوية بالقاديانية في مقال نشره في جريدة (الشهاب)[2] سنة 1927م، جاء فيه قوله: (شر الطوائف التي أصيب بها الإسلام من أوائل نهضته هي طائفة الباطنية الملاحدة الذين جاؤوا بالمجوسية والهندية وحملوا عليها مقتطعات من الآيات والأحاديث حملا تتبرأ منه العربية التي هي لغة القرآن وصاحب القرآن، وفهموا من تلك المقتطعات -بزعمهم- ما هو مضاد تمام المضادة لما فهمه أهل القرن الأول من الصحابة وهم العرب الأقحاح، والفقهاء الأبرار؛ والأتقياء الأطهار؛ الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام، ونقل دينه، ونشره بين الأمم بالقول والعمل. وتعاملوا عن مأخذ تلك المقتطعات من سوابقها ولواحقها، وما طفحت به الشريعة من كثرة النصوص المحكمات؛ فظلوا وألحدوا في ذلك الحمل؛ وذلك الفهم، وهذا الإقتطاع. وزادوا إلى هذا كله ما

---

[1] آثار ابن باديس (2/ 239).

[2] (الشهاب) العدد (97) : الصادر بتاريخ الخميس 17 ذي القعدة 1345 ه / 20 ماي 1927 م.

جاؤوا من عند أنفسهم من كلمات باطلة نسبوها إلى النبي عليه الصلاة والسلام. ثم عملوا لترويج هذا الكفر والأنكر والتزوير الأقذر بالتظاهر بسمة الصلاح والزهد والدعوة إلى الخير ونشر الإسلام، فراجت دعوتهم على العامة وعلى كثير ممن يعدون من الخاصة ولم ينج من فتنتهم إلا الفقهاء بالسنة، والبصراء بأحوال العمران، والمتمسكون بهدي السلف في فهم النصوص والعمل بها)[1]

وبعد أن قدم هذه المقدمة التي تبين مصادر الانحراف في تصوره أخذ يبين نوع الانحراف، وهو يدل على موقف الجمعية وخصوصا شيخها ابن باديس من المعارف الصوفية، وقبل ذلك تصوره لها، فقال: (وشر ما جاءت به هذه الطائفة من عقائدها الزائفة هي عقيدة حلول الخالق في المخلوق ووحدة الوجود وإنه ما ثم إلا شيء واحد هذه المرئيات مظاهره؛ فلا خالق في الحقيقة - عندهم- ولا مخلوق؛ ولا رب ولا مربوب، ولا عابد ولا معبود، وهنا يسقطون التكاليف ويخلعون ربقة التشريع ولا يبقى -عندهم- معنى للدين)[2]

وبعد بيانه لما تراه الصوفية والفرق الباطنية من عقائد بين الحكم الشرعي المتعلق بها، فقال: (وهذا عند كل مسلم – بأدنى تأمل- من الكفر الصراح، المنافي للقطعيات الضروريات)

ولم يكتف الشيخ ابن باديس بهذا، بل راح يبين الطريقة التي يوصل بها الباطنية والصوفية عقائدهم، فقال: (وهم لو ابتدؤوا دعوتهم بهذا التصريح لقابلتهم

---

[1] (الشهاب) العدد (97) : الصادر بتاريخ الخميس 17 ذي القعدة 1345 ه / 20 ماي 1927 م

[2] (الشهاب) العدد (97) : الصادر بتاريخ الخميس 17 ذي القعدة 1345 ه / 20 ماي 1927 م

عامة المسلمين بالسخرية والإعراض؛ بل ربمـا قـابلتهم بالضــرب والتقتيــل. ولكنهم لخبثهم ودهــائهم يبتــدئون دعـوتهم بتلقين سـري... وحث على العبـادة ومشـاهدة الله! ثم بالرقص الـذي تتهيج فيـه الأعصـاب وينفتح فيـه الخيـال، ثم بـالخلوة والجـوع والسـهر فيهـا حـتى تتغلب عليه سوداؤه ويستولي على عقله وهمه وخياله فيخــرج وهو يقول: إنه لا يشـهد إلا اللـه، وإنـه مـا في الكـون إلا الله، وإن الله هو، وإنه هـو اللـه، إلى هـذيانات لا تقبلهـا ملة ولا يصدقها عقل؛ غير ملة الحلولية وعقل من قضى مدة تحت تأثير الأوهام والمخدرات) [1]

وبعد كل هذه المقـدمات يصـرح الشـيخ ابن بـاديس بأن الطائفة المقصودة بكل هـذا الوصـف هي الطريقـة العلاوية، فيقول: (هذه هي النحلة الحلولية التي جاء بهــا ابن عليـوة ينشـرها بين المسـلمين بديوانـه، وهـذه هي النحلة التي جاءت ورقـة الحلولـيين للـدفاع عنهـا. ولقـد اختـارت – كمـا هي سـنة الباطنيـة الحلوليـة من قـديم- التستر باسم التصوف والتمويه بالدفاع عنه لتغر العامــة الجاهلين وتستهوي أفئدة الطلبة الجامدين)[2]

ثم يستدل الشيخ لهذا بما ورد في ديوان الشــيخ ابن عليـوة، فيقـول: (ولقـد كـان في ديـوان الضـلال كفايـة للدلالة على باطن هذه الطائفة وسواء قصدها..) [3]

وليس ابن باديس وحده من وقف هذا الموقـف، بـل أكثر كتـاب الجمعيـة وقفـوه، بـل لعـل ابن بـاديس كـان

---

[1] (الشهاب) العدد (97) : الصادر بتاريخ الخميس 17 ذي القعدة 1345 ه / 20 ماي 1927 م

[2] (الشهاب) العدد (97) : الصادر بتاريخ الخميس 17 ذي القعدة 1345 ه / 20 ماي 1927 م

[3] (الشهاب) العدد (97) : الصادر بتاريخ الخميس 17 ذي القعدة 1345 ه / 20 ماي 1927 م

أرحمهم، وأرقهم عبـارة، ومن شـاء الاطلاع على ذلـك، فيمكن أن يرجـع إلى جرائـد الجمعيـة لـيرى كيـف يتهم كتاب عوام بسـطاء الطـرق الصـوفية بهـذه التهمـة، ولا يجدون من ينشر لهم غير الجمعية وصحفها[1].

ثالثا ــ موقف الطرق الصوفية

تعتبر المعارف الإلهيـة عنـد الصـوفية أدق المعـارف وأرقها وأعمقهـا، ولـذلك تختلـف عبـاراتهم فيهـا اختلافـا شديدا تتيح لكل من يشاء أن يتحدث عنهم بوصـف يجـد له من المـبررات مـا يـدل عليـه، فمن شـاء أن يـرميهم بالحلول والاتحـاد وجـد من عبـاراتهم مـا يسـعف عليـه، ومن شـاء أن يـرميهم بوحـدة الوجـود، ولـو في أخطـر ألوانها وجد كذلك ما يدله عليه، ومن شاء أن يبرئهم من كـل ذلـك، بـل يجعلهم أشـاعرة أو ماتريـديين أو حـتى سلفيين وجد ما يدله على ذلك.

ولهذا لا نعتب على الجمعيـة ولا على السـلفية قبلهـا وبعدها مواقفها السابقة، ولكنـا نعتب عليهـا أنهـا اكتفت بتلك المواقف المبنية على بعض النصوص الـتي اطلعت عليها، ولو أنها أكملت المسار وواصـلت البحث لوجـدت أشياء أخرى قد تهدم جميع ما بنته من أحكام.

والعتب يشتد عندما نرى الجمعية تحكم بـالكفر على الطـرق الصـوفية بنـاء على هـذا، وهي بـذلك لا تكفـر الطـرق الصـوفية الجزائريـة فقـط، بـل تكفـر الطـرق الصـوفية في العـالم أجمـع، وفي كـل الأزمنـة، وهـو مـا يجعلها وهابية مكفرة بامتياز.

ومواقــف الصــوفية في هــذا المجــال لا تعــود إلى التناقض الصوفي الذي قد يتصوره البعض، ولكنهـا تعـود بالدرجــة الأولى إلى عظمــة المعرفــة الإلهيــة وعــدم إمكانيـة الإحاطـة بهـا، ولهـذا تختلـف العبـارة والإشـارة بحسـب المرتبـة والحـال مـع أن الحقيقـة واحـدة في

---

[1] انظر على سبيل المثال: الشريعة النبوية المحمدية، العدد4، ص7.

الجميع.

وبنـاء على هـذا نحـاول في هـذا المحـل أن نـذكر تشعب المعـاني الصـوفية، وكيـف اسـتطاعت أن توفـق بينها جميعا، ولعل في هذا إجابـة عن تهمـة الكفـر الـتي اتهمت بها ولا تزال تتهم.

1 ــ عـدم التعـارض بين المعرفـة الصـوفية والمعرفة الكلامية:

يذكر أكثر الصوفية أن عقائدهم لا تختلف عن عقائـد المسلمين، ولهذا نرى جميع الطرق الصـوفية الجزائريـة تدرس المتون الأشعرية كالجوهرة والخريدة ونحوها، بل نراها فـوق ذلـك تـردد شـعارها الـذي ذكـره ابن عاشر، وهو[1]:

في عقد الأشعري وفقـــــــــه مالك	وفي طريقـــــة الجنيد الســـــــالك

وليس هذا خاصا بالطرق الصـوفية في الجزائـر، بـل هـو عـام، فمنـذ نشـأ التصـوف كـان للصـوفية علاقـة بالمدارس العقدية الموجودة في عصرها.

ولكن بمـا أن أكـثر المـذاهب العقديـة انتشـارا هـو المـذهب الأشـعري، اشـتهرت العلاقـة بين الأشـاعرة والصوفية حتى أنه يندر أن لا نجد صـوفيا إلا وهـو ينتمي إلى المدرسة الأشعرية، والعكس صحيح.

وقد ذكر أبو المظفر الإسفراييني في كتابه (التبصـير في الـدين) فصـلاً للصـلة بين الأشـاعرة والصـوفية، بعنوان: (من فصول المفاخر لأهل الإسلام وبيان فضائل أهل السنة والجماعة وبيان ما اختصوا به من مفاخرهم)

---

[1]) وقد علق عليه شارحه بقولـه: (أخـبر أن نظمـه هـذا جمـع مهمـات العلـوم الثلاثة وهي: العقائد والفقه والتصـوف، المتعلقـة بأقسـام الـدين الثلاثـة وهي: الإيمان والإسلام والإحسان) (الحبل المتين شرح المرشد المعين، ص 6)

، فعدد العلوم التي يفضلون بهـا غـيرهم، وذكـر منهـا: [1]

التصوف فقال: (وسادسها علم التصوف والإشارات وما لهم فيهـا من الـدقائق والحقـائق لم يكن قـط لأحـد من أهل البدعة فيه حظ بـل كـانوا محـرومين ممـا فيـه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة)[2]

وذكــر الحافــظ ابن عســاكر طبقــات الآخــذين عن الأشـعري والمنتسـبين إليـه. وهي خمس طبقـات، وفي كل طبقة يوجد الكثير ممن ينتسب إلى الصوفية:

فمن جملة من ذكر في الطبقـة الأولى الآخـذين عن أبي الحسـن الأشـعري: أبـو عبداللـه محمـد بن خفيف.. وفي الطبقة الثانية وهم من تلقى الأشعرية عن أصحاب الأشعري: ذكـر أبـا علي الـدقاق.. وفي الطبقـة الثالثـة: ذكر أبا ذر الهروي.. وفي الطبقة الرابعة ذكر أبا القاسم القشيري.. وفي الطبقة الخامسة: أبا حامد الغـزالي[3].. وهؤلاء كلهم من الصوفية.

هــذا في الطبقــات الأولى من الأشــاعرة، أمــا من بعـدهم، فقـد كـان لأكـثرهم ميـل للصـوفية إن لم يكن صـوفيا، ولهـذا كـان معظمهم من الـذين ردوا على ابن تيمية وعلى ابن عبـد الوهـاب من بعـده مـا أوردوه ممـا يخالف الصوفية، ومن الأمثلة على هذا:

1) السبكي: الـذي ألـف كتابـه: (شـفاء السـقام في زيارة خير الأنام)، يرد به على ابن تيمية في مسألة شـد

---

[1] طاهر بن محمد الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجيــة عن الفرق الهالكين، تحقيق : كمال يوسف الحوت، عالم الكتب – بـيروت، الطبعـة الأولى، 1983، (ص: 187)

[2] التبصير في الدين (ص: 192)

[3] تبين كذب المفتري)) (ص: 291)

الرحال.

2) ابن حجر الهيثمي: الذي ألف كتابه: (الجوهر المنظم في زيارة النبي المعظم) يرد به على ابن تيمية كذلك.

3) الباجوري، وقد ذكر في آخر شرحه تحفة المريد على جوهرة التوحيد شيئاً من مبادئ التصوف[1].

4) محمد الأمير، وهو صاحب الحاشية المشهورة على شرح جوهرة التوحيد، وقد ذكر عن نفسه بعد فراغه من حاشيته على شرح الجوهرة التي هي في عقيدة الأشاعرة أنه مالكي المذهب شاذلي الطريقة[2].

5) أحمد دحلان وهو شافعي المذهب، أشعري العقيدة، وقد أشرنا إليه سابقا، وهو يعتبر من مراجع الطرق الصوفية الكبار، وخاصة في ردودهم على الوهابية، فقد ألف كتابه: (الدرر السنية في الرد على الوهابية)

6) النبهاني، وهو شافعي المذهب، شاذلي الطريقة، أشعري العقيدة، ألف كتابه (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق)، وللطرق الصوفية الجزائرية علاقة كبيرة به أيضا، وبكتبه وأشعاره.

وكمثال على اهتمام الصوفية بعرض عقائدهم حتى لا يتهموا فيها ما فعله القشيري في رسالته التي هي مرجع الصوفية في جميع العالم الإسلامي إلى وقتنا الحاضر، فقد بدأ فصلها الأول، بـ (بيان اعتقاد هذه الطائفة في مسائل الأصول)، عرض فيه مقتطفات من كلمات الصوفية تدل على أن عقائدهم هي نفس عقائد المسلمين، قال في مقدمته: (اعلموا، رحمكم الله، أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول

[1] تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد)) (ص: 153).

[2] حاشية الأمير على شرح جوهرة التوحيد)) (ص: 160)

صـحيحة في التوحيـد، صـانوا بهـا عقائـدهم عن البـدع ودانوا بما وجدوا عليه السـلف وأهـل السـنة من توحيـد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا مـا هـو حـق القـدم. وتحققوا بما هو نعت الموجـود عن العـدم، ولـذلك قـال سيد هذه الطريقـة الجنيد، رحمـه اللـه: (التوحيـد إفـراد للقـدم من الحـدث)، وأحكمـوا أصـول العقائـد بواضـح الدلائل، ولائح الشواهد، كما قـال أبـو محمـد الجريـري، رحمه اللـه: (أن لم يقـف على علم التوحيـد بشـاهد من شواهده زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف) يريد بذلك: أن من ركن إلى التقليد، ولم يتأمل دلائل الوحيد؛ سـقط عن سـنن النجـاة؛ ووقـع في أسـر الهلاك، ومن تأمــل ألفــاظهم، وتصــفح كلامهم، وجــد في مجمــوع أقـويلهم ومتفرقاتهـا مـا يثـق - بتأملـه - بـأن القـوم لم يقصروا في التحقيق عن شـأو، ولم يعرجـوا في الطلب على تقصــير، ونحن نــذكر في هــذا الفصــل جملا من متفرقات كلامهم فيما يتعلق بمسائل الأصول، ثم نحــرر على الترتيب بعدها ما يشـتمل على مـا يحتـاج إليـه في الاعتقـاد، على وجـه الإيجـاز والاختصـار، إن شـاء اللـه تعالى)[1]

وهكذا نرى الغزالي يفتتح كتابه (إحياء علـوم الـدين) الـذي هـو مرجـع الصـوفية الأكـبر بعقيـدة لا تخـرج عن العقائد التي تنتشر بين أوسـاط عامـة المسـلمين، وقـد عنونها بـ: (كتاب قواعد العقائد)، وقد وضـعها في أربعـة فصول، خص الفصل الأول منها بـ (ترجمـة عقيـدة أهـل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام)، وهـو متن مبسـط مختصـر في العقيـدة، ممـا جـاء فيـه قوله: (نقول وبالله التوفيق الحمد للـه المبـدىء المعيـد الفعال لمـا يريـد ذي العـرش المجيـد والبطش الشـديد

[1] القشيري، الرسالة القشيرية، ص7.

الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلي لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدي لا نهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال)[1]

إلى آخره، ثم ضم إليه في الفصول اللاحقة ما يحتاج إليه من الأدلة ونحوها.

وعلى درب هؤلاء نجد الشيخ ابن عليوة يصرح بعقيدته التي لا تختلف عن سائر عقائد المسلمين في رسالة (القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول)، وهو جواب لسؤال موجه له من بعض المريدين يطلب منه نبذة من عقائد الدين بكيفيّة يسهل تناولها للمبتدئين بدون احتياج لفهم اصطلاح المناطقة في ترتيب المقدمات والبراهين.

وفي هذه الرسالة المختصرة يجمل الشيخ العقائد الواجبة التي يعتقدها، وتعتقدها معه الطريقة العلاوية، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام، هذا ملخص مختصر لها[2]:

القسم الأول: وقد تناول فيه ما يجب على المكلّف العلم به من الصفات الإلهية، فقال: (يجب على

---

[1] إحياء علوم الدين (1/ 89)

[2] ابن عليوة، القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، المطبعة العلاوية، مستغانم، ص8، فما بعدها.

كلّ ذي إدراك أن يستشعر وجـود المـدبر لشـؤونه بقـدر الإمكـان من حين بلوغـه مــــع اعتبـار مـا يسـتحقّه من الصفات الخاصّـة بذاتـه تعـالى بطريقـة الاسـتدلال كمـا يجب عليـه الاعتنـاء بمرتبــة النبـوءة وبصـفاتها الخاصّـة وبجميع ما جاءتنا به)[1]

وقد ذكر سر تعبيره بالاستشـعار بـدل العلم، فقـال: (وقولنا يستشعر وجود المدبّر أي يستحضره زيـادة على الإقرار به)[2]

وقد ذكر في نهاية الرسـالة (أنّ الإيمـان الـذي عليـه المعول هو عبارة عن تصديق يقع في القلب يمنع الفكر من أن يتصـوّر ضدّه، وله استحكام في الفـؤاد بقـدر مـا له من الصـفاء، ولـه تسـلط على الجـوارح فيمنعهـا من الوقوع فـي المنهيات بتوفيق الله عزّ وجلّ)

وهو بهذا يصور العلاقـة بين الإيمـان والعمـل، ويـبين شـــروط الإيمـــان الصـــحيح، وهـــو نفس مـــا يـــذكره المتكلمون.

بناء على هذا أخذ الشيخ يذكر الصـفات الواجبـة للـه كما يذكرها المتكلمون، فقال: (والمراد بالوجود كينونـة الحقّ الآن وقبل الآن وبعد الآن، أي هو مسـتمّر الوجــود أولا بـلا ابتداء، وهو المعبّر عنه بالقدم ومسـتمّر الوجــود آخرا بلا انتهاء، وهو المعبّر عنه بالبقاء، كمـا يجب عليـــه أيضا أن يعترف له بالغنى اللازم لذاتـه، وهـو عبـارة عن قيامه بنفسه وبشؤونه غير مفتقر لشيء ما، وأن يعترف له بالوحدانيّـة وهـو عبـارة عن انفـراده تعـالى في ذاتـه وصـفاته وأفعالــه، وليحــترز أن يــرى لغيـــره تـأثيرا في شيء ما، ثمّ يجب عليه أن يعترف له بالقـدرة المحيطـة بكلّ مقدور، وهي عبارة عن قوّة لازمة لـــذات الألوهيّــة

(1) ابن عليوة، القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، ص8.

(2) ابن عليوة، القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، ص8.

صالحة لكلّ ما يمكن إيجاده وإعدامه، ثمّ يجب عليه أن يصفه تعالى بالإرادة وهي صفة تستلزم لموصوفها أن لا يكون في ملكه إلاّ ما صدر عن قصد واختيار منه، كما يجب عليه أيضا أن يعترف له بالعلم اللازم لذاته تعالى، وهو عبارة عن صفة توجب لموصوفها أن يحيط خبرة بكلّ معلوم كيفما كان، كما يجب عليه أن يعترف له تعالى بالبصر الذي هو عبارة عن صفة توجب لموصوفها أن يتضّح له كلّ موجود حيثما كان إلاّ الأصوات فإنّها من متعلّقات السمع وهو صفة لازمة لذات البارىء توجب له تعالى أن لا يخفاه شيء هاجسا كان أو حسّا أو من مادة أو من الأصوات، ويجب عليه أيضا أن يعترف له بالكلام وهو عبارة عن معنى لازم لذاته سبحانه وتعالى يتأتى به الإفصاح عن كلّ مراد يفهمه كلّ من طرق سمعه، ولو كان من الجمادات وأنّه مغاير للحروف والأصوات، وأمّا الحياة فإنّها لا تخفى نسبتها لله تعالى، لأنّها شرط في سائر الكمالات، وبالخصوص) [1]

وهكذا ذكر الشيخ ابن عليوة نفس ما يذكره الأشاعرة من صفات المعاني، ثم أخذ يعدد أدلة هذه الصفات على حسب ما يذكره المتكلمون أيضا.

ونحن نتعجب للجمعية التي حكمت على الشيخ بالحلول كيف لم تطلع على هذه العقيدة، فهي وحدها كافية لتبرئته من التهمة التي رمتها به.

القسم الثاني: وقد تناول فيه الشيخ ما يجب على المكلّف التسليم فيه من قضايا القضاء والقدر، فقال: (وذلك أن نسلّم له جلّ شأنه في سائر الأفعال والأحكام، ونعتقد أنّ الكلّ جائز في حقّه، والمعنى أنّه {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: 23]،

---

[1] ابن عليوة، القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، ص8.

والكلّ كائن بقضائه وقدره صادر عـــن قصـده واختيـاره من طاعة وعصيان، ولـه سـبحانه وتعـالى أن يـرحم من يشاء ويعذّب من يشاء فهــو الفاعل المختار في الخلــق {لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِـــهِ } [الرعـــد: 41]، ولنتحـــرّز من أن نعترض عليه في شـيء من ذلك وإيّاك أن تقول : كيــف يقدر الذنب ثمّ يعـاقب عليـه، فتأخـذك رحمـة بالعاصـي فتعترض علـى خالقـه فهـو سـبحانه وتعـالى أرحم منـك بك)[1]

وهكــذا يــردد نفس مــا ذكــره الأشـاعرة في قضـايا العقائد، فيقــول مثلا: (ولنحـترز من أن نـرى فعلا لغـيره كيفمـا كـان ذلـك الفعـــل إلاّ وقدرتـه تعـالى هي الـتي أبرزته والإرادة خصّصته والفاعل فيـه هـو اللـه : {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات: 96]، وليس للمخلــوق في الوجـود أدنى تـأثير إلاّ مجـرّد النسـبة المعبّـر عنهـا بالكسب، ولا ننكر شيئا من الأفعال إلاّ مـا أنكره الشرع، امتثالا لأمره لا لكونه فعلا لغيـــــــــره) [2]

القسم الثـالث: وقـد تنـاول فيـه الشـيخ مـا يجب على المكلّـــف التســـليم فيـــه من قضـــايا الغيبيـــات والسمعيات، فقال: (وينحصر فيما جاءتنا بـه الرسـالة لا غـير بـدون اسـتثناء، ومن ذلـك الإيمـان باللـه وملائكتـه وكتبـه ورسـله واليـوم الآخـر، فالإيمـان باللــه لا يصـحّ لصاحبه إلاّ إذا كان موافقا لما فـــي نفس الأمـر حسـبما جاءنا بـه الشـرع، وهـو الـذي قـدمناه في القسـم الأول باختصار، أمّا ما يتعلّق بالملائكة فهـو أن يعتقـد المكلّـف أنّ لله تعالى ملائكته لا يعلم عددهم إلاّ هـو، ومـــن جهـة وصفهم فهم إلى التنزيه أقرب منه إلى التشبيه بالبشر، وإنّهم ملازمون لبواطن الأشياء، ومن خاصـتهم جبرائيـل

[1] ابن عليوة، القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، ص15.

[2] ابن عليوة، القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، ص17.

وميكائيـل وإسـرافيل وعزرائيـل ومنكـر ونكـير ومالـك ورضـوان ورقيب وعتيـــد، وفيهم من هـو قـادر على التشكّل كالروح الأمين، فإنّه تمثّل لمريم بشرا سويا)[1]

.وهكـذا يعـدد مـا يـذكره المتكلمـون من الصـفات الواجبة والممكنة والمستحيلة المتعلقة بالقضايا العقدية المختلفة مع أدلة مختصرة عليها.

ونحن نعجب للبـاحثين الـذين اهتمـوا برسـالة ابن باديس المسـماة (رسـالة العقائـد الإسـلامية من الآيـات القرآنية والأحاديث النبوية)، والتي جمعها تلميذه (محمد الصالح رمضـان) مـدير التعليم الـديني بـوزارة الأوقـاف (سابقا)، ومبالغتهم في شأنها مع بساطتها وعدم وفائهـا بمـا يحتاجـه البـاحث البسـيط في العقائـد الإسـلامية، وإعراضـهم عن مثـل الرسـالة الـتي كتبهـا الشـيخ ابن عليوة.

مـع أن رسـالة ابن بـاديس لا تختلـف عمـا يفعلـه الوهابية من جمع للنصوص القرآنية أو الأحـاديث النبويـة تحت عناوين معينة لا تعطي صاحبها أي علم، لأنها تكلفه فـوق طاقتـه من البحث في معانيهـا وتفسـيرها وكيفيـة الاستنباط منها، بالإضافة إلى غياب المنهج العقلي.

وكمثال على ذلك ما جاء في هذه الرسالة تحت عنوان (الإيمان بمحمـد هـو الأسـاس)، ثم جـاء في متن الرسالة هـذا النص: (لا يـدخل أحـد الإسـلام إلا بالإيمـان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَـا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَـآمِنُوا خَيْـرًا لَكُمْ } [النسـاء: 170]، ولقولـه تعـالى: {قُـلْ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنِّي رَسُـــولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَـــهُ مُلْـــكُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَــهَ إِلَّا هُــوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَـآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـــولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُـــؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِـــهِ

---

[1] ابن عليوة، القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، ص18.

وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 158]، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)[1][2]

ثم انتهى الفصل المعد لبيان هذه القضية الخطيرة، وهي إثبات أن الإيمان بمحمد ﷺ هو الأساس، ولو كانت هذه الرسالة مجرد رسالة من مجموع كتب أخرى لكان ذلك مقبولا، لكن للأسف ليس في كتب الجمعية مما يتعلق بالعقائد إلا هذه الرسالة مع كونها في كل محل تدندن بأن هدفها هو حفظ عقائد الجزائريين.

والأسف الأكبر ليس على هذا، وإنما على استغلال أعضاء الجمعية الذين أتيحت لهم المناصب بعد الاستقلال ليؤسسوا الأجيال على مثل هذه البساطة والسطحية، فقد قال (محمد الصالح رمضان) الذي كان حينها مديرا للتعليم الديني بوزارة الأوقاف: (ألقيت هذه الدروس املاءً عن أستاذنا الإمام مباشرة في حلق دراسية مسجدية بالجامع الأخضر بقسنطينة في الفترة ما بين 16 رجب 1353 و25 صفر 1354 هجرية (الموافقة لأكتوبر 34 وماي 35 من السنة الميلادية) أي في ثمانية أشهر بنسبة حصة واحدة في الأسبوع لا تتجاوز الثلاثين دقيقة وسط جمع من الطلاب يقارب أحيانا المئة فى أول عهدي بالدراسة العربية الإسلامية، ولما احتجنا إلى هذه الدروس للتعليم الديني بوزارة الأوقاف لنقدمها إلى تلاميذ معاهدنا الإسلامية في فاتح السنة الدراسية (63 - 64) عكفت على تبيضها

---

[1] صحيح مسلم (1/ 93)، مسند أحمد بن حنبل (2/ 350)

[2] ابن باديس، العقائد الإسلامية، رواية وتعليق محمد الصالح رمضان مدير التعليم الديني بوزارة الأوقاف (سابقا)، مكتبة الشركة الجزائرية مرازقه بوداود وشركاؤهما لابن باديس، (ص: 27)

والتعليق عليها بما لا يتنافى والروح السائدة فيها وأنهيت هذا العمل ليلة الإثنين ثاني رجب 1383 الموافقة لليلـة 18/ 11/1963م)[1]

وقد بين سر اختياره لهـا، فقـال: (وأنـا واثـق من أن هذه الطريقة السلفية التي سار عليها أستاذنا الإمام في عــرض العقيــدة الاســلامية هي الطريقــة المثلى لأنهــا تتماشى والفطرة البشرية التي جاء بهـا القــرآن لهدايـة الناس فكانت من جملة أسرار تأثيره في النفوس الــتي فهمته وتـأثرت بـه من أول وهلـة، وانطلقت من جزيـرة العرب، تاركة الأهل والعشيرة والــوطن لتبشــر برســالة اللـــه وتنشــرها في الخـــافقين مســـتهينة بكـــل شـــيء مســتعذبة المــوت في ســبيلها، فكــان النصــر حليفهــا، واندهش العالم للفئة القليلة تقهر الفئات الكثـيرة بـاذن الله)[2]

وهذا يبين سـبب ضـعف التعليم الـديني في الجزائـر بعد الاستقلال وسطحيته ذلك لأن الذين تولوا المناصــب في تلك الفترة تبنوا السطحية السلفية والفطرة البدوية في عالم يموج بالأفكار والأطروحات، وتصوروا أنهم من خلال تلك السطحية يستطيعون أن ينشئوا أجيالا صالحة وقويـة، وهـذا مسـتحيل، فعـالم الأفكـار لا تثبت فيـه إلا العقول القوية، لا العقول البدوية السلفية السطحية.

2 ــــ الحاجـــة إلى العرفـــان العملي لفهم العرفان النظري:

لا يعني ما ذكرنا من أن عقائد الصوفية لا تخــرج عن العقائد الواردة في النصوص أن حظ الصوفية وخصوصا العــارفين منهم من العقيــدة والإيمــان هــو نفس حــظ العــوام، وإلا لمــا افــترق العــوام عن الخــواص، وإنمــا

[1] العقائد الإسلامية لابن باديس (ص: 13)

[2] العقائد الإسلامية لابن باديس (ص: 11)

للصوفية حظ خاص، لا يتناقض مع الحظ السابق، وإنما يضيف إليه ويعمقه.

لكن خصومهم من السلفيين وغيرهم يضعونهم بين خيارين إما أن يقتنعوا بما يفهمه العامة من العقائد مع سطحيته ومحدوديته بل وتناقضه أحيانا كثيرة، وبين أن يتهموا بالحلول والاتحاد والكفر.

ولهذا يحرص الصوفية على أن ينبهوا على أن عقائدهم ومعارفهم الإيمانية هي نفس العقائد الموجودة عند المسلمين لكن الله فتح عليهم بمزيد من الفهم والتفصيل والعمق لم يتح للعوام الحصول عليه بسبب الحجب الحائلة بينهم ونين الوصول إليها.

ولهذا ينبهون إلى ضرورة ما يسمونه (العرفان العملي) لفهم (العرفان النظري)، أو كما عبر ذلك ابن عطاء الله السكندري بقوله: (كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته ؟ أمْ كيف يرحلُ إلى الله وهو مكَبَّلٌ بشَهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرةَ الله وهو لم يتطهَّر من جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هَفَواتِهِ ؟)[1]

ويذكر ابن عجيبة ضرورة الصحبة المصححة لمقاصد المجاهدة، فيقول: (واعلم أن هذا العلم الذي ذكرنا ليس هو اللقلقة باللسان، وإنما هو أذواق ووجدان، ولا يؤخذ من الأوراق وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، وليس ينال بالقيل والقال وإنما يؤخذ من خدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح)[2]

وحتى نقرب هذا المعنى نستشهد له بمثال يتعلق بمعارف البشرية عن الكون قبل اختراع التلسكوب،

---

[1] شرح الحكم العطائية (ص: 26)

[2] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص 4)

وبعده، فقبل اختراع التلسكوب كانت المعـارف بسـيطة محدودة، وأحيانا خاطئة، لكنه باختراع التلسكوب وغـيره من الأجهزة المتطورة تغيرت النظرة للكــون، وتعمقت، وهكذا كلما زاد تطور الأجهزة كلما زادت صـورة الكـون عمقا ودقة.

وهكذا الأمر بالنسـبة للمقصـود من العرفـان العملي وعلاقته بالعرفـان النظـري، فـدور العرفـان العملي هـو تطوير الأجهزة الاستكشـافية في الإنسـان للتوصـل إلى الحقائق بدقة وعمق.

فالحقائق موجودة، ولكن الحوائل النفسية تحول بين الإنسان والوصول إليها، ولهذا ذكر الغـزالي عنـد حديثـه عن علوم المكاشفات الـتي توصـل إليهـا بعـد ممارسـة العرفـــان العملي المتمثـــل في الخلـــوات وأنـــواع المجاهدات والرياضات، كيـف عـرف الحقـائق بصـورتها الحقيقية بعـد أن كـانت مجـرد ألفـاظ وحـروف، فقـال: (علم المكاشفة هو عبارة عن نور يظهر في القلب عنـد تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبـل أسـماءها فيتـوهم لهـا معـاني مجملـة غـير متضـحة فتتضـح إذ ذاك حـتى تحصل المعرفة الحقيقيـة بـذات اللـه سـبحانه وبصـفاته الباقيـات التامـات وبأفعالـه وبحكمـه في خلـق الـدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ومعـنى الـوحي ومعـنى الشـيطان ومعـنى لفـظ الملائكـة والشـياطين وكيفيـة معـاداة الشـياطين للإنسـان وكيفيـة ظهـور الملـك للأنبيـاء وكيفيـة وصـول الــوحي إليهم والمعرفــة بملكــوت الســموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشـياطين فيـه ومعرفـة الفـرق بين لمـة الملـك ولمـة الشـيطان ومعرفة الآخرة والجنـة والنـار وعـذاب القـبر والصـراط والميزان والحساب ومعنى قوله تعالى اقرأ كتابـك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ومعنى قوله تعالى وإن الـدار

الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمـون ومعـنى لقـاء اللـه عز وجل والنظر إلى وجهه الكـريم ومعـنى القـرب منـه والنزول في جـواره ومعـنى حصـول السـعادة بمرافقـة الملأ الأعلى ومقارنـة الملائكـة والنبـيين ومعـنى تفـاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضـهم البعض كمـا يـرى الكـوكب الـدري في جـوف السـماء إلى غـير ذلـك ممـا يطول تفصيله)[1]

ثم بين العلاقــة بين المعــارف العموميــة الســابقة، وهذه المعارف التي لا تتجلى إلا بعد تطهير القلب الـذي هو تلسكوب الحقائق، فقال: (إذ للناس في معاني هــذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى فبعضهم يرى أن جميــع ذلــك أمثلــة وأن الــذي أعــده اللــه لعبــاده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر وأنـه ليس مـع الخلـق من الجنـة إلا الصـفات والأسماء، وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضـها يوافـق حقائقهـا المفهومـة من ألفاظهـا وكـذا يـرى بعضـهم أن منتهى معرفــة اللــه عــز وجــل الاعــتراف بــالعجز عن معرفته، وبعضهم يدعي أمورا عظيمة في المعرفة بالله عز وجل وبعضهم يقـول حـد معرفـة اللـه عـز وجـل مـا انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم)[2]

ويــبين الحاجــة الشــديدة للعرفــان العملي في هــذا المجال، فقال: (نعني بعلم المكاشفة أن يرتفـع الغطـاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضـاحا يجـري مجرى العيان الذي لا يشك فيـه وهـذا ممكن في جـوهر الإنسان لولا أن مـرآة القلب قـد تـراكم صـدؤها وخبثهـا بقاذورات الـدنيا وإنمـا نعـني بعلم طريـق الآخـرة العلم

---

[1] إحياء علوم الدين (1/ 19)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 20)

بكيفية تصقيل هذه المرأة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذي به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعها)[1]

بناء على هذا المعنى المتفق عليه عند الصوفية، فإن الذي يريد أن يجادل الصوفية في الحقائق التي يوردونها ويتفقون عليها ينبغي أولا أن يتحصل على الجهاز الذي حصلوه، وإلا فإنه من مخالفة المنهج العلمي أن يجادل العامي الفلكي في حقائق الكواكب والمجرات.

قد يقال بأن حقائق الدين واضحة، وقد تكفل القرآن الكريم ببيانها، وهكذا يقال كذلك بأن السماء واضحة، ولكن الفلكي يرى في السماء ما لا يرى فيها العامي، وهكذا القرآن الكريم يرى فيه الصوفي العارف المحقق ما لا يرى فيه العامي البسيط.

ولذلك فإن الباحث الذي يحترم نفسه يقع بين خيارين إما أن يسلم للصوفية بما ذكروه من أن معارف الباطن لا تتناقض مع معارف الظاهر، وإنما هي عمق من أعماقها، ولذلك يحكم لهم بما يحكم لسائر المسلمين من الإيمان.

وإما أن لا يكتفي بهذه المرتبة، وهو في هذه الحالة بين خيارين كذلك: إما أن يستعمل الأجهزة التي استعملوها، ليصل إلى الحقائق التي وصلوا إليها، وذلك يقتضي منه السلوك والسير إلى الله والمجاهدة في ذلك، وإما أن يسلم لأمر اتفق عليه الآلاف المؤلفة من

---

[1] إحياء علوم الدين (1/ 20)

الصالحين في كل زمان ومكان.

وهناك خيار ثالث بعد هذا، وهـو أن يتوقـف فلا يحكم لهم بإسلام، ولا يحكم لهم بالكفر.

أمـا الخيـار الأخطـر فهـو أن يتجـرأ فيحكم عليهم بالإلحاد والحلول والكفر، ليطهر الأمة من كل الـذاكرين والصـالحين، ولا يبقى في الجبـة إلا السـطحيون والسلفيون والوهابيون، وهذا ما فعلته الجمعية للأسف.

ولهذا نجد الشيخ ابن عليوة في دفاعه عن الصـوفية في هـذا المجـال يعتب بشـدة على المعترضـين على الصوفية من غير أن يفهمـوا مقاصـدهم، والـتي لا يمكن أن تفهم من غير السلوك، كما لا يمكن للبصـر الضـعيف أن يرى ما في السماء من عجائب، فقـال: (وإذا اسـتقر في ذهنـك أيّهـا القـارىء اللـبيب أن نقطـة البـاء جامعـة لسائر الأحكام والرسوم والمعارف والفهـوم، فمن بـاب أولى وأحرى الكلمة، فسلّم لأهل هذا العلم ولا تستغرب إن رأيتهم استخرجوا من المعـنى الواحـد معـاني شـتى، ومن الكلمة الواحدة كلمـات جمّـة، فلهم أن يسـتخرجوا ما شاءوا من أي شيء شاءوا، تاللـه لـو أراد أحـدهم أن يسـتخرج العسـل من الخـل لفعـل : { يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [الـروم: 19]، وكـلّ ذلك دليل على مـا منحهم اللـه من الأسـرار والمعـارف والأنـوار، فلا تغـتر يـا أخي بـأقوال المغـرورين الـذين ينقصون أولياء الله، ويخوضون في أعراضهم، ويزعمون أنّ لهم يـدا عليهم، ومـا هم إلاّ بمنزلـة الصـبيان معهم، لكونهم لا يـدرون من أي بحـر غرفـوا، ولا لأي جهـة من الجهات توجّهوا) [1]

ونقـل عن الشـيخ (الصـقلي) ذكـره لبيـان المواقـف

---

[1] ابن عليـوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصوفية، ص19.

المختلفــة من العرفــان الصــوفية وعلاقتهــا بالعرفــان الصــوفية، فقــال: (كـلّ من صـدّق بهـذا العلم فهـو من الخاصّة، وكلّ من فهمه فهـو من خاصّـة الخاصّـة، وكـلّ من عبّر عنه وتكلّم فيه فهو النجم الذي لا يدرك، والبحر الذي لا يترك) [1]

وأشار إلى ما ذكرناه من أن المعرفة لا تتنـاقض مـع الحقائق الإيمانيـة الـواردة في النصـوص المقدسـة، بـل هي عمــق من أعماقهــا، فقــال: (ولا نفهم من أخــذهم باطن الألفاظ أن يتركوا ما يقتضيه الظاهر حاشـاهم من ذلـك، بـل يأخـذون مـا لا يقـدر أن يأخـذ بـه غـيرهم من العـزائم وسـيرتهم في ذلـك مشـهورة، ولا ينـاقض هـذا أقوال بعض أهل الجذب الغـالب عليهم الحـال، لكـونهم ناقصـين عن درجـات الكمـال، وأمّـا الكمّـل فـأقوالهم مشـهورة في عـدم انفكـاك الحقيقـة عن الشـريعة، أو العكس منهــا قــولهم : (الحقيقــة عين، والشــريعة أمرها)، ومنها قولهـــم : (من تحقّق ولم يتشرّع فقـد تزندق، ومن تشرع ولم يتحقق فقـد تفسـق، ومن جمـع بينهما فقد تحقق)، ومنها قولهم : (الحقيقة باطنــة في الشـريعة كبطـون الزبـد في اللبن فبمخض اللبن يظهـر الزبــد)، ويقــال : (أنّ الحقيقــة شــجرة والشــريعة أغصانها)، ويكفي في هذا ما قيل : (الشـريعة مقـالي، والطريقة أفعـالي، والحقيقـة حـالي)[2]، وإذا كـان هـذا وصفه عليه الصلاة والسلام فكيف يتأخر عن هذا المقام مثل هؤلاء القـوم، قـد زيّنـوا ظـاهرهم بالشـرع وجمّلـوا

---

[1] ابن عليــوة، المنح القدوســية في شــرح المرشــد المعين على الطريقــة الصوفية، ص20.

[2] لم أجد هـذا الحـديث، وهـو مبـني على مـا ذكرنـا سـابقا من عـدم اهتمـام الصوفية بالتوثيق، واهتمامهم بالمعنى، ولعل الشيخ لم يورده كحديث.

باطنهم بالجمع، وأخذوا من الشرع ما لا يقتضيه الطبع، ولا يسبق إليه السمع، فمن أجل ذلك صار جميع ما يفهمونه عن الله في سائر أحوالهم مأخوذا من الكتاب والسنّة، وقلّما تجد قولا من أقوالهم في الشريعة إلاّ ولهم فيه جميع مراتب الشريعة كالإسلام والإيمان والإحسان، وإن شئت قلت الشريعة والطريقة والحقيقة بخلاف ما عداهم فإنّهم لا يأخذون من القول سوى الظاهر من غير التفات لما له في الباطن من الأسرار القدسيّة والمعاني الغيبيّة، ولهذا احتجب عنهم ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من نظرهم لباطن الأشياء لما وقف الناس مع ظاهرها، وقد مدحهم عليه الصلاة والسلام بقوله : (سيروا هذا جمدان سبق المفردون، قالوا : ما المفردون يا رسول الله؟، قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات)[1] [2]

3 ـ موقف الصوفية من (وحدة الوجود)

قبل أن نذكر موقف الطرق الصوفية من التهمة التي وجهها إليهم خصومهم من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أو من التيارات السلفية أو من غيرهم أن نبين أن (وحدة الوجود) كمصطلح فلسفي وديني له دلالات مختلفة متناقضة لا يمكن الجمع بينها في أحيان كثيرة، وللأسف فإن الكثير من الباحثين يحملون ما شاءوا من المعاني على هذا المصطلح، وبالتالي يحملون الصوفية جرائر كل من يقول بهذا المصطلح حتى لو كان ملحدا.

ولهذا فإن المنهج العلمي يتطلب منا الرجوع إلى الصوفية أنفسهم ليشرحوا لنا مرادهم من (وحدة

---

[1]) صحيح مسلم (8/ 63)، مسند أحمد بن حنبل (2/ 323)

[2]) ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقة الصوفية، ص20.

الوجود)، وعندما نفعل ذلك نجد تعبيرين: تعبيرا شاعريا، وتعبيرا فلسفيا:

التعبير الشاعري عن وحدة الوجود:

وربما يكون أحسن معبر عنه هو ما ورد في الحـديث من قولـه ﷺ : (أشـعر كلمـة تكلمت بهـا العـرب كلمـة لبيـد : ألا كـل شـيء مـا خلا اللـه باطـل) وفي روايـة : (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيـد: ألا كـل شـيء مـا خلا الله باطل)

ففي هـذا الـبيت الـذي أقـره رسـول اللـه ﷺ تعبـير شاعري جميل عن أن الحقيقـة الوحيـدة الموجـودة في الكون هي (الله)، وما عداه باطل ووهم وخيال.

وهـذا التعبـير هـو الـذي يـدور حولـه الـتراث الأدبي الصـــوفي من الشـــعر والمناجـــاة والصـــلوات والحكم ونحوها، فكلها تستنسخ ما ذكره لبيد، وهكـذا لا نجـد في كتب الصوفية الأوائل تلك التحاليل الفلسفية التي نجدها في كتب المتأخرين من الذين حـاولوا أن يفلسـفوا هـذا المعنى.

ولهذا يصطلح البعض على التعبير عن وحدة الوجـــود بالنسبة لهؤلاء بمصطلح (وحـدة الشـهود)، أي أن هـؤلاء الصوفية لم يذكروا الحقيقة كمـا هي في الواقـع، وإنمـا ذكـروا مشـاهدتهم لهـا، والمشـاهدة لا تعـني بالضـرورة الحقيقة المطلقة.

ولهذا فإن أول مـا يفعلـه شـيوخ الطـرق الصـوفية – كما رأينا عند ذكر الخلـوة- هـو إخـراج المريـد من رؤيـة الأكوان، لأنه لا يمكن أن تجتمع الرؤيتان: رؤية الله التي هي مطلوب العارف، ورؤية الكون الذي هو حجابه.

والكون الحجاب – كمـا يـرى الصـوفية – هـو الكـون القـائم بذاتـه، أو الـذي يسـتمد وجـوده من ذاتـه، كمـا يستمد تدبيره من ذاته، وهـذا الكـون لا حقيقـة وجوديـة

له، وبالتالي فإن أول ما يفعله الصوفي هو خلع لباس هذا الكون، أو خلع الشعور به، أو إعدامه، وهذا الإعدام يعبرون عنه بالفناء[1] عن رؤية الأكوان، ويعرفونه بأنه (اضمحلال ما دون الحق)، فيضمحل عن القلب والشهود.

قال الغزالي عند ذكره لمراتب السالكين في التوحيد:(الرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً، فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً في التوحيد، كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق)[2]

وقد ذكر الشيخ ابن عليوة في خطابه للمعترضين على الصوفية من الجمعية وغيرهم أن العلماء الذين يرجعون إليهم لا يخالفون في هذا المعنى، فقال: (إن حضرة ابن القيم زيادة على كونه يحترم مذهب القوم ويجله فإنه خاض في معانيه، وتفنن في معارفه، وشارك في غوامضه، ومن أراد الوقوف على ذلك بنفسه فما عليه إلا أن يتصفح شرحه المسمى بـ (مدارج السالكين على منازل السائرين) للإمام الهروي الحنبلي في غوامض التصوف، فإنه أودع فيه من الحقائق الاختصاصية والمعارف اللدنية ما يثبت له حق

---

[1] يقصد بالفناء في كلام العارفين أمران:

1 ـ فناء سلوكي، وهو تغيير معنوى للسالك بإفناء ميوله ورغباته جميعا من المخالفة إلى الموافقة.

2 ـ فناء بمعنى التجريد العقلى وعدم الالتفات إلى المدركات والأفكار والأفعال والأحاسيس وذلك بانحصاره فى التفكير فى الله، وهذا ما نريده هنا.

[2] الإحياء: (4/212)

المشاركة في الفن)[1]

ثم نقل بعض ما ذكره الشيخ ابن القيم مما تنكر مثله الجمعية، بل تعتبر المعتقد له (شيخ حلول)، فقال: (ومن ذلك ما ذكره في معنى الفناء عند القوم قال: (ليس مرادهم (يعني الصوفية) فناء وجود ما سوى الله في الخارج، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم فحقيقة غيبة أحدهم عن سوى مشهوده، بل غيبته أيضاً عن شهوده ونفسه لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره، وبموجوده عن وجوده وبمحبوبه عن حبه وبمشهوده عن شهوده وقد يسمى حال مثل هذا سكراً واصطلاماً ومحواً وجمعاً وقد يفرقون بين معاني هذه الأسماء وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به فيظن أنه اتحد به وامتزج بل يظن أنه نفسه، كما يحكى أن رجلاً ألقى بنفسه بالماء فألقى المحب نفسه وراءه فقال له ما الذي أوقعك في الماء؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني. وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطاً في ذلك وأن الحقائق مشيدة في ذاتها فالرب رب والعبد عبد والخالق بائن عن المخلوقات ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ولكن في حال السكر والمحو والاصطلام والفناء قد يغيب عن هذا التمييز فهذه الحال قد يقول صاحبها ما يحكى عن أبي يزيد أنه قال (سبحاني) أو (ما في الجبة إلا الله) ونحو ذلك)[2]

وقد علق على هذا النص بقوله: (ولا شك أن هاته المخارج لا تتسع لها إلا صدور من تشبعت قلوبهم من

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، المطبعة العلاوية، مستغانم، ص61.

[2] ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 155)

حسـن الظن برجـال التصـوف بعـد مـا سـبروا حسـن مقاصدهم وسلامة عقائدهم)[1]

ويوجه الشيخ ابن عليوة الجمعية التي تشـددت معـه في موقفها من ديوانه إلى النظر في طريقة تعامـل ابن القيم مـع الهـروي في أبيـات لا تقـل عن الأبيـات الـتي كتبها في ديوانـه، فقـال: (الـذي نـراه أبلـغ في التمـاس المخارج مما سبق من حضرة ابن القيم رحمه اللـه هـو تأويله الأبيات الآتيـة للإمـام الهـروي في معـنى التوحيـد عنده وفيه يقول:

مـا وحـد اللـه من واحد إذ كـل من وحّـده جاحد

توحيـد من ينطـق عن نعته عاريـــة أبطلهـــا الواحد

توحيـــده إيـــاه توحيـــــــــــــــده ونعت من ينعتـــه لاحد

فقال في معنى هاته الأبيات: (أنه مـا وحـد اللـه عـز وجـل واحـد توحيـده الخـاص الـذي تفـنى فيـه الرسـوم ويضمحل فيه كل حادث ويتلاشى فيه كل مكون فإنـه لا يتصور منه التوحيد إلا ببقاء الرسم وهو الموحد وتوحيده القائم به فإذا وحده شهد فعله الحادث واسـمه الحـادث وذلك جحود لحقيقـة التوحيـد الـذي تفـنى فيـه الرسـوم وتتلاشـى فيـه الأكـوان فلـذلك قـال : إذ كـل من وحـده جاحد، هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه)[2]

ثم علق على هذا بقوله: (وهكـذا كـان شـأنه وشـأن

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص60.

[2] ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1/ 147)

من هو على شاكلته فيما يصدر عن القوم من الكلمــات الـتي يستعصـي فهمهـا على الأكـثر من ذوي الإدراكـات المستعدة)[1]

وعند الرجوع إلى مواقـف ابن تيمية الـذي هـو شـيخ السـلفية ومنظرهـا الأكـبر نجـد اعتـدالا كبـيرا في هـذه المسـألة مقارنـة بموقـف جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين، وكأنها للأسف لم تقـرأ شـيئا من كتبـه على الرغم من احترامها الشديد له، فقـد ذكـر مـا يعـبر عنـه الصوفية بالفناء كثيرا في رسائله، وإن كـان يعيب عليـه نقصه عن الكمال وهو يتفق في ذلك مع كل من تحـدث عن هذا الحال..

يقول في مجموع الفتـاوى:(الفنـاء الـذي يوجـد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور: أحـدها فنـاء القلب عن إرادة ما سـوى الـرب والتوكـل عليـه وعبادتـه ومـا يتبـع ذلك، فهـذا حـق صـحيح وهـو محض التوحيـد والإخلاص، وهو فى الحقيقة عبادة القلب وتوكله واسـتعانته وتألهـه وإنابته وتوجهه إلى الله وحده لاشريك له، وما يتبع ذلـك من المعـارف والأحـوال، وليس لأحـد خـروج عن هـذا، وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيـه: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشـعراء: 89]، وهـو سـلامة القلب عن الإعتقـادات الفاسـدة ومـايتبع ذلـك.. وهـذا الفنـاء لاينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء، فيكـون العبـد فانيـا عن إرادة مـا سـواه وإن كـان شـاعرا باللـه وبالسـوى وترجمته قول (لا إله إلا الله)، وكـان النـبى ﷺ يقـول:(لا اله الا الله ولا نعبـد إلا إيـاه لـه النعمة ولـه الفضـل ولـه الثناء الحسن) وهذا فى الجملة هـو أول الـدين وآخـره.. الأمر الثانى فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فنـاء عن الشـهاده، ذاك فنـاء عن

[1]) ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص62.

عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص، فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبرا لعباده آمرا بشرائعه أكمل من شهود وجوده أو صفة من صفاته أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك) (1)

وقال في موضع آخر:(.. وهذا فناء عن ذكر السوى وشهوده وخطوره بالقلب، وهذا حال ناقص يعرض لبعض السالكين، ليس هو الغاية، ولا شرطا في الغاية، بل الغاية الفناء عن عبادة السوى.. وهو حال إبراهيم ومحمد الخليلين ـ صلى الله عليهما وسلم ـ فإنه قد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال:(إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا)(2).. وحقيقة هذا الفناء هو تحقيق الحنيفية، وهو إخلاص الدين لله وهو أن يفني بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيما سواه والبغض فيه، فلا يكون لمخلوق من المخلوقين لا لنفسه ولا لغير نفسه على قلبه شركة مع الله تعالى)(3)

فهذه النصوص وغيرها تدل على أن حال الفناء الذي تحدث عنه الصوفية حال معتبر عند كثير من علماء السلفية أنفسهم، وأن ما يدعيه من يدعي صحبتهما من الدعاوى لا دليل عليه، وهو محض أحقاد تمتلئ بها

(1) مجموع الفتاوى:10/337.

(2) صحيح مسلم (2/ 67)

(3) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الرد على المنطقيين، دار المعرفة، بيروت، ص 517.

النفوس، لا علم معتبر يمكن أن يناقش.

أما ما ذكراه من نقص هذه الحال، فهو صحيح لا شك فيه.. والمتوقف عند هذه الحال والمستلذ لها انقطع به الطريق.. أولم يفهم الغاية منه.. فالخالع للكون الفاني لن يفهم مراد الله من رسائل الكون حتى يعيد لبسه من جديد، باسم الله لا باسمه الذي لا وجود له.

ولكن استنقاص العارفين المتحدثين عن هذه الحال غير صحيح.. ومقارنتهم في ذلك بالسلف الصالح من الصحابة وغيرهم، واعتبار كلامهم بدعة بسبب ذلك أبعد عن الصواب.

ذلك أن الكلام في هذه المسألة يشبه الكلام في التفسير والفقه.. وغيرها من علوم الشريعة.

فكلام المفسر في تفسير غريب القرآن ربما يكون بدعة لم يخض فيها السلف، لا لكونها بدعة، ولكن لكون ذلك الغريب كان مشهورا غير غريب عندهم.

والكلام في دقائق الفقه، وتقسيمه إلى سنن وفرائض وموانع وأسباب .. وغير ذلك بدعة بالنسبة لفقهاء الصحابة.. فلم تدعهم الحاجة في وقتهم إلى مثل هذه المصطلحات.. وهكذا الأمر في هذا الباب..

بناء على هذا، فإن الفناء - عند الصوفية – ليس سوى مرحلة من مراحل السير، أو هو لمعة تلمع في ذهن العارف ووعيه بعد المكابدة والتأمل، ليعود بعدها إلى الكون الحقيقي، وهو الكون المؤسس بنور الله، والموجود بإبداع الله، ليقرأه باسم الله.

فالعارف لا يحتقر الكون بإعدامه، وإنما يرفعه بأن يلبسه لباس العبودية والتوجه إلى الله.

وكما أن أي لابس يحتاج لخلع ثوبه القديم ليلبس الجديد، فكذلك العارف يفني الكون القديم، أو لباس الكون القديم، وهو لباس لا اسم له، ليلبسه لباس الانتماء إلى الله.

ولذلك لا يوجد من يحترم الكون كـاحترام العـارفين، ولا يوجـد من ينسـب الكـون إلى مصـدره كمـا ينسـبه العارفون، فهم لا يقصرون الشرك على الاعتقاد بوجـود النـد للـه، بـل يعتـبرون من الشـرك أو أسـاس الشـرك نسبة الوجود الذاتي للأشياء.

وعلى هـذا المعـنى اتفـق العـارفون، وقـد جمـع ابن عطاء الله كل أقوالهم في ذلك بعبارة مختصـرة فقـال: (الأكوان ثابتة بإثباته، وممحوة بأحدية ذاته)[1]

فالأكوان ـ كما يراها العارفون، وكما هي في حقيقـة الحال ـ عدم محض من حيث ذاتها، وما ثبوتها إلا بإثباتـه تعالى وإيجاده لها وظهوره فيها.

وهم يستشـهدون لهـذا المعـنى بـالمعنى الإشـاري المبثـوث في ثنايـا قولـه تعـالى: {كُـلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصـص: 88] ، فيفهمـون منهـا أن كـل ممكن هو باعتبار ذاته هالك، أو هـو عـدم محض ونفي صـرف، وإنما له الوجود من جهة ربـه، فهـو هالـك باعتبـار ذاتـه، موجود بوجه ربه، أي أن وجوده قاصر على جهة ربه.

وربما يفيد سياق الآية هذا المعنى، فهـو قـد ورد في أثناء الدعوة إلى توحيد الله في الدعاء والعبـادة، ليقـول من جهـة لا تتخـذ أي نـد تـدعوه من دون اللـه فسـيأتي اليوم الذي يهلك فيه، فلا يبقى شيء غير الله، وقد تفيد ما يريده خالعو لباس الكـون المعـدوم من نفي الوجـود الذاتي، فلذلك يكون من دعا غير اللـه، متوجهـا بالـدعاء إلى الوهم، قال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ كُـلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـهُ لَـهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: 88]

ولا تنافي بين المعنـيين، ولا تصـادم بينهمـا، ولا يلغي

---

[1] شرح الحكم العطائية (ص: 109)

أحــدهما الآخر[1]، بــل إن المعــنى الأول مؤســس على المعنى الثاني.

وهكذا يفهم العارفون من كل النصـوص الـواردة في إثبات وحدانية الحق أو أحديته أو أحقيته:

وقــد كـان النـبي ﷺ إذا قـام إلى الصـلاة في جـوف الليل قال من ضمن دعـاء التهجـد:(أنت الحـق ووعـدك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حــق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق) [2]

ففي قوله ﷺ:(أنت الحق) أي واجب الوجود؛ فأصله من حق الشيء أي ثبت ووجب، فوجود الله هـو الوجـود الحقيقي إذ وجـوده لنفســه، لم يسـبقه عـدم ولا يلحقـه عدم؛ وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويجـوز عليـه لحـاق العـدم، ووجـوده من موجـده لا من نفسه، فهو معـدوم باعتبـار ذاتـه في كـل الأحـوال، كمـا قال الشيخ أبو مدين[3]:

اللـــــه قـــــل وذر الوجـــــود ومــــا حـــوى	إن كنت مرتــــاداً بلـــــوغ كمـــــال
فالكـل دون اللـه	عــــــــــــدم على

---

[1] وقد أنكر ابن تيمية هذا التفسير بوجـوه من الإنكـار قـال في التقـديم لهـا:

وإذا كـان المقصـود هنـا الكلام في تفسـير الآيـة تفسـير الآيـة بمـا هـو مـأثور ومنقول عن من قاله من السلف والمفسرين من أن المعنى كل شـيء هالـك إلا ما أريد به وجهه هو أحسن من ذلك التفسير المحـدث، بـل لا يجـوز تفسـير الآية بذلك التفسـير المحـدث، وهـذا يـبين بوجـوه بعضـها يشـير إلى الرجحـان وبعضها يشير إلى البطلان. انظر: مجموع الفتاوى:2/28.

[2] صحيح البخاري (2/ 61)

[3] أبو مدين، الديوان، ص57.

أن حققته … التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها … لولاه في محو وفي اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته … فوجوده لولاه عين محال

والعارفون بربهم لم يشهدوا شيئاً … سوى المتكبر المتعال

ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً … في الحال والماضي والاستقبال

وعبر الآخر عن انشغال العارف بالله عن الكون بقوله:

شغل المحب عن الهواء بسره … في حب من خلق الهواء وسخره

والعارفون عقولهم معقولة … عن كل كون ترتضيه مطهره

فهم لديه مكرمون وفي الورى … أحوالهم مجهولة ومستره

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كما ورد في الحديث كلمة لبيد[1]: ألا كل شيء ما خلا

---

[1]) وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة منها أشعر كلمة تكلمت بها العرب، وفي رواية أصدق كلمة قالها شاعر، وفي أخرى أصدق بيت قاله الشاعر، وفي أخرى أصدق بيت قالته الشعراء، وفي أخرى أصدق كلمة قالتها العرب.

الله باطل[1].

ومن هذا الباب جاءت أسـماء اللـه تعـالى الـتي نص عليها قوله تعالى: {هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَـاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [الحديد: 3]

فالتأمـل في المعـاني العميقـة الـتي تحملهـا هـذه الأسماء يلبس الأشياء جميعـا ثـوب العـدم، ليبقى الحـق وحده هو المتفرد بالوجودالحقيقي.

يقول سيد قطب مبينا عمق المعاني التي تدل عليها هذه الأسماء الحسنى:(وما يكـاد يفيـق من تصـور هـذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى، لعلها أضخم وأقـوى. حقيقـة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجـود على الحقيقـة. فالكينونـة الواحدة الحقيقية هي لله وحـده سـبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [الحديد: 3]

ويقول عن المعاني التي يستشعرها، وهو يعيش في ظلال هـذه الأسـماء:(الأول فليس قبلـه شـيء. والآخـر فليس بعده شيء. والظاهر فليس فوقه شيء. والباطن فليس دونه شيء.. الأول والآخـر مسـتغرقا كـل حقيقـة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكـان. وهما مطلقتان. ويتلفت القلب البشـري فلا يجـد كينونـة لشيء إلا لله. وهذه كل مقومات الكينونة ثابتـة لـه دون سواه. حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقـق إلا مسـتمدا من وجود الله. فهذا الوجود الإلهي هـو الوجـود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجـوده. وهـذه الحقيقـة هي الحقيقـة الأولى الـتي يسـتمد منهـا كـل شـيء حقيقتـه. وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا

[1] صحيح البخاري (5/ 53)، صحيح مسلم (7/ 49)

الوجود)[1]

ونحب أن نبين أن سيد قطب رحمه الله على الرغم من عـدم انتمائـه لأي طريقـة صـوفية، ومـع ذلـك رمي بسبب هذه الكلمات بالقول بوحدة الوجود.

التعبير الفلسفي عن وحدة الوجود:

وهو محاولة تفسير تلك المعاني الشهودية، والتعبـير عنها بلغة فلسفية، وأحيانا الاستشهاد لها بما يستشهد به الفلاسفة من أنواع البراهين، ولعـل أول من اهتم بهـذا، ومارسـه إلى أن نسـبت وحـدة الوجـود لـه هـو الشـيخ محيي الدين بن عربي، والـذي تلقى منـه الصـوفية بعـد ذلك، وصاروا يكررون ما يذكره من معان.

وكمثال على تأثر المدرسة الصوفية الجزائريـة بـابن عربي تأثر الأمير عبد القـادر بـه إلى درجـة كبـيرة جـدا، جعلت منه نسخة من الشيخ محيي الدين نفسه.

وهكذا الأمر، وبصورة أقل الشيخ ابن عليوة، وكمثال على ذلك ما ورد في تفسيره لما يصطلح عليه الصوفية بالنقطـة البائية[2]، والـتي بناهـا على مـا ورد في بعض الآثار من أن : (كل ما في الصـحف في الكتب الأربعـة، وكل ما في الكتب الأربعة في القرآن العظيم، وكـل مـا في القـرآن العظيم في فاتحـة الكتـاب، وكـل مـا في فاتحة الكتـاب في البسـملة، وكـل مـا في البسـملة في

---

[1] سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، (5/ 3161)

[2] ذكرت الدكتورة سعاد الحكيم أن المراد بنقطـة البـاء [عنـد ابن عـربي] : أنها تشير إلى وجود العالم، أي : الموجودات. ووقوعها تحت الباء تمثيل لتبعيـة الموجودات للتعين الأول، وهي رمز الإنسان الكامل عنـد الصـوفية (انظـر: د . سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دار ندرة، بـيروت، الطبعـة الأولى، 1981 ص 181)

بائها، وكل ما في الباء في نقطتها)، فتحصل من هذا أن الكتب المنـــزلة على الأنبيــاء من أبينــا آدم إلى ســيدنا محمد ﷺ مـع ألفاظهـا ومعانيهـا وأحكامهـا مجتمعـة في نقطة الباء مع صـغر جرمهـا، وبـذلك فـإن نقطـة البـاء : جامعة لسائر الأحكام، والرسوم، والمعارف، والفهوم[3] .

وقـد خص هـذه البـاء برسـالته الـتي سـبق الحـديث عنها، والـتي عـبر فيهـا عن مفهـوم وحـدة الوجـود بلغـة فلسفية تميل إلى بعض الشاعرية، ونحب أن نذكرها هنا كما ذكرها، لنرى مدى الانسجام بين لغة ابن عربي ولغة ابن عليوة.

ونحب – قبل أن نـورد النص- أن ننبـه إلى مـا ذكرنـا سابقا من أن اللغـة الصـوفية لغـة تعتمـد الرمـز مطلقـا سواء مـا كـان منهـا شـاعريا أو فلسـفيا، ولهـذا لا يمكن للعقل الحسي الذي لم يترق إلى التجريد وفهم الرمــوز أن يفك المعاني المرادة في حديثهم.

قال الشـيخ ابن عليـوة: (كـانت النقطـة في كنزيّتهـا قبل تجليها بذات الألف، وكـانت الحـروف مسـتهلكة في كنههــا الغيــبيّ إلى أن ظهــرت بمــا بطنت وتجلّت بمــا استترت، فتشكلت في مظاهر الحروف كمـا تـرى، وإذا تحقّقت لم تجــد إلاّ ذات المــداد المعبّــر عنــه بالنقطــة حسبما قيل :

إنّ الحــــــــروف إشــــارات المــــداد فلا	حرف هناك سوى ذات المـــــــــــداد طلا
طلا الحــــــــروف اللـــواتي صـــار صـــبغتها	وهمـــا وصـــبغته صــــــارت ومــــــا انتقلا
بطونهــا كــان في	ظهورهـــا كـــان

---

[3]) الشيخ أحمد بن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشـد المعين بطريـق الصوفية، ص9 .

غيب المـــــــــــداد كم　　　بالتقـــــــــــدير من إلى

فإنّه كان من قبـل الحـــــــــــــروف ولا　　　حــرف ويبقى ولا حـــــــرف هنـــــاك ولا

فللحـروف ظهـور وهي خافية　　　وذاك عين ظهـور للمـــــــــــــداد جلا

والحــرف مــا زاد شــــيئا في المـــداد ولم　　　ينقصه شيئا ولكن فصـــــــــــــل الجملا

وما تغيّر بــالحرف المــــــــــــــداد وهل　　　مع المـداد وجـود للحـــــــــــــرف إلاّ

وأين مــــا كـــــان حــــــرف لم يـــــزل معه　　　مــــداده فاعقــــل الأمثــــــــــــــال ممتثلا

والمعــنى أنّــه ليس شــيء هنــاك ظــاهر في نفس الحــروف ســوى ذات النقطــة المعبّــر عنهــا بالمــداد المطلــــق من أجــل مــا تضــمنته من اســتهلاك ســائر الحــروف في حقيقتهــا قبــل التجلّي وبعــده، إذ ليس للحـــــرف وجـود في الخـارج ولـو بعـد التجلّي إلاّ نفس المـداد، فـالحروف كائنـة بكينونـة النقطـة لا باسـتقلالها مــن استهلاك سائر الكتب في نفس الكلام، واســتهلاك الكلام في نفس الكلمــة، واســتهلاك الكلمــة في نفس الحــرف، والمعــنى أنّــه يلــزم من عــدم الحــرف عــدم الكلمــة، ومن عــدم الكلمــة عــدم الكلام، ومن عــــدم الكلام عدم الكتاب إذ لا وجود للكلمة إلاّ بوجـود الحـرف إمّا لفظا وإمّا خطـا والتفصـيل فـــرع الإجمـال {يَمْحُـو

اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39])[1]

بعد أن بين علاقة النقطة بالحروف رد على توهم القصور والمحدودية فيها، فقال: (جاءت النقطة على خلاف ما في الحروف {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: 11]، فلهذا لا يقع عليها حدّ التعريف كما يقع على غيرها من الحروف، فهي منزّهة عن كلّ ما يوجد في الحرف من طول أو قصر واحتداب، فلا تعقل بما يعقل به الحرف رسما ولفظا فبينونتها من الحرف معقولة وكينونتها فيه مجهولة إلاّ لمن كان بصره حديد { أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: 37]، وإن كانت الحروف من صفتها فحقيقا لا تحيط الصفة بالذات، والمعنى إنّها لا تخص بما تخص به الذات من جميع الوجوه، فالذات مختصة بالتنزيه والصفة قائمة بالتشبيه وإن كان التشبيه هو عين التنزيه من حيث وحدة المداد، لأنّ الحروف تشابهت ببعضها، والتشبيه لا يناقض تنزيه المداد في نفسه، ولا يناقض وحدته الموجودة في كلّ حرف، فلهذا كان التشبيه عين التنزيه حيث تشبه المداد بنفسه لنفسه : ({وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } [الزخرف: 84]، فكيفما كان وحيثما كان فهو إله، ولا يمنعك ما تراه في أرض التشبيه عمّا هو عليه في سماء التنزيه، فكلّ من التنزيه والتشبيه: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: 115])[2]

ثم بين أن ما ذكره جميعا ليس سوى (الوصف العام

---

[1] ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد في معنى انطواء الكتب السماويّة في نقطة بسم الله الرحمن الرحيم، المطبعة العلاوية، مستغانم، الطبعة الرابعة، ص9.

[2] ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد ،ص12.

المتدفق من فياض النقطة على افتقار الحروف، وأمّا وصفها الخاص اللازم لكنهها الغيب فهو لا يمكن ظهوره في الحروف بحال، فالحرف لا يحمل شيئا من لوازم النقطة لا في الصفة ولا في المعنى)[1]

ثم أعطى تشبيها مقربا لذلك، فقال: (ألا ترى أنّك إذا رسمت بعضا من الحروف الهجائية كما هنا (أ ب ت ث) فإنّك تجد لكلّ حرف حرفا آخر مماثلا له، فالباء تماثلها التاء مثلا، ثمّ إذا أردت النطق بحرف من هاته الحروف تجد له مخرجا في النطق يخصّه، وليس للنقطة مخرج خصوصي حتى أنّك إذا رسمتها كما هنا تجد صورتها مباينة لجميع الحروف، وإذا أردت التلفظ بحقيقتها فإنّك تقول النقطة فيجنح بك اللفظ إلى حروف ليست من ذاتها وهي النون والقاف والطاء والتاء فاتضح لنا أنّ النقطة معناها لا تحويه الألفاظ)[2]

وانطلاقا من هذا يقرر هذه الحقيقة العظيمة التي تجعل من هذا المفهوم مفهوما إسلاميا خالصا، بل مفهوما عميقا لا صلة له بما يورده الفلاسفة الملحدون الذين يجعلون الله عين الكون، والكون عين الله، فيقول: (فكنه ذات البارئ جلّ شأنه ليس له لفظ يفصح عن ماهيته، ومن أجل هذا كلّما تكلّم عارف بكلام يريد به التنزيه أو نقول البيان الكلّي لأوصاف الذات يبرز مباينا لقصده لضيق العبارة {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } [الأنعام: 91])[3]

ثم بين الإشكالية الكبرى التي تعترض الصوفية دائما، وهي القدرة التعبيرية عن الحقائق، ذلك أن

[1]) ابن عليوة الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد، ص12.

[2]) ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد ،ص13.

[3]) ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد، ص13.

الحقائق من العظمة بحيث لا يطـاق التعبـير عنهـا، ومن أراد التعبـير يقـع دائمـا في الخلـل، فقـال: (وربّمـا تـبرز الكلمة لتقترب من التشبيه أو التعطيـل، وليس مقصـود العارف إلاّ التوحيد المحض، ألا ترى أنّ المتلفظ بالنقطة هــل أراد التلفظ بها أم بالحروف الثلاثة {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد: 33]، ولولا قيوميّتـه لم ير موجود قائم البنية لذاته بهذا الاعتبار)[1]

ثم بين علاقة النقطة بالقدرة المطلقة التي تـبرز مـا تشاء كيـف تشـاء، فقـال: (وبـذلك أيضـا اتسـعت دائـرة الكلمات فكانــت لا نهاية لها {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْـرُ مِـدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِمَـاتُ رَبِّي وَلَـوْ جِئْنَا بِمِثْلِـهِ مَـدَدًا } [الكهـف: 109]، وكيـف ينفـد من لا نفـاد لـه، وهـذه الكلمـات هي المتجليّـة بسـائر الكلام {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَـرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـهُ} [النسـاء: 171]، أي تجلّى بها إلى مريم {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} [مـريم: 17]، فكـلّ كلام مفـرع عن الكلمـة، فالكلمـة كنايـة عن تجليـه بنفسـه لنفسـه، والكلام كنايـة عن تجليـه بخلقـه لخلقه، فـالكلام فـرع الكلمـة، والكلمـة فـرع الحـروف، والحـروف فــرع النقطـة، والنقطـة هي السـرّ المحيـط بالجميع {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا} [النساء: 126]، وعليــه إذا جـرّدت الحـرف من النقطـة لم تجـد شـيئا، ووجــدت اللــه عنــده وتعــرف حينئــذ أنّ النقطــة هي الظاهــرة بكـلّ شـكل ومبـنى وصـورة ومعـنى، كـانت النقطة في عمائها الأول حين لا فصل ولا وصـل ولا بعـد ولا قبل ولا عرض ولا طول، وكلّ الحروف مستهلكة في كنهّها الغيبيّ كما تقـدم كمـا كـانت الكتب مسـتهلكة في الحـروف على اختلاف مـدلولاتها، واسـتهلاك الكتب في الحروف يشعر به كلّ من له أدنى شـعور إذ لـو فتشـت

---

[1] ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد، ص14.

الكتاب لم تجد فيه ظاهرا على صفحاته حاملا لمعانيه غير الثمانية وعشرين حرفا فهي المتجليّة بكلّ لفظ ومعنى، تتلّون بالألفاظ المختلفة والمعاني المتباينة إلى {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [مريم: 40]، {أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } [الشورى: 53]، فتصير الحروف إلى مركزها الأصليّ حين لا شيء إلاّ ذات النقطة)[1]

ثم بين سر الرحمة التي نشأت منها كلمات الكون جميعا، فقال: (ثمّ اعلم : أنّ النقطة كانت في عمائها حالة استهلاك الحروف في ذاتها، وكان لسان كلّ حرف يطلب ما تقتضيه حقيقته من طول وقصر وعمق وغير ذلك، وهكذا تحرّكت دواعي الكلام على وفق ما تقتضيه أوصاف النقطة الكامنة في ذاتها))[2]

بهذه اللغة البسيطة الممتلئة بالأمثلة المبسطة حاول الشيخ ابن عليوة أن يفلسف سر نشأة الكون وعلاقته بخالقه، ويفسر على أساس ذلك مشاهدات العارفين، وهو بذلك يطرح التصور الصحيح لمعنى وحدة الوجود الذي لا يلغي الخالق، ولا يلغي الخلق، وإنما يجعل الخلق قائما بالخالق، مفتقرا إليه في كل نفس.

وقد شرح الشيخ ابن عليوة – قبل ذلك كله- مراده من رموزه مع وضوحها لمن له اطلاع على كتب الصوفية، فقال: (وكلّما ذكرت آدم فنعني به نزول الحقّ إلى سماء الدنيا, ونعني بالدنيا بطون الكائنات في غياهب الأسماء والصفات, ونعني بالصفات ظهور الحقّ لنفسه عند تجليه الأول, وبالأسماء ظهور الصفات لنفسه عند التجلي الثاني, والأول هو عين الثاني, وهذان

---

1) ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد ،ص15.

2) ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد ،ص15.

رتبتان: هما المعبّـر عنهمـا بالأوليّـة والأخريّـة, والظهـور والبطون, فظهوره في بطونه, وأوله في آخره ومن هنـا يقـال: لا نفي ولا إثبـات إنّمـا هـو ذات في ذات وهاتـه الذات هي المعبّر عنها في لسان القوم بوحـدة الشـهود والمشـار إليهـا في الأثـر الشـريف بالنقطـة, وهي الـتي تـدفقت منهـا سـائر الكائنـات حسـبما تقتضـيه الأسـماء والصفات, وكلّما ذكرت النقطة فنعـني بهـا غيب الـذات المقدّسة المسمّاة بوحدة الشهود, وكلّمـا ذكـرت الألـف فنعني به واحد الوجود المعبّــر عنـه بالـذات المسـتحقّة للربوبيّة, وكلّمـا ذكـرت البـاء فنعـني بهـا التجلّي الأخـير المعبّر عنه بالروح الأعظـم, ثمّ بقيّة الحروف, والكلمات والكلام فعلى حسب ما يقتضيه المقام)[1]

هذا هو التوضيح الممكن في هذا الباب، أما ما عـداه فغير ممكن، لأن لكل فن لغته الخاصة به، ولا يمكن لأي لغة في الدنيا أن تعبر عن مثل هـذه الحقـائق العظمى، فلــذلك يعوضــها الصــوفية بلغتهم الرمزيــة البســيطة الجميلة الواضحة.

والعجب من الـذين ينكـرون هـذا لعـدم فهمهم لـه، ونحن نقول لهم: إن أكثر الناس لا يفهم نظرية النسبية، ولا ســر أرقامهــا ورموزهــا، وذلــك لا يعــني أن نظريــة النسبية غير صحيحة ولا غير واقعية.

والسر في هذا أن الحقـائق الكـبرى لا يمكن التعبـير عنهــا بلغــة لم توضــع أصــلا إلا للحســيات، وهي لــذلك أضعف من أن تطيـق حمـل مثـل تلـك المعـاني العاليـة التي يشير إليها خاصة الأمة.

وللأسف فإن الذين ينكرون هذا يحملون عادة تصورا مشــوها عن اللــه بحيث يعتبرونــه كجــرم من الأجــرام السماوية المحدودة المجســمة، وإذا مــا عرضــت عليهم

---

[1]) ابن عليوة، الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد ،ص8.

مثل الطروحات الممتلئة بالتنزيه والتعظيم خلطوها بما في نفوسهم من التبشبيه والتجسيم، فلم يجدوا إلا أن يضللوا قائل ذلك أو يكفروه.

وللأسف وقعت الجمعية في هذا لا مع الصوفية وحدهم، بل مع التنويريين أيضا، والذين رأينا مدى الصلة التي تربطهم بهم، فابن باديس حكم بضلال عمدة من عمد السلفية التنويرية وهو الأستاذ محمد فريد وجدي عند عرضه لكتابه (الإسلام دين علم خالد)[1]، فمما جاء في عرضه له قوله: (ألف الأستاذ محمد فريد وجدي كتابا تحت هذا العنوان بحث فيه في الوحي والدين والإسلام، فوفى البحث حقه. وقد كان بعض المعجبين بالأستاذ أطلعني على الكتاب فوقفت فيه على أشياء أنكرتها منها: تعبيره عن موجد الكون بروح الكون وجعله الحياة الإنسانية قبسة من الحياة الوجودية، ويعني بالحياة الوجودية ما عبر عنه بروح الكون وهذا صريح في أن الروح الإنسانية مأخوذة من الله تعالى، جل الله عن ذلك، وكيف يؤخذ الحادث من القديم؟ ومنها زعمه عن الموجودات (ص 12) أنها سابحة في روح الوجود سبح الحيتان في المحيط الزاخر، منه وجدت وبه تحيا وفيه تفنى، وكما كان تعبيره عن موجد الكون بروح الوجود من العبارات الحلولية الموهمة أن الموجد سار في الموجودات فقد كان تعبيره هنا بأنها سابحة فيه وتفنى فيه مقتضيا أنها حالة فيه وكلا الأمرين محال باطل اعتقاد)[2] إلى آخر ما أنكره عليه.

ولست أدري لم لم ينكر قبله على الشيخ محمد

---

[1] الشهاب: ج 7، م 12، ص304 - 311 غرة رجب 1355هـ - أكتوبر 1936م.

[2] آثار ابن باديس (3/ 51)

عبده، فقد كتب في (رسالة الواردات في سر التجليات)[1] ما هو أخطر من هـذا من كثـير، فالكتـاب مبـني على منهج ابن عــربي وأمثالــه، ولســنا نــدري هــل الجمعيــة اطلعت على الكتــاب وكتمتــه خشــية أن تنتصــر لشــيخ الحلول وطريقته، أم أنها لم تطلع عليه، وهذا يــدل على جهل كبير بالشيخ الذي تعتبره أستاذا لها.

ولهذا نجد الشيخ ابن عليوة في ردوده على الجمعية وغيرها من المنكـرين يـذكر لهم مواقـف الشـيخ محمـد عبده من مثل هذه القضايا، فقد ذكـر أن الشـيخ محمـد عبده لم يكن صوفيا سلوكيا فقـط، بـل كـان فـوق ذلـك صوفيا عرفانيا، يقول الشيخ ابن عليـوة: (أمـا معلوماتـه في مشرب القوم الصوفية فهي تبرهن بنفسها على أن له قدماً راسخةً في معلومـاتهم وإن شـئت قلت: رحمـه الله من المتغالين في إثبات وحدة الوجود على ما يشبه

[1] (رسالة الواردات في سر التجليات)، وهي رسالة صوفية سلمها عبده قبـل وفاته إلى رشيد رضا الذي نشرها في الطبعـة الأولى في المنشـآت ثم حـذفها في الطبعة الثانية، وهي أول رسالة ألفها الشيخ محمد عبده في وقت صــحبته السيد جمال الـدين الأفغـاني عـام 1290 وهي عبـارة عن جزئيـات أومـأ اليهـا السيد بكتابتها سنة 1288هـ كما قال، تبـدأ بعـد البسـملة والحمـد بالثنـاء على جمال الدين (كالغيث أرسل لإحياء نعمـة التفكـير في العلـوم الحقيقيـة)، وقـد تحدث فيها على منهج العرفاء من الصوفية.

وعندما نشر محمد عمارة الأعمال الكاملة نفى الأثـر كليـا عن عبـده كمـا نفى كتاب (الحاشية على شرح الـدواني للعقائـد العضـدية) من السـيد رشـيد رضا، (انظر: محمد الحداد، محمد عبده.. قراءة جديدة في خطاب الإصــلاح الــديني، أطروحة دكتوراه في الســربون تحت إشـراف محمـد أركـون, الطبعـة الأولى, بيروت: دار الطليعة, 240)

مشرب (ابن العربي الحاتمي) حسبما قدمناه)[1]

ومما نقله عنه في هذا المجال (ما جاء عنه في الجزء الثاني من رسالته (المسماة بالواردات)، فقد جاء فيه ما نصه بعد كلام: (ولنرجع لتحقيق الحق فنقول أنت تعلم أنه لما لم يكن وجود إلا لذاته فحقيقته حقيقة الحقائق وذاته ذات الذوات وجميع ما تتوهمه إنما هو من الاعتبار لتلك الذات فلابد أن تقول أن علمه عين ذاته وهو عين علمه بذاته وهو عالم بجميع شؤونه وأطواره وأن جميع ما تشرف بالبروز فإنما هو تجلي ما في العلم ولكن لضيق ظرف الخارج عن أن يسع المراتب الغير المتناهية التي يقتضيها حسبما لكل شيء في ذاته حصل الترتيب في التجيلات فكما أن ذاته واحدة بالذات والكثرة إنما وقعت في عالم التجليات فما برز في الوجود إلا ما كمن في العلم الذاتي، ولا فصل إلا ما أجمل فيه، فهو العالم بكل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة، فدقق النظر، وإياك أن تحجبك الكثرة عن ذات الوحدة، فإن البحر لو علم بذاته فليس يحتاج إلى علم آخر يعلم به أمواجه، وهذا قد يوافق وجه قول من يقول أن العلم قديم ومتعلقه حادث، ولكن قد ضل سواء السبيل فوقع في تيه الأباطيل وأيضاً يقرب مما يقال أن للأشياء وجوداً علمياً ووجوداً شهودياً ومما يقال أن للشيء وجوداً بحسب ذاته ووجوداً في ذات العلة فتفطن وطبق إن كنت من أهل النظر)[2]

وقال في ثبوت الواجب بعد كلام: (فإذاً حدوث شيء من العدم الصرف محال وهذا حكم بديهي قد نبهناك

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص69.

[2] الشيخ محمد عبده، رسالة الواردات في نظريات المتكلمين والصوفية في الفلسفة الإلهية، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الثانية، 1925، ص5-6، وانظر: ابن عليوة، الناصر المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص69.

عليه فإذاً جميع ما صدق عليه اسـم الممكن محتـاج إلى علة ليست تلك العلة مباينة له بالمرة، وتلك العلة تنتهي إلى مرجـع خـارج عن ماهيـة الإمكـان وهـو الـواجب الحقيقي الذي هو وجـود لذاته، وكـل مقيـد فهـو محتـاج إليه وهو منتهى التقيدات ومرجعهـا {وَإِلَيْـهِ يُرْجَـعُ الْأَمْـرُ كُلُّهُ } [هود: 123]ـ مع كون المعلول ليس مباينـاً لعلتـه كـذلك هـو ليس عين العلة، ولكن طـور من أطوارهـا وشـأن من شـؤونها ولا وجـود لـه إلا وجودها، فـإذاً ليس في الوجـود الحقيقي الـذاتي إلا ذات مطلقـة واحـدة لا تعدد فيهـا إلا بتعـدد اعتباراتها، ولا تقييـد فيهـا بوجـه من الوجـوه وهـو واجب الوجـود فـافهم. ليس في الإمكـان أوسع من هذا البيان، وتوضـيح الواضـح مشـكل، فـالحق بين يـديك ظـاهر فلا تشـغل نفسـك بأباطيـل التسلسـل فإنه تحتاج إلى أوهام ملء الأكوان)[1]

ثم ذكـر أمثلـة على ذلـك تقـترب كثـيرا ممـا يضـربه الصـوفية من الأمثلـة، فقـال: (تقـريب لا تسـتبعد أن المعلول شأن من شـؤون علتـه فإنـك لسـت تغفـل عن كـون الـبيت شـأناً لأجزائهـا واعتبـاراً من اعتباراتهـا، والشـجرة طـور من أطـوار الحبـة وشـأن من شـؤونها، والأمـواج طـور من أطـوار البحـر وشـأن من شـؤونه، وهكـذا جميـع الأمـور.. والعجب للمتكلمين والحكمـاء المقلدين لمـا عجـزوا عن الارتقـاء إلى درجـات الكمـال كيف اتخذوا العدم سلماً لتطلـع الحقيقـة، ويزعمـون أن هـذا تنزيـه لحضـرته، ولكن نحن نقـول فليس وجـود إلا وجـوده وليس وصـف إلا وصـفه فهـو الموجـود وغـيره العـدم.. قـال الأمـراء الأولـون أبـو بكـر وعمـر وعثمـان وعلي ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله أو بعده أو فيه أو

[1]) الشيخ محمد عبده، رسالة الواردات في نظريات المتكلمين والصـوفية في الفلسفة الإلهية، مطبعة المنـار، مصـر، الطبعـة الثانيـة، 1925، ص6، وانظـر: ابن عليوة، الناصر المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص70.

معه كل واحد من هـذه الأقـوال ينسـب لواحـد منهم ولا يقعن في وهمـك أن هـذا قـول بـالحلول فـالحلول إنمـا يكون بين وجودين أحدهما حال في الآخر ونحن نقـول لا وجود إلا وجوده) [1]

4 ــ موقف الصوفية من (الحلول والاتحاد)

بناء على ما سبق من مفهـوم (وحـدة الوجـود) عنـد الصوفية، فإن أي عاقل يجزم باستحالة قـولهم بـالحلول أو الاتحاد، ولو لم يطلع على إنكارهم لذلك.

ولهذا فإنا نرى أن في جمع الجمعية للتهمتين جميعـا في محل واحد، ورميهم للطرق الصوفية بهما دليل على أنهم إمـا لم يفهمـوا المـراد من وحـدة الوجـود، أو لم يفهمـوا المـراد من الحلـول والاتحـاد، أو لم يفهموهمـا جميعا، وهذا هو الظاهر باعتبار أن ثقافة رجال الجمعيــة فيما يخص المعـارف العقليـة والصـوفية محـدودة جـدا، حتى أنا لا نـرى من خلال مقـالاتهم الرجـوع إلى أبسـط المصادر الصوفية كالإحياء ونحـوه، وكيـف يمكن لمن لم يدرس كتب أي طائفة ويفهم مقاصدها أن يحكم عليها.

ولهذا فإنا نرى أن الجمعية في هـذا البـاب لم تفعـل سوى التقليد لأعدى أعداء الصـوفية، وأنهـا تجنبت حـتى مقولات علماء التيارين السـلفيين المحافـظ والتنـويري، فلـو أنهـا طـالعت كتب ابن تيمية أو ابن القيم أو محمـد عبده لم تقع في مثل تلك الأحكام.

ولهذا فإن الشيخ ابن عليوة – كمـا ذكرنـا في محـال سـابقة- يرشـد الجمعيـة إلى مطالعـة كتب ابن تيمية، وكيف تعامـل مـع الصـوفية والتصـوف، وقـد قـال فيمـا يرتبط بهذا المحـل: (إن ابن تيمية رحمـه اللـه مـا كـان

---

[1]) الشيخ محمد عبده، رسالة الواردات في نظريات المتكلمين والصـوفية في الفلسفة الإلهية، مطبعة المنـار، مصـر، الطبعـة الثانيـة، 1925، ص6، وانظـر: ابن عليوة، الناصر المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص70.

من عادته أن يجر ذيل الإنكار على مذهب التصوف برمته، ولا عرف بنظير ما تظاهرتم به أنتم ومن تقاسمكم في غلطكم، انما في غلطكم إنما ينتقد بعض كلمات على جماعة مخصوصين، ومع ذلك تجده يلتمس ما يستطاع من الأعذار لرجال التصوف، وهكذا تجده يحرص جهده في طريق حمل ما يصدر عن القوم من الألفاظ المبهمة والمتشابهة على ما ينبغي حمله عليه)[1]

ثم نقل عن ابن تيمية من كتابه (الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح) بعد تمهيده لما يصدر عن الصوفية من الشطحات أو الألفاظ الموهمة للحلول والاتحاد فقال: (وهذا يكون اما لضعف العقل او قوة سلطان المحبة والمعرفة فيغيب الانسان بمعبوده عن عبادته وبمحبوبه عن محبته وبمشهوده عن شهود العبد لا انه بنفسه يُعدم ويبقى من لم يزل في شهوده ومن هذا المقام ما يحكى عن ابي يزيد البسطامي من قوله (سبحاني) او (مافي الجبة إلا الله)[2]

ونقل عنه في هذه حكاية وهي (ان شخصاً كان يحب آخر فألقى المحبوب نفسه خلفه فقال له انا وقعت فلم وقعت أنت؟ فقال غبت بك عني فظننت انك اني، فهذا العبد المحب لما استولى على قلبه سلطان المحبة صار قلبه مستغرقاً في محبوبه لا يشهد قلبه غير ما في قلبه وغاب عن شهود نفسه وأفعاله فظن أنه نفس المحبوب

---

1) ابن عليوة، الناصر المعروف، ص63.

2) انظر: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق : د.علي حسن ناصر ,د.عبد العزيز إبراهيم العسكر ,د. حمدان محمد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، 1414ـ (3/ 337)، وانظر: ابن عليوة، الناصر المعروف، ص63.

إلى أن قال ومن تصور له هـذا الأمـر تـبين لـه أن لفـظ الحلول قد يعبر به عن معـنى صـحيح وقـد يعـبر بـه عن معنى فاسد إلخ) [1]

ونقل عنه (في معنى الاتحاد الذي قد يؤخـذ من كلام الصوفية بعد كلام وتمهيد إنما العقلاء تتوجه قلـوبهم إلى المقصود المـراد دون الوسـائل ويعـبرون بعبـارات تـدل على ذلـك لظهـور مـرادهم كمـا يقـول لمن يعـرف علم غـيره ولمن يـأمر بـأمره ويخـبر بخـبره هـذا فلان اي المطلوب هو مع هذا فيعبرون عن أحـدهما بلفـظ الآخـر كما يقال (عكرمة هو ابن عبـاس) وأبـو يوسـف هـو أبـو حنيفة وهذا هو الاتحاد الذي يشـير لـه القـوم. ومن هـذا الباب ما يذكر عن المسيح عليـه السـلام انـه قـال: (أنـا وأبي واحد، من رآني فقد رأى أبي)، وقوله تعالى فيمـا حكاه عنه رسوله ﷺ: (عبدي مرضت فلم تعدني.. عبدي جعت فلم تطعمني) [2] ويشبهه قولـه تعـالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَـكَ إِنَّمَـا يُبَـايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح: 10]، فينبغي أن يعرف هذا الكلام فإنه تنحل به إشكالات كثيرة فإذا كـان مثـل هـذا موجـوداً في كلام اللـه ورسـوله وكلام المخلـوقين في عامـة الطوائـف مـع ظهـور المعـنى

---

[1] ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (3/ 338)

[2] نص الحديث كما في (صحيح مسلم (8/ 13): (إن الله عز وجل يقول يوم القيامـة يـا ابن آدم مرضـت فلم تعـدنى. قـال يـا رب كيـف أعـودك وأنت رب العالمين. قال أما علمت أن عبـدى فلانـا مـرض فلم تعـده أمـا علمت أنـك لـو عدته لوجدتنى عنده يا ابن آدم اسـتطعمتك فلم تطعمـنى. قـال يـا رب وكيـف أطعمك وأنت رب العـالمين. قـال أمـا علمت أنـه اسـتطعمك عبـدى فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجـدت ذلـك عنـدى يـا ابن آدم استسـقيتك فلم تسقنى. قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى)

ومعرفـة المتكلم والمخـاطب أنـه ليس المـراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر بل أبلغ من ذلك يطلق لفـظ الحلول والاتحاد ويراد به معنىً صحيحاً)[1]

ثم علق على هذا النقل بقولـه: (وأطـال النفس في ذلك كثيراً، وهذا شـأنه في التمـاس المخـارج للسـادات الصـوفية وكثـيراً مـا يشـاركهم في أذواقهم ومشـاربهم العذبة)[2]

بناء على هـذا لا نـرى أننـا نحتـاج إلى أدلـة الصـوفية المطولة في بيان استحالة الحلـول والاتحـاد، ولكنـا مـع ذلك نذكر كلاما مختصـرا رد بـه الشـيخ ابن عليـوة على المنكـرين عليـه مـا ورد في ديوانـه من أبيـات تـوهم الحلـول أو الاتحـاد، وهي رسـالة بعث بهـا إلى أحـد الأساتذة المدرسين بحاضـرة تـونس (جـامع الزيتونـة)، ومما جاء فيهـا ممـا لـه علاقـة بهـذا قولـه: (ذكـرتم في مضـمونها أنّ في إنشـادنا من الألفـاظ مـا لا يخـرج عن القـول بالحلول أو الاتحاد إلاّ بالتأويل البعيد، وهـذا أيضـا ينظر فيه، لأنّك إمّا أن تريد بقولك هذا تحقيـق المـذهب من جهة مصطلح القوم، وما بنيت عليه قواعدهم، وهـذا قد حصل فيه للأمّة المحمديّة ما يقرب من الإجماع، من جهة تسليمهم للقوم في شطحاتهم، وإنّ القوم أنفسهم لا يكلفـون النـاس العمـل بمقتضـى شـطحاتهم، فهي عندهم إلى الـرد أقـرب منهـا إلى الأخـذ، وعلى هـذا فلا يبعد أن يكون ما صدر منا داخلا فيما قبله، وإن أردت أن تستصـغر ممّـا سـمعته منّـا فلتطبقـه على مـا قبلـه من أقـوال غيرنـا، ثمّ تحكم بمقتضـى الإنصـاف وهـذا إن لم تكن ترد معارضتنا شخصيّا، حتى لو قلنا لك قصدت ذلك على احتمـال، فلا يتسـنى لكم أن تفـردوا لنـا حكمـا

[1] ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (4/ 79)

[2] ابن عليوة، الناصر المعروف، ص65.

بالخصــوص دون مــا يصــدق على كــلّ من يشــاركنا في القول المحكوم به علينا، وقبل هـذا يثبت الحكم، بـأن لا يتعجّل بالحكم قبل أن يتخيّل إفراد المحكــوم عليهم من سلف الأمّة وخلفها)[1]

ونحســب أن هــذا الــدليل كــاف في بيــان أن مــراد الشــيخ ممــا كتبــه في ديوانــه ليس على مــا يتــوهم من الحلول والاتحاد، وإنما هــو على طريقــة الشــعراء، وابن تيمية كما رأينا وإن كان ينكر ذلك إلا أنــه لم يتجــرأ على الحكم على أصــحابه بــأنهم مشــايخ حلــول كمــا فعلت الجمعية.

المطلب الثاني: وحدة الأديــان بين الجمعيــة والصوفية

من التهم التي اتهمت به الجمعية الطــرق الصــوفية، ولكن في إطار محدود اتهامهم لها -وخصوصــا الطريقــة العلاوية - بكونها من القائلين بوحدة الأديان[2].

---

[1]) ابن عليــوة، أعــذب المناهل في الأجوبــة والمســائل، نقلا عن: صــفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص166.

[2]) يــراد عــادة بهـذا المصـطلح (اعتبـار الأديـان الثلاثـة – اليهوديـة والنصـرانية والإسلام – بمثابة المذاهب الفقهية الأربعة، والتي يجوز أن يتعبد بأيّ منها على السواء، وأنه لا فرق بينهما، مادام أن الجميع مؤمنون بوجود الله)

ومن شـعارات هـذا التوجـه: (الإخـاء الـديني، الصـداقة الإسـلامية المسـيحية، الإبراهيمية، المؤمنون، الديانة العالمية، وحدة الكتب السماوية.)

ومن منجزاته فكرة طبع: القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل في غلاف واحـد، وإقامة مسجد وكنيس ومعبد في محيط واحد.

ثم دخلت هذه الدعوة في: الحيـاة التعبديـة العمليـة ؛ إذ دعـا البابـا إلى إقامـة صلاة مشتركة من ممثلي الأديان الثلاثة: الإسلاميين والكتـابيين، وذلـك بقريـة: أسِـيس في: إيطاليـا فـأقيمت فيهـا بتـاريخ: 27/10/1986م، انظـر: الإبطـال

ولعل من أهم ما يدل على هذا ما ذكره الزاهري من أن من أتباع الطرق الصوفية يهود ظلوا على يهـوديتهم، وأن العلاقة الـتي تربـط مريـدي الطريقـة بهم أكـثر من العلاقة التي تربطهم بالمسـلمين، فيقـول – على لسـان هذا الطرقي التـائب - : (كـان اليهـود في بعض نـواحي الصحراء، قد دخلوا هم أيضـاً في الطـرق الصـوفية، من غير أن يـدخلوا في الإسـلام، وكـان قـد اعتنـق طريقتنـا منهم عدد غير قليل، فجعل سيدنا عليهم (مقدما) يهودياً منهم.. ولا أكتمكم، أننا كنـا نحب هـذا المقـدم اليهـودي، ونحب هؤلاء اليهـود الـذين هم إخواننـا من الشـيخ أكـثر ممـا نحب أي مسـلم من المسـلمين، الـذين يتبعـون الطـرق الأخـرى،وكمـا أن اليهـود يسـمون غـيرهم- [الكوييم]- فإننا نحن أيضاً نسـمي غيرنـا من المسـلمين باسـم القراميـط.. وبالجملـة،فلم نكن نعـرف الحب في الله،والبغض في الله،وإنما كنا نعـرف الحب في الشـيخ والبغض في الشيخ) [3]

ولتبين حقيقة هـذه التهمـة نحب أن نراجـع مـا كتبـه الصوفية، وخصوصا رجال الطريقة العلاوية، لنرى محـل هذه التهمة من الصحة وعدمها.

ومن خلال هـذه المراجعـة نـرى أن للصـوفية ثلاث مقامات في العلاقة مع الأديان، وهي ترتبـط بمقامـاتهم الثلاثة: الشريعة والطريقة والحقيقة.

فالمقام الأول: هو مقام الشـريعة، والمقـام الثـاني: هو مقام الطريقة، والمقام الثالث: هو مقام الحقيقة.

وسـنبحث عن موقـف الطـرق الصـوفية وخصوصـا

لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغـيره من الأديـان، الشـيخ بكـر أبـو زيـد، دار العاصمة، الرياض ص 23.

[3] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية العـدد(7)، ص(3)

الطريقـة العلاويـة من هـذه المسـألة وفـق المقامـات الثلاث.

أولا ــ مقام الشريعة:

من خلال الاطلاع على مـا كتبـه الصـوفية في هـذا المقـام نجـدهم لا يختلفـون عن سـائر المسـلمين في موقفهم من الأديان، وبطلانها، وأن الـدين الوحيـد الـذي يجب اتباعه هو الإسلام، وأن كـل مـا عـداه ضـلالة، كمـا قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًـا فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 85]

وبما أن التهمة موجهـة خصوصـا للطريقـة العلاويـة، فإنا نحب أن نرجع هنا إلى شيخ الطريقة العلاوية نفسـه لنتين من خلالـه تعاملـه الشـرعي مـع غـير المسـلمين، وخصوصـا المسـيحيين، وخصوصـا منهم من كـانوا في الجزائر في ذلك الحين.

ومرجعنا في هذا ثلاثة رسائل من أهم رسائل الشيخ لم تلــق العنايــة الكافيــة، وهي جميعــا موجهــة لغــير المسلمين خصوصا، فمن خلالها نستطيع أن نرى موقف الشيخ من سائر الأديان، وهل يقـول بوحـدة الأديـان في هذا الجانب أم لا؟

1 ـــ الأبحـــاث العلاويـــة في الفلســـفة الإسلامية:

وهي الرسالة الأولى، والتي طبعتهـا (جمعيـة أحبـاب الإسلام)، بباريس باللغتين العربية والفرنسـية (1984)، تحت عنوان (الأبحاث العلاوية في الفلسـفة الإسـلامية)، وهي مجموعة أبحاث أراد الشيخ من خلالها بيان ضرورة الشـيخ وأهميتهـا لحيـاة الإنسـان والمجتمـع، وقـد صـاغ أبحاثـة فيهـا على شـكل فلسـفي منطقي حـتى يقـرب معانيها لغير المسلمين أولا، وللمسلمين المــترددين في صلاحية الدين ثانيا.

وقد تحـدث في هـذه الرسـالة عن حقيقـة الإنسـان،

ووظيفته في المجتمع الذي يعيش فيه، وافتقار المجتمع الإنساني إلى السلطة التي تسوسه، وكـون التشـريعات الوضعية المتغيرة لا تحل محـل الشـرائع الإلهيـة الثابتـة الحقائق، وخلوها من الأغراض الشخصـية الـتي لا تنفـك عنهـا تشـريعات البشـر، لكـون العقـل يتطرقـه الخطـأ كغـيره من المـدركات، وأن الفلسـفة الصـحيحة لا تنفي وجـود المدنيـة لهـذا العـالم لأن التـدين غريـزة البشـر، والإنسان العصري أحوج إلى التدين من الإنسان الغـابر، ويقـرر الشـيخ أن مقاصـد الشـرع لا تخـرج من مراعـاة حفظ الضروريات للإنسان.

وهو في هذه الرسالة كما نرى لا يـدعو إلى الـدخول في الإسـلام فقطـ، بـل يـدعو إلى تحكيمـه في الحيـاة جميعا.

وعلاقة هذا الكتاب بما نحن فيه واضحة، فالشـيخ لا يدعو إلى تحكيم اليهودية ولا النصرانية، وإنما يـدعو إلى تحكيم الشريعة الإسلامية.

ولا بأس من عرض بعض الاقتباسات هنـا لنتـبين من خلالهـا الطريقـة الـتي يـدافع بهـا الشـيخ عن الشـريعة وضرورة تحكيمها في الحياة:

ففي المبحث الرابـع من مبـاحث الرسـالة يـرد على من يقول: (إنّ صوت الضمير ينـوب عن الـدين في ردع الإنسـان عن المنكـرات)[1]، ولا شـك أن هـذا ليس خطابـا للمسـلمين وحـدهم، بـل هـو خطـاب لغـير المسلمين، ففكرة الضـمير ونيابتـه عن الشـريعة فكـرة غربية، ولهذا راح الشيخ يرد عليها.

وقـد اسـتفتح رده بتوضـيح الشـبهة وأدلتهـا: (من المحتمل أن يقال إنّ ما أجمـع عليـه القـدماء من لـزوم

---

[1] ابن عليوة، الأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، طبعة أحبـاب الإسـلام، ص19.

مراعاة الشرائع الإلهيّة في حفظ ما للإنسان، وما عليه هو من ضرورة الظروف الغابرة جريا على محاولة الغاية التي يرمي إليها كلّ مصلح، وليس هي إلاّ استتباب الأمن وتقرير أسبابه بين أفراد البشر، أمّا الآن فقد تهذبت الأفكار وترّقت العقول إلى غاية كفيلة بتنظيم مهماتها على طريقة لا تفتقر معها إلى شيء من نحو الشرائع الإلهيّة تستند إليه وإنّ الإنسان يكفيه صوت الضمير زاجرا من باطنه عن ارتكاب ما لا ينبغي ارتكابه)[1]

ثم أخذ يرد عليها بقوله: (فأقول : إنّها خزعبلة قد تنخدع لها صغار النفوس، ودعوة باطلة منقوصة بالظواهر حسبما تشهد به الإحصاءات من الجرائم اليوميّة، وتلك الجرائم ضرورة صادرة عن غير المتدينين في الغالب وأين أولئك من أصوات ضمائرهم إن كانت لهم ضمائر لها أصوات زاجرة كما يقولون، ولكنّها الإباحة إذا تسرّبت إلى أمّة تجعل الإيمان يتسلل منها رويدا إلى أن تحل مكانه، وإذا لا تكتفي إلاّ برفع الحواجز التي من جملتها صوت الضمير أيضا، لأنّه حائل بين المرء وشهوته فهو ضرب من التقيّيد الذي يعتقد الإباحي أنّ الراحة من ورائه، وهذا إن كان له صوت ينازعه للعمل ولا يكون إلاّ ضئيل النزال معدوم النتيجة لانتهاك قواه بانتهاك الإيمان بالغيب، وحيث إنه غيب يعتمد في مذهب الإباحي فيكون وجوده يعتبر ضربا من الوسوسة عنده التي هي أحرى بالتغفّل عنها سعيا وراء صفاء الوقت في صريح الانهماك.. وبالجملة إنّ الاعتماد على صوت الضمير في حفظ ما للإنسان، وما عليه لا تقوم به حجّة عند المنصف، أمّا من غلبت عليه شقوته

[1] ابن عليوة، الأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، ص19.

فلا يرى إلاّ قضاء شهوته بأي طريق كانـــت)[1]

ثم ينتهي بخلاصـة ينص عليهـا بقولـه: (إنّ الخلاصـة والفائـدة من هـذا ليتحقّـق الإنسـان أن لاشـيء جـدير بالاعتمـاد عليـه في مـؤازرة السـلطان في حفـظ مـا للإنسان، وما عليه من الوازع الدينيّ، وتنمية الشعور بما بعد الموت إلاّ الإيمان)[2]

وهكذا يستمر الشـيخ من مقدمـة إلى مقدمـة، حـتى ينتهي في الأخير إلى النتيجة التي أرادهـا من خلال هـذه الأبحاث، وهي ضرورة الشريعة الإسلامية للحياة بجميـع جوانبها.

ولعل أحسن تعبير يـدل على هـذه النتيجـة مـا أورده في (البحث الرابـع والعشـرين)، والـذي خصصـه لبيـان (كون الشرائع الإلهيّة لم توضع إلاّ لحفظ قوام الإنسـان، ومراعاة مصالحـه)، ومما جاء فيه قوله: (غير خـاف في كون الإنسان ذا مصالح يعسر تتبعها تفصـيلا غـير أنّهـا لا تخرج عن ضـروب ثلاثـة. فهي إمّـا أن تكـون ضـروريات لوجوده، وإمّا حاجيّات لقوامه، وإمّا تكميليّـات لتوسـعاته في المعاملات، وكلّ ضرب منها موقوف على ما قبلـه : فالحاجيّات لا يلتفت إليها قبـل الضـروريّات، والتكميّلات لا يلتفت إليهـا قبـل الحاجيّـات، وكيفمـا وقـع التفريـع فأصـول الضـروريّات لا تخـرج عن خمسـة أشـياء جـاء الشرع الإلهيّ بالمحافظة عليهـا، وهي : النفس والعقـل والعقيـدة والنسـل والمـال، وهاتـه الأصـول لا يسـتمرّ وجودها الإنسان غالبا إلاّ بجميعها، وكلّ منها يعتـبر أصـلا تنبـني عليـه أصـول، والمعـنى أنّ لكـلّ ضـروري منهـا ضـــروريّات، وأحـــرى مـــا وراء ذلـــك من الحاجيّـــات

---

[1] ابن عليوة، الأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، ص20.

[2] ابن عليوة، الأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، ص20.

والتكميليّات)[1]

وبعــد أن بين مــا يــذكره المقاصــديون من أنــواع الضرورات والحاجـات والتحسـينات، قـال: (أمّـا الشـرع الإلهيّ لا يسمح بأي خلل أو نقص يلحق مصالح الإنسان، ولهذا حفظ لنفسه حقّ التدخل في سائر شؤونه بما أنّـه لا يعترف برشد الإنسان، ولن يعترف به وإلاّ لتركـه ومـا صنع، وماذا عسى أن يصـنع أكـثر ممّـا هـو صـانعه الآن، وقبل الآن وهكـذا بعـد الآن {إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ} [إبــراهيم: 34].. إنّ الخلاصــة والفائــدة من هــذا ليعلم الإنســـان أنّ الشـــرع الإلهيّ لـــه تمـــام التـــدّخل في المحافظــة على مصــالح الإنســان في ســائر أطــواره وعموم تقلباته، وهكذا يبقى أحبّ الإنسان أم كره)[2]

والرسالة في جملتها مفيدة جدا وخاصة في مواجهة اللادينيين والعلمانيين ونحوهم، وفيها الأدلة الكثيرة على أن التهمـة الـتي يوردهـا خصـوم الشـيخ حـول اعتقـاده بوحدة الأديان لا مبرر لها.

2 ـ مظهر البينات في التمهيد بالمقدمات

وهي مقدمــة مهــد بهــا الشــيخ ابن عليــوة لكتابــه (الأجوبــة العشــرة)، وتتضــمن مقدمــة مستفيضــة في خمسة وعشرين فصلا، وقد عرفت الرسالة بأنهـا تبحث في (أهم مســألة تشــغل العــالم أجمــع، وهي ضــرورة الشرائع الإلهية لبـني البشـر، وان الإنسـان لابـد لـه من دين يتضمن سعادة الدارين، ومركـزه الأهم التوحيـد، ثم الانقيـاد فيمـا أمـر ونهى وأراد حسـبما تتوقـف عليـه مـا يوافق الحاضر، وفيها رد على الفلاسفة والدهرين الذين ضـل سـعيهم في العلم الإلهي بسـبب اسـتخدام العقـل في مــا وراء طــوره، وفيهــا دعــوة أوروبــا العظمى إلى

[1] ابن عليوة، الأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، ص29.

[2] ابن عليوة، الأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، ص30.

الإيمان بالقرآن الذي يلائم مدنيتها الحاضرة)[1]

3 ــ الأجوبة العشرة:

وهي أكثر الرسائل ردا على التهمة السابقة، وقد كتبها الشيخ ردا عن أسئلة عشرة وجهها شارل طابيي (عبد الرحمان طبي) للشيخ واشترط في تحرير إجابتها منهجية معينة، وتعهد بأن يتولى هو ترجمتها للفرنسية، وتمثلت الأسئلة العشرة كما نقلها الحسن بن عبد العزيز عن السائل بعد أن ترجمها للشيخ فيما يلي:

الأول منها: هل الإسلام يضمر سوءا لمن سواه من الأمم أو يسمح بالمودة والبر؟

الثاني: ما هي عقيدة الإسلام في الأناجيل الموجودة الآن بين أهلها؟

الثالث: هل ترون أن المسيحيين يلزمون باعتناق الدين الإسلامي أم لا؟

الرابع: هل أحكام الإسلام تطابق المدنية العصرية أم لا؟

الخامس: هل يوجد في الأحكام الشرعية منافع دنيوية زيادة عن كونها تعبدية؟

السادس: ما هي عقيدة الإسلام في الإله وما هي دلائل وجوده عندكم؟

السابع: ما هي عقيدة الإسلام في محمد عليه السلام وما هي دلائل نبوته؟

الثامن: ما هي فائدة الأمة الفرنسوية لو اعتنقت الدين الإسلامي على التقدير؟

التاسع: هل يوجد في الإسلام من الرخص ما يوافق حال المبتدئين إن قصدوا الدخول فيه؟

العاشر: بأي قول أو فعل يلزم من أراد اعتناق

---

[1]) ابن عليوة، مظهر البينات في التمهيد بالمقدمات، المطبعة العلاوية، مستغانم، ص3.

الإسلام بحيث يكون كافيا له في كونه مسلما[1]؟

ولا نستطيع في هذا المقام أن نتعرض بتفصيل لما ذكره الشيخ، ولكن المهم فيها والذي يتعلق بغرضنا هو أن الشيخ في هذه الرسالة دعا المسيحيين إلى الإسلام، ولو أنه كان يقول بوحدة الأديان لما فعل ذلك.

فمما جاء فيها قوله: (وأي لوم يلحق المسيحيين لو التفتوا أدنى التفات للبعثة المحمديّة، مع التأمّل في جيئها بعد المسيح، لينظروا ما عسى أن يكون ذلك المبشّر به في الإنجيل، وهل لا يجعلون للبشائر المسيحيّة أدنى مكانة: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [البقرة: 210]، جاء محمد ﷺ عقب بعثة المسيح بنحو خمسمائة سنة، فقال: (أنا دعوة أبيكم إبراهيم وبشارة عيسى)[2]، فآمنت به طائفة من النصارى، وكفرت به طائفة، وذلك بسبب توهّمها أنّه ليس هو ذلك المبشر به، فقد اتضح الآن صدقه، كما اتضح صدق المسيح عليهما السلام بتصريحه عن المبعوث بعده.. ويتّضح لنا صدق ذلك من خلاصة أقوال سيّدنا محمد ﷺ أنّه هو ذلك المبعوث في الإنجيل، وليس بعده نبيّ حتى ينتظر.. إنّ هذا الخبر إلى الصدق أقرب، وبالواقع أنسب، بما مرّت عليه من السنين

---

[1] ابن عليوة، مخطوطة الأجوبة العشرة، هامش الصفحة الأولى، نقلا عن:

نقلا عن: غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص104.

[2] نص الحديث كما في (مسند أحمد بن حنبل (4/ـ 127): (إني عبد الله لخاتم النبيين وان آدم عليه السلام لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين ترين)

وعددها أربعة عشر قرنا، وهي كفيلة في تحقيق صــدقه في كونه هو ذلك المبشّر به)[3]

إلى آخــر النصــوص الكثــيرة الــتي نتعجب أن يــدعى بعدها بأن الشيخ يقول بوحدة الأديان.

ونحن نتأسف أن تظل مثل هذه الرسائل مخطوطة، أو في حكم المخطوط، بل إن بعضـها كـاد ينقـرض، في نفس الـوقت الـذي نهتم فيـه بإحيـاء الجـدال والسـباب والمناقشـات العقيمـة، لا لشـيء إلى لأننـا غلبنـا البيـان على القرآن، وغلبنا الألفاظ على المعاني، وغلبنا الأهواء على الحقائق.

ثانيا ــ مقام الطريقة:

وهو المقام الثاني في التعامل مع الأديان، وهو مقام قد يثبت التهمة لمن لم يفهمه أكثر من أن ينفيها، ونحن لا يعنينــا هنــا أن ننفي التهمــة، وإنمــا يعنينــا أن نعــرف الحقيقة المجردة، ثم نترك للقارئ بعدها ليحكم ما يريد.

وينطلق الصوفي في هـذا المقـام من قولـه تعـالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَـةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِـذَ بَعْضُـنَا بَعْضًـا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمـران: 64]، ففي هـذه الآيـة دعـوة لأهـل الكتـاب إلى القاسـم المشـترك بينهم وبين المسلمين، وهـو عبـادة اللـه وتوحيـده، باعتبـار أن اللـه الـذي يعبـده أهـل الكتـاب هـو نفسـه اللـه الـذي يعبـده المسلمون كما قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَــابِ إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَــنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُــوا مِنْهُمْ وَقُولُــوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَـا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [العنكبوت: 46]

وبناء على هـذا يظهـر التسـامح الصـوفي مـع الآخـر

---

[3]) ابن عليــوة، مخطــوط الأجوبــة العشــرة، نقلا عن: صــفحات مطويــة في التصوف الإسلامي، ص126.

مقابل التشدد السلفي معه، وبناء على هذا أيضا نفهم السر في كون الصوفية هم الأكثر استعدادا لنشر الإسلام بين الطوائف المختلفة.

فهم لا يمتنعون أن ينتمي لطريقتهم – كما ذكر الزاهري ناقدا- اليهودي والمسيحي واللاديني حتى لو بقي على دينه وملته.. ذلك أنهم لا ينظرون إليهم بتلك النظرة القاسية التي ينظر بها المخالفون، وخاصة من أصحاب التيار السلفي الذين يدعون إلى التكبر على الآخر والاستعلاء عليه، والتجهم في وجهه ونحو ذلك.

وقد عبر عن هذه النظرة الصوفية الجميلة آخر شيوخ الطريقة العلاوية الشيخ خالد عدلان بن تونس في كتابه الذي لقي ضجة كبيرة (التصوف الإرث المشترك)، والذي أصدره بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس الطريقة الشاذلية الدرقاوية العلاوية تناول فيه تاريخ التصوف منذ بداية الإنسانية، والنبوة، والرسالة، والبعثة المحمدية، والمدارس، والطرق الصوفية، وغير ذلك.

وقد لقي هذا الكتاب معارضة كبيرة من طرف جمعية العلماء المسلمين الجديدة، ومن طرف شيخها عبد الرحمن شيبان، والذي أعاد بذلك الصراع القديم بين الجمعية والطريقة العلاوية.

وسبب الصراع - للأسف - ليس ما طرح في الكتاب من أفكار، فالجمعية لا زالت على عهدها بالتقصير في المطالعة، وإنما سبب الحملة الشديدة ما رأوه من صور رمزية تاريخية توهموا أنها تجسد الرسول ﷺ مع أن الكتاب في أصله خطاب للآخر، وهو يهتم بمثل هذه الفنون.

وحتى لا نكون موالين لأي جهة من الجهات، ننقل

الخبر ومفرزاته كما أوردتـه جريـدة (صـوت الأحـرار)[1]، فقد ورد فيها هذا الخبر: ورد إلى (صوت الأحـرار) أمس بيـان شـديد اللهجـة حمـل توقيـع الشـيخ عبـد الـرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء المسـلمين الـذي قـال فيـه إن جمعيته تلقت باستغراب واسـتنكار مـا نقلـه صـاحب كتاب (الصوفية الإرث المشترك)، حيث أشار البيان إلى أن هذا الكتاب تضمّن فعلا صورا للرسول الكريم وحوله صحابته رضوان الله عليهم يلقنهم القرآن، بالإضافة إلى صور سيدنا جبريل عليـه السـلام في هيئـة امـرأة.. ولم يفوّت الشيخ شـيبان الفرصـة لشـجب كتـاب بن تـونس زعيم الطريقــة العلاويــة حيث أوضــح بشــأنه أن فيــه مساسـا بالمقدسـات الإسـلامية والرمـوز الوطنيـة على اعتبار أن المؤلّف تضمّن كذلك صورة للأمير عبد القـادر وسط نجمة داوود رمـز الصـهيونية والكيـان الصـهيوني، ووصل الأمر برئيس جمعية العلمـاء المسـلمين إلى حـد مطالبة السلطات الرسمية في البلاد للتصدي لمثل هذه الاختراقات والتجاوزات التي تتنافى مـع تعـاليم الإسـلام وتسـيء إلى الجزائـر وإلى التصـوّف الحـق.. وأكـثر من ذلك فـإن جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين الـتي كانت أول من يهاجم هذا الكتاب الذي جاء في مـا يزيـد عن 400 صفحة، أكدت أن التصوّف الحـق يـرفض مثـل هذا التصرف المناقض للقرآن والسنة والمخالف لإجماع الأمة، قبـل أن تطـالب بإلحـاح على لسـان الشـيخ عبـد الرحمـان شـيبان بسـحب هـذا الكتـاب من التـداول في

[1] انظـر جريـدة صـوت الأحـرار من هـذا الرابـط: (http://www.sawt-alahrar.net/online/modules.php?name=News&file=article&sid=10341)

والجريــــــدة الألكترونيــــــة (جزائــــــرس) من هــــــذا الرابــــــط: (http://www.djazairess.com/algeriatimes/1619)

السوق)[1]

هذا ما نقلته صور الأحرار عن موقف جمعية العلمـاء المسلمين الجزائريين، أما موقف الطريقة العلاوية على لســان جمعيتهــا الثقافيــة فقــد عــبرت عنــه بقولهــا: (وبـالموازاة مـع ذلـك انتقـدت جمعيـة الشـيخ العلاوي للتربية والثقافة، بشدة، ردود الفعل الـتي تركهـا صـدور كتــاب خالــد بن تــونس الموســوم الصــوفية الإرث المشترك، واعتبرت أن كل مـا صـدر من الجهـات الـتي هاجمت الجمعية بمثابـة بلبلـة من أنـاس لا يفرقـون بين الكاريكــاتور والمينيــاتور (مجسّــمات)، كمــا نفت في المقابل وجود أي خروقات أو تجـاوزات أو حـتى إسـاءة للإسـلام ورمـوزه وبخاصـة المسـاس بالرسـول الكـريم محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم.. وأفـاد الحـاج عـدة بن تونس رئيس الجمعيـة العلاويـة في اتصـال مـع (صـوت الأحــرار) أمس أن الأجــدر لكــل من انتقــدوا وهــاجموا الكتـاب أن يطّلعـوا على مضـمونه، مـدافعا عن الشـيخ خالد عدلان بن تونس الذي قال إنه معروف عنه دفاعــه المســتميت عن الإســلام وبالتــالي لا داعي للمزايــدات ومحاولـة زرع البلبلـة لأننـا لم نـأت بـأمور جديـدة حـتى ننتقد بهذا الشكل..، ليضيف متسـائلا: هـل يجـوز لشـيخ مثل بن تونس أن يسيء للرسول الكريم مثلما تروّج له بعض الجهات؟)[2]

وبخصوص الصور التي ثارت حولها تلك الضجة قالت الجريـدة: (وتـابع محـدثنا أن مـا نشـر في كتـاب زعيم الطريقة العلاوية من صور ليس بالجديد لأنه مقتبس من التراث الإسلامي بحيث يعـود عمرهـا إلى ثمانيـة قـرون مضت، مشيرا إلى أنها كـانت موجـودة أفغانسـتان وبلاد

[1] المصدر السابق.

[2] المصدر السابق.

الفرس وحتى في العهد العثماني، نافيا مجدّدا أي إساءة لرموز الإسلام، كما أقرّ بأن هنـاك صـورتان في الكتـاب للرسول الكريم ولكن، يضيف الحـاج عـدة، بهـا حـاجب، ليؤكد أن الغرض من إبرازها هو ضرورة إعـادة الاعتبـار لأضـرحة الصـحابة وعائلـة الرسـول ﷺ المحطمـة في المملكـة العربيـة السـعودية بـدل مهاجمـة الطريقـة العلاوية على هذا الكتاب.. أما بشأن صـورة الأمـير عبـد القـادر وسـط نجمـة داوود، فقـد علّـق عليهـا رئيس الجمعية العلاوية بأنها لا نتمثّل أي إساءة من منطلـق أن النجمـة من الـتراث الإسـلامي وهي على علاقـة بالـدين الإسلامي وبرسولين بعثهمـا اللـه ويتعلـق الأمـر بسـيدنا سليمان وسيدنا داوود، يبقى فقط - بحسب الحـاج عـدة - أن اليهـود اسـتغلوها واسـتعملوها في علمهم، واليـوم أصـبحنا نـرى من يحرّمهـا وهـذا جهـل لتاريخنـا، والنجم السداسي موجـود في العهـد العباسـي وكـذا العثمـاني، وبناء على ذلك أوضح محـدثنا أنـه ليس هنـاك تجـاوزات ولا خروقات ولا ما يضر لا بالإسلام ولا بالرسول الكريم، وكل ما في الأمـر أن الكتـاب جمـع مـا هـو موجـود في التراث الإسلامي، مضيفا أن لا أحد يمكنه التشـكيك في الشـيخ خالـد بن تـونس، كمـا شـدّد أنـه باسـتثناء بعض الأصوات فإن الكتاب لقي صدى إيجابيـا لأنـه يرجـع إلى التاريخ الإسلامي ويتضمن 900 صورة أغلبها تنشر لأول مرة.. وعليه فقد قلّل من أهمية الدعوات إلى سحبه) [1]

هذا ما نقلته الجريـدة، ونـترك الحكم بعـدها للقـارئ ليرى: هل في هـذا من دعـوة لوحـدة الأديـان بـالمفهوم السلبي الذي يطرحه الوهابيون ومن يحوم حول حماهم من علماء الجمعية القدامى والمحدثينن أم لا؟

ثالثا ــ مقام الحقيقة:

[1] المصدر السابق.

يعتبر العارفون المسلمون - من الذي يصنفون ضمن مدرسة (التصوف العرفاني) أو (التصوف الفلسفي)، أو (التصوف البدعي!) - كما يلقبهم خصومهم - العرفان والذوق المصاحب له أساس جميع الفضائل الأخلاقية، وهو يتجلى أكثر ما يتجلى في التعايش مع الآخر والنظر إليه بنظرة مختلفة عن النظرة الدونية التي ينظر إليه بها المقتصر على ظواهر الشريعة، والذي يجعل من نفسه قاضيا يحكم على من يوافقه بدخول الجنة، ويحكم على المخالف بدخول النار.

وبناء على هذا، فقد كانت النظرة العرفانية للآخر هي أساس تهمة وحدة الأديان، ولهذا نحتاج إلى بعض التفصيل في طرحها حتى يتبين سرها وعلاقتها بهذه التهمة الخطيرة.

ويمكننا من خلال استقراء الدوافع العرفانية للصوفية في هذا المجال أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث مراحل:

1 ــ نفي العبثية عن النظام الكوني:

فالعبثية تعني أن هناك أخطاء وانحرافات في النظام الكوني الذي أبدعه الله تعالى، وذلك محال، فالله تعالى يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } [ص: 27]

وما دام الأمر كذلك، وما دام الأمر بيد الله هو الذي يقلب المقادير، فلا معنى لرفض الآخر، أو عدم التعايش معه، أو النفور منه، وقد عبر ابن عربي عن هذه المعرفة عند ذكره لأخلاق الفتيان، فقال: (فالفتى من لا خصم له، لأنه فيما عليه يؤديه وفيما له يتركه فليس له خصم، فالفتى من لا تصدر منه حركة عبثا جملة واحدة ومعنى هذا أن الله سمعه يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا } [ص: 27]، وهذه الحركة

الصادرة من الفتى مما بينهما، وكذلك حركة كل متحرك خلقه الله بين السماء والأرض فما هي عبث، فإن الخالق حكيم)[1]

ثم يبين أثر هذه المعرفة في نفس الفتى وسلوكه، فيقول: (فالفتى من يتحرك أو يسكن لحكمة في نفسه، ومن كان هذا حاله في حركاته فلا تكون حركته عبثا .. وإذا كانت الحركة من غيره فلا ينظرها عبثا فإن الله خلقها أي قدرها، وإذا قدرها فما تكون عبثا ولا باطلا فيكون حاضرا مع هذا عند وقوعها في العالم فإن فتح له بالعلم في الحكمة فيها فبخ على بخ وهو صاحب عناية، وإن لم يفتح له في العلم بالحكمة فيها فيكفيه حضوره في نفسه أنها حركة مقدرة منسوبة إلى الله، وأن الله فيها سرا يعلمه الله فيؤديه هذا القدر من العلم إلى الأدب الإلهي)[2]

2 ـ الكمال الكوني:

وهو ما عبر عنه أبو حامد الغزالي في مقولته المشهورة: (ليس في الإمكان أبدع مما كان)[3] وعبر عنه ابن عربي في مقولته: (لا تحقر أحدا من خلق الله، فإن الله ما احتقره حين خلقه)[4]

فكلا المقولتين تعبران عن النظرة الصوفية العرفانية للكون، فالكون بما فيه في غاية الإبداع والكمال، ولا محل للنقص فيه.

---

[1] ابن عربي، الفتوحات المكية، بيروت: دار صادر، ج1، ص242.

[2] الفتوحات المكية ج1، ص242.

[3] الإملاء في إشكالات الإحياء5/35 (ملحق بالإحياء) وكذلك أنظر الإحياء4/ 258.

[4] ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٤، ص٤٦٦.

وقد شرح الغـزالي مقولتـه بقولـه: (لا ريب أن اللـه عز وجل لو خلـق الخلـق كلهم على عقـل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلــق لهم من العلم مــا تحتملــه نفوســهم، وأفـاض عليهم من الحكمـة مـالا منتهى لوصـفها، ثم زاد مثـل عـدد جميعهم علمـا وحكمـة وعقلا، ثم كشـف لهم عن عــواقب الأمــور وأطلعهم على أســرار الملكــوت، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا بـه على الخير والشر والنفـع والضـر، ثم أمـرهم أن يـدبروا الملـك والملكـوت بمـا أعطـوا من العلـوم والحكم لمـا اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخـرة جنـاح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة)[1]

ثم استدل لهذا بـأن كـل (مـا قسـم اللـه تعـالى بين عبــاده من رزق وأجــل وســرور وحــزن وعجــز وقــدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عـدل محض لا جــور فيــه وحــق صــرف لا ظلم فيــه، بــل هــو على الــترتيب الواجب الحـق على مـا ينبغي وكمـا ينبغي بالقـدر الـذي ينبغي، وليس في الإمكان أصـلا أحسـن منـه، ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخـره مـع القـدرة ولم يتفضـل بفعلـه لكان بخلا يناقض الجود، وظلمـا ينـاقض العـدل، ولـو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية)[2]

3 ــ التجليات الجمالية في النظام الكوني:

فصوفية العرفان لم يكتفوا بالتسليم للإرادة والقدرة الإلهية وعدم الاعتراض عليهـا، وإنمـا ارتقـوا إلى اعتبـار كل ما في الوجود من صور وأحداث قـد تبـدو متناقضـة تجليــات للجمــال الإلهي، وفي هــذه المرحلــة يــرتقي التسامح العرفاني إلى أرقى درجات الكمال، لأنه يخــرج

[1] إحياء علوم الدين: 4/258.

[2] إحياء علوم الدين: 4/258.

من دائرة المعارف إلى دائرة الأذواق والمواجيد، والـتي عبر عنها ابن عربي في أبياته المعروفـة، والـتي أسـيء فهمها، والتي يقول فيها[1]:

لقــد صـار قلـبي قـــابلا كـــل صـــورة	فمــرعى لغــزلان وديـــــــر لرهبـــــان
وبيت لأوثــــــان وكعبــــــة طــــائف	وألــــواح تــــوراة ومصـــــحف قـــــرآن
أدين بــدين الحب أنى تــــــــــوجهت	ركائبـــه فـــالحب ديـــــني وإيمـــــاني

فابن عربي في هذه الأبيات – حسبما نـرى- لا يعـني المفهوم الخاطئ لوحدة الأديان الـذي يحـاول البعض أن يلصقه بصوفية العرفـان، ثم ينطلقـون من هـذا أن هـذا التصـوف يسـوي بين الأديـان جميعـا، وأنـه لا ثـواب ولا عقاب على مجانبة الدين الحق، وأنهم بذلك يصـطدمون بقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 85]

وإنما ينظر إلى المسألة من زاوية أخرى، ربما يكون أقرب مثال لها هو ما يحصل لنا من التأثر والانفعال عند مشاهدة لوحات الفنان المبدع، فنحن نعجب بهـا جميعـا حتى لـو كـانت تحمـل منـاظر قاسـية على نفوسـنا، لأن الجمال البديع لا يتجلى فيما نشتهيه فقط.

ومن زاوية أخرى، وهي زاوية مهمـة تفسـر لنـا سـر التسامح الصوفي هو أن الهـدف الحقيقي للأديـان مهمـا اختلفت صـورها هـو محاولـة التعـرف على اللـه بجهـد طاقتها حتى لـو كـانت مخطئـة في ذلـك، وبالتـالي فهي في مرادها الحقيقي تريد الله، ولكنهـا فقـط تخطئ في

[1] ديوان ترجمان الأشواق، ومحاضرة الأبرار، (ص:402).

التعبير عنه.
وربما تكون القصة التي أوردها جلال الـدين الـرومي في المثنوي عن النبي موسى عليه السلام والراعي خير شـرح للمـراد من تلـك الأبيـات الـتي تتجلى فيهـا قمـة التسامح مع الآخر، فهو يذكر رد فعل النبي موسى عليـه السلام على الراعي الذي يبدو أنه تصور الله على شكل راع، قال فيها: (شاهد موسـى راعيـا في الطريـق، كـان يقول، يا رب، يا من يختـار (من يريـد) .. أين أنت، لعلي أصبح خادمك وأخيط حـذاءك وأمشـط شـعرك؟ .. لعلي أغسل ملابسك وأقتل قملك، وآتي لـك بـالحليب، يـا من تستحق العبادة..)
وعندما سـمع موسـى هـذه المناجـاة الغريبـة أصـابه الـرعب، فقـال لـه: (يـا أيهـا الرجـل، لمن توجـه تلـك الكلمات)؟ فأجـاب: (إلى ذاك الـذي خلقنـا، خـالق هـذه السموات والأرض)
فقال موسى: (انتبه! لقد انزلقت إلى الـوراء، وحقـا إنك لم تعد مسلما، لقد أصبحت كافرا. .ما هذا الهذيان؟ ما هذا القدح والشتم؟ ضع شـيئا من القطن في فمـك! إن الرائحـة الكريهـة لشـتيمتك قـد جعلت العـالم (كلـه) منتنا: لقد مزقت شتيمتك ثوب حرير الدين إلى قطع)
بعد هذا الخطاب الطويـل الـذي يـدين الـراعي، جـاء تنزيل من الله على موسى: (لقـد فصـلت عبـدي عـني. هل جئت (كَنَبيّ) لتوحد أم جئت لتقطع؟ لقد وهبت كـل إنسان طريقة (خاصة) للتصرف: لقد وهبت لكل شخص شكلا (خاصا) للتعبير.. فالبنسبة لـه فإنـه يسـتحق الثنـاء وبالنسـبة لـك إنـك تسـتحق اللـوم: بالنسـبة لـه شـهد وبالنسبة لك سُم .. إنني لا أطهر بتمجيدهم (لي)، لكنهم هم الذين يتطهرون ويصبحون أنقياء طـاهرين.. لا أنظـر إلى اللســان والكلام، إنمــا أنظــر إلى البــاطن، إلى (النفس) وحالــة (الشــعور).. أتفــرّس في القلب (لكي أرى) إن كان متواضعا، حـتى وإن كـانت الكلمـات الـتي

نطقت غير متواضعة. لأن القلب هو الجوهر، والكلام هو الصدفة فقط.، وعليه فإن الصدفة تابع، بينما الجوهر هو الشيء (الصحيح)[1]

بهـذه النظـرة ينظـر الصـوفي العرفـاني إلى الآخـر، ويتعامل معه، فهو حـتى لـو أنكـر عليـه يكـل أمـره إلى الله، فالله هو الهادي وهو الديان.

ونحب فقط، لا من باب الجـدل والتنظـير، وإنمـا من باب دفع الاستغراب أن نذكر حديثا يكاد يؤيد هذا، ولعلـه خـير تفسـير لمـراد الصـوفية العرفـانيين من ذكـر هـذه المعاني، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (إن رجلا كان قبلكم رغسـه (رزقـه) اللـه مـالا، فقـال لبنيـه: لمـا حضر أي أب كنت لكم؟ قالوا: خـير أب قـال: (فـإني لم أعمل خيرا قط، فإذا مت فاحرقوني، ثم اسـحقوني، ثم ذروني في ريح عاصف، ففعلوا، فجمعه اللـه فقـال: مـا حملك؟ فقال : مخافتك، فتلقاه برحمته) [2]

فلو طبقنا مقاييس الجزاء على هذا الرجـل نجـد أنـه من أهل النار، فهـو من جهـة لم يعمـل خـيرا قـط، وهـو بذلك لا يستحق الجنة، ثم هو فوق ذلـك شـك في قـدرة الله، ومن شك في قدرة الله فكأنما اتهمه بالعجز، وهـو بذلك في عرف الفقهاء كافر مخلد في جهنم، ولكن الله مع ذلك رحمه.

وكأن هذا الحـديث الشـريف ينبـه إلى القضـية الـتي ذكرها الرومي وذكرها قبله ابن عـربي، بـل ذكرهـا جـل

[1] جلال الدين الرومي، قصص المثنوي، جمع: محمـد المحمـدي الاشـتهاردي، بيروت: دار المحجة البيضاء، ج1، ص97.

[2] محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، الجامع الصحيح المختصر، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط3، 1407، ج3، ص1282.

الصوفية، وهي أن الأديان والمذاهب والأفكـار المختلفـة من حيث حقيقتهـــا لا من حيث واقعهـــا هي محاولـــة للتعرف على الله، وإن حصل الخطـأ في التعبـير، فاللـه تعـالى برحمتـه نظـر إلى خـوف الرجـل منـه، فعفـا عن سلوكه وفكره الخاطئ.

ولهـذا ينبـه القـرآن الكـريم إلى أن اللـه تعـالى هـو وحده الذي يفرق بين الضال والمهتدي، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُـــوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـــلَّ عَنْ سَـــبِيلِهِ وَهُـــوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [النحل: 125]

وبنـاء على ذلـك ينهانـا اللـه تعـالى أن نسـب الـذين يدعون من دون الله لأن الله هو الأعلم بأعمـالهم، قـال تعـالى: {وَلَا تَسُـبُّوا الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُـبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 108]

بل ورد في السنة ما هـو أخطـر من ذلـك، فقـد ورد في الحديث أن (رجلين من بـني إسـرائيل كـان أحـدهما يسـرف على نفسه، وكـان الآخـر عابـدا، وكـان يعظـه ويزجره، فكان يقول دعني وربي أبعثت على رقيبا، حتى رآه ذات يوم على كبيرة، فغضب، فقـال: (لا يغفـر اللـه لك)، قال فيقول الله تعالى يوم القيامة: (أيستطيع أحـد أن يحظر رحمـتي على عبـادي، اذهب أنت فقـد غفـرت لك، ثم يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار)[1]

ونحب أن ننبه هنا إلى أن هذا لا يعني عنـد الصـوفية عدم الحـوار مـع الآخـر، أو عـدم تبيـان الحقيقـة للآخـر، فذلك شأن آخـر، فصـوفية العرفـان أو السـلوك كلاهمـا حاورا أهل الملل والنحل، ولكن بفارق بسيط هو إضـافة تلك النظرة العرفانية المؤسسة كما ذكرنا على القــرآن الكـريم الـذي يعتـبر الهدايـة والدينونـة كلاهمـا من اللـه

[1] سـليمان بن الأشـعث أبـو داود السجسـتاني، سـنن أبي داود، دار الفكـر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ج3، ص693.

وحده.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ـ العرفان درجة رفيعة في التصوف قد يبلغها السالك حال سلوكه، وقد لا يبلغها، وهو الأعم الأغلب، ثم عند بلوغه لها قد يستطيع أن يعبر عنها، وقد تبقى محصورة في جوانحه ووجدانه، وبالتالي فإن العارفين أو العرفاء الذين استطاعوا أن يعبروا عن معارفهم قليل من قليل، ولهذا لا نجد في الكتب المؤلفة في الطرق الصوفية الجزائرية في عهد الجمعية إلا عدد قليل ظفر بأكثره الشيخ أحمد بن عليوة شيخ الطريقة العلاوية، والذي فاز من الجمعية – كما عرفنا سابقا- بلقب (شيخ الحلول)

2 ـ من أهم أسباب الخلاف الفكري بين الجمعية والطرق الصوفية الخلاف في المصادر التي تتلقى منها الشريعة الإسلامية بعقيدتها وفقهها وسلوكها ومواقفها المختلفة، فبينما نرى الجمعية تنتهج في التلقي من المصادر التي ترى أن السلف الصالح قد تلقى منها، وهي الكتاب والسنة وفهوم السلف لهما، نجد للصوفية مصادرهم الخاصة بهم، والتي يزعمون هم أيضا أنها تستند للمصادر الأولى للشريعة من الكتاب والسنة وغيرها من المصادر.

3 ـ رأينا من خلال استقراء جذور الخلاف في المصادر التي يعتمد عليها كلا الطرفين أنها ترجع إلى أمرين:

الأول: الخلاف في نوع التلقي وكيفيته من المصادر النقلية، وخاصة القرآن الكريم، ذلك أن الخلاف فيها ليس في اعتمادها أو عدم اعتمادها، فالكل يعتمدها،

وإنما في منهج الاستنباط منها وحدوده.

الثاني: الموقف من المصادر الغيبية من الكشف والإلهام والرؤى والاستمداد وغيرها، والتي اختص بالاستناد إليها الصوفية، ولقيت إنكارا كبيرا من المخالفين لهم.

4 ــ تتفق جمعية العلماء والطرق الصوفية على تعظيم المصادر النقلية سواء القرآن الكريم أو السنة المطهرة، واعتبارهما المصدر الأول للإسلام بتشريعاته جميعا، بل تعتبران أن الإصلاح النفسي والاجتماعي لا يمكن أن يتم إلا من خلالهما، ولكن الخلاف بينهما في هذا المحل يكمن في منهج التعامل مع هذه المصادر، وكيفية الاستنباط منها، فبينما ترجع الجمعية إلى منهج السلف في ذلك كما تتصوره، وهو ما يرجع في العموم إلى ظواهر النصوص، أو إشاراتها الواضحة القريبة، نرى الصوفية بطرقها جميعا - بل قبل أن تكون للتصوف طرق - أن القرآن الكريم أعظم من أن يحصر بين جدران الألفاظ، ولذلك يتوسعون في فهمه والاستنباط منه بما لا تسعه العبارة الظاهرة، ويتعاملون بنفس المعاملة مع السنة المطهرة.

5 ــ من النواحي التي اختص بها الصوفية بمختلف مدارسهم اهتمامهم بما يمكن تسميته بالمصادر الغيبية للمعرفة، وهي المصادر التي لا يمكن لغير صاحب التجربة أن يستدل لها، ذلك أنها غيبية، لا تدل عليها المدارك الحسية، ولا يدل عليها المنطق العقلي المجرد، والدليل الوحيد الذي يمكن الوثوق به نحوها هو الثقة في من أدركها أو حصلت له.

6 ــ الصوفية – رغم المعارضة الشديدة التي ووجهوا بها بالنسبة للمصادر الغيبية - يعتبرونها مصادر أساسية لا يمكن للصوفي أن يستغني عنها، بل لا يسمى الصوفي صوفيا إلا إذا آمن بها، وتحققت له، بينما يرى المخالفون، وخاصة من الاتجاه السلفي الذي

ذكرنا أن الجمعية كانت لسانه الناطق في الجزائر، ينكر الاعتمـاد على هـذا النـوع من المصـادر إنكـارا شـديدا، ويرمي أصحابه بالخرافة، ويرميهم فـوق ذلـك بمزاحمـة المصادر الأصلية بهذا النوع من المصادر.

7 ــ على الرغم من التوجه السلفي لجمعية العلمـاء المسلمين الجزائريين إلا أنها لم تختلف كبير اختلاف مع الطرق الصوفية في المدرسة العقدية، ذلك أن الجمعية لم تكن ترى في المذهب الأشعري مذهبا يناقض السـنة أو يختلف معها، بل نجد من أعضـاء الجمعيـة من يصـرح بقبول المـذهب الأشـعري، ويعتـبره من مـذاهب السـنة المعتبرة، بل يعتبر الجمعية فوق ذلـك أشـعرية الأصـول كما أنها مالكية الفروع.

8 ــــ أهم نقـــاط الخلاف بين الجمعيـــة والطـــرق الصوفية تمثل في المعتقدات التي تتصور الجمعيـة أنهـا معتقـدات لا تخـالف السـنة فقـط، بـل تخـالف الإسـلام أيضا، ولذلك تحكم على معتقدها بالكفر، ثم تطبـق هـذا الحكم على أصحاب الطرق نفسـها، وهي لا تفعـل ذلـك من لدن نفسها، بـل تعـود في ذلـك إلى التيـار السـلفي الذي تنتمي إليه، وهي في هـذه الناحيـة خصوصـا أميـل إلى المدرسـة السـلفية المحافظـة منهـا إلى المدرسـة السلفية التنويرية.

9 ــ ومن خلال استقراء مـا ورد في جرائـد الجمعيـة ومقالاتها وكتبها، رأينا أن هناك تهمتين خطيرتين توجهت بهمـا للطـرق الصـوفية عمومـا، وللطريقـة العلاويـة خصوصا، وهما: رمي الصوفية بالقول بـالحلول والاتحـاد ووحدة الوجود، ورميهم بالقول بـ (وحدة الأديان)

10 ــــ تعتـبر المعـارف الإلهيـة عنـد الصـوفية أدق المعارف وأرقها وأعمقها، ولذلك تختلـف عبـاراتهم فيهـا اختلافـا شـديدا تـتيح لكـل من يشـاء أن يتحـدث عنهم بوصف يجد له من المبررات ما يدل عليه، فمن شاء أن يرميهم بالحلول والاتحاد وجـد من عبـاراتهم مـا يسـعف

عليـه، ومن شـاء أن يـرميهم بوحـدة الوجـود، ولـو في أخطر ألوانها وجـد كـذلك مـا يدلـه عليـه، ومن شـاء أن يبرئهم من كل ذلك، بل يجعلهم أشاعرة أو ماتريديين أو حتى سلفيين وجد ما يدله على ذلك، ولهذا لا نعتب على الجمعيـــة ولا على الســـلفية قبلهـــا وبعـــدها مواقفهـــا السابقة، ولكنـا نعتب عليهـا أنهـا اكتفت بتلـك المواقـف المبنية على بعض النصوص التي اطلعت عليها، ولو أنهـا أكملت المسار وواصلت البحث لوجدت أشياء أخرى قـد تهدم جميع ما بنته من أحكام.

11 ــ من خلال الاطلاع على مـــا كتبـــه الصـــوفية نجدهم لا يختلفون عن سائر المسلمين في موقفهم من الأديان، وبطلانها، وأن الـدين الوحيـد الـذي يجب اتباعـه هو الإسلام، وأن كل ما عـداه ضـلالة، كمـا قـال تعـالى: {وَمَنْ يَبْتَـغِ غَيْـرَ الْإِسْـلَامِ دِينًـا فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 85]

خاتمة السلسلة

بعد هذه الجولـة المـوجزة في نـواحي (التعامـل بين جمعيـــة العلمـــاء المســـلمين الجزائـــريين والطـــرق الصـوفية)، وبعـد تتبعنـا التـاريخي والثقـافي والفكـري والإعلامي لما يرتبط بذلك التعامـل من قضـايا اتفـاق أو قضـايا اختلاف، نحب أن نسـجل هنـا أهم مـا اسـتنتجناه من نتائج، وأهم ما نتقدم به إلى الجهـات المسـؤولة من اقتراحات وتوصيات.

أولا: أهم نتائج البحث

1 ــ أن كلا من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والطـرق الصـوفية من المؤسسـات العلميـة والثقافيـة والإصلاحية الجزائرية التي ساهمت في المحافظـة على الهوية الجزائرية بأبعادها المختلفة.

ومن الخطـأ الكبـير، ومن التجـافي عن الموضـوعية الـذي وقـع فيـه الكثـير من البـاحثين في تـاريخ جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين هـو التعامـل معهـا على أساس أنها الحق المطلـق في مقابـل الطـرق الصـوفية التي اعتبرت شرا مطلقا، وهذا ما جعل الكثير يسلم لها ولما تدعيه بالنسبة لخصومها من غـير تثبت ولا نظـر ولا فحص.. ونفس الكلام يقـــال بالنســـبة لمن يهـــاجمون الجمعية من الطرف الآخر، ويعتبرونها امتـدادا للتطـرف الذي يحجر على غيره أن يفكر، أو يمارس ما هداه إليـه تفكيره.

2 ـــ أنـه لا يمكن الحـديث عن التعامـل بين جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين والطـرق الصـوفية دون البحث في المدارس الفكرية الـتي تنتمي إليهـا، أو دون محاولة ربط ما حصل في الجزائر بين الجمعية والطرق الصـوفية مـع مـا حصـل مثلـه في غيرهـا من البلاد على

امتداد فترات طويلة من التاريخ.. ولهذا حاولنـا في هـذا البحث أن نرجــع في كــل قضــية خلافيــة إلى جــذورها التاريخية والثقافية، باعتبـار أن مـا حصـل بين الطـرفين هو امتداد لما حصل قبل ذلك.

3 ــ أنه من الخطأ المنهجي إعطاء أحكام عامة فيما يرتبــط بمواقــف أعضــاء جمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائريين أو محاولة تصنيفهم، وسبب ذلك أن الجمعية في أصلها تكونت من الطبقة الجزائرية المثقفة الراغبـة في الإصلاح، وهي طبقة قـد تشـكلت قناعاتهـا الفكريـة قبل دخولها الجمعية، وبالتالي دخلت إلى الجمعية بـذلك التوجه الفكري الـذي تحملـه، وهـذا مـا جعلنـا نمـيز في تحديدنا لاتجاه الجمعية بين القناعات الفكرية لأعضــائها، والتي هي نتاج الثقافة الخاصـة بكـل عضـو، والمشـروع النهضوي الذي أتت به الجمعية أو توحدت عليه.

4 ـــ أن معظم الدراســات تعتــبر جمعيــة العلمــاء المسلمين الجزائريين كجمعية وتنظيم ضمن (الحركـات السلفية) التي كـانت في ذلـك الحين في أوج نشـاطها، والخلاف بين هـذه الدراسـات في نـوع التيـار السـلفي الذي تنتمي إليه الجمعيـة، وقـد خلصـنا من خلال البحث إلى أن الجمعية – كمؤسسة وتنظيم - حاولت أن تجمــع بين مدرستين سلفيتين كبـيرتين (السـلفية المحافظـة)، والــتي أعــاد إحياءهــا الشــيخ محمــد بن عبــد الوهــاب، و(الســلفية التنويريــة) الــتي أسســها الأفغــاني وعبــده ورشيد رضا وغيرهم.

5 ـــ أن أكـثر الطـرق الصـوفية المعاصـرة لجمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين مهما اختلفت مشـاربها أو تسمياتها لا تختلف فيما بينها إلا في الطقوس الظاهريـة الممارسة، أما التوجه الفكري، فيجمع بينها جميعـا حـتى أننــا لا نســتطيع أن نمــيز تعــابير الشــيخ ابن عليــوة - المعاصر للجمعية، والذي كان المعارض الأكبر لها – مــع

أي صــوفي في أي طريقــة أخــرى داخــل الجزائــر أو خارجها.

6 ـ رأينا من خلال التتبع العلمي والواقعي الميـداني للتوجه الفكري للطرق الصوفية أنها مزجت بين قسمين من أقسام من التصوف:

التصــوف الســلوكي: وهــو التصــوف الــذي يهتم بالسـلوك والمجاهـدات والأذكـار ونحوهـا، سـواء دخـل ضمن ما يسمى بــ (التصـوف السـني) الـذي هـو محـل اتفاق بين الجمعية والطرق الصوفية، أو كـان ضـمن مـا تعتـبره الجمعيـة (تصـوفا بـدعيا)، وقـد آثرنـا تسـميته بـ (التصوف المختلف فيه)، باعتبار أنه يستدل لممارســاته باجتهادات فقهاء ومحدثين كبار من القدماء والمحدثين.

التصوف العرفاني: وهو الذي يطلق عليه كذلك لقب (التصــوف الفلســفي)، وهــو موجــود في كــل الطــرق الصوفية، وقد رأينا أنه تصوف النخبـة من المثقفين، لأن فيـه جـوانب فلسـفية لا يطيقهـا العامـة، وقـد رأينـا أن أحسن من يمثله في وقت الجمعيـة الشـيخ ابن عليـوة، ولهذا اعتمدنا على كتاباته في المناقشـات الفكريـة بين الجمعية والطرق الصوفية.

7 ـ رأينا من خلال المقارنة بين المشروع الإصــلاحي لجمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين مـع المشـروع الإصلاحي للطرق الصوفية أن هناك نواح كثيرة للاتفـاق، فكلاهمــا اهتم بنشــر الالــتزام الــديني، وكلاهمــا اهتم بالإصلاح التربوي والاجتمـاعي، وكلاهمـا حـذر من الآثـار السلبية للاستعمار، وحاول أن يقاومها.

أما دعوى أن بعض الأطراف كـان ممالئـا للاسـتعمار أو خادما لأهدافه، فهي من ثمار الصــراعات الـتي درات بين الطرفين، والحقيقة الموضوعية تنفي هذا، وإن كان هناك بعض الأخطاء فكلا الطرفين يتحملانها.

ثانيا: أهم الاقتراحات والتوصيات

1 ـــ الاهتمـام بـالتراث الثقـافي الجزائـري بجميـع أنواعه، سواء مـا كـان منـه من تـأليف الجمعيـة، أو من تأليف الطرق الصوفية، وعدم الانحيـاز في ذلـك إلى أي طــرف من الأطــراف، فكلــه تــراث ثقــافي محــترم، وللأسـف نجـد الآن الكثـير من الكتب المؤلفـة في تلـك الفـترة من طـرف رجـال الطـرق الصـوفية خصوصـا مهملـة، وبعضـها معـرض للضـياع إن لم يكن قـد ضـاع بالفعل، والمطبوع منه مطبوع بطبعات رديئة، بل بعضها في حكم المخطوط.

2 ـــ عـدم الانحيـاز في التعامـل الأكـاديمي والعلمي لجهة دون جهة أخـرى، ذلـك أننـا نجـد - للأسـف - أكـثر البـاحثين – داخـل الجزائـر وخارجهـا - دأبـوا على قصـر الحركة الإصلاحية في الجزائر على شخصـيات كلهـا إمـا أعضاء فاعلون في جمعية العلماء، أو لهم بهم صلة ولـو من حيث الانسجام الفكري.

3 ـــ نـدعو الجهـات المسـؤولة في وزارات الثقافـة والتربية والشؤون الدينية وغيرها إلى عـدم الانحيـاز في تخليـد الشخصـيات العلميـة والتاريخيـة إلى جهـة على حساب جهة أخرى لأي اعتبـار [1]، فللأسـف نجـد أسـماء

[1]) تنكرت الدولة الوطنية بعـد الاسـتقلال، للطـرق الصـوفية وقلبت لهـا ظهـر المجن بعـد أن اتهمهـا الـرئيس بن بلـة بالليبراليـة، ثم تبنت الدولـة على عهـد الرئيس هواري بومدين التوجه الإصلاحي السلفي الوهابي كخطاب رسمي لها، ممثلا في ما تبقى من رموز « جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين » الـتي كان خطابها السياسي أقرب إلى المهادنة والاندماج مع المحتل الفرنسي، منه إلى الوطنية الاستقلالية والمقاومـة والثـورة. وفي هـذا الإطـار، تمت مصـادرة أملاك الزوايا والطـرق الصـوفية بعـد الاسـتقلال، ومنـع نشـاطها وسُـجن بعض شيوخها مثـل الشـيخ سـيدي المهـدي بن تـونس والـد الشـيخ سـيدي خالـد بن تونس، الشيخ الحالي للطريقة العلاوية في الجزائر. بل إن بعض الزوايا هدمت وتم تغييب البعد الصوفي للهوية الجزائرية وتراث الطرق الصـوفية من بـرامج

(ابن باديس) و(الإبراهيمي) و(العربي التبسي) و(مبارك الميلي) وغيرها، أشهر من نار على علم، فبالإضافة إلى كثرة ما كتب عنهم من أطروحات وبحوث، وما عقد لأجلهم من ملتقيات وأيام دراسية، نجد أسماءهم قد سميت بها المساجد والمدارس والجامعات والأحياء، وأشياء كثيرة جدا، بينما نجد تعتيما قاسيا على شخصيات كان لها دور فاعل في أعماق الحياة الجزائرية، بل وصل إشعاعها إلى العالم أجمع، ومع ذلك لا تذكر بنقير ولا قطمير، ولا يهتم بها، ولا يكاد أكثر الجزائريين يعرفونها، أما الطبقة المثقفة التي تعرفها، فهي تحمل عنها صورة مشوهة، كأبشع ما يكون التشويه.

4 ــ ندعو إلى إحياء يوم رسمي تهتم فيه الدولة

التعليم ومؤسسات الإعلام والتنشئة الاجتماعية، إضافة إلى تشويه صورة التصوف في البرامج والأبحاث الجامعية.

بعد رحيل الرئيس هواري بومدين زالت بعض الضغوط التي كانت مفروضة على الطرق الصوفية، ومع مجيء الرئيس بوتفليقة إلى السلطة، والذي ظهر عليه ميل واضح نحو التصوف والطرق الصوفية، انفتح المجال أمامهم حيث أصبحت لهم حرية العمل مثل غيرهم من الجمعيات الثقافية في إطار القوانين السارية في البلد. وخلال العشرية الدموية، كان للطرق الصوفية في الجزائر دور لا يمكن إنكاره في الدعوة إلى وقف العنف وحقن دماء الجزائريين، حيث يؤكد الصوفية على حرمة الاقتتال بين المسلمين مهما كانت الأسباب والعناوين والشعارات المرفوعة لتبرير ذلك. وعلى رغم ما حظيت به بعض الطرق الصوفية من دعم رسمي، فإن الخطاب الداخلي للطرق يبقى رافضا للارتباط بالسلطة أيا كان نوع هذا الارتباط، حيث ما زال بعض الطرق حتى يومنا هذا، يرفض أي نوع من أنواع الدعم الرسمي أو العلاقة الرسمية مع السلطة، من بينها الطريقة العلاوية على سبيل المثال لا الحصر. ». (راجع مقال زهية منصر في الشروق اليومي بتاريخ : 22/ 12/ 2011)

والمجتمع الجزائري بالتصوف والزوايا وما يرتبـط بـذلك من تراثنـا الثقـافي، نسـميه (يـوم الولايـة)، ونرجـو أن يرتبط ذلك بأحد العارفين الكبيرين: الأمـير عبـد القـادر، أو الشيخ ابن عليوة، وذلك حـتى يتحقـق العـدل في في التعامل بين الفصيلين الكبيرين الجزائـريين المحـافظين والإصلاحيين، ذلك أن الدولة تحيي كل سنة ما تسـميه بـ (يوم العلم)، تخلد به ذكرى الجمعية وابن باديس بينما لا تهتم بالجهة التي كـان لهـا النصـيب الأوفـر في مواجهـة الاستعمار من كل الجوانب.

وختامـا، هـذه محاولـة متواضـعة ممتلئـة بالقصـور حاولت فيها بقـدر الإمكـان أن أصـل إلى الحقيقـة بعيـدا عن الانحياز لمن يمثلهـا، أو كمـا قـال الإمـام علي كـرم الله وجهه: (إنّ الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجـال، اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله)[1]

ويشـهد اللـه أننـا لم نـرد الغض ولا التنقيص من أي طـرف من الأطـراف، بـل كـان قصـدنا الوصـول إلى الحقيقة بموضوعية تامة، ولا يهمنا من أي جهة صـدرت، ولا من يمثلها، فالحق أحق أن يتبع.

ونحن بعد هذا مستعدون للتراجع عن أي رأي رأيناه، ثم رأينا أن غـيره أولى منـه، فلا عصـمة إلا لمن عصـمه اللـه، نسـأل اللـه أن يحفظنـا من التشـبث بالخطـأ، أو الثبات عليه، ونسأله أن يرينا الحق حقا، ويرزقنا اتباعـه، ويرينا الباطل باطلا، ويرزقنـا اجتنابـه، وصـل اللهم على سـيدنا محمـد وعلى آلـه الطيـبين الطـاهرين وصـحبه المختارين المنتجبين، وسلّم تسليما كثيرا.

---

[1]) أحمـد بن أبي يعقـوب بن جعفـر بن وهب بن واضـح اليعقـوبي، تـاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، (2/ 210)

فهرس المصادر والمراجع

أولا ـ المصادر

1 ـ مصادر جمعية العلماء:

أ ـ مجلات الجمعية، وهي (المنتقد)، و(الشهاب)، و(الإصلاح)، و(البرق)، و(صدى الصحراء) و(السنّة)، و(الشريعة)، و(الصراط)، و(البصائر)، وكلها موجودة مصورة عن طبعاتها القديمة.

ب ـ آثار رجال الجمعية، ومنها:

الإبراهيمي، محمد البشير:

سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الإصلاحية، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، 1935.

عيون البصائر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1971.

ابن باديس، عبد الحميد : القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الإصلاحية.

آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (رئيس جمعية العلماء المسلمين)، ط1، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية – دار البعث -، قسنطية، الجزائر، 1985 م.

طالبي، عمار: ابن باديس حياته وآثاره، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة، القاهرة 1968.

التبسي، العربي، بدعة الطرائق في الإسلام، دط.دت.

الميلي، مبارك، رسالة الشرك ومظاهره، طبع الجامعة الإسلامية- المدينة المنورة – ط1، 1407هـ.

حماني، أحمد: صراع بين السنة والبدعة،، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1984.

2 ـ مصادر الطرق الصوفية:

أ ـ مجلات الطرق الصوفية، وهي جريـدة (البلاغ الجزائري)، ومجلة (المرشد)

ب ـ آثار رجال الطرق الصوفية، ومنها:

ابن عليوة، أحمد مصطفى: رسالة القـول المعـروف في الــرد على من أنكــر التصــوّف، المطبعــة العلويــة، مستغانم.

الرسالة العلوية في البعض من المسـائل الشـرعية، المطبعة العلوية، مستغانم.

مظهـر البينـات في التمهيـد بالمقـدمات، المطبعـة العلوية، مستغانم.

دوحة الأسرار في معنى الصلاة على النبي المختــار، المطبعة العلوية، مستغانم.

القول المقبول فيما تتوصـل إليـه العقـول، المطبعـة العلوية، مستغانم.

النــور الضــاوي في حكم ومناجــاة الشــيخ العلــوي، المطبعة العلوية، مستغانم.

معراج السالكين ونهاية الواصلين، المطبعة العلويــة، مستغانم.

القول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسـم المفـرد، المطبعة العلوية، مستغانم.

البحــر المسـجور في تفسـير القـرآن بمحض النـور، المطبعة العلوية، مستغانم.

المواد الغيثية الناشـئة عن الحكم الغوثيـة، المطبعـة العلوية، مستغانم.

المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين بطريـق الصوفية، المطبعة العلوية، مستغانم.

ديوان الشيخ أحمـد بن مصـطفى العلـوي، المطبعـة العلوية، مستغانم.

الأبحـاث العلويـة في الفلسـفة الإسـلامية، المطبعـة

العلوية، مستغانم.
رسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصـوف، المطبعة العلوية، مستغانم.
بن تـونس، عـدة: الروضـة السـنية في ذكـر المـآثر العلوية، المطبعة العلوية، مستغانم.
وقاية الذاكرين من غواية الغافلين، المطبعة العلوية، مستغانم.

ثانيا ـ المراجع

إبــراهيم بســيوني، نشــأة التصــوف الإســلامي، دار المعارف، مصر.
إبــراهيم بن موســى بن محمــد اللخمي الغرنــاطي الشاطبي، الموافقـات، تحقيـق: أبـو عبيـدة مشـهور بن حســـن آل ســـلمان، دار ابن عفـــان، الطبعـــة الأولى 1417هـ/ 1997م.
ابن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، الدار الســلفية الهندية.
ابن آشنهو، عبد اللطيف، تكون التخلف في الجزائر. 1830-1962 ترجمـة نخبـة من الأساتذة ش.و.ت.الجزائر ، 1979.
ابن انبوجــة التشـيتي، مـيزاب الرحمـة الربانيـة في التربية بالطريقة التيجانية، مصر.
ابن حجـــر: لســـان المـــيزان، مكتب المطبوعـــات الاسلامية.
ابن حـزم، الإحكـام في أصـول الأحكـام، دار الآفـاق الجديدة، بيروت.
ابن عبـاد الرنـدي، غيث المـواهب العليـة في شـرح الحكم العطائيــة، دار الكتب الحديثــة، مصــر، تحقيــق الــدكتور عبــد الحليم محمــود والــدكتور محمــود بن الشريف.

ابن عبـاد النفـرى، الرسـائل الصـغرى، المطبعـة الكاثوليكية، بيروت، 1957م.
ابن عجيبـة، إيقـاظ الهمم شـرح متن الحكم، دار الكتب العلمية، بيروت.
ابن عجيبـة، معـراج التشـوف الى حقـائق اهـل التصوف، تصحيح وتعليق محمـد بن احمـد بن الهاشـمي بن عبد الرحمن التلمساني، مطبعة الاعتدال – دمشق – الطبعة الاولى سنة 1355 هـ – 1937 م.
ابن عطـاء اللـه السـكندري، لطـائف المنن، تحقيـق عبد الحليم محمود، دار المعارف، بيروت.
ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، مكتبة أبي المعاطي.
ابن منظور، لسان العرب المحيـط، قـدم لـه الشـيخ عبد الله العلايلي ،اعداد وتصنيف يوسف خيـاط، طباعـة دار لسان العرب، بيروت.
أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، دار النشر : المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
أبو الحسن الأشـعري: مقـالات الإسـلاميين، المكتبـة العصرية، بيروت.
أبو العباس أحمد بن أحمـد بن محمـد زروق، قواعـد التصوف، مكتبة الكليات الازهرية، الطبعة الثانية، طبعـة الثانية.
أبـو الفـداء إسـماعيل بن عمـر بن كثـير القرشـي الدمشقي، تفسـير القـرآن العظيم، تحقيـق: سـامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية 1420هـ - 1999 م.
أبـو الفضـل العـراقي، المغـني عن حمـل الأسـفار، تحقيق : أشرف عبد المقصـود، مكتبـة طبريـة الريـاض، 1415هـ - 1995م.
أبو الفيض أحمد بن الصديق الغماري الحسني، إحياء

المقبــور من أدلــة جــواز بنــاء المســاجد والقبــاب على القبــور، طبعــة دار النفــائس1419 -ـ 1999 الطبعــة الأولى.
أبو القاســم القشــيري، الرســالة القشــيرية، تحقيــق الدكتور عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة سنة 1974م.
أبــو القاســم ســليمان بن أحمــد الطــبراني، المعجم الأوسط، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبــد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشــر : دار الحــرمين - القاهرة، 1415.
أبو المــواهب الشــعراني، الانــوار القدســية في بيــان آداب العبودية، الطبعة الاولى – سنة 1373 هــ / 1954 م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلــبي وأولاده بمصر.
أبو بكر أحمد بن الحســين بن علي الــبيهقي، الســنن الصــغير، تحقيــق: عبــد المعطي أمين قلعجي، جامعــة الدراسات الإسلامية، كراتشي ـ باكستان، لطبعــة الأولى 1410هـ ، 1989م.
أبو بكر أحمد بن الحســين بن علي الــبيهقي، الســنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، مجلس دائرة المعارف النظاميــة الكائنــة في الهنــد ببلــدة حيــدر آبــاد، الطبعــة الأولى 1344 هـ.
أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبــد الــرزاق، تحقيــق : حــبيب الــرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية، 1403.
أبــو بكــر محمــد بن عبــد اللــه بن العــربي المعــافري الإشــبيلي المــالكي، قــانون التأويــل، تحقيــق محمــد السليماني، دار القبلة، جدة - ومؤسســة علــوم القــرآن، بيروت، الطبعة الاولى، 1406 هـ.
أبــو حامــد الغــزالي، ســر العــالمين وكشــف مــا في

الـــدارين، مكتبـــة الثقـــة الدينيـــة في النجـــف الاشـــرف، الطبعة الثانية سنة 1385 هـ – 1965.

أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، المحقـق : محمـد محـيي الـدين عبـد الحميـد، دار الفكر.

أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النـووي، المنهـاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، 1392.

أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النـووي، المنهـاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، 1392.

أبو سعيد فـرج بن قاسـم، تقـريب الأمـل البعيـد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي، معالم السنن [وهو شرح سنن أبي داود]، المطبعة العلميـة – حلب، الطبعة الأولى 1351 هـ - 1932 م.

أبو شجاع شيرويه بن شـهردار بن شـيرويه الـديلمي الهمـذاني الملقب إلكيـا، الفـردوس بمـأثور الخطـاب، تحقيق : السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406 هـ - 1986م.

أبـــو طـــالب المكي، قـــوت القلـــوب في معاملـــة المحبوب ووصف طريق المريـد إلى مقـام التوحيـد، دار صادر.

أبو طاهر المغربي التيجـاني آل أبي القاسـم، إفحـام الخصم الملد بالدفاع عن الشيخ الممد، دط، دت.

أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، ردود أهـــل العلم على الطاعنين في حديث السحر وبيان بعد محمد رشيد رضا عن السلفية، دط.ط2، ص7.

أبو عبـد اللـه محمـد بن أحمـد بن أبي بكـر بن فـرح

الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي الحاتمي الطائي، الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، دار صادر، بيروت.

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي دار الجيل، بيروت، 1412، الطبعة الأولى.

أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميد الشنقيطي، دار المعارف، بيروت – لبنان.

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، المحلى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م.

أبو يعلى الزواوي، الاسلام الصحيح، مطبعة المنار، مصر، سنة 1345هـ.

آجرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982.

إحدادن، زهير : الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر (بدون تاريخ)

أحمـد الرفـاعي الكبـير، البرهـان المؤيـد، طبعـة الآستانة، الطبعة الأولى.
أحمد الرفاعي، الحكم الرفاعية ، إعداد ياسر سعدي إبراهيم، نشر مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1990.
أحمـد بن أبي يعقـوب بن جعفـر بن وهب بن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.
أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْـرَوْجِردي الخراساني، أبو بكـر الـبيهقي، شـعب الإيمـان، تحقيـق: الـدكتور عبـد العلي عبـد الحميـد حامـد، ومختـار أحمـد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالريـاض بالتعـاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م.
أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسـائي، المجتـبى من السـنن، تحقيـق : عبـدالفتاح أبـو غـدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانيـة، 1406 – 1986.
أحمد حماني: الفتاوى ،الجزء 3،، ط 1، قصر الكتاب ،البليدة، 2001 .
أحمـد حمـاني: حيـاة وآثـار ،شـهادات ومواقـف، دار الأمة، 2001.
أحمد محمد الحافظ التيجاني، أحزاب وأوراد القطب الرباني والعارف الصـمداني، دار الحسـام، الطبعـة رقم 1.
أحميـدة بن زيطـة، الهيكـل التنظيمي والـوظيفي للزوايا بمنطقـة تـوات، الملتقى الوطـني الأول للزوايـا، الجزائر، وزارة الثقافة، مديرة الثقافة لولاية ادرار، أيام: 1، 2، 3ماي 2000م.
أرنولـد رينولـدز نيكلسـون، فى التصـوف الإسـلامى وتاريخـه، مجمـوع مقـالات ترجمهـا الـدكتور أبـو العلا عفيفى، القاهرة 1947م.

إســحاق بن إبــراهيم بن راهويــه الحنظلي، مســند إسـحاق بن راهويـه، المحقـق : د. عبـد الغفـور بن عبـد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان - المدينة المنورة، الطبعة : الأولى، 1412 – 1991.

الأشرف، مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمـة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتـاب، الجزائـر، 1983.

أم أيوب نـورة حسـن غـاوي، الـرّد الـوافي على من زعم بأنّ ابن باديس سلفيّ، د.ت.د.ط.

الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الأمير عبد القـادر الجزائـري، شـرح وتحقيـق: ممـدوح حقي، بـيروت، دار اليقظة، ط.3، 1965.

أنيســة زغــدود، جهــود جمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائـريين في مقاومـة الانحرافـات الطرقيـة، رسـالة ماجستير بإشراف: د. محمد زرمان، ص196.

بجاوي، محمد : دور الجزائريين في الحرب العالميـة الأولى، الجزائر 1987.

بسام العسلي : عبد الحميد بن باديس وبنـاء قاعـدة الثـورة الجزائريـة، ط2، دار النفـائس، بـيروت، لبنـان، 1403 هـ/1983 م.

بطاطيــا، حميــد: تســيير الاقتصــاد الجزائــري إبــان الحرب العالمية الأولى 1914-1918، الجزائر 1993.

البغـدادي: الفـرق بين الفـرق، دار الآفـاق الجديـدة، بيروت، ط 5، 1982م.

بقطاش، خديجـة: الحركـة التبشـيرية الفرنسـية في الجزائـر 1830-1871 الجزائـر، مطبعـة دحلب (بـدون تاريخ)

بكر أبو زيد، الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، دار العاصمة، الرياض.

بن نعمـان، أحمـد: فرنسـا والأطروحـة البربريـة، ط

2،دار الأمة، 1997.
بوحــوش، عمــار : التــاريخ السياســي للجزائــر من البدايــة ولغايــة 1962، دار الغــرب الإســلامي ط1، 1997.
بوصفصــاف عبــد الكــريم وآخــرون، معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسـفية، جامعـة منتـوري، قسنطينة، 2004.
بوصفصـاف عبـد الكـريم، الفكـر العـربي الحـديث والمعاصر: محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجـا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2005.
بوصفصاف عبد الكـريم، جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين وعلاقاتهـا بالحركـات الجزائريـة الأخـرى (1931-1945) منشـورات المتحـف الوطـني للمجاهـد، 1996.
تركي رابح، التعليم القـومي والشخصـية الجزائريـة، ط2، الشركة الجزائر الوطنية للنشـر التوزيـع، الجزائـر، 1981.
تركي، رابح : التعليم القـومي والشخصـية الوطنيـة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981.
تــركي، رابح، الشــيخ عبــد الحميــد بن بــاديس، ش.و.ن.ت.الجزائر، (ب.ت.).
الترمذي، السنن، تحقيـق: بشـار عـواد معـروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1998 م.
التميمي، عبـد الجليـل: بحـوث ووثـائق في التـاريخ المغربي، الجزائر تونس – ليبيا
التميمي، عبد المالك خلف، الاسـتيطان الأجنـبي في الوطن العربي، الكويت (ب.ت).
توفيــق المــدني، احمــد : كتــاب الجزائــر، م.و.ك، الجزائر 1984

الجـابري محمـد الصـالح، النشـاط العلمي والفكـري للمهـاجرين الجزائـريين بتـونس (1900-1962)، الـدار العربية للكتاب،تونس،1983.
جبور عبد النور، التصوف عند العرب، بيروت، لبنـان، سنة 1938م.
جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، دمشق: دار الفكر.
جلال الدين الرومي، قصـص المثنـوي، جمـع: محمـد المحمدي الاشتهاردي، بيروت: دار المحجة البيضاء.
جلال يحيى، السياسة الفرنسية في الجزائـر 1830-1919، القاهرة، دار المعرفة 1969.
جمـال الـدين أبـو الفـرج عبـد الـرحمن بن علي بن محمــد الجــوزي، تلــبيس إبليس، دار الفكــر للطباعــة والنشــر، بــيرزت، لبنــان، الطبعــة الأولى، 1421هــ/ 2001م.
جمـال الـدين القـادري بودشـيش، مؤسسـة الزاويـة بـالمغرب بين الأصـالة والمعاصـرة، دكتـوراه الدولـة، د/ عبد السلام الإدغيري، المملكة المغربية
جمال الدين محمد أبي المـواهب الشـاذلي، قـوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميـع الآفـاق، مكتبـة الكليات الأزهرية.
جندي، عبد الله : الاسـتيطان الفرنسـي في الجزائـر 1830-1919، القاهرة، 1969.
جودي الأخضـر بـوطمين، مسـيرة الثـورة الجزائريـة من خلال مواثيقها، دار لبعث، ط1، 1993.
جوليان، أندريه : إفريقيا الشمالية تسير - القوميــات الإسـلامية والسـيادة الفرنسـية، تعـريب المنجي سـليم وآخرون الجزائر، م.ن.ك 1976.
الجيلالي، عبد الرحمن : تاريخ الجزائر العام ج 4، ط 4 بيروت 1984 م.
الحــاج عيســى، (الــرد النفيس على الطــاعن في

العلامة ابن باديس) دط.دت.
الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1972.
حربي محمد، جبهة التحرير الوطني: الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، ط1، مؤسسةالأبحاث العربية، 1983.
الحسن بن عبد العزيز: إرشاد الراغبين لما في الطريقة العلوية من الفتح المبين، دط.
حسن حنفي: جمال الدين الأفغاني، المائوية الأولى للكتاب، القاهرة 1999.
حسنين محمد، محمد، الاستعمار الفرنسي من القرن 16 إلى عهد ديغول والجمهورية الخامسة، القاهرة، 1960.
حسين علي المنتظري، من المبدأ إلى المعاد في حوار بين طالبين، تعريب السيد حسن علي حسن، دار الفكر.
حسين مروة، النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، بيروت: دار الفارابي، الطبعة الثالثة، 1980.
حقي، إحسان : الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، بيروت 1961
الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، تحقيق عثمان اسماعيل يحيى، بحوث ودراسات معهد الآداب الشرقية، المطبعة الكاثوليكيبة، بيروت.
حلوش عبد القادر، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر 1871،1914، دار الأمة، الجزائر، 2000.
حمادي، عبد الله : الحركة الطلابية الجزائرية (1871-ـ 1962) ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995.
حمدي، أحمد: الثورة الجزائرية والإعلام، ط2

منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995.
حمزة، عبد اللطيف: الإعلام والدعاية، ط2، 1978.
حموده سعيدي، الخطاب الإيبستيمولوجي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر : حدوده وآفاقه، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الفلسفة، تخصص : إيبستيمولوجيا، إشراف : د. عبد اللّه شريط، السنة الجامعية : 2002- 2003.
حنفوق إسماعيل، الطرق الصوفية في الأوراس، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، تخصص تاريخ الأوراس، إشراف الدكتور صالح فركوس، سنة2010، الفاسي، محمد المهدي، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، طبعة المغرب 1994.
الخالدي، مصطفى وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العربية، بيروت 1973.
خرفي، صالح : الجزائر والأصالة الثورية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1977.
الخطيب، أحمد : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
الخطيب، أحمد: حزب الشعب الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
د . سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، دار ندرة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981 ص 181)
د. إبراهيم البسيوني: نشأة التصوف الإسلامي-دار المعارف-مصر-1969.
د. الشاذلي عبد اللطيف، التصوف والمجتمع نموذج القرن العاشر الهجري، مطبعة سلا ،1989، منشورة جامعة الحسن الثاني.
د. عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية،

دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1987.
د. محمد أحمد عبد القـادر، ملامح الفكـر الإسـلامي بين الاعتدال والغلو، دار المعرفة الجانبية، مصر، 2004 م.
د. محمد سـعيد رمضـان البـوطي: السـلفية مرحلـة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق.
د.محمـود قاسـم : الإمـام عبـد الحميـد بن بـاديس (الـــزعيم الـــروحي لحـــرب التحريـــر الجزائريـــة)، دار المعارف بمصر، 1968م، ص 25.
دبوز، محمـد علي : نهضـة الجزائـر الحديثـة وثورتهـا المباركة. ج2. الجزائر 1971
دبوز، محمد علي: أعلام الإصـلاح في الجزائر1921-1975، ج1، ط1،1974، قسنطينة.
الدكتور أحمد عيساوي، منارات من شـهاب البصـائر للشيخ العربي بن بلقاسم التبسي (1308 ـ 1377هـ / 1891 - 1957م)
الدكتور صالح الـرقب، والـدكتور محمـود الشـوبكي، دراسـات في التصـوف والفلسـفة الإسـلامية، الجامعـة الإسلامية- غزة، ط1، 1427هـ-2006م.
الـدكتور طـه عبـدالرحمن، العمـل الـديني وتجديـد العقـل، منشـورات المركـز الثقـافي العـربي، الطبعـة الثانية.
الـراغب الأصـفهاني، المفـردات، المطبعـة الفنيـة الحديثة بالقاهرة.
رينولد نيكلسون، الصوفية فى الإسـلام، ترجمـة نـور الدين شريبة، القاهرة، 1947.
الزبير، سيف الإسلام : تاريخ الصـحافة في الجزائـر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
الزبير، سـيف الإسـلام، سـجل تـاريخ الاسـتعمار في الجزائر، الجزائر، 1988.

الزبـيري، محمـد العـربي، تـاريخ الجزائـر المعاصـر، جزءان، دمشق، 2001.
زغيدي، محمد لحسن : مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحريـــر الوطـــني الجزائريـــة (1956-ــ 1962)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989.
زوزو عبـــد الحميـــد: الهجـــرة ودورهـــا في الحركـــة الوطنيـــة الجزائريـــة بين الحـــربين (1919-1939)، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1985.
زوزو، عبـــد الحميـــد : نصـــوص ووثـــائق في تـــاريخ الجزائر الحديث، المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب، الجزائـر 1984.
ســعد اللـــه أبـــو القاســـم، أبحـــاث وآراء في تـــاريخ الجزائر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
سعد الله أبو القاسـم، الحركـة الوطنيـة الجزائريـة(1900-1930)، ط4، دار الغـــرب الإســـلامي، بـــيروت، لبنان، 1992.
ســعد اللـــه، أبـــو القاســـم، أبحـــاث وأراء في تـــاريخ الجزائر، ج2ش.و.ن.ت، الجزائر 1981.
سعد اللـه، أبـو القاسـم، تـاريخ الجزائـر الثقـافي، 9 أجزاء، دار الغرب الإسلامي بيروت2000.
سعد الله، أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائــر الحديث، بداية الاحتلال، ش.و.ن.ت الجزائر 1982.
سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائريــة، دار الغــرب الإسلامي،ط1، بيروت،2000.
سـعيدوني، ناصـر الـدين: عصـر الأمـير عبـد القـادر الجزائري، مؤسسة البابطين، الكويت،2000.
سعيدوني، ناصر الـدين:دراسـات وأبحـاث في تـاريخ الجزائر، جزءان، الجزائر 1988 م.
ســـلمان العـــودة، حـــــوار هـــــادئ مـــــع محمـــــد الغـــــزالي، الرئاســـة العامـــة لإدارات البحـــوث العلميـــة

والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ذو القعدة 1409 هـ، ص9.
سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، دار الفكر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد.
سليمان بن يونس الخلوتي، فيض الملك الحميد وفتح القدوس المجيد، المطبعة الادبية، ط1.
السويدي محمد: مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990.
سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة.
السيد محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي واتباعه الأكابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1980.
سيف الإسلام الزبير، صفحات من الصراع الجزائري الفرنسي، المؤسسة الجزائرية للطباعة،1988.
سيف العصري، النقول الصحيحة في انقسام البدعة إلى حسنة وقبيحة، دط، دت.
الشارف لطروش، الشيخ بن مصطفى العلاوي، رائد الحركة الصوفية في القرن العشرين، جامعة مستغانم، دط.
شارل أندريه جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرين، تونس، 1976.
شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ط1، منشورات عويدات، 1983.
شريط، عبد الله، الميلي محمد، تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، الجزائر، 1985
شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، مطبعة ابن زيدون، دمشق.

شـــمس الـــدين أبـــو بكـــر محمـــد بن أبي ســـهل السرخســي، المبســوط، دراســة وتحقيــق: خليــل محي الــدين الميس، دار الفكــر للطباعــة والنشــر والتوزيــع، بيروت، لبنان، الطبعة : الأولى، 1421هـ 2000م.

شــهاب الــدين أبــو حفص بن محمــد الســهروردى، عوارف المعارف، تحقيق د/عبد الحليم محمـود، مطبعـة السعادة القاهرة 1971م.

صــابر طعيمــة، التصــوف والتفلســف - الوســائل والغايات، مكتبة مدبولي، القاهرة ، 2005.

صالح بن إبـراهيم البليهي، عقيـدة المسـلمين والـرد على الملحدين والمبتدعين، ط2، 1404هـ.

الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، مختـار القـاموس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 1877.

طـاهر بن محمـد الإسـفراييني، التبصـير في الـدين وتميـيز الفرقـة الناجيـة عن الفـرق الهـالكين، تحقيـق : كمـال يوسـف الحـوت، عـالم الكتب – بـيروت، الطبعـة الأولى، 1983.

طرشون،ناديـة، الهجـرة الجزائريـة إلى بلاد الشـام 1847-1911، جامعة دمشق، 1986.

الطيب العقـــبي، قصـــيدة إلى الـــدين الخـــالص، د.ط.د.ت.

عـــادل نـــويهض : معجم أعلام الجزائـــر من صـــدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسـة نـويهض الثقافيـة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت: 1980 م.

عباس، محمد : ثوار عظماء، مطبعة دحلب، الجزائـر 1991.

عبـد الحليم محمــود، قضــية التصــوف المنقــذ من الضـلال، طبعـة دار المعـارف، الطبعـة الثانيـة، القـاهرة سنة 1985 م.

عبد الحميـد بن هبـة اللـه بن محمـد بن الحسـين بن

أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
عبد الحميد زوزو : الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية (1937 ـ 1939)، ترجمة الحاج مسعود، ج 2، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، ط1،2005، ج 1، ص 359.
عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالماثور، تحقيق : مركز هجر للبحوث، دار هجر – مصر، [1424هـ ـ 2003م]
عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، الباعث على إنكار البدع والحوادث، دار الهدى – القاهرة، الطبعة الأولى، 1398 – 1978.
عبد الرحمن بن قاسم (جمع)، (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) ط2، المكتب الإسلامي، بيروت 1385هـ.
عبد الرحمن عبد الخالق، لأصول العلمية للدعوة السلفية، الدار السلفية، الكويت الطبعة: الثانية، 1398 هـ.
عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق: دكتور عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث.
عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، طبعة الدرر السنية.
عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980.
عبد القادري عيسى، حقائق عن التصوف، منشورات دار العرفان حلب، سوريا 2005.

عبد الله الأنصاري الهروي، كتـاب منـازل السـائرين، مكتبة الشرق الجديدة، بغداد.
عبد الله بن الصديق الحسني الغماري، الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين، مطبعـة العهـد الجديـد، الطبعة الثانية، سنة 1374 هـ - 1955 م.
عبـد اللـه بن محمـد بن الصـديق الغمـاري، اتقـان الصنعة في تحقيق معنى البدعة، عالم الكتب.
عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسـفة والفلاسـفة، ج 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1999.
عثمان بن المكي التـوزري الزبيـدي، المـرآة لإظهـار الضلالات، دار الوطن للنشر، السعودية
العجلـوني، إسـماعيل بن محمـد الجـراحي، كشـف الخفاء ومزيـل الالبـاس عمـا اشـتهر من الاحـاديث على ألسنة الناس، دار إحياء التراث العربي.
عـدي، الهـواري، الاسـتعمار الفرنسـي في الجزائـر، سياسة التفكك الاقتصادي والاجتماعي، تعـريب جوزيـف عبد الله دار الحداثة، ط1، بيروت 1983.
العربي، إسماعيل : الدراسـات العربيـة في الجزائـر عهد الاحتلال الفرنسي، الجزائر 1988.
العربي، إسـماعيل، الدراسـات العربيـة في الجزائـر عهد الاحتلال الفرنسي، الجزائر 1988.
العسـكري، ابـراهيم : لمحـات من مسـيرة الثـورة الجزائرية ودور القاعدة الشرقية، دار البعث قسنطينة، 1992.
عصمت نصار، اتجاهات فلسـفية معاصـرة، في بنيـة الثقافة الإسلامية، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيـع، القاهرة، ط 2003.
العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصـبي، الشـفا بتعريف حقـوق المصـطفى - مـذيلا بالحاشـية المسـماة مزيـل الخفـاء عن ألفـاظ الشـفاء، دار الفكـر الطباعـة

والنشر والتوزيع.
العلوي، محمد الطيب : مظاهر المقاومة الجزائرية (1830-ـ 1954)، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1994.
علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1405.
علي حرازم بن العربي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني.
علي عزوزي: زاوية آل دردور بالأوراس، الملتقى الأول حول الأمير عبد القادر وأعلام من الأوراس، مؤسسة الأمير عبد القادر، باتنة 2003.
عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم (بهامش جواهر المعاني)، الحاج مصطفى العشعاشي، السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية، تحقيق وتحرير مصطفى يلس شاوش ابن الحاج محمد، مطبعة سقال، تلمسان، الجزائر.
غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، د.ط، د.ت.
فارس خير، محمد، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق، 1969.
فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة وتحرير على سامي النشار، القاهرة 1938.
فركوس صالح : تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة،الجزائر،2005.

فضــلاء، محمــد الطــاهر: دعــائم النهضــة الوطنيــة الجزائريــة، ط1، دار البعث، قسـنطينة، الجزائــر 1968 م،.
فهـد الـرومي، منهج المدرسـة العقليـة الحديثـة في التفسير، دار الرسالة، الطبعة الرابعة، 1414 ص66.
الفــوزان، نظــرات وتعقيبــات على مــا في كتــاب السلفية لمحمـد سـعيد رمضـان من الهفـوات، الرئاسـة العامــة لإدارات البحــوث العلميــة والإفتــاء والــدعوة والإرشاد، مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دوريـة تصـدر عن الرئاسـة العامـة لإدارات البحـوث العلميـة والإفتـاء والدعوة والإرشاد – العدد26.
الفـيروز أبـادي، كتـاب سـفر السـعادة، دار العصـور للطبع والنشر، مصر.
قـداش، محفـوظ، وثـائق وشـهادات لدراسـة تـاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987.
قنان، جمـال : قضـايا ودراسـات في تـاريخ الجزائـر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1995.
قنـان، جمـال، دراسـات في المقاومـة والاسـتعمار، منشورات المتحف الوطني للمجاهد1994
قنــان، جمــال، نصــوص سياســية جزائريــة 1830-1914، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993
قنانش، محمد، الحركة الاسـتقلالية في الجزائـر بين الحــربين، الشــركة الوطنيــة للنشــر والتوزيــع، الجزائــر 1982.
الكاشـاني، معجم اصـطلاحات الصـوفية، تحقيـق د. عبد العال شاهين، دار المنار 1992م.
كاشــة بشــير الفــرحي: الشــيخ أحمــد حمــاني، دار الآفاق،الأبيار،الجزائر،2004.

كمـال الـدين القاشـاني، كمـال الـدين عبـد الـرزاق الكاشـاني، لطـائف الاعلام في إشـارات أهـل الإلهـام. صححه وعلق عليه مجيد هادي زاده. الطبعة ١. طهران.

لوثروب ستودارد، حاضر العـالم الإسـلامي، ترجمـة، تحقيق: شكيب أرسلان، دار الفكر العـربي، عبـد الحليم عـويس ، أثـر الإمـام محمـد بن عبـدالوهاب في الفكـر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر ، مصـر ، 1، دار الصـحوة ، 1305 هجري.

مالـك بن نـبي: مـذكرات شـاهد القـرن، دار الفكـر، دمشق، ط2، 1984.

المبارك بن محمد الجزري بن الاثير مجـد الـدين أبـو السـعادات، النهايـة في غـريب الحـديث، المكتبـة الإسلامية.

مجموعـة من المـؤلفين، الموسـوعة الفلسـفية العربية، معهد الانمـاء العـربي، بـيروت، المجلـد الثـاني، مادة السلفية.

المحب الطـبري، الريـاض النضـره في منـاقب العشره، تصحيح: محمـد بـدر الـدين النعسـاني الحلـبي، طبعه مصر سنه 1951.

محمد الحداد، محمد عبده: قراءة جديدة في خطاب الإصـلاح الـديني، أطروحـة دكتـوراه في السـربون تحت إشـراف محمـد أركـون ، الطبعـة الأولى ، بـيروت: دار الطليعة.

محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنـوير، مؤسسـة التـاريخ العـربي، بيروت - لبنان، الطبعة : الأولى، 1420هـ/2000م.

محمـد الطـاهر فضـلاء : دعـائم النهضـة الوطنيـة الجزائريـة، دار البعث للطباعـة والنشـر، قسـنطينة، الجزائر، دت.

محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي ؛ حياتـه العلميـة

ونضاله الوطني، دار الغرب الاسلامي، لبنان، (مجموعة الرسائل والمسائل النجدية)، ط1، مطبعة المنار، مصر 1344هـ.
محمد بدر الدين سيفي، جهود رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة القرآن الكريم تعليما- وعملا –ودعوة، دط.
محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت.
محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق : محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية، 1393 – 1973.
محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق : محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1423 هـ - 2002 م، الطبعة : الثانية.
محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، الجامع الصحيح المختصر، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط3، 1407.
محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، 1414 – 1993.
محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري

الاشبيلي المالكي ، أحكام القرآن، راجـع أصـوله وخـرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبـد القـادر عطـا، دار الكتب العلميـة، بـيروت – لبنـان، الطبعـة: الثالثـة، 1424 هــ - 2003 م.

محمــد بن عبــد اللــه الخطيب التــبريزي، مشــكاة المصابيح، تحقيق : تحقيق محمد ناصـر الـدين الألبـاني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة : الثالثة - 1405 – 1985.

محمد بن عبدالله أبـو عبداللـه الحـاكم النيسـابوري، المسـتدرك على الصـحيحين، تحقيـق : مصـطفى عبـد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1411 – 1990.

محمد بن علي بن محمـد الشـوكاني، القـول المفيـد في أدلة الاجتهاد والتقليد، دار القلم – الكـويت، الطبعـة الأولى، 1396.

محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي، الدعوة إلى اللــه في أقطــار مختلفــة، دار الطباعــة الحديثــة الــدار البيضاء.

محمــد تقي الــدين بن عبــد القــادر الهلالي، لحســام المــاحق لكــل مشــرك ومنــافق، دار الفتح - الشــارقة; 1415.

محمد حسين الذهبي التفسـير والمفسـرون، مصـر، دار الكتب الحديثة،.. ١٩٧٦.

محمـد رشـيد بن علي رضـا، تفسـير القـرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.

محمد ضياء الرحمن الأعظمي، المنة الكـبرى شـرح وتخـريج السـنن الصـغرى، مكتبـة الرشـد، السـعودية/ الرياض، 1422هـ - 2001م.

محمد عبده: رسالة التوحيد، قـدم لهـا وعـرف عنهـا

وعن مؤلفهـا الشـيخ حسـين يوسـف الغـزال، دار إحيـاء العلوم، بيروت، ط 1997.
محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيــة، دار الحداثة، ط 3 1988 م.
محمـــد عبـــده، رســـالة الـــواردات في نظريـــات المتكلمين والصـــوفية في الفلســـفة الإلهيـــة، مطبعـــة المنار، مصر، الطبعة الثانية، 1925.
محمـد علي بن محمـد بن علان بن إبـراهيم البكـري الصـديقي الشـافعي، دليـل الفـالحين لطـرق ريـاض الصـالحين، دار المعرفـة للطباعـة والنشـر والتوزيـع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، 1425 هـ - 2004 م.
محمـد عمـارة، السـلفية.. واحـدة؟.. أم سـلفيات؟ نهضة مصر، القاهرة، 2008.
محمد عوادي، إرشاد النبيل لمقالات الأستاذ الجليل، مخطوط بأرشيف المطبعة العلاوية بمستغانم.
محمد مفتاح، الخطاب الصوفي مقاربة وظيفيـة، دار الرشاد الحديثة تاريخ النشر: 1997 الطبعة: 1.
محمد ناصر الدين الألباني، صـحيح وضـعيف الجـامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.
محمود عبـد الـرؤوف القاسـم. الكشـف عن حقيقـة الصوفية لأول مرة في التـاريخ، دار الصـحابة، بـيروت – لبنان، الطبعة الأولى.
محيى الدين بن عربى، رد المتشابه الى المحكم من الآيـات القرآنيـة و الأحـاديث النبويـة، المكتبـة الأزهريـة للتراث، الطبعة الأولى، 2007.
المدني، أحمد توفيق: حياة كفاح (مع ركـاب الثـورة التحريريـــة) ج3، الشـــركة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع الجزائر 1982.
المرابــط، جــواد : التصــوف والأمــير عبــد القــادر الحسيني الجزائري، دار اليقظة العربية 1966

مــراد وهبــه، ملاك الحقيقــة المطلقــة، دار قبــاء للطباعة والنشر والتوزيع.
مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صـحيح مسـلم، تحقيـق : محمـد فـؤاد عبـد البـاقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
مفدي زكرياء، تاريخ الصـحافة العربيـة في الجزائـر. (جمع وتحقيق). أحمد حمدي. مؤسسـة مفـدي زكريـاء. الجزائر، 2003.
مناصــرية، يوســف: الاتجــاه الثــوري في الحركــة الوطنيــة الجزائريــة بين الحــربين، المؤسســة الوطنيــة للكتاب، الجزائر 1988.
مـولاي التهـامي غيتـاوي، الرائـد في ذكـر جملـة من حيـاة وفضـائل وكرامـات الشـيخ سـيدي محمـد بلقايـد، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والإتصال.
مؤيـد، صـلاح : الثـورة في الأدب الجزائـري، مكتبـة الشركة الجزائرية ومكتبة النهضة المصرية 1963.
الميلي، محمــد : مواقــف جزائريــة : المؤسســة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.
الميلي، محمــد: ابن بــاديس وعروبــة الجزائــر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980.
ناصــر بن حمــد بن حمين الفهــد، الإعلام بمخالفــات الموافقــات والإعتصــام، مكتبــة الرشــد – الريــاض، الطبعة : الأولى، 1420 هـ - 1999 م.
نايت بلقاسم، (مولود): ردود الفعل الأولية عن غرة نوفمبر، دار البعث، قسنطينة 1984.
نــور الهــدى الشــريف الكتــاني، الأدب الصــوفي في المغــرب والأنــدلس في عصــر الموحــدين، أطروحــة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، المغرب 2001.
الهجويري، كشف المحجوب، تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل، طبعة دار النهضة العربية، بيروت 1980م.

هلال عمـار: أبحـاث ودراسـات في تـاريخ الجزائـر المعاصرة(1830-1962)،ديوان المطبوعـات الجامعيـة، 1995.
هلال، عمار: الهجرة الجزائرية نحـو الشـام، (1847 – 1919) الجزائر 1980.
هلال، عمـار، نشـاط الطلبـة الجزائـريين أثنـاء ثـورة نوفمبر 1954، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1985.
يوسـف بن عبـد الـبر النمـري، جـامع بيـان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398.
يوسـف خطـار محمـد، موسـوعة الأدلـة اليوسـفية، الطبعة الثانية.1998.